# اختلاف القراءات

## وأثره في التفسير واستنباط الأحكام

أ. د. عبد الهادي بن عبد الله حميتو

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

قسم شئون مراكز التحفيظ والمسابقات
إدارة الشئون الدينية
وزارة العدل والشئون الإسلامية
الموقع الإلكتروني: www.moia.gov.bh
البريد الإلكتروني: quran@moia.gov.bh

وزارة العدل والشئون الإسلامية

مملكة البحرين

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

# اختلاف القراءات

## وأثره في التفسير واستنباط الأحكام

عبد الهادي بن عبد الله حميتو

إصدار خاص
بمسابقة البحرين الكبرى الخامسة عشرة
لحفظ القرآن الكريم وتجويده وتفسيره

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اتبع سنّته، واقتفى أثره إلى يوم الدين.

وبعد:

فقد درجت وزارة العدل والشئون الإسلامية على انتقاء كتاب أو مؤلف في مجال القرآن الكريم وعلومه لطباعته بمناسبة انعقاد مسابقة البحرين الكبرى لحفظ القرآن الكريم وتجويده وتفسيره، التي تقام برعاية كريمة من لدن حضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة، ملك مملكة البحرين المفدى أيده الله.

وقد صدر من هذه السلسلة خمسة كتب هي: كتاب «مفاهيم قرآنية في البناء والتنمية» للأستاذ عبدالكريم بكار، وكتاب «المحرر في علوم القرآن» للدكتور مساعد بن سليمان الطيار، وكتاب «تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه» للعلامة الشيخ محمد طاهر الكردي، وكتاب «إقراء القرآن الكريم.. منهجه وشروطه وأساليبه وآدابه» للشيخ دخيل بن عبدالله الدخيل، وكتاب «تعليم تدبُّر القرآن الكريم.. أساليب عمليَّة ومراحل منهجيَّة» للدكتور هاشم بن علي الأهدل.

وتزامناً مع انطلاق الدورة الخامسة عشرة من هذه المسابقة القرآنية المباركة، يسرنا أن نقدم بين يدي القرّاء الكرام كتاب «اختلاف القراءات..

وأثره في التفسير واستنباط الأحكام» للأستاذ الدكتور عبدالهادي بن عبدالله حميتو، وقد ضم هذا الكتاب النفيس في موضوعه فصولاً ومباحث في موضوع القراءات ونشأتها وجمعها وما ترتب على اختلاف من آثار في التفسير واستنباط الأحكام.

ووزارة العدل والشئون الإسلامية إذ تقدم هذا الإصدار لقرائها الأعزاء لتسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع به أهل القرآن وطلاب العلم، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم.

إنه ولي ذلك والقادر عليه.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وزارة العدل والشئون الإسلامية
مملكة البحرين
رمضان ١٤٣١م

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

# تصدير

لعل أعسر المواقف التي يقفها الطالب في طالعة حياته العلمية، هو الموقف الذي يقف فيه محاولاً تحديد الاتجاه الذي يصرف فيه طاقته وقدرته الفكرية، واختيار الموضوع الذي يراه مستجيبا لتطلعاته، ومتجاوباً مع أشواقه في الإسهام في إنتاج بلده وأمته، على أن يكون هذا الموضوع في المستوى العلمي والفكري الذي يشرّفه، ويساير اتجاهه الوجداني وانتماءه الفكري.

ولقد تهيأ لي بحول الله أن أقف هذا الموقف المتردد، ولكني وقفته وأنا أضع نصب عيني موضوعاً كنت ولا أزال كثير الاهتمام به والقراءة فيه، ذلك هو موضوع «اختلاف القراءات».

ولقد بدأ اتصالي بهذا الاهتمام وأنا في أول العقد الثاني من عمري، يوم كنت أقرأ القرآن على شيخ يقرئ بالقراءات هو شيخنا سيدي محمد بن إبراهيم شيخ القراءات بمسجد «البير الفائض» ببادية «الصويرة» ببلدنا «الكريمات» مد الله في عمره ونفع به، فكنت يومئذ أستغرب الفروق الواضحة بين قراءتي وبين قراءة الكبار من رفاقي، ولكن ذلك كان يحملني على أن أستظهر بعض ما كانوا يكتبونه في ألواحهم من «نصوص» الشاطبية ومورد الظمآن وتحفة المنافع والدرر اللوامع وغيرها مما ظل عالقاً بذهني من تلك المنظومات.

ولما هيأ الله سبحانه لي أن أصبح على مقدار من المعرفة بالعربية، تزايد ولوعي بهذه القراءات أُلاحظ الفروق المعنوية والإعرابية بينها، وما قد يترتب على اختلافها من اختلاف الأحكام المستفادة منها، ولذلك لم أتردد طويلاً

حين أتيح لي أن أضع يدي على الموضوع المفضل ليكون موضوع رسالتي في دبلوم الدراسات العليا، في أن يكون ما أقدمه في هذا الإطار، تنمية لذلك الهوى القديم الذي صحبني في رحلة العمر، ونهوضاً بقسط مما أشعر به من مسئولية في وجوب تمتين الصلة وتوثيق العرى بين حاضر هذه الأمة في هذا البلد، وبين جهود السلف الصالح من رجالها الذين كانوا مشعل هدي وعرفان في هذه الديار، فكان المغرب بفضلهم قلعةً من قلاع الإسلام وكتاباً كبيراً لاستظهار هذا القرآن والعناية بعلومه وعلمائه.

وإذا كان قد قيل :

قـد عرفنـاك بـاختيـارك ... إذ كان دليلاً على اللبيب اختياره[1]

فإني لأرجو أن أكون قد أحسنت في اخيتار الموضوع، وإن كنت لا أزعم أني استطعت أن أوفيه كل حقه من البحث، وإن بذلت قصارى الطوق وبلغت غاية المجهود، وماتوفيقي إلا بالله.

فأما الخطة التي اتبعتها فقد مزجت فيها بين المنهجين التاريخي والتحليلي، لأن طبيعة الموضوع ذات جانبين : تاريخي ودراسي تحليلي، فسلكت سبيل المنهج التاريخي في الشطر الأكثر صلة بالتاريخ ، وهو الشطر الأول من الموضوع الذي أتناول فيه اختلاف القراءات وتطوراته ونشوء مدارس القراءات وأثر المصاحف الأئمة في الأمصار ونحو ذلك».

وأما الشطر الثاني والأهم وهو أثر القراءات في التفسير واستنباط الأحكام فقد استفدت في معالجته من المنهج التحليلي، وخصوصاً في دراسة أسباب اختلاف القراءات ومظاهر اختلاف القراءات وقيمتها البيانية في التفسير وكذا في أثر اختلاف القراءات في الاستنباط الفقهي.

---

١- البيت لابن شهيد في أول رسالته المشهورة باسم « التوابع والزوابع».

ولقد قسمت الموضوع إلى ستة أبواب يشتمل كل باب منها على ثلاثة فصول أو أكثر أو أقل، حسب اتساع مادة البحث فيه.

ولقد عنيت برد كل قول نقلته إلى مصدره ونسبته إلى قائله، مع الزيادة في توثيقه بالإشارة إلى الكتاب والجزء والصفحة وأرجأت الإشارة إلى طبعة الكتاب وتحقيقه ومكان الطبع وتاريخه إلى الفهرس.

وترجمت في الهوامش للأعلام الذين ورد ذكرهم في أثناء البحث بقدر الإمكان تراجم قصيرة مع الإشارة في الشخصيات المهمة إلى مكان الترجمة الموسعة ، واكتفيت بشهرة بعض الأعلام ومنهم الخلفاء الراشدون ، فلم أر داعياً للإطالة بتراجمهم ، وأشرت في الهوامش إلى أرقام الآيات في سورها.

وحرصت في المصادر التي اعتمدتها ، أن أبرز الجانب المغربي ، فنقولي في أكثرها تعطي الصدراة للمصدر المغربي والأندلسي ، إبرازاً لجهود بلدنا في علوم القرآن، وتنويهاً بالمستوى الرفيع الذي بلغه سلفنا في هذا المضمار.

وزودت آخر الكتاب بثلاثة فهارس: واحد للموضوعات، وثان للتراجم الواردة فيه، وثالثٌ للمصادر والمراجع.

وإني لأرجو أن أكون قد وفقت في بحث جوانب جديدة جديرة بالبحث في هذا الموضوع الثري، ومنها «أسباب اختلاف القراءات» و«مظاهر اختلاف القراءات وصلتها بالتفسير» و«أثر اختلاف القراء في اختلاف الفقهاء في استنباط الأحكام، مع الدراسة المقارنة بين مناهج الأئمة في الاستدلال بالقراءات على الأحكام». فعالجت ذلك معالجة متأنية حشدت لها كل طاقتي ، فإن حالفني في ذلك شيء من التوفيق فذلك بفضل الله ، وأن أقع دون الغاية، فقد بذلت ما في الطوق.

والله أسأل أن يجعل خلوص نيتي في البحث، كفيلاً ببلوغ الهدف في اتساع النفع به، إنه ولي التوفيق.

# الباب الأول

# القرآن واختلاف القراءات في عهد الوحي

## ويشتمل على مايلي:

- تمهيد.
- الفصل الأول:
  نشأة القراءات وظهور الخلاف بين القراء.
- الفصل الثاني:
  وقائع الاختلاف في القراءة في زمن الوحي، وأساس الرخصة فيه.
- الفصل الثالث:
  أسباب اختلاف القراء في القراءات.

# تمهيد

قبل الشروع في بحث اختلاف القراءات وأسباب الخلاف وتطوراته وآثاره، أرى من المفيد أن نحدد بعض الفروق الاصطلاحية بين مفاهيم كلمات «قرآن» و«قراءة» و«اختلاف قراءة» وهي من الكلمات التي عليها المدار في هذا البحث، فوجب تحديد معانيها:

## ١- القرآن:

للفظ قرآن في الاستعمال إطلاقان: إطلاق بالمعنى الاسمي، وإطلاق بالمعنى المصدري، فبالمعنى المصدري، يكون بمعنى القراءة، ومنه قوله تعالى: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾.[١]

وبالمعنى الاسمي يطلق، ويراد به «كتاب الله تعالى، المنزل على محمد ﷺ، للبيان والإعجاز».[٢]

وقد اختلف في لفظه أهو في أصله مهموز، فيكون مشتقاً من «قرأ»، أم هو غير مهموز، فيكون من «قرن»؟ في ذلك مذهبان.[٣]

وأما في كتاب الله، فقد تواترت القراءة بلفظه مهموزاً، وهو الأكثر، وتواترت به غير مهموز.[٤]

---

١- سورة القيامة الايتان رقم ١٧- ١٨.

٢- تعريف الإمام الزركشي في البرهان في علوم القرآن جـ ١ ص ٢١٩.

٣- انظر الاقوال في ذلك في الاتقان للسيوطي جـ ١ ص ١٤٦-١٤٧ النوع السابع عشر في معرفة اسمائه.

٤- قرأ بالهمز القراء السبعة في جميع القرآن، باستثناء عبد الله بن كثير وابي عمرو في رواية عنه، جاء في لسان العرب مجلد ٣ ص ٤٢ نقلاً عن ابن مجاهد قال: كان أبو عمرو بن العلاء لا يهمز «القرآن» وكان يقرأ «القرآن» بغير الهمز كما روى عن ابن كثير.

فإذا قطعنا النظر عن كونه مشتقاً أو مرتجلاً، وجدنا أنه قد أصبح علماً بالغلبة، وغدا مقصوراً على الكتاب المنزل على محمد ﷺ، فصار له كالعلم، كما أن التوراة إسم لما أنزل على موسى، والإنجيل لما أنزل على عيسى عليهما السلام»[1].

وبهذا يتميز في إطلاقه عن المعنى المستفاد من لفظ القراءة.

## ٢- القراءة:

للفظ «قراءة» أيضاً إطلاقان: لغوي واصطلاحي:

فالقراءة بالمعنى اللغوي «عبارة عن أصوات القراء ونغماتهم»[٢].

وبالمعنى الاصطلاحي: «اختلاف ألفاظ الوحي، في كتابة الحروف، أو كيفيتها، من تخفيف أو تثقيل أو غير ذلك»[٣].

أو بمعنى آخر أدق: «علم بكيفية آداء كلمات القرآن واختلافها، معزوا لناقله»[٤].

## ٣- مفهوم الاختلاف:

والمراد بالاختلاف حينما يقال بوجوده بين القراءات، ما هو واقع بينها من وجوه التغاير والتنوع المختلفة، إذ ينبغي أن يفرق ههنا بين نوعين من الاختلاف، أحدهما منفي عن القرآن بالمرة ولا مجال لوقوعه فيه، وآخر واقع بين القراءات، بل هو جوهرها ومادتها.

قال العلامة ابن قتيبة[٥]:

---

١- معجم مفردات القرآن للعلامة الراغب الاصفهاني ص ٤١٤ مادة « قرأ» عمود ١.

٢- تعريف الإمام القرطبي في تفسيره الجامع لاحكام القرآن جـ ١ ص ٢.

٣- تعريف الزركشي في البرهان جـ ١ ص ٣١٩.

٤- تعريف ابن الجزري في كتابه « منجد المقرئين ومرشد الطالبين» ص ٣.

٥- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة قاضي الدينور ، فثبت عليه النسبة إليها. علامة مشارك في فنون جمة من العلم ، من مؤلفاته التي وصلتنا «الشعر والشعراء» و «تاويل مشكل القرآن» و «كتاب المعارف» توفي سنة ٢٧٦ ترجمته في مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص ١٣٦ وفهرست ابن النديم ص ١٢١ ووفيات الاعيان جـ ٣ ص ٤٢ ترجمة رقم ٣٢٨. وطبقات المفسرين للداودي جـ١ ص ٢٤٥ ترجمة رقم ٢٣٤.

الاختلاف نوعان: اختلاف تغاير، واختلاف تضاد، فاختلاف التضاد لايجوز، ولست واجده بحمد الله في القرآن، إلا في الأمر والنهي من الناسخ والمنسوخ، واختلاف التغاير جائز، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وادكر بعد أُمَّةٍ﴾[1] أي: بعد حين، وبعد أَمَـهٍ أي: بعد نسيان[2]، والمعنيان جميعاً، وإن اختلفا صحيحان[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية[4]:

لفظ الاختلاف الذي ينفيه القرآن، يراد به التضاد والتعارض، لا يراد به مجرد عدم التماثل، كما هو اصطلاح كثير من النظار، ومنه قوله تعالى: ﴿إنكم لفي قول مختلف يوفك عنه من أفك﴾ [5] وقوله: ﴿ولكن اختلفوا، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر﴾[6]، وقوله: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً﴾[7] [8].

فالاختلاف بين القراءات يعني تعدد الوجوه التي تُقرأ بها، وهو تعدد يتنوع فيه الأداء، ويتسع به مدلول الألفاظ، دون أن ينشأ عنه بأي وجه من الوجوه ما يقتضي تدافعاً أو تضاداً، وهذا إنما يقال له اختلاف من باب اشتراك الأسماء فقط، ولا ريب «أن الألفاظ إذا اختلفت، وكان مرجعها إلى أمر واحد لم يوجب

---

١-آية ٤٥ من سورة يوسف (وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة: أنا انبئكم بتاويله فأرسلون).

٢- هي قراءة الحسن البصري كما ذكر الدمياطي في اتحاف فضلاء البشر ص ٣١٧.

٣- تاويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٣١-٣٢.

٤- ابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي توفي سنة ٧٢٨ وترجمته في شذرات الذهب لأبن العماد جـ ٦ ص ٨٠ والبدر الطالع للشوكاني جـ ١ ص ٦٣ طبقات المفسرين للداودي جـ١ ص ٤٥ والاعلام للزركلي جـ ١ ص ١٤٠.

٥- الآية رقم ٨-٩ من سورة الذاريات.

٦- انظر الآية رقم ٢٥٣ من سورة البقرة.

٧- انظر الآية ٨٢ من سورة النساء.

٨- رسالة الفرقان وهي الرسالة رقم ١ من «» مجموعة رسائل ابن تيمية مجلد ١ ص ١٤-١٥.

ذلك اختلافاً»[١]. كما يقول ابن سُرَيْج[٢].

فاختلاف القراءات اختلاف تنوع، مرجعه إلى أن كل قارئ قرأ بما تلقاه من رسول الله ﷺ أو بما بلغه من قراءته، وفائدته العظمى تيسير القرآن للذكر، كما قال تعالى:﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدَّكر﴾ [٣] ومن هنا كان كل وجه يقرأ به من القراءات الثابتة بالنسبة إلى غيره من الوجوه الأخرى، حقاً وصواباً، ومن هنا فارق اختلافُ القراء في القراءات، اختلافَ الفقهاء في الفروع والأحكام.

قال الحافظ ابن الجزري[٤]:

«اختلاف القراء حق وصواب نزل من عند الله، وهو كلامه لاشك فيه، واختلاف الفقهاء اختلاف اجتهادي، والحق في نفس الأمر فيه واحد، فكل مذهب بالنسبة إلى الآخر صواب يحتمل الخطأ[٥]، وكل قراءة بالنسبة إلى الأخرى حق

١- نقله الزركشي في البرهان جـ ٢ ص ٤٦.

٢- ابن سريج أبو العباس احمد بن عمر بن سريج الفقيه الشافعي المتكلم النظار توفي سنة ٣٠٦. ترجمته في طبقات الشافعية لابن السبكي جـ٢ ص ٨٧ وطبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٠٩ والفهرست ص ٣١٢.

٣- تكررت هذه الآية مرات عددها ٤ في سورة القمر. اية ١٧-٢٢-٣٢-٤٠

٤- ابن الجزري محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري الدمشقي المقرئ الكبير وصاحب النشر في القراءات العشر وغيره توفي سنة ٨٣٣، له ترجمة وافية في كتابه غاية النهاية جـ ٢ ص ٢٤٧. ترجمة رقم ٣٤٣٣.

٥- قال الحافظ ابن عبد البر في كتابه «جامع بيان العلم وفضله» جـ ٢ ص ٩٩: «مذهب القاسم بن محمد وغيره، أن اختلاف العلماء توسعة ورحمة للامة ،وأما مالك والشافعي ومن سلك سبيلهما من اصحابهما، وهوقول الليث بن سعد والاوزاعي والثوري وجماعة من أهل النظر — أن الاختلاف إذا تدافع، فهوخطا وصواب، والواجب عند اختلاف العلماء طلب الدليل من الكتاب والسنة والإجماع والقياس على الاصول منها، وذلك لا يعدم، فإن استوت الادلة وجب الميل مع الاشبه بما ذكرنا بالكتاب والسنة، فإن لم نتبين ذلك، وجب التوقف ، ولم يجز القطع إلا بيقين، فإن اضطر إلى استعمال ذلك في خاصة نفسه، جاز له ما يجوز للعامي من التقليد». وذهب ابن العربي في احكام القرآن جـ ٢ ص ١٢٥٨ الى أن اختلاف العلماء كله صواب ، وافاض في شرح ذلك، واستدل باختلاف داود وسليمان في الحكم في «مسالة الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم» كما في سورة الأنبياء، وقال تعالى مثنيا على كل منهما: (ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما وعلما).

وصواب في نفس الأمر، نقطع ذلك، ونؤمن به، ونعتقد أن معنى إضافة كل حرف من حروف الاختلاف[1]، إلى من قرأ به من الصحابة وغيرهم، إنما هو من حيث إنه كان أضبط له، أو أكثر قراءة أو إقراء به وملازمة له وميلاً إليه، لا غير ذلك»[2].

ولما كان اختلاف القراء في القراءات في أساسه حقاً وصواباً، وكان ما يدور عليه هذا الاختلاف منزلاً من عند الله، نهى رسول الله ﷺ عن المماراة فيه كما سيأتي في أحاديث «السبعة الأحرف»، لما قد تؤدي إليه من دفع الحق وإنكار الصواب، مغالبة للخصم، ولذا كان العلماء بهذا الشأن يحذورن من مغبة الجهل بمسائل الخلاف، حتى قالوا بحق: «من لم يسمع الاختلاف فلا تعدوه عالماً»[3]، وقالوا «من لم يعرف اختلاف الفقهاء، فليس بفقيه، ومن لم يعرف اختلاف القراء، فليس بقارئ»[4].

وقد كسرنا هذا البحث على بيان أسرار هذا الاختلاف وأسبابه وتطوراته، وما كان له من انعكاسات في مجالي التفسير واستنباط الأحكام، مبتدئين في ذلك بالنظر في نشوء القراءات في زمن الوحي، مستعينين بالله.

---

١- الحروف هي: الكلمات التي تقرأعلى أكثر من وجه . انظر سراج القارئ على الشاطبية ص ١٤.
٢- النشر في القراءات العشر جـ ١ ص ٥١-٥٢.
٣- هذا القول لقتادة نقله ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله جـ ٢ ص ٥٧.
٤- نسبه ابن عبد البر في نفس الكتاب والصفحة إلى هشام بن عبد الله الرازي.

# الفصل الأول

## نشأة القراءات وظهور الخلاف بين القراء

في خلال ثلاثة وعشرين عاماً، هي المدة التي قضاها الرسول ﷺ ، بعد البعثة في تبليغ رسالة ربه[1]، اكتمل نزول القرآن الكريم، وكان تنزيله نجماً بعد نجم، بحسب ما يجد من الوقائع والأحداث، مراعى فيه أن تتنزل أحكامه وتشريعاته على واقع الأحوال ومجريات الحياة اليومية، حتى لا تنوء الهمم بأعباء القيام بجملة التكاليف والآداب الشرعية لو أنها خوطبت بها دفعة واحدة، وكان في ذلك أيضاً من التيسير على الأمة في تلقي كتاب الله آية آية ، وسورة سورة، وجزءاً جزءاً، ما لا يخفى من الحكمة والتربية المتأنية ، إلى ما في ذلك أيضاً من تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ، بتواتر الوحي وعدم انقطاع صلته بربه عن طريقه[2].

وقد تأتّى لصحابة رسول الله أن يستظهروه شيئاً بعد شيء، كل حسب إمكانيته وطاقته، لاسيما وأن ذلك في المرحلة المكية من الدعوة لم يكن بالأمر الهيّن، إذ لم يكن الاتصال يومئذ برسول الله ﷺ متيسراً في كل وقت، كما أن التواصل بين المسلمين في هذا العهد لم يكن أمراً سهلاً، يضاف إلى ذلك أن أكثر القرشيين الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم لم يكونوا أهل قراءة وكتابة ، لشيوع الأمية في الجزيرة العربية يومئذ، واعتماد الكافة بالسليقة، على الحافظة والذاكرة، دون الكتابة والتدوين.

---

١- درجنا على المشهور من مقام النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة ، وفي المدينة عشرا. انظر حديث ابن عباس في ذلك وقوله نزل القرآن في عشرين سنة، في المستدرك لأبي عبد الله الحاكم جـ ٢ ص ٢٢٢ وقارن بما في المصنف الكبير للحافظ عبد الرزاق جـ ٣ ص ٥٩٨ وفضائل القرآن لابن كثير ص ٤٣٠.

٢- في سورة الفرقان اية ٣٢ بيان لهذا المعنى.

كان القرآن سلاح الدعوة قبل كل سلاح، وكان عليه السلام مدعواً إلى ما خاطبه به الله تعالى في قوله: ﴿فلا تطع الكافرين، وجاهدهم به جهادا كبيراً﴾ [1].

ومن ثم كان عليه السلام يكتفي في المرحلة المكية بإبلاغ ما ينزل عليه من الوحي، إلى كل من يأنس منه استماعاً، أو يرجو منه استجابة، وكثير يومئذ ممن أسلم، كان إسلامه بعد أن استمع إلى شيء من القرآن، كما وقع مثلاً لعمر بن الخطاب [2].

وقد كان عليه السلام إلى جانب ذلك يعلّم أصحابه مايجدّ من التنزيل، ويتدرج بهم في ذلك غاية التدرج، قال أبو عبد الرحمن السلمي [3]:

«حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن- كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما- أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات، لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا العلم والعمل جميعاً» [4].

وكان عليه السلام كما كان أصحابه من السابقين الأولين يقومون بنشر القرآن في الأوساط المكية، حتى كان ذلك يقض مضاجع المشركين، «فكان رسول الله ﷺ إذا جهر بالقرآن، وهو يصلي، تفرقوا عنه، وأبوا أن يستمعوا منه، وكان الرجل إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو، وهو يصلي يسترق السمع دونهم، فرقاً منهم» [5].

---

١- آية ٥٢ من سورة الفرقان.

٢- انظر قصة إسلامه في سيرة ابن إسحاق جـ ٢ ص ١٦٠ نشر معهد الدراسات والابحاث للتعريب.

٣- عبد الله بن حبيب السلمي ، ستأتي ترجمته.

٤- اللفظ لابن تيمية في مقدمته في اصول التفسير ص٥ وانظر طبقات ابن سعد جـ٦/١٧٢- وجامع البيان للطبري جـ ١/٣٥ وتفسير القرطبي جـ ١/٣٤

٥- سيرة ابن إسحاق جـ ٤ ص ١٨٦ من المجلد الذي جمع من سيرته ونشره معهد الدراسات والابحاث للتعريب بالرباط بتحقيق الاستاذ محمد حميد الله . ١٣٩٦-١٩٧٦ .

وفي هذه الأثناء كان بعض السابقين الأولين من الصحابة يعلّمون الراغبين في الإسلام، مامعهم من القرآن ، بل بلغ الأمر ببعضهم أنه أراد إسماع صوت القرآن عالياً في مكة ، ولم يرض بالاكتفاء بالقراءة والإقراء سراً، وقد ذكر ابن إسحاق[١] في سيرته «أن أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ، عبد الله بن مسعود[٢]، اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: والله ماسمعت قريش بهذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل يسمعهم؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا . فذكر أنه قرأ عليهم عند المقام وقريش في أنديتها سورة الرحمن ، فجعل يقرأ، وهم يضربون وجهه، حتى بلغ منها ماشاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه»[٣].

ومن الذين أسهموا بقسط كبير في نشر القرآن في هذه الحقبة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقد ذكر ابن إسحاق بسنده عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان لأبي بكر مسجد بفناء داره ، فكان إذا صلى فيه وقرأ القرآن، بكى بكاءً شديداً، فيجتمع إليه النساء والصبيان والعبيد، يعجبون مما يرون من رقته»[٤].

وكان جماعة مُهِمة من الصحابة قد أخذوا عن النبي عليه السلام قدراً كبيراً من القرآن في العهد المكي، منهم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وابن مسعود

---

١- محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي مولاهم صاحب السيرة المسماة « كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي» التي هذبها ابن هشام ، توفي ابن إسحاق ببغداد سنة ١٥١ على المشهور . انظر ترجمته في تاريخ بغداد جـ ١ ص ٢١٤ ترجمة ٥١ الفهرست ص ١٤٢ وفيات الاعيان جـ ٤ ص ٢٧٦ رقم ٦١٢.

٢- عبد الله بن مسعود الهذلي ستأتي ترجمته في مدارس القراءات.

٣- سيرة ابن إسحاق جـ ٢ ص ١٦٦ من المجموع الذي نشره معهد الدراسات.

٤- نفس المصدر ص ٢١٨.

ومصعب بن عمير[١]، وابن أم مكتوم[٢] وخباب[٣].

وقد أخذ جماعة منهم ينتدب للتعليم والإقراء، ولاسيما بعد أن أخذ الإسلام يفشو خبره، ويقبل الناس على سماع القرآن من خارج مكة. وينبغي أن نشير إلى أن أول داعية انتدب لهذه الغاية هو مصعب بن عمير المذكور، فقد أخرج الحافظ أبو نعيم[٤] بسنده عن ابن شهاب الزهري[٥] «أن النبي ﷺ بعث إلى الأنصار مصعب بن عمير أخا بني عبد الدار، فنزل ببني غنم، على أسعد بن زرارة[٦]، يحدثهم ويقص عليهم القرآن، فلم يزل يدعو، ويهدي الله على يديه، حتى قل دار من دور الأنصار، إلا أسلم فيها ناس، ورجع مصعب إلى رسول الله ﷺ، وكان يُدعى المقرئ»[٧].

---

١- مصعب بن عمير الهاشمي القرشي من أول المقرئين للقرآن، وهو أول من سمي بالمقرئ، كان حامل لواء بني هاشم من المسلمين يوم أحد فقاتل حتى استشهد رضي الله عنه، انظر ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٤٤٨ بهامش الإصابة، والإصابة جـ ٤٠١/٣.

٢- عبد الله بن أم مكتوم القرشي العامري الأعمى، كان عليه السلام يستخلفه على المدينة إذا غاب عنها، استشهد بالقادسية في عهد عمر. انظر ترجمته في الاستيعاب جـ ٢ ص ٢٥١ ومرآة الجنان جـ ٧١/١.

٣- أبو عبد الله خباب بن الارت حليف بني زهرة القرشيين، من السابقين الأولين واوائل المقرئين، وهو الذي وجده عمر في بيت اخته فاطمة بنت الخطاب يقرأ عليها وعلى زوجها سعيد بن زيد سورة طه، فكان ذلك سبب إسلامه، نزل خباب الكوفة في عهد الراشدين وبها توفي سنة ٣٧ انظر طبقات بن سعد جـ ٦ ص ١٤ – والمستدرك للحاكم جـ ٣ ص ٣٨١- والاستيعاب جـ ١ ص ٤٢٣.

٤- أبو نعيم احمد بن عبدالله بن احمد الاصبهاني الصوفي الحافظ، ولد باصبهان سنة ٣٣٦ ونشأ بها، ثم رحل إلى بغداد فسمع بها من جماعة وتنقل في العراق والحجاز وغيرهما وتوفي سنة ٤٣٠ ترجمته في غاية النهاية لابن الجزري جـ ١ ص ٧١ وطبقات الشافعية لابن السبكي جـ ٤ ص ٨-١-٢٥ ترجمة ٢٥٣ شذرات الذهب لابن العماد جـ ٤ ص ٤٢, ٢٤٥

٥- محمد بن مسلم الزهري، ستأتي ترجمته.٤٣

٦- أسعد بن زرارة بن عدس الخزرجي الانصاري أول المبايعين ليلة العقبة، مات قبل بدر. انظر الاصابة لابن حجر جـ ١ ص ٤٤, ٥٠

٧- حلية الاولياء لأبي نعيم جـ ١ ص ١٠٧٤٥

وأخرج الإمام البخاري[1] في صحيحه بسنده عن البراء بن عازب[2] رضي الله عنه قال:

«أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ، مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلا يعلماننا القرآن»[3].

لقد كانت بعثة مصعب وابن أم مكتوم إلى المدينة المنورة، طالعة «مدارس القراءات»، بل أعطيت لها هذه الصيغة بالفعل، منذ هذا الوقت، فأطلق على الدار التي كانا بها «دار القراء»[4] وأطلق على مصعب اسم «المقرئ» وهو أول من سمي به»[5].

وفي هذه المدرسة تلقى الرعيل الأول من حفاظ الأنصار أول ماتلقوه من آيات القرآن وسوره ، قبل مهاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، ولم تتم الهجرة حتى شاع الحفظ ، ودخل القرآن غير بيت من بيوت الأنصار ، وفي حديث زيد بن ثابت[6] رضي الله عنه قال:

---

١- أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري صاحب الصحيح توفي سنة ٢٥٦ ترجمته في تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٤ ترجمة ٤٢٤ وطبقات الشافعية لابن السبكي جـ ١ ص ١٩ وفي الفهرست ص ٣٣٥ ووفيات الاعيان لابن خلكان جـ ٤ ص ١٨٨ ترجمة ٥٦٩ وطبقات الداودي جـ ١ ص ١٠٠-١٠٤ ترجمة ٤٦٣..

٢- البراء بن عازب بن الحارث الانصاري الاوسي من حفاظ الصحابة ، نزل الكوفة ومات بها سنة ٧٢ . ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٦ ص١٧ وتاريخ بغداد جـ ١ ص١٧٧ ترجمة ١٦ والاصابة ١/٤٧, ١٤٦

٣- صحيح الإمام البخاري بشرح ابن حجر جـ ١٠ ص ٤٨, ٢٢٨

٤- قال ابن عبد البر في الاستيعاب جـ٢ ص ٤٩٤ هي دار كانت لمخرمة بن نوفل، تدعى «دار القراء»، وبها نزل ابن أم مكتوم .وانظر أيضاً الخطط الكبرى للمقريزي جـ ٢ ص ٤٩, ٣٦٢

٥- ذكر ابن الجزري في غاية النهاية جـ ٢ ص ٢٩٩ ترجمة رقم ٣٦١١ عن الحافظ مغلطاي أن مصعباً أول من سمي المقرئ.٥٠

٦- زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري ستأتي ترجمته٥١.

«قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وقد حفظت سبع عشرة سورة فقرأت عليه، فأعجبه ذلك»[1].

ثم كانت الهجرة العامة إلى المدينة، وهي حدث يشكّل تحولاً جذرياً في الحياة الإسلامية، فبعد أن كانت الدعوة حبيسة ، خرجت إلى الأفق ، وبعد أن كان سماع القرآن مقصوراً على الفرص التي كانت تتاح من حين لآخر ، أصبح منذ بداية العهد المدني يرافق الحياة اليومية لعامة المسلمين ، وقد ساهم في ازدهار قراءة القرآن وشيوع حفظه بين الأنصار حدثان من الأهمية بمكان:

١- **تأسيس المسجد النبوي**، واتخاذه مركزاً للتعليم ، فقد غدا منذ إنشائه بعد الهجرة بقليل مدرسة يومية مفتوحة باستمرار، لتلقّي القرآن الكريم من رسول الله ﷺ وصحابته ، آناء الليل وأطراف النهار ، في الصلوات والمجالس والخطب والمواعظ.

٢- **عقد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار**، هذا الحدث الذي كان إلى جانب حله لمشكلة إيواء المهاجرين[2] ، أحد العوامل البارزة في تغلغل القرآن بشكل واسع في بيوت الأنصار، إذ لم يمض غير يسير، حتى أصبحت البيوت تعج بالحفاظ والقراء، مشايخ وشباباً، على الرغم مما كانت الوقائع في نصرة الإسلام تأخذ من صفوتهم ، كما حدث في واقعة «بئر معونة»[3] إذ استشهد فيها سبعون من قراء الأنصار[4].

---

١- المستدرك على الصحيحين للحاكم جـ ٣ ص ٤٣١ وانظر تذكرة الحفاظ للذهبي جـ ١ ص ٣١,٥٢

٢- انظر قيمة هذا الحدث في الروض الانف لأبي القاسم السهيلي جـ ٢ ص ١٨,٥٣

٣- كانت هذه الموقعة في شهر صفر من السنة الرابعة كما في مرآة الجنان لليافعي جـ ١ ص ٩ وقد ذكر أبونعيم في الحلية جـ ١ ص ١٢٣ أن رعلا وذكوان وعصية طلبوهم من النبي ﷺ ، ليعلموهم ، فغدروا بهم في الطريق».٥٤

٤- ذكر ابن إسحاق انهم أربعون انظر تهذيب سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٨٣، وصحح السهيلي في الروض جـ ٢ ص ١٧٤ انهم سبعون ، وهو الثابت في صحيح البخاري جـ ١٠ ص ٤٢٢ بشرح ابن حجر ، ومصنف عبد الرزاق جـ ٦ ص ٣٨٤ والحلية جـ ١ ص ١٢٣ وعيون الاثر جـ٢ ص ٤٦,٥٥

وقد أصبح القراء الذين تلقوا القرآن في أول الدعوة يقومون في المدينة بواجب إقراء الداخلين في الإسلام، من الأنصار وغيرهم، وقد التفّ على بعض الحفاظ عدد كبير من المتعلمين، وفي حلية أبي نعيم عن أنس بن مالك(١) رضي الله عنه «أنه ذكر سبعين رجلاً ، كانوا إذا جنّهم الليل، أووا إلى معلم لهم بالمدينة، يبيتون يدرسون القرآن»(٢).

ثم لم يلبث أن نشأ في المسجد النبوي وما حوله، نوع من التفرغ التام لهذا الغرض، لا سيما بين المهاجرين، بعد أن كفل لهم الأنصار السكن والمؤونة الضروريين(٣).

وانضوت إلى المسجد أفواج من المهاجرين بعد ذلك، لا سيما الذين لم تكن لهم منازل ولم يدخلوا فيما عقد من المؤاخاة ، فكان مقامهم بالصفة، وهي سقيفة أمام المسجد النبوي.

قال القاضي أبوبكر بن العربي(٤):

«كانوا قوماً من المهاجرين لم يكن لهم بالمدينة مساكن ولا عشائر، فنزلوا صفة المسجد، وكانوا أربعمائة رجل، يلتمسون الرزق بالنهار، ويأوون إلى الصفة بالليل»(٥).

١- أنس بن مالك بن النضر أبو حمزة الانصاري خادم رسول الله ﷺ مات بالبصرة سنة ٩٢. ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ١٧-٢٦ والاستيعاب جـ ١ ص ٤٤- والاصابة جـ١ ص ٥٦ , ٨٤

٢- حلية الاولياء جـ١ ص ٥٧ , ١٢٣

٣- في تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٦٠٧ «» أن الأنصار قالوا للمهاجرين : «اموالنا بيننا قطائع ، فقال رسول الله ﷺ » هم قوم لا يعرفون العمل ، فتكفونهم ، وتقاسمونهم الثمر. فقالوا نعم يارسول الله»

٤- القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن احمد العربي المعافري الاشبيلي الاندلسي صاحب «احكام القرآن»و «قانون التاويل» و «القبس» وغير ذلك، توفي في الطريق إلى مدينة فاس ودفن بها سنة ٥٤٣. ترجمته في الصلة لابن بشكوال جـ٢ ص ٥٥٨ ترجمة ١٢٩٧- وتاريخ قضاة الاندلس للنباهي ص ١٠٥ والديباج المذهب لابن فرحون ص ٢٥٤.

٥- احكام القرآن لابن العربي القسم ٣ ص ١٣١٧.

وكان عليه السلام يتولى تعليمهم القرآن بنفسه، وأحياناً يسند هذه المهمة إلى غيره. وفي حديث أبي طلحة[١] رضي الله عنه «أنه أقبل يوماً، فإذا النبي ﷺ قائم، يقرئ أصحاب الصفة»[٢].

وفي حديث عبادة بن الصامت[٣] قال:

«كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن، وكان يسمع للمسجد ضجة، حتى أمرهم النبي ﷺ أن يخفضوا أصواتهم ،لئلا يتغالطوا»[٤]

وفي حديث أبي سعيد الخدري[٥] رضي الله عنه:

«أتى علينا رسول الله ﷺ ، ونحن أناس من ضعفاء المهاجرين، ورجل يقرأ علينا القرآن ، ويدعو لنا...»[٦]

وفي حلية أبي نعيم قائمة طويلة بأسماء أهل الصفة، ولولا ضيق المقام، لذكرنا أسماء جماعة منهم كان لهم المقام المحمود في علوم القرآن، لاسيما القراءات[٧].

---

١- أبو طلحة زيد بن سهل النجاري الانصاري أحد فرسان الأنصار ، كان يلحد الأموات، وهو الذي تولى اللحد للنبي صلى الله عليه وسلم، غزا في البحر في عهد عثمان ومات ودفن في جزيرة . انظر طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٥٠٤ والاستيعاب جـ١ ص ٢٥٠.

٢- حلية الاولياء جـ١ ص ٣٤٢.

٣- عبادة بن الصامت بن قيس الخزرجي الانصاري أحد النقباء ليلة العقبة وجّهه عمر إلى الشام قاضيا ومعلما ، وتوفي سنة ٣٤ انظر طبقات ابن سعد جـ٧ ص ٣٨٧ والاستيعاب جـ ٢ ص ٤٤١ المستدرك جـ٣ ص ٣٥٤-٣٥٧.

٤- ذكره محمد بن عبد العظيم الزرقاني في مناهل العرفان جـ ١ ص ٢٣٤.

٥- أبو سعيد الخدري سعد بن مالك بن سنان الخزرجي الانصاري أحد المكثرين من الرواية عن رسول الله ﷺ توفي سنة ٧٤. ترجمته في تاريخ بغداد جـ ١ ص ١٨٠ رقم ١٩. و المستدرك جـ ٣ ص ٥٦٣ والاستيعاب جـ ٢ ص ٤٤ ومرآة الجنان لليافعي جـ ١ ص ١٥٥ .

٦- سنن أبي داود جـ ٢ ص ٢٩٠ والحلية لأبي نعيم جـ ١ ص ٢٣٤.

٧- انظر حلية الاولياء جـ ١ ص ٣٥٢-٣٥٣.

وهكذا آتى الحدثان الآنفا الذكر أكلهما، فلم يمر وقت طويل حتى غصت رحاب المسجد النبوي بالقراء والمقرئين.

ثم دخل في أسلوب التعليم عامل جديد، كان لأول وهلة محدود الأثر، وذلك هو عامل تعلم الكتابة وتعليمها، وأول مبادرة رسمية كانت في ذلك هي ما ورد في السيرة أن النبي ﷺ قبل في فداء بعض الأسرى في غزوة بدر الكبرى، أن يقوم منهم من يحسن الكتابة العربية بتعليمها لعشرة من أبناء المسلمين، «ومنهم تعلّمها زيد بن ثابت في جماعة من غلمة الأنصار»(١).

وقد شاعت الكتابة بعد هذا بين أبناء الأنصار، وتعلمها بعضهم من بعض، وكان بعضهم يقوم بتعليمها لقراء القرآن، وفي حديث عبادة «أنه علّم ناساً من أهل الصفة القراءة والكتابة»(٢).

وشاعت الكتابة بين النساء أيضاً، كما في حديث الشفاء(٣) قالت: «دخل علي رسول الله ﷺ، وأنا عند حفصة(٤)، فقال: «ألا تعلّمين هذه رقية النملة، كما علمتها الكتابة»(٥)

وقد اتسع الناس في استعمال الخط، وأصبح لكثير من القراء صحف خاصة كتبوا فيها ما تلقوه من القرآن، وأصبح بعضهم يكتب الوحي وغيره للنبي ﷺ، وكان أكثرهم لزوماً لذلك أبي أبن كعب(٦)، فإذا غاب

---

١- الروض الأنف للسهيلي جـ ٢ ص ٩٢.

٢- سنن أبي داود جـ ٢ ص ٢٣٧.

٣- الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس العدوية من قوم عمر بن الخطاب كانت تكتب في الجاهلية، اسلمت قبل فتح مكة . انظر المستدرك جـ ٤ ص ٥٦.

٤- حفصة أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب. ترجمتها في الاستيعاب جـ ٤ ص ٢٦٠-٢٦٢ والاصابة جـ ٤ ص ٢٦٤-٢٦٥.

٥- سنن أبي داود جـ ٢ ص ٢٣٧. و النملة : قروحٌ تخرج في البدن تعالج بالرقية الشرعية.

٦- ستأتي ترجمته في مدارس القراءات.

كتب له زيد بن ثابت»(١)

كانت هذه العوامل كلها مساعدة على ازدياد عدد القراء، ونمو عدد المتصدرين للتعليم والإقراء، من المهاجرين والأنصار، وأخذ الإشعاع القرآني يتجاوز حدود المدينة إلى الجهات النائية.بفعل اتساع رقعة الإسلام، وتزايد الاقبال عليه من أطراف الجزيرة، وضعف سلطان مشركي قريش عن الاستمرار في التصدي للدعوة، وهكذا كانت الجماعات تتوارد على المدينة، لاسيما بعد صلح الحديبية.

ودخل كثير من الجهات تحت راية الإسلام طواعية، فكانت الوفود منها تتوارد على المدينة، ولاسيما بعد فتح مكة، وعرفت السنة التاسعة بسنة الوفود، لكثرة من وفد فيها مبايعاً من القبائل العربية.

وقد أخذ عليه السلام يبث في هذه الجهات مجموعة من قراء الصحابة، للقيام بمهمة الدعوة، وتلقين الناس القرآن والسنن، وتعريفهم بشرائع الإسلام(٢). وكان الهدف من ذلك الوصول بالقرآن إلى هذه الجهات النائية، والتمكين للإسلام بها، وتمتين الصلات بين المسلمين في المدينة، وبين من بعدت بهم

---

١- قال ابن كثير في سيرته: «قال أبو بكر بن أبي شيبة: كان أول من كتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ، أبي بن كعب، فإذا لم يحضر، كتب زيد بن ثابت» «وقد علق ابن كثير على هذا بأن ابن أبي شيبة يعني كتابة الوحي بالمدينة ، والا فالسور المكية لم يكن أبي بن كعب حال نزولها، وقد كتبها الصحابة بمكة رضي الله عنهم جـ ٤ ص ٦٦٩-٦٧٠».

٢- من المبعوثين إلى الجهات معاذ بن جبل و أبو موسى الاشعري ، في السيرة النبوية لابن كثير جـ ٤ ص ١٩١ بعثهما النبي ﷺ إلى اليمن، وجعل كل واحد منهما على مخلاف، وامرهما أن يعلما الناس القرآن». وفي طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٣٤٨ لما خرج عليه السلام من مكة إلى حنين ، خلف بها معاذاً يفقه أهلها، ويعلمهم القرآن.

ومن أشهر المبعوثين عمرو بن حزم، بعثه النبي ﷺ داعياً إلى اليمن، وكتب له كتاباً روته كتب السنة، وفيه جملة من الأحكام في مقادير الزكاة والديات وغير ذلك ، وجاء فيه «» يفقه الناس ويعلمهم القرآن، وأن يأمرهم ألا يمس أحدٌ القرآن، إلا وهو طاهر «انظر سيرة ابن هشام بهامش الروض الأنف مع شرح السهيلي جـ ٢ ص ٣٤٨ وانظر الموطا لمالك جـ ١ ص ١٩٩ والسيرة النبوية لابن كثير جـ ٤ ص ١٤٧».

ومن البعوثين إلى الجهات أبو عبيدة، في صحيح مسلم جـ ١٥ ص ١٩١ والإحكام في أصول الأحكام لابن حزم جـ ٥ ص ٦٩٧ «أن النبي ﷺ بعثه إلى البحرين».

الديار، ممن بلغتهم الدعوة، دون أن يتمكنوا من الهجرة، أو كانوا قد هاجروا، ولكن أذن لهم في العودة إلى ديارهم، كما فعل الأشعريون[١].

وقد سلك عليه السلام في انتدابه للأمراء على الجهات أنه كان يؤمّر على القوم أكثرهم قرآنا، مهما تكون أسنان أصحابه، ممن وفدوا معه، أو أوفدوا[٢].

وسيتجلى من بعد في حروب الردة كيف كان أثر هؤلاء الدعاة الذين أمروا على تلك الجهات من قيامهم فيها بترسيخ الإسلام، حتى ذكر في ترجمة عثمان بن أبي العاص[٣] أنه هو الذي منع قومه من الردة [٤]، وكان عليه السلام قد استعمله على قومه ثقيف، وهو أصغر الستة الذين وفدوا معه على النبي ﷺ، لأنه – كما قال: «كان قد حفظ سورة البقرة»[٥].

ساعد هذا على انتشار القرآن في الأقطار، وشيوع قراءته فيها، وتكاثر عدد القراء والمقرئين المتصدرين للتعليم، ولم يكونوا جميعاً من قريش، بل كانوا قراء ومقرئين من قبائل مختلفة ومتباينة، فلم يكن هناك بد من أن تختلف قراءاتهم وأصواتهم في أداء القرآن، طالما أن القرآن أنزل بلغة قريش، وقرأه قراء من قريش وغيرها، يضاف إلى ذلك تعدد مصادر الأخذ، إذ كان كثير من القراء

---

١- الأشعريون يمنيون، وهم قوم أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، قال ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب جـ ٢ ص ٣٦٣-٣٦٥ وكان قدومه مع إخوته في جماعة من الأشعريين، ثم أسلم قال: «والصحيح أن أبا موسى رجع بعد قدومه مكة، إلى بلاد قومه، فأقام بها، حتى قدم مع الأشعريين نحو خمسين رجلا في سفينة، فألقت بهم الريح إلى الحبشة، فوافقوا خروج جعفر وأصحابه منها إلى المدينة». عن الاستيعاب بتصرف.

٢- من ذلك توليته عمرو بن سلمة على قومه من جرم، «ولم يكن قد احتلم، لأنه كان أكثرهم قرآنا» انظر المصنف الكبير لعبد الرزاق جـ ٢ ص ٣٩٠ وكذا جـ ٢ ص ٣٩٩.

٣- عثمان بن أبي العاص بن بشر الثقفي، ولي لرسول الله ثم لأبي بكر وعمر، ثم ولي لعمر على عمان والبحرين، ثم سكن البصرة ومات بها سنة ٥٠ انظر الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ص ١٣٢ والإصابة لابن حجر جـ ٢ ص ٤٥٢.

٤- الاصابة نفس الجزء والصفحة المذكورين.

٥- انظر الدر المنثور للسيوطي جـ ١ ص ٢١.

لم يتيسر لهم في جميع الأحوال الاتصال بالنبي ﷺ، فكانوا يتلقون القرآن عن أصحابه، ثم اتسع الإسلام، وقرأ القرآن جماعات، فكان لا مناص من أن تتمثل في قراءاتهم خصائص وسمات متميزة من قارئ إلى آخر، تمثل الفروق بين من قرأ على حرف نزل أولا، ومن قرأ على غيره من الحروف كما سيأتي، كما تمثل الفروق بين من كان من قريش، يقرأ القرآن ويقرئه بخصائص لغتها، ومن كان من سواها، ممن يحمل في لسانه خصائص لهجته ولحن قبيلته، ومن هنا بدأت تثور بين القراء بعض الوقائع التي يلاحظون فيها نوعاً من الاختلاف بين القراءات، تارة في طريقة الأداء، وتارة في «حروف القراءة»، كما سنرى، فكان المرجع في ذلك إلى رسول الله ﷺ، ليبين لهم أساس ما اختلفوا فيه، ويوجههم إلى مشروعيته ووجه الرخصة فيه، وذلك ما سنرى مظاهر منه في الفصل التالي بحول الله.

# الفصل الثاني

## وقائع الاختلاف في القراءة في زمن الوحي وأساس الرخصة فيه

بسطنا في الفصل الماضي القول في الطريقة التي تم بها انتشار القرآن واستظهاره من لدن القراء، وأعطينا صورة عن جهود الرعيل الأول من القراء والمقرئين من الصحابة، ولا حظنا أن تعدد مصادر التلقي لا بد أن ينشأ عنه بعض التمايز بين القراءات، لأسباب سيأتي بيانها، ونشير إلى أن الأمر في العهد المكي لم يكن مثلما عليه في العهد المدني، وذلك بسبب وحدة القبائل القرشية في خصائص اللغة من جهة، وعدم الترخيص في القراءة بأكثر من حرف، إذ لم تظهر بعد في ذلك الحين مقتضيات الترخيص، لقلة القراء، ووحدة اللسان، ووحدة مصدر الأخذ والتلقي، وكل أحداث الخلاف في القراءة إنما ظهرت في أواخر العهد المدني، لما تزايد عدد القراء، وتعددت المصادر، وكثر القراء من الأنصار وغيرهم، من غير القرشيين، وقد بدأ هذا التمايز عفوياً، لم يلحظه في بدايته أحد، ولكن سرعان ما فطن له بعض الحفاظ من الصحابة، فراعهم وقوعه والنبي ﷺ ما يزال بين ظهرانيهم، ولذلك ترافعوا إليه فيه في غير ما واقعة، وكلهم يرى أنه سيردّ من القراءة ما تخالف فيه مع غيره، لأنه كذلك سمعه من رسول الله ﷺ، وهذه نماذج من تلك الوقائع العديدة التي روتها كتب الصحاح والسنن:

### ١- اختلاف عمر بن الخطاب مع هشام بن حكيم:

أخرج الأئمة في الصحاح والسنن وغيرها، واللفظ لمالك في الموطأ بالسند عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «سمعت هشام بن حكيم[1] يقرأ سورة

---

١- هشام بن حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي، أسلم زمن فتح مكة ، انظر ترجمته في الاستيعاب جـ ٣ ص ٥٦١ والإصابة جـ ٣ ص ٥٧١.

الفرقان[1] على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها، فكدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف[2]، ثم لببته بردائه، فجئت به رسول الله ﷺ، فقلت يا رسول الله: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأتنيها فقال رسول الله ﷺ: أرسله، ثم قال: اقرأ يا هشام، فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: هكذا أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه»[3].

## ٢- اختلاف أبي بن كعب مع بعض أصحابه:

أخرج الحافظ عبد الرزاق[4] بسنده عن أبي بن كعب قال:

«اختلفت أنا ورجل من أصحابي في آية من القرآن، فترافعنا فيها إلى رسول الله ﷺ فقال: اقرأ يا أبي، فقرأت، ثم قال للآخر: اقرأ، فقرأ، فقال النبي ﷺ: كلاكما محسن مجمل ، فقلت: ما كلانا محسن مجمل، قال: فدفع النبي ﷺ في صدري، فقال لي: إن القرآن أنزل عليّ فقيل لي: على حرف أو حرفين؟ فقلت: بل على حرفين، فقيل لي: على حرفين أو ثلاثة؟ فقلت: بل على ثلاثة، حتى انتهى إلى سبعة أحرف كلها شاف كاف ما لم تخلط آية رحمة بآية عذاب، أو آية عذاب بآية رحمة، فإذا كانت ﴿عزيز حكيم﴾، فقلت: ﴿سميع عليم﴾، فإن

---

١- السورة رقم ٢٥ في المصحف وهي مكية . قال ابن حجر في فتح الباري جـ ١٠ ص ٤٠٨: «قد تتبع أبو عمر بن عبد البر ما اختلف فيه القراء من ذلك من لدن الصحابة و من بعدهم من هذه السورة، فأوردته ملخصا، وزدت عليه قدر ما ذكره وزيادة على ذلك»، ثم ذكر ابن حجر جملة الخلاف بين القراء في هذه السورة في ازيد من ١٣٠ حرفا. انظر الفتح جـ ١٠ ص ٤٠٨ إلى ٤١٣.

٢- يعني انصرف من صلاته، وفي رواية البخاري وغيره: «فكدت أساوره في الصلاة».

٣- انظر الموطا جـ ١ ص ٢٠١ وصحيح البخاري بشرح ابن حجر جـ ١٠ ص ٣٩٩-٤٠٠ والمصنف الكبير لعبد الرزاق جـ ١١ ص ٢١٨ ومسند أحمد جـ ١ ص ٢٤ وجامع الترمذي ج ١١ ص ٦٠ وسنن النسائي جـ ٢ ص ١٥٠ وانظر بقية الطرق في الدر المنثور للسيوطي جـ ٥ ص ٦٢.

٤- الحافظ عبد الرزاق بن همام بن نافع أبو بكر الحميري الصنعاني المتوفى سنة ٢١١ ترجمته في مرآة الجنان لليافعي جـ ٢ ص ٥٢ ووفيات الاعيان جـ ٢ ص ٢١٦ ترجمة رقم ٢٩٨ وطبقات المفسرين للداودي جـ ١ ص ٢٧٨ ترجمة رقم ٢٧٨.

الله سميع عليم.» [1]

وأخرج حديث أُبيّ الإمام أحمد في مسنده بلفظ آخر «وفيه: «كنت في مسجد، فدخل رجل، فقرأ قراءة أنكرتها، ثم دخل آخر، فقرأ نفس قراءة صاحبه، فقمنا جميعاً، فدخلنا على النبي ﷺ....» [2]

وأخرجه الطبري في تفسيره فسمى السورة المختلف فيها، وقال بسنده عن أُبيّ: «دخلت المسجد فصليت، فقرأت النحل[3]، ثم جاء آخر، فقرأها غير قراءتي، ثم دخل رجل آخر، فقرأ بخلاف قراءتنا... وذكر بقية الحديث[4]

## ٣- اختلاف عبدالله بن مسعود مع بعض القراء:

أخرج الحاكم[5] في مستدركه بالسند عن عبدالله بن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ من آل حم [6]، فرحت إلى المسجد، فقلت لرجل:

اقرأها، فإذا هو يقرؤها حروفا ما أقرؤها، فقال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، قال: فانطلقنا إلى رسول الله، فأخبرناه، فتغير وجهه، وقال: إنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف، ثم أسر إلى عليٍّ شيئاً، فقال عليٌّ: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن يقرأ كل رجل منكم كما عُلِّم، قال: فانطلقنا، وكل رجل يقرأ حروفا لا يقرؤها صاحبه.»[7]

---

١- المصنف الكبير لعبد الرزاق جـ ١١ ص ٢١٩ وانظر الحديث في سنن النسائي جـ٢ ص ١٥٤.

٢- مسند الإمام أحمد جـ ٥ ص ١٢٧ و كذا جـ ٥ ص ١٢٨-١٢٩.

٣- السورة رقم ١٦ في المصحف.

٤- جامع البيان للطبري جـ ١ ص ١٦ وذكرها بروايتين أخريين في ص ١٧-١٨.

٥- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الحاكم النيسابوري، كان مشهورا بابن البيِّع ولد سنة ٣٢٠ وتوفي سنة ٤٠٥ انظر ترجمته في تاريخ بغداد جـ ٥ ص ٤٧٣ ترجمة رقم ٣٠٢٤ وفي غاية النهاية جـ ٢ ص ١٨٤ ترجمة ٣١٧٨ شذرات الذهب جـ ٣ ص ١٧٦.

٦- آل حم أو الحواميم سور سبع مصدرة بلفظ (حم) وهي على الترتيب: المؤمن والسجدة أو حم فصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف.

٧- المستدرك جـ ٢ ص ٢٢٣ وهو بغير هذا الإسناد في صحيح البخاري جـ ١٠ ص ٤٧٩-٤٨٠ بشرح ابن حجر.

وأخرج مثل هذا الحديث ابن جرير الطبري بسنده عن زيد بن أرقم[1] قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: أقرأني ابن مسعود سورة أقرأنيها زيد بن ثابت، وأقرأنيها أبي بي كعب، فبقراءة أيهم آخذ؟ فسكت رسول الله ﷺ، وعليٌّ إلى جنبه، فقال: ليقرأ كل إنسان كما عُلِّمَ ، كُلٌّ حسنٌ جميل»[2].

## ٤- اختلاف عمرو بن العاص[3] مع بعض القراء:

ونقل الحافظ ابن كثير[4] عن الإمام أبي عبيد[5] بسنده عن عمرو بن العاص قال: «إن رجلاً قرأ آية من القرآن ، فقال عمرو: إنما هي كذا وكذا، بغير ما قرأ الرجل، فقال الرجل :هكذا أقرأنيها رسول الله ﷺ، فخرجا إلى رسول الله ﷺ، حتى أتياه ، فذكرا ذلك له، فقال رسول الله ﷺ : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فأي ذلك قرأتم، أصبتم ، فلا تَماروا في القرآن ، فإن مِراءً فيه كفر» [6].

---

١- زيد بن أرقم أبو عمرو الانصاري، غزا مع النبي ﷺ ١٧ غزوة ومات بالكوفة سنة ٦٨ انظر طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ١٨ والمستدرك جـ ٣ ص ٥٣٢.

٢- جامع البيان جـ ١ ص ١٢.

٣- عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي أسلم سنة ٨ قبل فتح مكة وولي عمان للنبي ﷺ ، وعمل لعمر وعثمان ومعاوية ومات أميراً للأخير على مصر، انظر ترجمته في الاصابة جـ ٣ ص ٢ والاستعياب جـ ٢ ص ٥٠١ وحسن المحاضرة للسيوطي جـ١ ص ٩٤.

٤- الحافظ ابن كثير إسماعيل بن عمر بن كثير عماد الدين أبو الفداء الدمشقي الشافعي كان صهرا للحافظ المزي على ابنته ولازمه وأخذ عنه علوم الحديث وقرأ على ابن تيمية كثيراً من العلوم توفي سنة ٧٧٤ ترجمته في طبقات المفسرين للداودي جـ ١ ص ١١٠-١١١ ترجمة ١٠٢ والبدر الطالع للشوكاني جـ ١ ص ١٥٣.

٥- أبو عبيد القاسم بن سلام الأنصاري الخراساني البغدادي أحد الائمة الاعلام في اللغة والحديث والتفسير والقراءات وهو أول من ألف في القراءات توفي سنة ٢٢٤ ترجمته في تاريخ بغداد جـ ١٢ ص ٤٠٣-٤١٦ ترجمة ٦٨٦٨ وطبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي ص ٩٢ ووفيات الاعيان جـ ٤ ص ٦٠ ترجمة ٥٣٤ ومعرفة القراء الكبار للذهبي جـ ١ ص ١٤١ وغاية النهاية لابن الجزري جـ ٢ ص١٨ ترجمة ٢٥٩٠وطبقات الشافعية لابن السبكي جـ ٢ ص ١٥٣-١٦٠ ترجمة ٣٦ وطبقات المفسرين للداودي جـ ٢ ص ٣٢ ترجمة ٤١١ والفهرست ص ١١٢-١١٣ ومراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص ١٤٨ وتذكرة الحفاظ جـ ٢ ص ٤١٧.

٦- انظر فضائل القرآن لابن كثير المنشور بذيل جـ ٧ من تفسيره ص ٤٥٧.

## ٥- اختلاف سليمان بن صرد[١] مع بعض القراء:

**أخرج الحافظ ابن عبدالبر[٢] بسنده عن سليمان بن صرد قال:**

«قرأ أُبيّ آية، وقرأ ابن مسعود آية خلافها، وقرأ رجل خلافهما، فأتيت النبي ﷺ، فقلت ألم تقرأ آية كذا؟ فقال: كلكم محسن مجمل، وقال يا أبي، إني أقرئت القرآن، فقلت: على حرف أو حرفين؟ فقال لي الملك: على حرفين، فقلت: على حرفين أو ثلاثة؟ فقال: على ثلاثة، هكذا، حتى انتهى إلى سبعة أحرف، ليس فيها إلا شاف كاف، قلت: ﴿غفوراً رحيماً﴾، أو قلت: ﴿سميعاً عليماً﴾، أو قلت: ﴿عليماً حكيماً﴾، أو قلت: ﴿عزيزاً حكيماً﴾، أي ذلك قلت، فإنه كذلك»[٣].

هذه لمحات من وقائع الاختلاف في القراءة بين الصحابة في زمن الوحي، استقيتها من جملة الروايات التي تواتر بها حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف»، وهو حديث سمى الإمام السيوطي[٤] واحداً وعشرين صحابياً من رواته، وقال: نص أبو عبيد على تواتره[٥].

وهو يصور في رواياته ووقائعه المختلفة ما كان قد احتدم بين القراء في هذا العهد من خلاف في القراءة، وكيف استقر الأمر في ذلك، بتوجيه المختلفين إلى

---

١- سليمان بن صرد بن أبي الجون الخزاعي، صحابي كان من شيعة علي ومن أصحاب الحسين ابنه وكان أمير التوابين بعد مقتل الحسين، حتى قتله عبيد الله بن زياد سنة ٦٥ انظر طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٢٥ وتاريخ بغداد جـ ١ ص ٢٠٠ ترجمة ٤١.

٢- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري الإمام الحافظ شيخ محدثي الأندلس في عصره، من أهم مؤلفاته «التمهيد لما في الموطا من المعاني والأسانيد» و«والاستذكار لمذاهب فقهاء الأمصار» والتجريد، وغير ذلك توفي سنة ٤٦٣ انظر ترجمته في الصلة لابن بشكوال جـ ١ ص ٦٤٠ ترجمة ١٥٠١ وترتيب المدارك للقاضي عياض جـ٤ ص ٨٠٨ والديباج المذهب لابن فرحون ص ١٧٧ وشذرات الذهب لابن العماد جـ ٣ ص ٤٣٦ وشجرة النور الزكية لابن مخلوف ص ١٩.

٣- نقله الإمام الزركشي في البرهان في علوم القرآن جـ ١ ص ٢٢١ والحديث في مسند احمد جـ ٥/ ١٢٤.

٤- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ ترجمته في حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٤٠-١٤٥ وهي بقلمه، وانظر البدر الطالع للشوكاني جـ ١ ص ٣٢٨-٣٣٥.

٥- الإتقان جـ ١ ص ١٣١.

حديث الرخصة الذي يؤكد مشروعية وقوع الخلاف، وأنه لا ينبغي أن يكون محل مجادلة ومراء.

ولست هنا بصدد عرض جملة الأقوال والآراء والتخريجات التي اشتجرت حول المعنى المحدد لهذا الحديث، فذلك مجال ضلت فيه الآراء، واضطربت الأقاويل، إذ لم يرد في بيان تأويله المحدد نص ولا أثر يطمأن إليه.

إلا أني سأدخل إلى فهم الأساس الباعث على ما في هذا الحديث من ترخيص للقراء، ليقرأ كل منهم كما عُلِّم، من ملاحظات إجمالية تساعد على إدراك الموضوع ادراكا سليما، انطلاقا من لحظ وجه الحكمة في هذا الترخيص، وبعيدا عن التأويلات البعيدة التي بلغت كما أوردها السيوطي في الإتقان قرابة ٤٠ قولا [١].

ومن أوضح البيان في الإرشاد إلى وجه الرخصة الباعثة على هذا التشريع، الحديث الذي أخرجه الإمام الترمذي[٢] بسنده عن أبي بن كعب قال: «لقي رسول الله ﷺ جبريل عند أحجار المروة، فقال: ياجبريل، إني بعثت إلى أمة أميين، منهم العجوز، والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتابا قط، قال: يا محمد مُرْهُم فليقرأوا القرآن على سبعة أحرف.»[٣]

**قال العلامة ابن قتيبة(٤) تعليقا على هذا الحديث:**

«ولو أراد كل واحد من هؤلاء أن يزول عن لغته، وما جرى عليه اعتياده طفلا وناشئاً وكهلاً، لاشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضة

١- انظر الإتقان جـ١ ص ١٣١ إلى ١٤١.

٢- الإمام محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الترمذي الحافظ، صاحب الجامع في السنن توفي سنة ٢٧٩ ترجمته في الفهرست لابن النديم ص ٣١٩ وفيات الاعيان جـ٤ ص ٢٧٨ ترجمة ٦١٣.

٣- جامع الترمذي بشرح ابن العربي جـ١١ ص ٦٣.

٤- تقدمت الاشارة إلى ترجمته في ص ٣ بالهامش.

للنفس طويلة، وتذليل للسان، وقطع للعادة، فأراد الله برحمته ولطفه، أن يجعل لهم متسعاً في اللغات، ومتصرَّفاً في الحركات، كتيسيره عليهم في الدين.»[1]

وهذا المعنى بسطه أيضاً الحافظ أبو شامة[2] نقلاً عن بعض شيوخه، فقال: «إن القرآن نزل أولاً بلسان قريش، ومن جاورهم من العرب الفصحاء[3]، ثم أبيح للعرب أن يقرأوه بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها، على اختلافهم في الألفاظ والإعراب، ولم يكلف أحداً منهم الانتقال عن لغته إلى لغة أخرى، للمشقة ولما كان فيهم من الحمية، ولطلب تسهيل فهم المراد، وعلى هذا يتنزل اختلافهم في القراءة، وتصويب رسول الله كلا منهم.»[4]

فهذا الحديث بهذا المعنى الذي تحدث عنه ابن قتيبة وأبو شامة يكشف بوضوح عن الحكمة في نزول القرآن بهذه السبعة، وحينئذ يدخل في مفهوم الحديث كل ما تتحقق فيه السعة، ويتم به التيسير على الأمة في القراءة بلغاتها وأصوات لهجاتها، ولا سيما وقد ثبت أن النبي عليه السلام «كان يخاطب كل أمة بلحنهم، وعلى مذهبهم.»[5]

وبهذا نستطيع أن نحدد مظاهر التيسير الممكنة، والتي يتجلى فيها التخفيف على الأمة، في مظهرين اثنين:

---

١- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٣٠.

٢- أبو شامة الحافظ المقرئ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان الدمشقي الشافعي النحوي، مؤلف شرح «حرز الاماني» المسمى «ابراز المعاني» توفي سنة ٦٦٥ انظر ترجمته في معرفة القراء الكبار للذهبي جـ ٢ ص ٥٣٧ طبقة ١٦ ترجمة ٦ وغاية النهاية جـ ١ ص ٣٥٦ وطبقات المفسرين للداودي جـ ١ ص ٢٦٣-٢٦٥ ترجمة ٢٥٤ وشذرات الذهب جـ ٥ ص ٣١٨.

٣- تحدث الإمام ابن عطية في المحرر الوجيز جـ ١ ص ٢٧-٢٨ عن القبائل السبع المجاورة لقريش والتي قيل بأن القرآن نزل بلسانها ونقل عن صاحب اللوائح وهو الإمام ثابت بن قاسم السرقسطي المتوفى سنة ٤١١ قوله «لو قلنا من هذه الأحرف لقريش ومنها لكنانة ومنها لأسد ومنها لهذيل ومنها لتميم ومنها لضبة وألفافها، ومنها لقيس لكان قد أتى على قبائل مضر، في مراتب سبعة، تستوعب اللغات التي نزل بها القرآن».

٤- نقله الحافظ ابن حجر في الفتح جـ١٠ ص ٤٠٢ والسيوطي في الاتقان جـ ١ ص ١٣٦.

٥- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للمرحوم مصطفى صادق بن عبد الرزاق الرافعي ص ٣٥٠.

أولاً- في القراءة حسب أصوات القبيلة التي ينتمي إليها القارئ وحسب لحنها في التخاطب، وذلك فيما يتعلق بصفات الأداء وكيفيات النطق بالحروف، كالهمز والتخفيف، والإدغام والفك، والإمالة والفتح، ونحو ذلك من وجوه الإعراب التي لا تتأثر بها المعاني، أو بعض اللهجات الخاصة من مثل ما كان يقرأ به ابن مسعود متأثراً بلهجة هذيل ، حتى كتب إليه عمر في عهده: «أقرئ الناس بلغة قريش، لا بلغة هذيل ، فإن القرآن لم ينزل بلغة هذيل.»[1] ومثل ما هو شائع من كسر أول المضارع عند بعض القراء الأسديين . في مثل تعلمون والم أعهد ونستعين[2].

ثانياً - في التعبير بلفظ بدل لفظ، ويدل على ذلك ما جاء في الحديث الذي أسلفنا من قوله: قلت: غفوراً رحيماً، أو قلت: سميعاً عليماً... أي ذلك قلت، فإنه كذلك. وقد حمل ذلك الحافظ ابن عبدالبر على أنه «إنما أراد ضرب المثل للحروف التي نزل القرآن عليها أنها معان متفق مفهومها، مختلف مسموعها، لا يكون في شيء منها معنى وضده، ولا وجه يخالف معنى وجه آخر خلافاً ينافيه ويضاده، كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضده، قال: وروي ذلك عن ابن مسعود وأبي بن كعب، أنه كان يقرأ ﴿للذين آمنوا انظرونا﴾[3] أمهلونا، أخرونا، ارقبونا و﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾[4]، مَرُّوا فيه سَعَوْا فيه.»[5]

---

١- انظر فتح الباري جـ ١٠ ص ٤٠٢.

٢- قال ابن عطية في المحرر الوجيز جـ١ ص ٧٦: «قرأ الاعمش وابن وثاب والنخعي (نستعين) بكسر النون، وهي لغة لبعض قريش، في النون والتاء والهمزة، ولا يقولونها في ياء الغائب، وإنما ذلك في كل فعل سمي فاعله، فيه زوائد. أو في ما يأتي من الثلاثي على «فعل يفعل» بكسر العين في الماضي وفتحها في المستقبل، نحو علم وشرب، وكذلك في ما جاء معتل العين نحو خال يخال، فانهم يقولون تخال واخال».

٣- سورة الحديد آية ١٣.

٤- سورة البقرة آية ٢٠.

٥- انظر البرهان للزركشي جـ ١ ص ٢٢١.

وقد استدل ابن عبدالبر بما ذكره ابن وهب[1] في جامعه قال: قيل لمالك: أترى أن يقرأ بمثل ما قرأ عمر بن الخطاب (فامضوا إلى ذكر الله)[2]؟ قال: جائز.

قال رسول الله ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه» مثل يعملون وتعلمون ، قال مالك : ولا أرى باختلافهم بأساً، وقد كان الناس ولهم مصاحف».

**قال ابن وهب: وأخبرني مالك قال:**

«أقرأ عبدالله بن مسعود رجلاً ﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم﴾[3]، فجعل الرجل يقول: طعام اليتيم، فقال: طعام الفاجر، فقلت لمالك: أترى أن يقرأ بذلك؟ قال نعم، أرى أن ذلك واسع.»[4]

وإلى مثل هذا أشار الحافظ الخطيب البغدادي[5] فيما روى بسنده عن يحيى بن سعيد[6] قال متحدثا عن جواز رواية الحديث بالمعنى:

«ليس في أيدي الناس أشرف ولا أجل من كتاب الله ، وقد رخص فيه على سبعة أحرف.»[7]

---

١- عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي المصري روى عن أربعمائة عالم، منهم مالك والليث وابن أبي ذئب والسفيانين وابن جريج وابن الماجشون ، ومات سنة ١٩٧ ترجمته في طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٠ والديباج المذهب ص ١٣٤ وحسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢١.

٢- سورة الجمعة آية ٩ ( فاسعوا).

٣- سورة الدخان اية ٤٣-٤٤.

٤- نقله الزركشي في البرهان جـ ٢٢١-٢٢٢ وما ذكره ابن عبد البر نقلاً عن ابن وهب نقله عنه ابن حزم أيضاً في كتابه «الإحكام في اصول الأحكام» ٥٢٨، وقال: «هذا مما أخطأ فيه مالك ، قاصدا إلى الخير».

٥- الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن مهدي صاحب تاريخ بغداد والكفاية في علم الرواية وتقييد العلم وغيرها من الكتب النفيسة توفي سنة ٤٦٣ انظر ترجمته في طبقات الشافعية لابن السبكي جـ ٤ ص ٢٩-٣٩ترجمة ٢٥٨ وشذرات الذهب جـ ٤ ص ٤٣٦.

٦- يحيى بن سعيد أبو سعيد القطان من رجال الجرح والتعديل ، قال ابن سعد: كان ثقة مأموناً رفيعاً حجة، توفي بالبصرة سنة ١٩٨ انظر طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ٢٩٣.

٧- الكفاية في علم الرواية للخطيب ص ٣١٦.

وفي رواية أخرى عنه:

«أخاف أن يضيق على الناس تتبع الألفاظ ، لأن القرآن أعظم حرمة ، ووسع أن يقرأ على وجوه إذا كان المعنى واحداً.»[1]

وقد ذهب الإمام أبو محمد بن عطية[2] إلى أن الترخيص في هذه السبعة إنما كان للنبي ﷺ. قال : « فأباح الله تعالى لنبيه هذه الحروف السبعة ، وعارضه بها جبريل في عرضاته ، على الوجه الذي فيه الإعجاز وجودة الرصف[3]، ولم تقع الإباحة بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يبدل اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه ، ولو كان هذا ، لذهب إعجاز القرآن، وكان معرّضاً لأن يبدل هذا وهذا حتى يكون غير الذي نزل من عند الله».

«وإنما وقعت الإباحة للنبي ﷺ ليوسع بها على أمته، فقرأ مرة لأُبيّ بما عارضه به جبريل صلوات الله عليهما، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضاً».

قال: «وعلى هذا تجيء قراءة عمر بن الخطاب لسورة الفرقان وقراءة هشام بن حكيم لها ، والا فكيف يستقيم أن يقول النبي ﷺ في قراءة كل منهما، وقد اختلفتا: هكذا أقرأني جبريل؟ هل هذا إلا لأنه أقرأه بهذه مرة وبهذه مرة، وعلى هذا يحمل قول أنس بن مالك حين قرأ ﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطئا -وأصوب- قيلا﴾[4] فقيل له : إنما نقرأ (وأقوم) ، فقال أنس: «أصوب وأقوم، وأهيأ،[5] واحد» ، فإنما معنى هذا أنها مروية عن النبي ﷺ ، وإلا فلو كان هذا

---

١- نفس المصدر والصفحة.

٢- أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية القاضي الأندلسي الغرناطي شيخ مفسري الأندلس توفي سنة ٥٤١ بمدينة لورقة، انظر ترجمته في الصلة جـ ١ ص ٣٦٧ ترجمة رقم ٨٢٨ تاريخ قضاة الأندلس للنباهي ص ١٠٩ وطبقات المفسرين للداودي جـ ١ ص ٢٦٠ ترجمة رقم ٢٥١ .

٣- في طبعة الأوقاف المغربية: ( وجودة الوصف) وقد رأيت اللفظ الصحيح هو ما أثبته ( الرصف) وهو الذي في مقدمة تفسير ابن عطية المنشورة في كتاب «مقدمتان» في التفسير ص ٢٧١.

٤- سورة المزمل آية ٦ والمتواتر في القراءة ( وأقوم قيلا ).

٥- هكذا وردت رواية ابن عطية ومثل ذلك في المقاصد العالية لابن حجر جـ ٣ ص ٣٩٣ بلفظ ( وأهيأ) وفي جامع البيان للطبري جـ١ ص ٢٢ ذكر «أقوم وأصوب و أهدى» بالدال.

لأحدٍ أن يضعه لبطل إعجاز القرآن، وبطل معنى قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر، وإنا له لحافظون﴾[1]. [2]

وهذا توجيه وجيه التفت إلى قضية الإعجاز ، ولكن الحافظ ابن حجر[3] ذهب في الفتح إلى أن بعض الصحابة كان يقرأ بالمرادف ولو لم يكن له مسموعاً، ومن ثم انكر عمر على ابن مسعود ، فكتب إليه «إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل، فأقرئ الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هذيل ، وكان ذلك قبل أن يجمع عثمان الناس على قراءة واحدة». [4]

وماذهب إليه ابن حجر هو الذي تشهد له الآثار، وتؤيده النقول التي اسلفنا، إذ لو كان الأمر في ذلك مقصوراً على ما سمع من النبي ﷺ، حتى في كيفيات الأداء، لم يرتفع الحرج الذي شرعت له الرخصة، رفقاً بالشيخ والعجوز والجارية والغلام والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط فلذا أرى أن الترخيص كان للأمّة يومئذ، إلى حين الإجماع على المصحف الإمام في عهد عثمان كما سيأتي، لتقرأ بحسب الأحرف السبعة، على اختلاف العلماء في معناها دون أن يكون الأمر مقيداً تقييداً صارماً بالرواية والسماع من لفظ النبي ﷺ ، ولذلك فهم بعض العلماء من أحاديث الأحرف السبعة أنها تعني كل ما هو واقعٌ فعلاً بين القراءات المروية ، من وجوه الاختلاف ، ولذلك سعى طائفة منهم إلى حصر مظاهر الاختلاف بين القراءات في سبعة أنحاء من التغاير بينها ، وجعل ذلك تفسيراً عملياً للأحرف التي وردت في الحديث، وأول من أعلمه سبق إلى ذلك ونقل عنه هو العلامة ابن قتيبة [5]

---

١- المحرر الوجيز جـ ١ ص ٣٠

٢- الآية ٩ من سورة الحجر.

٣- الحافظ أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني صاحب فتح الباري على البخاري توفي سنة ٨٥٢ وكانت ولادته سنة ٧٧٣ تخرج في الحديث على الحافظ زين الدين العراقي. انظر ترجمته في حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٥٣ وفي البدر الطالع جـ ١ ص ٨٧-٩٢.

٤- انظر فتح الباري جـ ١٠ ص ٤٠٢.

٥- انظر كتابه تأويل مشكل القرآن ص ٢٨-٢٩.

وتبعه في تقسيمة السُّباعي جماعة مع بعض التحوير والزيادة في التمثيل.(١)

وعلى هذا الفهم لحديث الأحرف السبعة في صورته العملية المتمثلة في القراءات المأثورة ، درج طائفة من العلماء وأئمة القراء، منطلقين من اعتبار «الأحرف» تعني: أوجه التغاير، وهذا تأويل الإمام أبي عمرو الداني(٢) في قوله : «الأحرف الأوْجُه أي : أن القرآن أنزل على سبعة أوجه لأن الأحرف جمع في القليل ، كفلس و أفلس، وأحرف قد يراد به الوجه، بدليل قوله تعالى: (ومن الناس من يعبد الله على حرف..)(٣) فلهذا سمى النبي ﷺ هذه الأوجه المختلفة من القراءات المتغايرة من اللغات أحرفا».(٤)

---

١- لم نرد الاطالة بنقل تقسيم ابن قتيبة والتقسيمات التي عدلت فيه أو استفادت منه، وذلك لشهرته ووجوده في مختلف المظان. فتقسيمه ذكره في كتابه «تأويل مشكل القرآن» ص ٢٨-٢٩، وقد ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز جـ١ ص ٢٢ عن صاحب الدلائل (هو قاسم بن ثابت السرقسطي المتوفى سنة ٤١١) ومثله عن أبي بكر الباقلاني، كلاهما نقلاً عن بعض العلماء دون تسمية.

وذكره الإمام القرطبي في تفسيره جـ ١ ص ٣٩ و الزركشي في البرهان جـ ١ ص ٢١٤-٢١٥ نقلاً عن ابن عبد البر عن بعض المتأخرين من أهل العلم بالقرآن.

وذكره ابن حجر في فتح الباري جـ ١٠ ص ٤٠٣-٤٠٤ وذكر معه تقسيماً مستمداً منه لأبي الفضل الرازي، وكذلك ذكره الحافظ ابن الجزري في النشر جـ١ ص ٢٧-٢٨ وذكر تقسيم الرازي، ثم ذكر تقسيماً له هو اعتمد فيه كل الاعتماد على تقسيم ابن قتيبة ولكنه مع هذا قال: إنه تدبر وأمعن النظر فيها منذ ثلاثين سنة حتى فتح الله عليه بذلك. ولكن من المقارنة يبدو أن تقسيمه مجرد تحوير لما سبقة.

وذكر تقسيم ابن قتيبه أيضاً السيوطي في الإتقان جـ١ ص ١٣٢ والزرقاني في مناهل العرفان جـ ١/١٥١.

٢- ابوعمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر القرطبي الداني المشهور في زمانه بابن الصيرفي ولد سنة ٣٧١ وقرأ القراءات ببلده ثم رحل إلى المشرق فأخذ بالقيروان ومصر وحج ورجع إلى بلده، وقرّبه أمير دانية مجاهد العامري، فلمع نجمه بها وجلس للإقراء والتأليف، وقد عدت كتبه في فن القراءات وتراجم القراء عمدة من جاء بعده من قراء المغرب والمشرق لرسوخه في هذا الشأن توفي سنة ٤٤٤ ترجمته في الصلة جـ ٢ ص ٣٨٥ ترجمة ٨٧٦ طبقات الداودي جـ ١/ ٣٧٤ شذرات الذهب جـ ٤ ص ٢٧٢ غاية النهاية جـ١ /٥٠٢ معرفة القراء الكبار جـ ١ /٣٢٥-٣٢٨ طبقة ١٠.

٣- سورة الحج الآية ١١

٤- نقله العلامة على النوري الصفاقسي في كتابه غيث النفع في القراءات السبع المنشور بهامش سراج القارئ لابن القاصح على الشاطبية ص١٣ - ١٤

وهذا ما انتهى إليه أيضاً القاضي الباقلاني[1] بعد مناقشته للأقاويل، فقال في آخر كلامه: «ونقول على الجملة : إن القرآن منزلٌ على سبعة أحرف: من اللغات والإعراب وتغيير الأسماء والصور وأن ذلك متفرقٌ في كتاب الله، ليس بموجودٍ في واحدٍ أو سورةٍ واحدةٍ يقطع على اجتماع ذلك فيها».[2]

ومن هنا صح اعتبار الترخيص في القراءة حسب الأحرف السبعة أساس جميع أنحاء الخلاف بين القراءات ، كما قرره ابن الجزري في « طيبة النشر» في قوله:

وأصلُ الاختلاف أن ربَّنا     أنَزَله بسبعةٍ مهوِّنا.[3]

وفي رأيي أنه سبب هام يعود إليه النصيب الأكبر من مظاهر الاختلاف، ولكنه ليس بالسبب الوحيد، وذلك ما سنراه في بحثنا في «أسباب الخلاف» في الفصل التالي بحول الله.

---

١- القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني «أو ابن الباقلاني» البغدادي المتكلم المالكي المذهب من كتبه الانتصار وإعجاز القرآن وغير ذلك وهو الذي نمى المذهب الأشعري واحتج له ووسمه توفي سنة ٤٠٣ ترجمته في تاريخ بغداد جـ٦ ص ٣٧٩ ترجمة ٢٩٠٦ ترتيب المدارك جـ٤ /٥٨٧ الديباج المذهب في أعيان علماء المذهب ص ٢٤٤ وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٢٦٩ ترجمة ٦٠٨.

٢- نقله ابن عطية في المحرر الوجيز جـ ١ ص ٢٥.

٣- طيبة النشر في القراءات العشر وهي منظومة للحافظ ابن الجزري وهي منشورة في مجموع باسم «اتحاف البررة بالمتون العشرة» وهي المنظومة رقم ٥ في المجموع والبيت المذكور في الطيبة ١٦٩.

# الفصل الثالث:

## أسباب اختلاف القراء في القراءات

ويشتمل على بحث الأسباب التالية:

- نزول القرآن على سبعة أحرف..
- تعدد النزول.
- الإحكام والنسخ.
- تعدد العرضات.
- القراءة بالمعنى على سبيل التفسير.

### أولاً- نزول القرآن على سبعة أحرف:

قد قدمنا أن بعض العلماء قد ردوا جميع ما هو واقع بين القراءات جميعاً من أوجه الخلاف إلى سبب واحد ، هو نزول القرآن على سبعة أحرف، وقد رأيت أن نزوله على هذه السبعة سببٌ هامٌ وراء كثير من مظاهر الخلاف ، إلا أنه ليس بالسبب الوحيد، وذلك لأن أحد مظاهر الخلاف بين القراء في الصدر الأول وهو الإحكام والنسخ ليس في نظري عائداً إلى هذا السبب، إذ نزول القرآن على هذه السبعة كان مُراعىً فيه التيسير على الأمة في التلاوة ، وأما التيسير في قضية النسخ فهو في رفع التلاوة ذاتها، تارةً مع ما تتضمنه من أحكام، وتارةً دون رفع الأحكام، فثبت بعض القراء على قراءة ما نسخ لفظه.

وقد عرضنا لوجه الترخيص في قراءة القرآن بهذه الأوجه التي انتهينا مع طائفةٍ من العلماء والقراء إلى أنها تعني ما هو واقعٌ فعلاً بين القراءات من مظاهر التغاير المختلفة ، و أبنّا أن اساس ذلك هو التيسير على الأمة في

تلقي القرآن بلغاتها وأصوات لهجاتها، ولذلك ذهبنا إلى أن التيسير تجلى في مظهرين اثنين:

١- في القراءة حسب الأصوات.
٢- في التعبير بلفظٍ بدل آخر.

فمن هنا كان استعمال هذه الرخصة مثار طائفة من وقائع الخلاف في القراءة لهذا العهد ، مما عرضنا صوراً منه فيما أسلفنا، ولنا على الأحاديث التي سقناها ملاحظات تكشف بوضوح عن أثر استعمال هذه الرخصة ومقتضياتها فيما أدت إليه من اختلافٍ مشروعٍ على أساسه يقوم «علم القراءات».

١- أن كل القراءات التي اختلف فيها يومئذٍ ثبت سماع القارئ لها من لفظه عليه السلام.
٢- أنه أقرّها جميعها مكتفياً بالإرشاد إلى حديث الترخيص والتوجيه إلى مشروعيته.
٣- أن بعض أحداث الخلاف في القراءة يبعد أن تكون على أساس لغوي، وإنما تعود إلى أن كل قارئٍ سمع في السورة غير ما سمعه الآخر، ومثاله ما وقع بين عمر وهشام بن حكيم «إذ كلاهما من قريش البطاح، من قبيلةٍ واحدةٍ ومدينةٍ واحدة، وبين كلٍ منهما وبين كعب بن لؤي[١] ثمانية آباء»[٢]

وإلى ذلك ذهب الإمام ابن عطية في قوله : « إن مناكرة المختلفين في القراءة لم تكن لأن المنكر سمع ما ليس من لغته فأنكَره، وإنما كانت لأنه سمع خلاف ما أقرأه النبي ﷺ وعساه قد أقرأه ماليس من لغته واستعمال قبيلته».[٣]

١- الجد السابع لرسول الله
٢- انظر الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ص ٥٢٦.
٣- المحرر الوجيز جـ ١ ص ٢٦.

٤- أن المترافعين في حوادث الخلاف لم يكونوا على علمٍ بالرخصة إلا في هذه الوقائع، وفي هذا دليل على وقوع الرخصة متأخرة حتى وقعت مقتضياتها التشريعية، وهي اتساع الإسلام وتباين لغات من دخل فيه من القبائل الحضرية والبدوية من أصقاع الجزيرة العربية، ويدل على تأخر زمن الرخصة أيضاً ورود أسماء بعض الصحابة في وقائع الخلاف كعمر وأُبيّ وابن مسعود. وبعيد أن تكون الرخصة قديمة العهد ويخفى خبرها على هؤلاء، وقد كانوا من الدين بمقامٍ لاتفوتهم فيه عزائم الأمور، يضاف إلى ذلك أن هشام بن حكيم إنما أسلم زمن فتح مكة في السنة الثامنة[١]، فلو كان الترخيص في القراءة حسب السبعة معروفاً بين الصحابة لما اعترض عليه عمر في قراءته، ومن هنا يبدو سقوط منزع القائلين بأن ذلك كان رخصة في أول الأمر، ثم نسخ بزوال العذر وتيسر الحفظ وكثرة الضبط وتعلم الكتابة».[٢]

إذ أن هذا التعليل مقبول إذا لم ينظر فيه إلى السبب الباعث على تشريع الرخصة، وأما إذا نظر إليه من خلال ذلك فإن الآية تنعكس، فيكون الترخيص في أخريات العهد المدني أدعى إلى الوقوع منه في العهد المكي أو بعده بيسير، بحكم دخول الناس في دين الله أفواجاً، وظهور مشكلة اللهجات بين القراء في القراءة. ومما يشهد لبقاء أمر هذه الأحرف معمولاً به، مقروءاً على أساسه، مناشدة أمير المؤمنين عثمان في عَهْدِه من سمع هذا الحديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف أن يقوم، فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا بذلك».[٣]

---

١- قال ابن حجر في الفتح جـ ١٠ ص ٤٠٠: وكان سبب اختلاف قراءتهما أن عمر حفظ هذه السورة من رسول الله ﷺ قديما، ثم لم يسمع ما أنزل فيها بخلاف ما حفظه وشاهده، لأن هشاماً من مسلمة الفتح فكان النبي ﷺ أقرأه على ما نزل أخيرا فنشأ اختلافهما من ذلك.

٢- هذا القول منسوب إلى الإمام الطحاوي كما في فضائل القرآن لابن كثير بذيل تفسيره جـ ٧/٤٦١ ونقل مثل ذلك عنه الزركشي في البرهان جـ ١/٢٢٤ والسيوطي في الإتقان جـ ١ / ١٣٤-١٣٥.

٣- قال السيوطي في الإتقان جـ ١ ص ١٣١: أخرجه أبو يعلى في مسنده.

فلو كان حديث الأحرف السبعة أو القراءة على أساسها قد نسخ، لَمّا ذكَّرهم بذلك عثمان، أو لما استشهدهم إلا على علمهم بالنسخ، لا سيما وقد كان يومئذ بصدد الفصل في أحداثٍ جسيمةٍ وقعت بسبب التوسع في استعمال هذه الرخصة، فلو كان الحديث منسوخاً لكان فيه له مستندٌ هامٌ في إضفاء المشروعية الواضحة في العمل الذي أراد أن يُقدِم عليه في جمع الناس على حرفٍ واحدٍ وقراءةٍ واحدةٍ كما سيأتي.

وبناء على هذه الملاحظات الإجمالية يمكن القول بأن الصحابة لم يكونوا في عهده عليه السلام يقرأون جميعاً على حرفٍ واحد، بل تعددت قراءاتهم بتعدد الأحرف، وتفيدنا بعض الآثار أن منهم من كان يقرأ على الحرف الأول، ومنهم من قرأ به وبغيره ، وقد جاء في حديث عائشة أم المؤمنين قولها:

«كنا نقرأ في الحرف الأول (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى- وصلاة العصر – وقوموا لله قانتين)».[1]

وقد فسر بعض العلماء قوله عليه السلام في ابن مسعود «إن عبد الله يقرأ القرآن غضاً كما أنزل»[2] بأنه كان يقرأ الحرف الأول الذي أنزل عليه القرآن دون الحروف السبعة التي رخص لرسول الله ﷺ في قراءته عليها بعد معارضة جبريل عليه السلام القرآن إياه في كل رمضان».[3]

ومن هنا كان لابد أن تتمايز بين الأحرف السبعة فروقٌ واضحةٌ كانت مثار استغرابٍ للقراء لما سمعوها لأول وهلة ، فلما سمعوا وجه الرخصة أذعنوا ، وقد صح عن ابن مسعود أنه قال:

---

١- سورة البقرة الآية ٢٣٨ والحديث أخرجه ابن أبي داود في المصاحف ص ٨٥-٨٦.

٢- أخرجه الحاكم في المستدرك جـ ٢/٢٢٧

٣- حكاه القرطبي في تفسيره جـ ١ ص ٥٠ عن بعض العلماء.

«سمعت القراء فوجدتهم متقاربين، اقرأوا كما عُلّمتم، وإياكم والتنطع، فإنما هو كقول أحدهم : هلم وتعال وأقبلْ».[1]

ومعنى هذا أن القراء على الحرف الأول من الطبيعي أن يختلفوا مع من قرأوا على غيره، ولعل في هذا ما يفسر اختلاف عمر وهشام بن حكيم في القراءة ولغتهما واحدة، كما يفسر بعض ما وقع بين غيرهما كأُبيّ وابن مسعود.

## ثانياً- تعدد النزول:

ولا يخفى أن القرآن كما قدمنا نزل منجماً سورةً سورةً وآيةً آيةً[2]، بحسب الوقائع والأحداث، وكان عليه السلام بتوقيف من الوحي يقول: ضعوا هذه الآية في المكان الذي يذكر فيه كذا[3] وفي حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه: «كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع»[4]

وروي عن الإمام مالك أنه قال : إنما أُلّف القرآنُ على ما كانوا يسمعونه من رسول الله ﷺ[5] وكان الصحابة يحفظون ما نزل من ذلك كما نزل ، لكن بعض السور والآيات قد تكرر نزولها أكثر من مرةٍ لفوائد تعرّض لها الإمام الزركشي[6] فقال:

«قد ينزل الشيء مرتين، تعظيماً لشأنه، وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه، وهذا كما قيل في الفاتحة نزلت مرتين، مرةً بمكة

١- قال الزركشي لابن البرهان جـ١/ ٢١٨ احتج به البيهقي في «شعب الإيمان».
٢- انظر التمهيد لابن عبد البر جـ٦ ص ١٩١.
٣- المستدرك للحاكم جـ٢ ص ٢٢١.
٤- نفس المصدر والصفحة.
٥- قال القرطبي في تفسيره جـ١ ص ٥٢: رواه يونس عن ابن وهب عن مالك.
٦- الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي المصري الشافعي أحد العلماء الأثبات في علوم القرآن توفي سنة ٧٩٤ ترجمته في حسن المحاضرة للسيوطي جـ١ ص ١٨٥-١٨٦ وطبقات المفسرين للداودي جـ٢ ص ١٥٧-١٥٨ ترجمة ٥٠٤.

ومرةً بالمدينة[1]، وكما ثبت في الصحيحين عن أبي عثمان النهدي[2] عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امرأةٍ قبلة، فأتى النبي ﷺ فأخبره ، فأنزل الله تعالى ﴿وأقم الصلاة طَرَفَيِ النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات﴾[3]، فقال الرجل : ألي هذا ؟ فقال : لجميع أمتي».[4]

قال الزركشي : فهذا كان بالمدينة ، والرجل قد ذكر الترمذي وغيره أنه أبو اليسر[5] ، وسورة هود مكية بالاتفاق، ولهذا أشكل على بعضهم هذا الحديث مع ماذكرنا ولا إشكال، لأنها نزلت مرةً بعد مرة.[6]

وقال العلامة ابن الحصار[7]:

«قد يتكرر نزول الآية تذكيراً وموعظة».[8] قال السيوطي: «وذكر من ذلك خواتيم سورة النحل[9]، وأول سورة الروم[10]، وذكر ابن كثير منه آية الروح[11]،

---

١- انظر الروايتين في نزولها في كل منهما في الدر المنثور للسيوطي جـ ١ ص ٢-٣.

٢- أبو عثمان النهدي عبد الرحمن بن معقل السلمي ، قال ابن حجر: قال ابن حيان: له صحبة. وقال ابن عبد البر: لم ير النبي ﷺ وان كان أسلم على عهده وأدى إليه الصدقات، عُمّر في الجاهلية ستين، وفي الإسلام نحو ذلك انظر الاستيعاب جـ ٢ ص ٤١٩ – والإصابة جـ ٢ ص ٤٢٢.

٣- سورة هود الآية ١١٤.

٤- انظر الحديث في صحيح البخاري بشرح ابن حجر جـ٩ ص٤٢٩.

٥- اسمه كعب بن عمرو بن عباد، شهد العقبة وبدراً وأُحُداً وهو ابن عشرين سنة، وشهد غيرها، وتوفي بالمدينة سنة ٥٥ انظر طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٥٨١.

٦- البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ ١ ص ٢٩.

٧- ابن الحصار علي بن محمد بن إبراهيم الخزرجي الإشبيلي ، المتوفى سنة ٦١١ وله مؤلفات منها: أصول الفقه، والناسخ والمنسوخ، والبيان في تنقيح البرهان . انظر التكملة لابن الأبار ص ٦٨٦.

٨- نقله السيوطي في الإتقان جـ١ ص ١٠٢.

٩- هي قوله تعالى: ﴿و إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به...﴾ إلى ختام السورة.

١٠- السورة رقم ٣٠ في المصحف.

١١- الآية ٨٥ من سورة الاسراء وقد ذكر ابن كثير في تفسيره جـ ٤ ص ٣٤٤-٣٤٥ سببين لنزولها، فلاحظ بينهما اختلافا، فقال: وقد يجاب عن هذا بأنها نزلت عليه بالمدينة مرةً ثانية.

وذكر بعضهم ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين...﴾[1]

ونقل السيوطي عن السخاوي[2] أنه قال في كتابه « جمال القراء »بعد أن ذكر نزول الفاتحة مرتين : إن قيل : فما فائدة نزولها مرةً ثانية ؟ قلت : يجوز أن تكون نزلت أول مرةٍ على حرفٍ واحد ، ونزلت في الثانية ببقية وجوهها ، نحو: ملك ومالك ، والسراط والصراط و نحو ذلك.»[3]

وقد نبه السيوطي في الإتقان على أنه قد يُجْعَلُ من تعدد النزول الأحرفُ التي تقرأ على وجهين فأكثر[4]، وعليه خرّج الحافظ أبو شامة ما هو واقع بين المصاحف الأئمة، من بعض الاختلاف «كثبوت بعض الواوات في بعضها دون بعض، وعدة هاآت وعدة لامات ونحو ذلك[5]، وقال: «هو محمولٌ على أنه نزل بالأمرين معا ، وأمر النبي ﷺ بكتابته لشخصين ، أو أعلم بذلك شخصاً واحداً، وأمره بإثباتها على الوجهين»..[6]

ومما خُرِّج على ذلك أيضاً من مسائل الخلاف، إثبات البسمله بين سور القرآن، فقد ذكر الزركشي وابن الجزري: «أنها نزلت مع السورة في بعض الأحرف السبعة، فمن قرأ بحرفٍ نزلت فيه عدَّها، ومن قرأ بغير ذلك لم يعدّها».[7]

ومن هذه النقول نستفيد أن مجموعة من آيات القرآن قد اهتدى العلماء إلى أنها متعددة النزول، وذلك باستقرائهم لأسباب النزول، فانتهوا من النظر فيها

---

١- الآية ١١٢ من سورة التوبة وماذكره السيوطي هو في الإتقان جـ ١ ص ١٠٢.

٢- الإمام السخاوي أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد علم الدين المقرئ النحوي الشافعي المصري قرأ القراءات على الإمام الشاطبي، وهو أول من شرح «حرز الاماني» للشاطبي توفي سنة ٦٤٣ ترجمته في حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٧٣ بغية الوعاة جـ ٢ ص ١٩٢ معرفة القراء الكبار جـ ٢ ص ٥٠٣ طبقة ١٥ وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٠٤ ترجمة ٥٤٦ شذرات الذهب جـ ٥ص ٢٢٢.

٣- انظر الإتقان للسيوطي جـ ١ ص١٠٣.

٤- نفس المصدر والصفحة.

٥- سيأتي الحديث عن سبب اختلاف المصاحف الأئمة في الفصل الأخير من الباب التالي.

٦- نقله ابن حجر في فتح الباري جـ ١٠ ص ٤٠٥.

٧- انظر البرهان للزركشي جـ ١ ص ٢٥٢ ومنجد المقرئين لابن الجزري ص ٦٩-٧٠

إلى احتمال تعدد نزولها بتعدد الأسباب، فإذا صح كذلك أن تعدد القراءات هو أيضاً من هذا القبيل، يكون تعدد النزول سارياً على مجموع القرآن، ولعلّ ذلك إنما يتصور فيما سيأتي من تعدد عرض النبي عليه السلام على جبريل ما نزل من القرآن في كل رمضان، ولاشك أن تعدد النزول بهذا المعنى كان يحمل معه الجديد من الفروق التي تتجسم في اختلاف قراءة عن أخرى كلما جد جديدٌ بزيادةٍ أو طروء نسخٍ، وذلك ما سنراه في السبب التالي من اسباب الخلاف.

## ثالثا- الاختلاف في إحكام الآية أو نسخها كلاً أو بعضاً :

من الأسباب الهامة في حدوث الخلاف بين القراء قبل الإجماع على المصحف الإمام في عهد عثمان قضية كون بعض الآيات والحروف من المحكم[1]. أو من المسنوخ التلاوة،[2] ومثاله حديث ابن عباس رضي الله عنه قال:

«جاء رجلٌ إلى عمر يسأله فجعل ينظر إلى رأسه مرةً، وإلى رجليه أخرى، هل يرى عليه من البؤس شيئاً ثم قال له عمر: كم مالك؟ قال: أربعون من الإبل، قال ابن عباس: فقلت: صدق الله ورسوله (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى الثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)[3] فقال عمر: ما هذا ؟ فقلت : هكذا أقرأنيها أُبيّ فمر بنا إليه قال: فجاء إلى أُبيّ فقال: ما يقول هذا؟ قال أُبيّ: هكذا أقرأنيها رسول الله ﷺ قال: أفأثبتها؟ فأثبتها».[4]

---

١- الإحكام إبقاء التلاوة ،والنسخ عكسه في أحد معانيه.

٢- النسخ على ثلاثة أضرب : نسخ التلاوة والحكم، ونسخ التلاوة دون الحكم ونسخ الحكم دون التلاوة، ويهمنا منه هنا القسمان الأول والثاني، انظر تفاصيل ذلك في التمهيد لابن عبد البر جـ ٤ ص ٢٧٣-٢٧٤ والإحكام في أصول الأحكام للآمدي جـ ٢ ص ١٧٩ و فهم القرآن للحارث المحاسبي ص ٤٠٣.

٣- قال السهيلي في الروض الأنف جـ ٢ ص ١٧٦ «وكانت هذه الآية ( لو أن لابن آدم..) في سورة يونس بعد قوله ( كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) كذلك قال ابن سلام».

٤- مسند الإمام أحمد جـ ٥ ص ١١٧.

ومن ذلك ما أخرجه مالك والترمذي وغيرهما عن أبي يونس[١] مولى عائشة رضي الله عنها قال:

كنت أكتب لعائشة مصحفاً فقالت: إذا مررت بآية الصلاة[٢] فلا تكتبها حتى أمليها عليك، قال: فأملتها علي: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى- وصلاة العصر).[٣]

وروى مالك وغيره أيضاً مثل هذا عن أبي رافع [٤] مولى حفصة وإنها أملت عليه مثلما أملت عائشة، إلا أن في هذه الرواية (والصلاة الوسطى- صلاة العصر) دون واو،[٥] وبذلك قرأ على البدل أُبيّ وابن عباس وعبيد بن عمير[٦].[٧]

وأخرج البيهقي[٨] والحاكم بسندهما عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال:

«نزلت (حافظوا على الصلوات وصلاة العصر)، فقرأناها على عهد رسول الله ﷺ، ما شاء الله إن نقرأها، ثم قال: إن الله نسخها: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)، فقال رجل: أهي صلاة العصر؟ فقال: قد أخبرتك كيف

---

١- أبو يونس مولى عائشة أم المؤمنين قال ابن سعد في الطبقات جـ ٥ ص ٢٩٩: روى عن عائشة وروى عنه القعقاع بن حكيم وغيره.

٢- يعني الآية ٢٣٨ من سورة البقرة.

٣- الموطأ جـ ١٣٨/١ جامع الترمذي بشرح ابن العربي جـ ١١ ص ١٠٥- المصاحف لابن أبي داود ص ٨٤.

٤- أبو رافع توفي في خلافة عثمان انظر الإجابة جـ ٤ / ٦٧ والاستيعاب جـ ٦٨/٤.

٥- انظر الموطأ جـ ١ ص ١٣٩- والمصاحف لابن أبي داود ص ٨٥-٨٦

٦- عبيد بن عمير بن قتادة المكي القاص يروي عن علي وعائشة، توفي سنة ٦٥ ترجمته عند ابن الجزري في غاية النهاية جـ ١ ص ٤٩٦.

٧- انظر البحر المحيط لأبي حيان جـ ٢ ص ٢٤٠

٨- الحافظ الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي النيسابوري ولد سنة ٣٨٤ تخرج في علوم الحديث على أبي عبد الله الحاكم النيسابوري وسمع من أبي بكر بن فورك وغيره، وشيوخه أكثر من مائة ،توفي بنيسابور سنة ٤٥٨ ترجمته في طبقات الشافعية جـ ٤ ص ٨-١٦ ترجمة ٢٥٠.

نزلت ، وكيف نسخها الله».(1)

وقد يتكرر النسخ أيضاً كما يتكرر النزول ، ومثال ذلك حديث عائشة في الصحيح قالت: «كان فيما أنزل من القرآن (عشر رضعات معلومات يحرمن)، ثم نسخت بخمس معلومات ، فتوفي رسول الله ، وهو فيما يقرأ من القرآن».(2)

قال السيوطي: «ظاهرُهُ بقاء التلاوة، وليس كذلك، وأجيب بأن المراد(3): شارف الوفاة ، وأن التلاوة نسخت أيضاً(4)، ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة رسول الله ﷺ ، فتوفي وبعض الناس يقرؤها».(5)

ولقد كان يعرف نسخ بعض ذلك بقرائن الأحوال تارة ، وبإرشاد النبي ﷺ أخرى ، وقد أخرج الطبري بسنده عن الحسن(6) في قوله تعالى (أوننسها )(7) قال : إن نبيكم ﷺ أقرئ قرآناً ، ثم أنسيه ، فلم يكن شيئاً ، ومن القرآن ما قد نسخ ، وأنتم تقرأونه .»(8)

ومن الوسائل التي كانوا يعرفون بها أن الآيات قد نسخت :

أ. إخبار النبي ﷺ أنها نسخت ، كما رأينا في حديث البراء بن عازب .

ب. بإعراض النبي ﷺ عنها في قراءته ، ومثاله حديث حميد بن عبدالرحمن بن عوف :

---

١- السنن الكبرى للبيهقي جـ ١ ص ٤٥٨ واللفظ له وانظر المستدرك جـ ٢ ص ٢٨١.

٢- أخرجه مالك في الموطأ جـ ٢ ص ٣٠ في موطأ محمد بن الحسن ص ٢١١ وانظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٠ ص ٢٩ والتمهيد لابن عبد البر جـ ٤ ص ٢٧٤ ونيل الأوطار للشوكاني جـ ٥ / ٢٢٩.

٣- يعني المراد بقولها : «فتوفي رسول الله وهو مما يقرأ»

٤- وعن أبي موسى الأشعري أنها نزلت ثم رفعت انظر البرهان للزركشي جـ ٢ص ٣٩

٥- الإتقان للسيوطي جـ ٣ ص ٦٢ ويقارن بما في الإحكام في أصول الأحكام للآمدي جـ ٢ ص ١٧٩

٦- الحسن بن أبي الحسن البصري ستأتي ترجمته.

٧- يعني من قوله تعالى ( ماننسخ من آيه أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ) الآية ١٠٦ من سورة البقرة.

٨- نقله السيوطي في الدر المنثور جـ ١ ص ١٠٥ .

أن رسول الله ﷺ صلى الصبح، فقرأ سورة الفرقان، فأسقط آية، فلما سلم قال: أفي القوم أُبيّ؟ فقال أُبيّ: ها أنا يارسول الله، فقال: ألم أسقط آية؟ قال: بلى، قال: فلم لم تفتحها علي ؟ قال: حسبتها نسخت، قال: لا، ولكنّي أسقطتها.[1]

ج. بأن يرفعها الله من الصدور جملة ، وينسيهم إياها ، ومثاله ماذكره السيوطي في تفسيره «أن رجلين قرآ سورة أقرأهما إياها رسول الله ﷺ، كانا يقرآن بها ، فقاما يقرآن ذات ليلة ، فلم يقدرا منها على حرف ، فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ ، فقال ، إنها مما نسخ أو نسئ[2]، فكان الزهري[3] يقرؤها (ماننسخ من آية أو ننسها )[4] بضم النون خفيفة.»[5]

ولعل كثيراً مما تنقله كتب الآثار ، مما ظل بعض الصحابة يقرأ به كعبد الله بن مسعود وأُبيّ بن كعب ، مما يخالف القراءة المتواترة ، هو مما جرى عليه النسخ ولم يعلم بذلك الذين استمروا على القراءة به ، وسيأتي لنا طائفة من أحداث الخلاف التي برزت في أيام عمر بن الخطاب ، والتي كان منشؤها اختلاف الصحابة في النسخ والإحكام ، وقد كان عمر يحتج بصرامة على أُبيّ بن كعب ، لأنه في نظره كان أكثرهم قراءة بما نسخ ، وكان يقول :

«أقرؤنا أُبيّ، وإنا لندع شيئاً من قراءة أُبيّ ، وذلك أن أبياً يقول : لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ ، وقد قال الله: (ما ننسخ من آية أو نَنسَأها )».[6]

---

١- قال السيوطي في الدر المنثور ج٥ ص٦٢: أخرجه ابن الأنباري في المصاحف وانظر المسند ٥/١٢٢.

٢-نُسِىءَ: بمعنى أخر، وفسرها أبو زيد الأنصاري بمعنى مُحِيّ لفظاً وحكماً، انظر اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي صحيفة ٤٥. م.خ.ع حرف د رقم ٨١٩ صحيفة ٤٥ مجلد ١.

٢- محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبدالله بن شهاب الزهري المدني عالم قريش، وصاحب الخطوة الأولى في جمع الحديث بأمر من عمر بن عبدالعزيز توفي سنة ١٢٤. انظر طبقات الفقهاء للشيرازي ص٦٤- غاية النهاية ج٢ ص٢٦٢ ترجمة ٢٤٧٠ - وفيات الأعيان جـ٤ ص١٧٧ ترجمة ٥٦٣.

٤- سورة البقرة الآية ١٠٦.

٥- قال السيوطي في الدر المنثور جـ١ ص١٠٤: أخرجه الطبراني.

٦- الحديث في صحيح البخاري جـ١٠ ص٤٢٩ بشرح ابن حجر، وفي مسند أحمد جـ٥ ص١١٣.

قال الحافظ ابن حجر : «وكان أُبيّ بن كعب لا يرجع عما يحفظ من القرآن الذي تلقاه من رسول الله ﷺ ، ولو أخبره غيره أن تلاوته نسخت ، لأنه إذا سمع ذلك من رسول الله ﷺ ، حصل عنده القطع ، فلا يزول عنه بأخبار غيره أن تلاوته نسخت ، وقد استدل عليه عمر بالآية الدالة على النسخ ، وهو من أوضح الاستدلال في ذلك.»[1]

وقد ذكروا أن زيد بن ثابت لم يكن في شيءٍ من قراءته ماهو منسوخ ، لتأخر عرضه للقرآن على رسول الله ﷺ ، ولذلك اعتمد عند جمع المصحف لأبي بكر ، ثم عند جمع الناس على قراءةٍ واحدة ، ولم يوكل ذلك إلى أُبيّ ، مع أنه كان أقرأ الصحابة على الإطلاق . ولذلك كان شهود بعض الصحابة لعرضٍ دون آخر أحد أسباب الخلاف أيضاً بين من قرأ أولاً ، ومن قرأ أخيراً كما سنشرحه.

## رابعاً- تعدد العرضات:

العرض في علم القراءات، مرحلة في التحصيل، تأتي بعد إتقان القارئ للقراءة حفظاً وأداء، بحيث يقوم بعد ذلك بعرض قراءته على شيخٍ متمكن، لتصحيح الرواية واختبار أحكام الأداء، وأصل ذلك عرضه عليه السلام على جبريل في كل سنة ما نزل عليه من القرآن:

أخرج الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن فاطمة الزهراء رضي الله عنها قالت:

أسر إلي رسول الله ﷺ أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة، وأنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضور أجلي[2]

---

١- فتح الباري ج١٠ ص٤٣٠.

٢- صحيح البخاري بشرح ابن حجر جـ ١٠ ص ٤١٨ – ٤١٩.

وأخرج الحاكم بسنده عن سمرة بن جندب[1] قال:

عُرِضَ القرآنُ على رسول الله ﷺ ثلاث عرضات، فيقولون: إن قراءتنا هذه هي العرضة الأخيرة[2]

وقال الإمام الداني في الأرجوزة المنبهة[3]:

| | |
|---|---|
| وكان يعرض على جـبريل | في كل عام جملة التنزيل |
| حتى إذا كان بقرب الحَيْن | عرضه عليه مرتـــين[4] |

وسواء كان عدد العرضات كما في حديث سمرة، ثلاث عرضات، أو كان أكثر فإنه لا يخفى أن كل عرض كان يحمل معه الجديد في القراءة بدليل اتفاق العلماء على أن قراءة زيد هي التي جمع عليها المصحف الإمام، لأنه كما ذكر الإمام الداني «كانت فيه أشياء ومناقب لم تجتمع لغيره، منها أنه كتب الوحي للنبي ﷺ ومنها أنه جمع القرآن كله على عهد النبي ﷺ ،وأن قراءته كانت آخر عرضة عرضها النبي ﷺ على جبريل عليه السلام».[5]

ونقل السيوطي عن الإمام البغوي[6] أنه قال في شرح السنة:

---

١- سمرة بن جندب بن هلال، حليف للأنصار صحابي جليل روى كثيراً من الآثار، سكن البصرة ومات بها سنة ٥٨. انظر طبقات ابن سعد جـ ٦ ص٣٤ - والاستيعاب لابن عبدالبر جـ٢ ص٧٥.

٢- المستدرك جـ٢ص٢٣٠.

٣- الأرجوزة المنبهة على أسماء القراء والرواة وأصول القراءات تقع في ٢٦٠٠ بيت، توجد منها نسخة ب م.خ.ع بالرباط تحت رقم ٢١٨٦ حرف د. وهي مبتورة. ومنها نسخة عند شيخنا المقرئ السيد محمد إبراهيم إمام مسجد البير الفايض بلد بالكريمات بإقليم الصويرة. مد الله في عمره ونفع به.و طبعت أخيراً

٤- المنبهة نسخة الخزانة العامة ص٤ في مجموع.

٥- المقنع في رسم مصاحف الأمصار للإمام الداني ص١٣٠-١٣١.

٦- الإمام البغوي الحسين بن مسعود الفراء البغوي المشهور بمحيي السنة توفي سنة ٥١٦. ترجمته في شذرات الذهب جـ ٤ ص٤٨.

«يقال: إن زيد بن ثابت شهد العرضة الأخيرة التي بُيِّنَ فيها ما نُسِخَ وما بقي، وكتبها لرسول الله ﷺ، وقرأها عليه، وكان يقرئ الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه، وولاه عثمان كَتْب المصاحف.»[1]

فمن الطبيعي إذن أن تكون قراءة من شهد إحدى العرضات دون غيرها، مخالفةً لمن شهد غير ما شهده الأول، قبله أو بعده، ومخالِفةً بالتالي لمن شهد العرضة الأخيرة على الخصوص.

## خامساً - القراءة بالمعنى على سبيل التفسير:

و من أسباب الخلاف بين القراء، ما نقل عن بعض الصحابة من جمعٍ بين القراءة والتأويل المروي فيها، يقول ابن الجزري:

«نعم كانوا ربما يُدخلون التفسير في القراءة إيضاحاً وبياناً، لأنهم محققون لما تلقوه قرآناً عن النبي ﷺ، فهم آمنون فيه من الالتباس، وربما كان بعضهم يكتبه معه»[2]

وقد كان الصحابة كثيراً ما يسوقون التفسير بالمعنى مع القرآن، أو بدل القرآن ، فيقرأ أحدهم الآية بمعناها للبيان والإيضاح، ومن أمثلة ذلك ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه كتب في مصحفه:

(ولا تقربوا النساء في محيضهن، واعتزلوهن حتى يتطهرن)[3] وهذا معنى الآية كما لا يخفى، ولذلك قال أبو حيان[4]:

---

١- الإتقان للسيوطي جـ١ص١٤٢.

٢- النشر في القراءات العشر جـ ١ ص٣٢.

٣- الآية ٢٢٢ من سورة البقرة، والتلاوة في المصحف (فاعتزلوا النساء في المحيض، ولا تقربوهن حتى يطهرن) .

٤- أبو حيان الإمام أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي، نحوي عصره ولغويه ومقرئه، ولد سنة ٦٥٤، ودرس ببلده وأخذ عنه أكابر عصره، وانتقل إلى مصر ومات بها سنة ٧٤٥ ورثاه الصلاح الصفدي بقصيدة ذكرها السيوطي في ترجمته في حسن المحاضرة جـ١ ص٢٢٩ – وانظر غاية النهاية جـ ٢ ص ٢٨٥ – ٢٨٦ ترجمة ٣٥٥٥ – وبغية الوعاة جـ ١ ص ٢٨٠ – ٢٨١.

«وينبغي أن يحمل هذا على التفسير، لا على أنه قرآن، ولكثرة مخالفته السواد».[1]

وقد صح عن النبي ﷺ في مثل هذا ما قد يلتبس على بعض الرواة، فيروونه قراءةً وذلك كثير في كتب الشواذ، ومن ذلك ما نقله صاحب كتاب المباني عن ابن عباس أنه قرأ ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها﴾[2] من نفسي، وقال: لا يخفى شيء على رب العالمين عزوجل.

قال: هذا أيضاً إن صح، فإن معناه التفسير للحرف الذي تقدم في القرآن، فخلطه بعض الناقلين بالقرآن.[3]

ونقل أبو حيان عن أبي بكر بن الأنباري[4] في قوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾[5]

قال: وقرأ عبدالله[6] (إن الدين عند الله الحنيفية)، قال ابن الأنباري[7]

«ولا يخفى على ذي تمييز أن هذا كلام من النبي ﷺ على جهة التفسير، أدخله بعض من ينقل الحديث في القراءات».[8]

---

١- البحر المحيط جـ ٢ ص١٦٨.
٢- سورة طه الآية ١٥.
٣- كتاب المباني لنظم المعاني مجهول المؤلف، وهو منشور مع مقدمة تفسير ابن عطية بعنوان مقدمتان في التفسير انظر ص١٠٢، وذكر ابن خالويه في مختصر شواذ القراءات ص١٢ ان هذه قراءة أبيّ.
٤- ستأتي ترجمته في الصفحة التالية.
٥- سورة آل عمران الآية ١٩.
٦- يريد عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.
٧- أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار المشهور بابن الأنباري، المقرئ النحوي اللغوي الحنبلي البغدادي، ولد سنة ٢٧١ وروى القراءة عن أبيه وعن إسماعيل بن إسحاق القاضي المالكي، وروى عنه ابن أبي هاشم وابن خالويه والدارقطني وجماعة من الأئمة. وكان يحفظ ١٢٠ تفسيراً بأسانيدها. توفي سنة ٣٢٨. انظر الفهرست ص١١٨ غاية النهاية جـ ٢ ص ٢٣٠ ترجمة ٣٣٧٣ – طبقات الداودي ٢ / ٢٢٦.
٨- انظر البحر المحيط لأبي حيان جـ ٢ ص ٤١٠.

وقد نقل الإمام أبو بكر بن العربي مثل هذا من قراءة النبي ﷺ، فقال في قوله تعالى ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة..﴾[1]: وقرأ ابن مسعود (لم يكن المشركون من أهل الكتاب منفكين)، قال: وهذه قراءة على التفسير، وهي جائزة في معرض البيان، لا في معرض التلاوة، فقد قرأ النبي ﷺ في رواية للصحيح (فطلقوهن لقبل عدتهن)[2]، وهو تفسير فإن التلاوة ما كان في خط المصحف[3].

ومن التباس القراءة بالتفسير ما روي من قراءة ابن الزبير[4] في قوله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ينهون عن المنكر﴾[5] ويستعينون الله على ما أصابهم.

قال عمرو[6]: «فما أدري أكانت قراءته أم فسره»[7].

فهذا يفيد أنهم كانوا يستعصي عليهم أحياناً التمييز بين ما رواه القارئ قراءة، وما رواه تفسيراً، فربما أدرجوا ذلك على أنه من قراءة القارئ وهو إنما قرأ به على سبيل التفسير، كما حكى ابن الأنباري عمن روى عن الحسن البصري أنه كان يقرأ ﴿وإن منكم إلا واردها﴾[8]، الورود: الدخول»، قال ابن الأنباري: «قوله: الورود: الدخول، تفسير من الحسن لمعنى الورود، وغلط فيه

---

١- الآية رقم ١ من سورة البينة.

٢- في الآية رقم ١ من سورة الطلاق (فطلقوهن لعدتهن).

٣- أحكام القرآن لابن العربي جـ ٤ ص ١٩٥٧ وانظر أيضاً فيه ٤ / ١٨١٢.

٤- عبدالله بن الزبير بن العوام الأسدي. انظر ترجمته في الاستيعاب ٢ / ٢٩١ والإصابة ٢ / ٣٠١.

٥- سورة آل عمران الآية ١٠٤.

٦- عمرو بن دينار مولى باذان سكن مكة وأخذ عن علمائها، وأخذ عنه سفيان الثوري ومعمر بن راشد وجماعة توفي سنة ١٢٦. انظر طبقات ابن سعد جـ ٥ / ٤٧٩ – غاية النهاية جـ ١ ص ٦٠٠. مرآة الجنان ١ / ٢٦٤.

٧- انظر المصاحف لأبي داود ص ٨٢ – ٨٣ والإتقان للسيوطي جـ ١ / ٢١٦.

٨- سورة مريم آية ٧١.

بعض الرواة، فألحقه بالقرآن[1].

هذه في نظري الأسباب العامة التي يمكن أن يعود إليها كل ما شجر بين القراء في زمن الوحي وبعده في حروف القرآن وآياته، من اختلافٍ واسع، عرضنا صوراً من ملامحه فيما أسلفنا، وسوف نرى في الباب التالي تطوره في الأمصار الممصَّرة، وكيف انتهى أمره في عهد عثمان بمشروعه الكبير الذي رد الأمر إلى نصابه وقطع دابر الاختلاف بتدوينه المصحف الإمام.

---

١- انظر الإتقان للسيوطي جـ ١ ص٢١٦.

# البَابُ الثَّانِي

# تطورات الخلاف بين القراء في عهد الراشدين وتدوين المصحف الإمام

## ويشتمل على مايلي:

- **الفصل الأول:**

  انتشار الصحابة في الأقطار ونشوء مدارس القراءات.

- **الفصل الثاني:**

  احتدام الخلاف بين القراء قبل تدوين المصحف الإمام.

- **الفصل الثالث:**

  هيئة تدوين المصحف، ومنهجها في احتواء الخلاف.

# الفصل الأول

## انتشار الصحابة في الأقطار ونشوء «مدارس القراءات».

أخذ القرآن الكريم ينتشر خارج المدينة منذ السنوات الأولى من الهجرة النبوية، وظل هذا يتزايد باتساع رقعة البلاد، وانضواء كثير من الجهات بالجزيرة العربية تحت لواء الإسلام، وقد كانت البذور الأولى لهذه النهضة القرآنية على يد طائفة من الدعاة ومجموعة من البعثات كانت تنتدب لهذا الشأن كما قدمنا في الفصل الأول من الباب الأول، وتجلى أثر هذا العمل في مقدار رسوخ الإسلام في تلك الجهات ، ومقاومتها لحركة المتنبئين والمرتدين[1]. التي حاولت استغلال فترة الانتقال من عهد النبوة إلى عهد الخلافة، ليشرئب فيها رؤساء القبائل وزعماء العشائر إلى السلطة، وينزعوا ربقة التكاليف الشرعية، بما في ذلك الامتناع من دفع زكاة الأموال[2].

وكانت جنود الجهاد من صحابة رسول الله ﷺ في أوائل خلافة الصديق، مدعوةً لأن تحارب في عدة جبهاتٍ دفعةً واحدة ، إذ في أقل من سنتين تمت تصفية حركة المرتدين ، وإن كانت قد كلفت غاليا ، بانتظر إلى وفرة من مات

١- حركة التنبؤ بدأت في عهد النبي ﷺ بظهور الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب ببني حنيفة بناحية اليمامة، فأما الأسود العنسي فقد اغتيل في عهد النبي ﷺ. وأما مسيلمة فقد خنس بعد أن فشل في مساومة النبي ﷺ في الاعتراف به، ولما سمع بوفاته أعلن أمره فانضمت إليه طائفة من قبائل البادية رغبةً في المغانم، وأيدته متنبئة جديدة هي سجاح وانتظمت معه في سلكه، وظهر أيضاً طليحة الأسدي، وقاومت جيوش المسلمين هذه الحركة فكانت حروب اليمامة ضد مسيلمة التي انتهت بالاجهاز عليه وقطع دابر أصحابه، وأما طليحة وسجاح فقد تراجعا وتابا إلى الله من ادعائهما وصلح اسلامهما.

٢- وفي ذلك يقول قائلهم:

أطعنا رسول الله ما كان بيننـــا ... فيا ليت شعري ما لديـــن أبي بكر

أيورثها بكـراً إذا قـام بـعده ... فتلك لعمر الله قاصمة الظهـــر

فيها من خيرة رجال الإسلام ، ولاسيما من قراء الذكر الحكيم[١] كما تم فتح جَبَهَات عديدة في اتجاه النفوذ الرومي بالشام وما إليها، والنفوذ الفارسي بالعراق وما حولها.

ثم جاء عهد عمر بن الخطاب الذي امتد ما يربو على عشر سنوات، فتمَّ إنهاء الوجود الرومي بالشام وفلسطين ومصر نهائيا، كما تمَّ الإجهاز على الوجود الفارسي في العراق، بل في بلاد فارس نفسها.

وفي هذه الأثناء كانت المدينة المنورة قاعدة الخلافة تولِّي هذه المهام الأكفاء والقادة المقتدرين من خيار الصحابة وفرسان الإسلام.

ولما كانت ظهور المقاتلين في الأقطار المفتوحة، في حاجة إلى حماية لإبقاء خط الرجعة مفتوحا، ولضمان التزود بالمؤن والرجال والعتاد، ولبسط سلطان الدولة الفتية، وبناء الهيكل الإداري بها، بادر عمر رضي الله عنه إلى تعزيز الثغور والمدن القديمة بالحامية الكافية، في حين أمر بتمصير أمصار جديدة في بعض الأقاليم المفتوحة، فأسست الكوفة والبصرة بالعراق في ظرف سنتين[٢] ثم بنيت «الفسطاط» بمصر[٣]، كما حوفظ للمدن القديمة على صبغتها ، وزودت بما يلزم لتركيز سيادة الدولة ، وإقرار الأمن ، وضبط الشؤون المالية ، وكانت هذه المهام جميعاً في حاجة دائمة إلى أكفاء ، فكان الصحابة ، ولاسيما القراء منهم ، هم أُطر الإدارة ، وأمراء الجهات ، وقضاة الأحكام ، وأئمة الصلوات.

---

١- كانت هذه الوقائع سبباً في موت جماعة من القراء، ومنهم المقرىء الكبير سالم بن معقل مولى أبي حذيفة، وقد قدر عدد من مات بها من القراء وحدهم بخمسمائة، وبعضهم يذكر سبعمائة و سبب وقوع القتل فيهم أنهم تبايعوا على الموت فاقتحموا على مسيلمة ، وكان شعارهم: يا أهل سورة البقرة.

٢- في سنة ١٤ مصّر البصرة عتبة بن غزوان، وفي سنة ١٦ مصّر الكوفة سعد بن أبي وقاص، انظر معجم البلدان لياقوت الحموي جـ ١ ص٤٣٢، ومرآة الجنان لليافعي جـ١ ص٧٠ .

٣- قال السيوطي في حسن المحاضرة جـ١ ص ١٠: «لما فتح عمرو بن العاص، أمر المسلمين أن يحيطوا حول «فسطاطه»، ففعلوا،واتصلت العمارة بعضها ببعض، وسمي مجموع ذلك «الفسطاط».

وهكذا عرفت هذه الأقاليم ابتداء من أول خلافة عمر نهضة شاملة في اقامة هيكل الدولة والادارة، وعرفت المدينة بالتالي حركة « هجرة» جماعية وفردية، إما للمشاركة في إتمام الفتح وحماية الثغور، وإما لإدارة الشؤون وعمارة المدن وجباية الخراج، حتى غدت هذه الأمصار الجديدة مراكز لانطلاق الفتوح نحو بلاد فارس وما وراءها ، ونحو بلاد المغرب وأفريقية مما يلي مصر، فكانت صلة الوصل بين الأقاليم المفتوحة، وبين دار الخلافة بالمدينة، حتى تزايد عمرانها واستبحر، فزادت حاجتها إلى الأطر، ولاسيما التعليمية منها، فأصبح الخليفة مضطرا لتوزيع من عنده من الرجال لسد حاجة الأقاليم، وإن كان في أمس الحاجة إلى بعضهم ليكونوا بجانبه.

ويهمنا ههنا أن نتتبع أثر بعض هؤلاء المبعوثين إلى الجهات في مجال التعليم والإقراء، وقد كان فيهم من كانت مهمته مزدوجة، إذ لم يكن هناك تمايز بين وظيفة التعليم ووظيفة التسيير، بل كان جماعة من القراء يقومون في آن واحد بالمهمتين، وقد احتفظت لنا بعض كتب الآثار بأخبار بعض بعثات الإقراء نستطيع أن نَستشِفَّ من خلالها كيف كانت الحاجة ماسة إلى تزويد هذه الأقطار بأولئك القراء، وكيف كانت جهودهم في توطيد القراءة بها، وتبلورها في اتجاه متميز يكون «مدرسة» خاصة تنتسب في ملامحها إلى قارئ معين كان له الأثر العميق في المصر الذي انتدب إليه.

أخرج ابن سعد[1] في الطبقات بسنده عن محمد بن كعب القرظي[2] قال:

---

١- محمد بن سعد بن منيع الزهري البصري صاحب «الطبقات الكبرى» صحب محمد بن عمر الواقدي حتى عرف بكاتب الواقدي. سمع سفيان بن عيينه و نظراءه، وتوفي سنة ٢٣٠. انظر ترجمته في تاريخ بغداد جـ٥ ص٣٢١ ترجمة ٢٨٤٤ — وفي طبقاته جـ٧ ص٣٦٤ — وفي الفهرست لابن النديم ص ١٥١. وفي وفيات الأعيان جـ٤ ص٣٥١ ترجمة ٦٤٥ — وفي غاية النهاية ج٢ ص ١٤٢ ترجمة ٣٠١٨.

٢- محمد بن كعب بن سليم بن عمرو القرظي، ولد في حياة النبي ﷺ، وقيل رآه ،سكن المدينة ونزل إلى الكوفة سنة ٤٠ ثم عاد إلى المدينة،قال ابن الجزري في غايته: وردت عنه الرواية في حروف القرآن، وكان يقص في المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه فماتوا حوالي سنة ١١٧. انظر غاية النهاية جـ٢ ص٢٣٣ ترجمة ٣٣٨٣. — ومرآة الجنان جـ١ ص ٢٢٩ -.

لما كان زمن عمر بن الخطاب ، كتب إليه يزيد بن أبي سفيان:[١]

إن أهل الشام كثروا وربلوا، وملأوا المدينة، واحتاجوا إلى من يعلمهم القرآن، ويفقههم في الدين، فأعنّي يا أمير المؤمنين برجال يعلمونهم، فدعا عمر معاذا[٢] وعبادة بن الصامت[٣] وأبي بن كعب وأبا أيوب الأنصاري[٤] وأبا الدرداء[٥]، فقال لهم:

إن إخوانكم من أهل الشام قد استعانوني بمن يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين، فأعينوني رحمكم الله بثلاثة منكم ، فإن أَحْبَبْتُم فاستهموا، وإن انتدب ثلاثة منكم، فليخرجوا، فقالوا: ما كنا لنتساهم هذا شيخ كبير - لأبي أيوب، وأما هذا فسقيم - لأبيّ -، فخرج معاذ ، وعبادة، وأبو الدرداء، فقال عمر: ابدأوا بحمص، فإنكم ستجدون الناس على وجوه مختلفة، منهم من يلقّن[٦]، فإذا رأيتم ذلك فوجهوا إليه طائفة من الناس، فإذا رضيتم منهم، فليقم بها واحد، وليخرج واحد إلى دمشق، والآخر إلى فلسطين.

---

١- يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أميه بن عبد الشمس ،أخو معاويه ،قال ابن عبد البر : «كان أفضل بني أبي سفيان، أسلم يوم فتح مكه، وشهد حنينا، واستعمله أبو بكر، وولاه عمر على فلسطين، ومات سنة ١٩. انظر الاستيعاب جـ ٣ص٣٤٩ . طبقات ابن سعد جـ٧ص ٤٠٥ ».

٢- معاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري أحد فقهاء الصحابه وأعلمهم بالحلال و الحرام، وأحد الدعاة في عهده ﷺ، أرسله إلى اليمن داعيا وقاضيا ووصيته إليه مشهورة، توفي في طاعو ن عمواس بالشام سنة ١٨. ترجمته في طبقات ابن سعد جـ٧ ص ٣٨٧-٣٨٨ - والاستيعاب جـ ٣ ص٤٠٦- والمستدرك للحاكم جـ٣ص٢٦٨ - وغاية النهاية جـ٢ ص ٣٠١ ترجمه ٣٦٢٠ - وفي تذكرة الحفاظ جـ١ ص٢١-مرآه الجنان جـ ١ ص٧٢ -.

٣- تقد مت ترجمته بهامش ص٩.

٤- أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب الخزرجي الأنصاري ،النجاري ، نزل ﷺ في بيته زمن الهجرة ، وكان من القراء، خرج مع يزيد بن معاويه غازياً في الجيش الذ ي غزا القسطنطينيه ، فمات ، ودفن خارج أسوارها، انظر ترجمته في طبقات ابن سعد جـ٢ ص ٤٨٤ -وتاريخ بغداد جـ ١ ص ١٥٣ ترجمه رقم ٧ - وحسن المحاضرة جـ١ ص ١٠٠ - والاستيعاب ب جـ ٤ ص٥-٦ .

٥- ستاتي ترجمته .

٦- يعني من يقوم بالتعليم .

وقدموا حمص فكانوا بها، حتى إذا رضوا من الناس، أقام بها عبادة، وخرج «أبو الدرداء إلى دمشق، ومعاذ إلى فلسطين».[1]

هذه أولى البعثات الرسمية إلى الشام ، ويشير عمر رضي الله عنه بقوله: «وستجدون الناس على وجوه مختلفة، منهم من يلقن» إلى انتشار الصحابة في الشام قبل هذه البعثة ، واشتغال جماعة منهم بتلقين القرآن، وقد أثر عن الوليد بن مسلم[2] أنه قال:

«دخلت الشام عشرة آلاف عين رأت رسول الله ﷺ».[3]

وأما العراق فقد كانت أيضاً محل عناية أكبر في هذا الصدد، وقد أصبحت بعد تمصير البصرة والكوفة محط رحال أفواج من الصحابة، اتخذوها دار المقام، وقد دخل المصران فيما بينهما في حركة تنافس ظل يتنامى مع الزمن في جميع المجالات، وقد عني عمر بن الخطاب بكلا المصرين عناية زائدة. فأوفد إلى كل منهما جماعة من خيرة القراء للقيام بمهمة التعليم والتوجيه.

فأما البصرة فقد بعث إليها بعثة على رأسها المقرئ الكبير أبو موسى الأشعري[4] وأسند اليه مهمة التعليم والقضاء، ورسالته إليه في أصول القضاء

---

١- طبقات ابن سعد جـ ٢ص٢٥٦-٢٥٧.

٢- الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقي محدث الشام وعالمها ،روى القراءة عرضا عن يحيى بن الحارث الذماري ، وسمع الحروف من نافع بن أبي نعيم ، توفي سنه ١٩٥. ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٧ص ٤٧١ - والفهرست ص ٣٣٢ - وغاية النهاية جـ ٢ص٣٦٠ ترجمه ٣٤٠٧ .

٣- انظر تهذيب تاريخ دمشق لابن بدران جـ١ص٦٩

٤- أبو موسى الأشعري عبدالله بن قيس بن سليم اليمني الأشعري وفد على النبي ﷺ مع جماعة من قومه بمكة،ورجع إلى بلده، ثم وفد عليه مرة أخرى زمن خيبر مع خمسين رجلا من قومه ،ولزم المدينة، ثم ولاه عليه السلام مخاليف زبيد وذواتها إلى الساحل من بلاد اليمن، وولي لعمر وعثمان على البصرة والكوفة، وابتلي بالتحكيم في قضيةعلي ومعاوية بعد وقعة صفين، وتوفي سنة٤٤ أوبعدها. انظر ترجمته في الاستيعاب جـ٢ ص٣٦٣ – المعارف لابن قتيبة ص ٢٦٦ – تذكرة الحفاظ جـ١ /٢٣مرآة الجنان جـ ١ ص ١٢٠ – معرفة القراء الكبار جـ ١ ص ٣٧ طبقة ١ – غاية النهاية جـ١ ص٤٤٢.

مشهورة مستفيضة في كتب الأدب والآثار[1]، وقد خرج إلى البصرة في جماعة من خيرة القراء من الأنصار خاصة، وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن العربي في أحكامه أنه:

لما أراد عمر أن يبعث أبا موسى الأشعري إلى البصرة، عاملاً له عليها. قال له: إني أبعثك إلى أرض قد باض الشيطان فيها وفرخ، فالزم ما تعرف، ولا تبدل فيبدل الله بك، فقال:

«يا أمير المومنين، أعنّي بعدة من أصحاب النبي ﷺ، من المهاجرين الأنصار، فإني وجدتهم في هذه الأمة وهذه الأعمال، كالملح، لا يصلح الطعام إلا به. قال: فاستعن بمن شئت منهم، فاستعان بسبعة وعشرين رجلاً[2]، منهم أنس بن مالك وعمران بن حصين[3] وهشام بن عامر[4]، ثم خرج أبو موسى حتى أناخ بالبصرة.»[5]

وأما الكوفة فقد وجه عمر إليها أيضاً بعثة تعليمية هامة، وتقدم إلى أعضائها بوصية رواها الإمام ابن ماجة[6] في سننه بسنده عن قرظة بن كعب[7] قال:

---

١- انظرها في البيان والتبيين للجاحظ جـ ٢ ص ٤٨ – ٥٠ وفي الكامل للمبرد جـ ١ ص ٩- وبعضها في طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي ص ٣٩ – ٤٠.

٢- في الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ص ١١٨: «فوجّه معه عشرة من الأنصار فيهم أنس بن مالك والبراء بن مالك». وفي طبقات الفقهاء للشيرازي ذكر عبدالله بن المغفل، وقال: قال الحسن «هو أحد النفر العشرة الذين بعث الينا عمر ليفقهوا أهل البصرة».

٣- عمران بن حصين بن عبيدة أسلم هو وأبوه وأخته، وكان ينزل إلى المدينة وشهد مع النبي ﷺ بعض غزواته ونزل البصرة ومات بها. انظر الاصابة جـ ٣ ص ٢٧ – طبقات ابن سعد جـ٧ص ٩.

٤- هشام بن عامر الأنصاري حديثه في مسند أحمد جـ ٤ ص ١٩ – ٢١.

٥- انظر أحكام القرآن لابن العربي القسم ٣ ص ١٣٢٦.

٦- الإمام محمد بن يزيد الربعي القزويني صاحب السنن، انتقل إلى العراق فكتب الحديث بالبصرة والكوفة وبغداد ودخل الشام ومصر ومكة. توفي سنة ٢٧٣ . انظر وفيات الأعيان جـ ص٢٧٩ ترجمة ٦١٤.

٧- قرظة بن كعب الأنصاري مات في خلافة علي بالكوفة وهو صلى عليه. انظر ترجمته في طبقات الفقهاء ابن سعد جـ ٦ ص ١٧ – تاريخ بغداد جـ ١ ص ١٨٥ ترجمة ٢٣.

«لما سَيَّرَنا عمرُ إلى العراق، مشى معنا، وقال: أتدرون لم شيعتكم؟ قالوا: نعم تكرمةً لنا، قال: ومع ذلك، فإنكم تأتون أهل قرية، لهم دوي بالقرآن، كدوي النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث، فتشغلوهم، جردوا القرآن، وأقلوا الراوية عن رسول الله ﷺ، وأنا شريككم.»(١)

لقد كانت الكوفة مركز الثقل في انتشار القراءات، لكثرة من سكنها من قراء الصحابة، ويدل على ذلك قول عمر في وصفهم : «لهم دوي بالقرآن كدوي النحل». ومع وصول هذه البعثة التي تحدثنا عنها ، فإن مدرسة القراءة بها إنما وضحت معالمها بعد وصول المقرئ الكبير سيدنا عبدالله بن مسعود إليها سنة ٢١ حين أمره عمر بالانحدار إليها بعد أن كان في حمص(٢)، بعد عزله لعامله عليها سعد بن أبي وقاص(٣)، فأرسل عمر إلى أهل الكوفة:

«إني جعلت عليكم عماراً(٤) أميراً وعبدالله بن مسعود وزيراً ، وآثرتكم بابن مسعود على نفسي ، وإنهما من نجباء أصحاب رسول الله ﷺ»(٥).

ومع اهتمام عمر بهذه الأقطار، وإرساله من أرسله إليها من القراء، فإنه كان يرى وجوب الاحتفاظ لأهل المدينة بمجموعة من الرجال، لا يرى غَناء عن وجودهم بجانبه، إرصادا لما يحزبه من أمر، من قضاء أو مشورة، أو نازلة تحتاج إلى فتوى، و «قد كان القراء أصحاب مجلسه كهولاً وشباباً.»(٦)

---

١- سنن ابن ماجة جـ ١ ص ٩. ذكره الذهبي في تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٧ .

٢- انظر طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٨ .

٣-سعد بن مالك بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب القرشي من السابقين الأولين وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، ولي لأبي بكر وعمر، وفتح القادسية واختط الكوفة ووليها زمانا ، وكان أحد الستة الذين جعل عمر إليهم الشورى في الخلافة. مات سنة ٥٥ . ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ١٢ –وتاريخ بغداد جـ ١ ص ١٤٤ ترجمة ٤ – والاستيعاب جـ ٢ ص ١٨ – ٢٥ . ومرآة الجنان جـ ١ ص ١٢٨ – وغاية النهاية ١ ٢٠٤.

٤- عمار بن ياسر من الذين أوذوا في الله زمن أول الدعوة ، أسلم هو وأبوه وأمه سمية، وكانوا من المستضعفين قتل في وقعة صفين مع علي سنة ٣٧ . ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ١٤ - وحسن المحاضرة ١٩٢.

٥- طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٧ . انظر طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٤٢.

٦- ذكره الإمام يحيى بن شرف النووي في «التبيان في آداب حملة القرآن» ص ١٢ ، وقال : أخرجه البخاري.

ويشهد لما ذكرناه ما أخرجه ابن سعد في الطبقات قال:

«كان عمر يستخلف زيد بن ثابت في كل سفر يسافره ، كان يفرق الناس في البلدان ، ويوجههم في الأمور المهمة ، ويُطْلَب إليه الرجالُ المسَمَّون ، فيقال له: زيد بن ثابت ؟ فيقول : لم يسقط علي مكان زيدٍ ، ولكن أهل البلد يحتاجون إلى زيد فيما يجدون عنده فيما يحدث لهم ، ما لا يجدونه عند غيره.»[1]

وقد كان عمر يحتفظ بأُبيّ بن كعب فلا يوليه ولاية، حتى استغرب ذلك، وسأل عمر – فيما رواه ابن سعد – قائلا: « مالك لا تستعملني؟ قال : أكره أن يدنس دينك.»[2]

وكان بالمدينة بقية القراء كعلي وعثمان وتميم الداري[3] ومجمع بن جارية[4] وأبي هريرة[5] وعبدالله بن عباس وعبدالله بن السائب[6] وعبدالله بن عياش[7]

١- رواه ابن سعد بسنده عن عبدالرحمن بن قاسم عن أبيه ، انظر طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٣٥٩ – ٣٦٠.

٢- طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٤٩٩.

٣- تميم بن أوس الداري كان نصرانياً قدم المدينة سنة ٩ فأسلم ، وهو معدود في الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ ، وقد أقامه عمر مع أبيّ بن كعب ليصليا بالناس التراويح في رمضان ، كما في الموطأ جـ ١ ص ١١٤ – ١١٥. مات تميم بالشام . انظر طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ٤٠٨ – الإصابة جـ ١ ص ١٧٦.

٤- مجمع بن جارية بن عامر ، قال ابن سعد في الطبقات جـ ٦ ص ٥٢ : «روى الكوفيون أنه جمع القرآن على عهد النبي ﷺ». وفي القرطبي جـ ١ ص ٥٠ عن ابن الأنباري بسنده عن أبي إسحاق السبيعي «أن عبدالله بن مسعود تعلم منه بقية القرآن» يعني ما فاته تعلمه من النبي ﷺ.

٥- أبو هريرة أشهر الأقوال في أسمه أنه عبدالرحمن بن صخر الدوسي ، أسلم زمن خيبر وهو أوسع الصحابة رواية للحديث بعد عبدالله بن عمرو ، توفي سنة ٥٨ . ترجمه في الاستيعاب جـ ٤ ص ٢٠٠ = ٢٠٧ وفي الإصابة جـ٤ ص ٢٠٠ – ٢٠٨ – ومعرفة القراء الكبار جـ ١ ص ٤٠ الطبقه ٢ – وغاية النهاية جـ ١ ص ٣٧٠ .

٦- عبدالله بن السائب بن أبي السائب المخزومي ، قرأ على أبيّ ، وقرأ عليه أهل مكة ومنهم عبدالله بن كثير ومجاهد بن جبر . أنظر الاستيعاب جـ ٢ ص ٣٧٣ – طبقات ابن سعد ج. ٥ ص ٤٤٥ – معرفة القراء الكبار جـ ١ ص ٤٣٢ الطبقة ٢ ٠ وغاية النهاية جـ ١ ص ٤١٩.

٧- عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي ، روى عن النبي ﷺ ، وهو من أكبر القراء في المدينة ، وعليه قرأ مولاه أبو جعفر يزيد بن القعقاع أحد القراء العشرة ، وقرأ عليه أيضاً شيبة بن نصاح ويزيد بن رومان ومسلم بن جندب وجماعة وذكر الذهبي أنه أول من وضع قواعد في النحو بإشارة علي . توفي سنة ٦٩ . انظر معرفة القراء الكبار جـ١ ص ٤٩ الطبقة ٢ – الاستيعاب جـ ٢ ص ٣٥٥.

وأمهات المؤمنين، وغير هؤلاء من قراء الصحابة.

وقد تركزت القراءات بالمدينة في عهد عمر في مدرستين اثنتين، تكونان التيار الضخم الذي يصب في مساره الكبير أهمُّ روافد المدارس الأخرى الناشئة في بقية الأمصار ، وأعني بهما ، مدرستي أُبيّ وزيد. اللتين كان لهما الشفوف على غيرهما طَوالَ عهد الراشدين ، وعلى الرغم من التقائهما معاً في كثير من السمات واشتراكهما في الفروع التي تفرعت عنهما ، بسبب انتماء أكثر الآخذين فيهما إلى كلتا المدرستين :

## أ – مدرسة أُبيّ بن كعب[1]

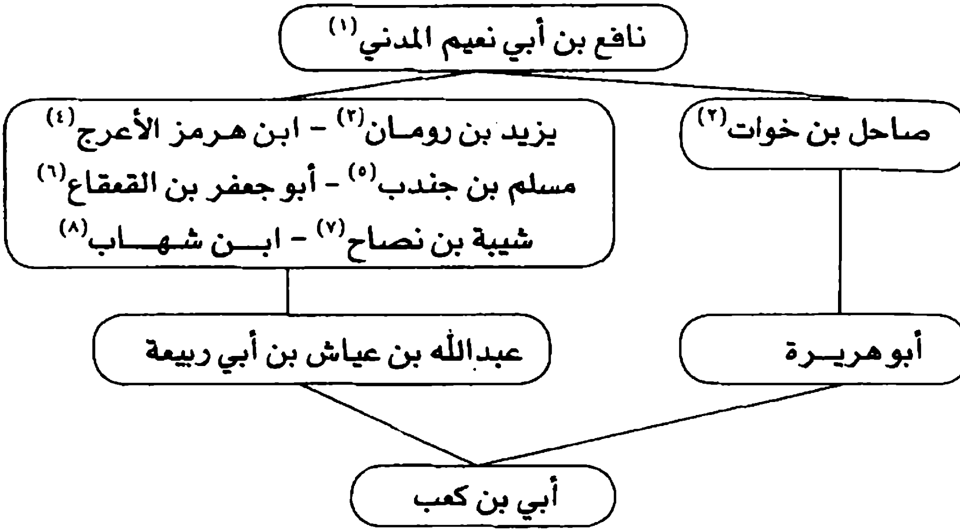
كان أُبيّ أقرأ الصحابة لكتاب الله[2] وأكثرهم تفرغاً للقراءة والإقراء زمن خلافة عمر، وقد سارت في الآفاق قراءته، ودخلت عامة الأمصار الإسلامية، وأقبل على الأخذ عنه صغار الصحابة كعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبدالله بن عياش ، وعبد الله بن السائب، وأتم عليه كبار الصحابة والتابعين ما فاتهم من القرآن، ولم يشاركه في مقامه بالمدينة في هذا الشأن إلا زيد بن ثابت، وقد امتدت قراءته في الأمصار عن طريق من ذكرنا من تلامذته، إلى أن اتصلت بالقراء السبعة فيما عدا إمام القراءة بالشام عبدالله بن عامر، وهذه أهم طرقهم إليه:

---

١- أُبيّ بن كعب بن قيس بن عبيد النجاري الأنصاري أقرأ الأمة . شهد بدراً والمشاهد كلها ، صحح ابن سعد في الطبقات وفاته سنة ٣٠ لذكره في لجنة تدوين المصاحف في عهد عثمان . انظر ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٤٩٨ – الإصابة جـ ١ ص ٣٢ – المعارف لابن قتيبة ص ٢٦١ – معرفة القراء الكبار جـ ١ ص ٣٢ الطبقة ١ – تذكرة الحفاظ جـ١ ص١٦ – ١٧ .

٢- قال في الإصابة جـ ١ ص ٣٢ : «كان عمر يسميه سيد المسلمين ، ويقول : أقرؤنا أُبيّ» .

## أ - الفرع المدني:




١- نافع بن أبي نعيم إمام أهل المدينة وأحد القراء السبعة «البدور» ستأتي ترجمته مع السبعة.

٢- صالح بن خوات بن جبير بن النعمان ، قتل يوم الحرة سنة ٦٢. انظر طبقات ابن سعد جـ٥ / ٢٥٩.

٣- يزيد بن رومان أبو روح المدني مولى آل الزبير بن العوام ، كان فقيها قارئا محدثا يحدث عنه مالك بن أنس ومحمد بن إسحاق وجماعة ، توفى بعد سنة ١٢٠. انظر معرفة القراء الكبار جـ١ ص٦٢ - ٦٣ الطبقة ٣ - غاية النهاية جـ٢ ٣٨١ ترجمة ٣٨٧٦.

٤- عبدالرحمن بن هرمز الأعرج المدني مولى محمد بن ربيعة ، كان يكتب المصاحف ، وذكروا أنه أول من وضع العربية «النحو» يعني من المدنيين ، أخذ ذلك عن أبي الأسود الدؤلي ، خرج إلى الاسكندرية فمات بها سنة ١١٧. انظر طبقات ابن سعد جـ٥ ص٢٨٣ - معرفة القراء الكبار جـ١ ص٦٢ - ٦٣ طبقة ٣.

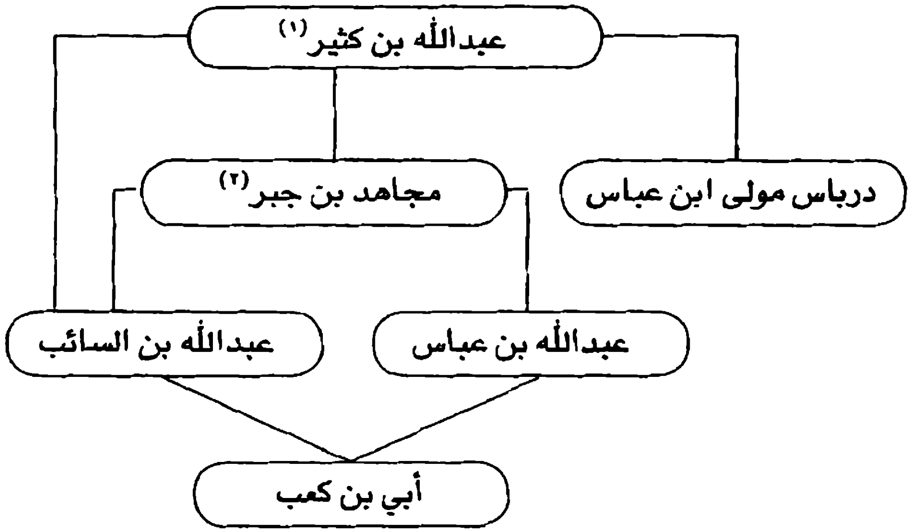
٥- مسلم بن جندب المدني القاص، قال الجاحظ في البيان والتبيين جـ٢ ص٣٦٧ - ٣٦٨:ومن كبار القصاص ثم من هذيل : مسلم بن جندب ، وكان قاص مسجد النبي ﷺ ، وكان إمامهم وقارئهم ، وفيه يقول عمر بن عبدالعزيز : من سره أن يسمع القرآن غضا ، فليسمع قراءة مسلم بن جندب. انتهى كلام الجاحظ. توفى سنة ١١٠. ترجمته في معرفة القراء الكبار جـ١ص٦٥ - ٦٦ الطبقة ٣ غاية النهاية جـ ٢ ص٢٩٧ ترجمة ٣٦٠٠.

٦- أبو جعفر المدني يزيد بن القعقاع مولى عبدالله بن عياش وأحد القراء العشرة المشهورين توفى سنة ١٢٧ وقيل بعدها. انظر معرفة القراء الكبار جـ١ ص٥٨ - ٦٢ الطبقة ٣ - المعارف لابن قتيبة ٥٢٨.

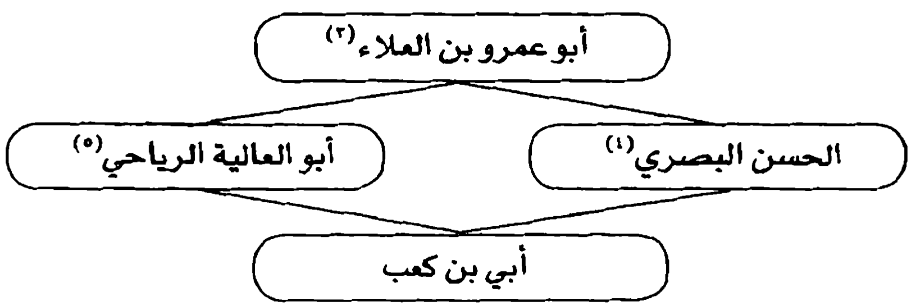
٧- شيبة بن نصاح بن سرجس مولى أم سلمة كان قاضي المدينة وإمامها في القراءة في زمنه. توفى سنة ١٣٠ انظر المعارف ج ص ١٣٧ - معرفة القراء الكبار جـ١ ص٦٤ الطبقة ٣ - غاية النهاية جـ١ ص٣٢٩.

٨- محمد بن مسلم الزهري تقدمت ترجمته بهامش ص٤٦

ب - الفرع المكي:

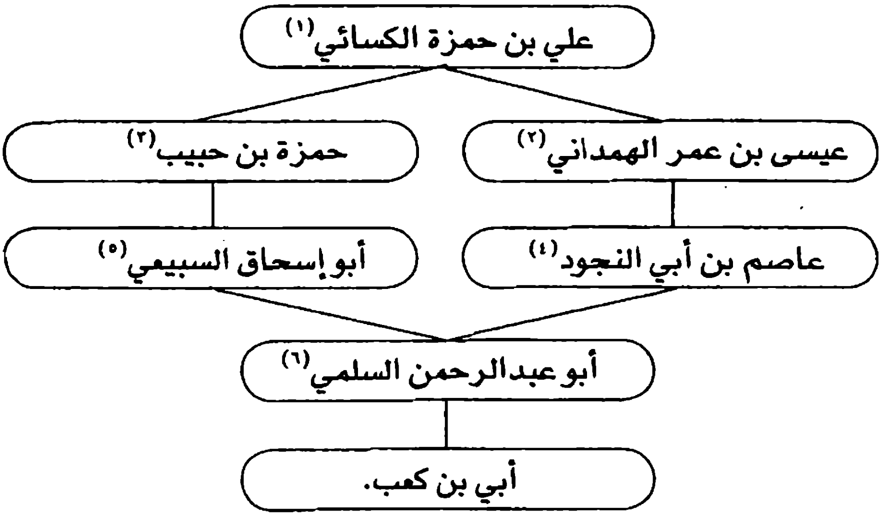



جـ - الفرع البصري:




١- ستأتي ترجمته مع القراء السبعة.
٢- مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي المفسرستأتي ترجمته.
٣- ترجمته ستأتي مع القراء السبعة.
٤- الحسن بن أبي الحسن البصري أبو سعيد مولى زيد بن ثابت ، أحمد الأئمة الأعلام ، فقيه مقرئ مفسر محدث توفى سنة ١١٠. ترجمته في المعارف ص٤٤٠ - طبقات ابن سعد جـ٧ ص١٥٦- وفي طبقات الفقهاء للشيرازي ص٨٧ - ومرآة الجنان جـ١ ص٢٢٩- وطبقات المفسرين للداودي جـ١ / ١٤٧.
٥- أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي ستأتي ترجمته.

**د - الفرع الكوفي:**




١- ستأتي ترجمته مع السبعة.

٢- عيسى بن عمر الهمداني الكوفي مولى بني أسد ، قرأ على عاصم وطلحة بن مصرف والأعمش ، وقرأ عليه الكسائي ، وكان مقرئ الكوفة بعد حمزة ، مات سنة ١٥٦ ، انظر معرفة القراء الكبار جـ١ ص٩٩ طبقة رقم ٤. – وغاية النهاية جـ١ ص ٦١٢.

٣- ستأتي ترجمتة مع السبعة.

٤- ستأتي ترجمتة مع السبعة.

٥- أبو إسحاق عمرو بن عبدالله بن أحمد السبيعي الهمداني الكوفي التابعي ، مات عن مائة سنة عام ١٢٩. انظر طبقات ابن سعد جـ٦ ص٣١٣ – حلية الأولياء جـ٤ ص٣٣٨ – غاية النهاية جـ١ ص٦٠٢ – معرفة القراء الكبار جـ١ ص٩٩ طبقة ٤.

٦- عبدالله بن حبيب السلمي مقرئ الكوفة ، ولد في حياة النبي ﷺ ، وقرأ على جماعة من الصحابة وأقرأ بمسجد الكوفة إلى عهد الحجاج ، ومات سنة ٧٣. ترجمته في طبقات ابن سعد جـ٦ ص١٧٢ – وحلية الأولياء جـ٤ ص١٩١ – ومعرفة القراء جـ١ ص٤٥ الطبقة ٢ – والمعارف ص٥٢٨. وتذكرة الحفاظ جـ١ ص٥٨ – وغاية النهاية جـ١ ص٤١٢-.

هذه أهم امتدادات مدرسة أُبيّ في الأمصار إلى القراء السبعة، استقيتها من مصادر تراجم القراء السبعة[1] وقد رأينا أنها تمتد فيما عدا الشام الذي ليس لإمام القراءة به من السبعة إسناد إليه، وعلى الجملة فقد ذكر الإمام بدر الدين الزركشي في البرهان فائدة قال فيها:

قيل: قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو راجعة إلى أُبيّ، وقراءة ابن عامر إلى عثمان،[2]، وينبغي أن نذكّر مع هذا بتداخل أثر هذه المدرسة مع غيرها بسبب قراءة القارئ في أكثر من مدرسة، كما هو الأمر بالنسبة لأبي عبدالرحمن السلمي الذي قرأ عليه وعلى زيد وعلي و عثمان وابن مسعود.

### ب - مدرسة زيد بن ثابت[3]:

تلتقي هذه المدرسة مع مدرسة أُبيّ في كثير من السمات ، وحتى ليكادان يشكلان مساراً واحداً، لما أشرنا إليه ، من أخذ رجال المدرستين على كلا الرجلين، أو على من قرأ عليهما.

إلا أن ما امتازت به مدرسة زيد، هو أنها ملتزمة تمام الالتزام بما أجمع الصحابة عليه ، وكتبوه في المصحف الإمام في عهد عثمان كما سيأتي. ومعلوم أن قراءة زيد كانت عمدتهم في تدوين ما دونوه، حتى ذهب جمهور العلماء إلى أن قراءته هي التي جمع عليها الناس[4]، وفي ذلك يقول الإمام الداني في الأرجوزة المنبهة:

---

١- ومنها معرفة القراء وغاية النهاية.

٢- البرهان جـ١ ص٣٢٨.

٣- زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري كاتب الوحي بين يدي النبي ﷺ ، وجامع القرآن لأبي بكر ، والمشرف على لجنة تدوين المصحف الإمام ، شارك في المشاهد التي بعد بدر ، وأصيب يوم اليمامة بسهم ، وتوفى سنة ٤٥ وقيل بعدها. انظر ترجمته في الاستيعاب جـ٣ ص٤٢٣ – وتذكرة الحفاظ جـ١ ص٣٠– ومعرفة القراء الكبار جـ١ ص٢٥ الطبقة ١ – وغاية النهاية جـ١ ص٢٩٦ – ومرآة الجنان جـ١ ص١٢١–.

٤- خالف في ذلك العلامة أبو محمد بن حزم في كتاب الإحكام في أصول الأحكام جـ١ ص٤٥٤.

فالناس مجمعون في الأقطار - على قِراة زيدٍ الأنصاري[1]

وقد نقل الإمام الزركشي عن أبي عبدالرحمن السلمي أنه قال :

«كانت قراءة أبي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والأنصار واحدة ، كانوا يقرأون القراءة العامة ، وهي القراءة التي قرأها رسول الله ﷺ على جبريل مرتين ، في العام الذي قبض فيه.»[2]

ويشهد لهذا أيضاً ما ذكره الإمام الذهبي[3] عن أبي عبدالرحمن السلمي «أنه قرأ على عثمان رضي الله عنه عامة القرآن، وكان يسأله عن القرآن ، وكان وليَّ الأمرِ، فيشق عليه، فيقول: إنك تشغلني عن أمر الناس، فعليك بزيد بن ثابت ، فإنه يجلس للناس ويتفرغ لهم ، ولست أخالفه في شيء من القرآن، قال: وكنت ألقى علياً رضى الله عنه ، فأسأله فيخبرني ، ويقول: عليك بزيد بن ثابت، فأقبلت على زيد ، فقرأت عليه القرآن ثلاث عشرة سنة.»[4]

وفي طبقات ابن سعد «أن زيدا ظل مترئساً في المدينة في القضاء والفتيا والقراءة والفرائض في عهد عمر وعثمان وعلي في مقامه في المدينة، وبعد ذلك بخمس سنين، حتى ولي معاوية سنة أربعين ، فكان كذلك حتى توفي زيد سنة ٤٥.»[5]

وسوف نرى أن مدرسة زيد ستشكّل في النهاية التيار الرسمي الذي سيكون حكماً على قبول القراءات أو ردّها ، وذلك بعد تدوين مصاحف الأمصار، وجمع الناس على القراءة بما هو مرسوم فيها كما سيمر بنا.

---

١- يعني «قراءة» وخففها لضرورة الوزن.

٢- نقلة الزركشي في البرهان جـ١ ص٢٣٧.

٣- الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي صاحب المصنفات السائرة في التاريخ والتراجم والرجال. توفى سنة ٧٤٨. ترجمته في فوات الوفيات جـ٢ ص١٨٣ - غاية النهاية جـ٢ ص٧١.

٤- معرفة القراء الكبار جـ١ ص٤٨.

٥- طبقات ابن سعد جـ٢ ص ٣٦٠.

## جـ - مدرسة أبي موسى الأشعري بالبصرة :

نشأت في البصرة مدرسة أبي موسى بعد أن وصل إليها مبعوثاً من قبل عمر ، ولما وصل إليها خطب في أهلها قائلا :

«إن أمير المؤمنين بعثني اليكم ، أعلّمكم كتاب ربكم، وأنظف لكم طرقكم.»[1]

وكان عمر يتتبع جهوده في الإقراء والتوجيه، ويسأل الواردين عليه عن مدى توفيقه في مهمته ، وقد أخرج ابن سعد بسنده عن أنس بن مالك قال:

««بعثني الأشعري إلى عمر ، فقال لي : كيف تركت الأشعري ؟ فقلت له : تركته يعلم الناس القرآن ، فقال : أما إنه لكيّس ، ولا تسمعها إياه.»[2]

ولهذه الكياسة التي وصفه بها عمر ، أحبه أهل البصرة حباً زائدا، واهتموا بمصحفه ، وكانوا يسمون مصحفه «لباب القلوب» [3]

وقد اتخذ أبو موسى نظام الحلق في التعليم والإقراء ، كما يستفاد مما ذكره الحاكم في المستدرك وأبونعيم في الحلية بسندهما عن أبي رجاء العطاردي[4] قال:

كان أبو موسى يطوف علينا في هذا المسجد – مسجد البصرة– ، نقعد حلقا ،

---

١- انظر الحلية لأبي نعيم جـ١ ص٢٥٧.

٢- الطبقات الكبرى لابن سعد جـ٢ ص٣٤٥.

٣- الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ٣ ص٥٥.

٤- أبو رجاء عمران بن طلحان العطاردي من كبار التابعين ، أسلم زمن فتح مكة ، ولم ير النبي ﷺ ، ثم رحل ، وسمع من عمر وعلي وعمران بن حصين ، وعرض القرآن على أبي موسى وعرضه على عبدالله بن عباس ، مات سنة ١٠٧ – أو ١٠٨. انظر ترجمته في طبقات ابن سعد جـ٧ ص١٣٨ – وتذكره الحافظ جـ١ ص٦٦ – وغاية النهاية جـ١ ص[illegible]

فكأني أنظر إليه بين بردين أبيضين ، يقرئني القرآن، ومنه أخذت هذه السورة: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق.﴾ [1]

ويبدو أن هذه الحلق سرعان ما تضخمت ، وغدا عدد القراء فيها كبيراً ، يدل على ذلك ما رواه تلميذه أبو الأسود الدؤلي[2] «أنه دعا القراء إلى الاجتماع، وقال: لا تُدخلوا عليَّ إلا من جمع القرآن ، قال أبو الأسود: فدخلنا عليه، ونحن زهاء ثلاثمائة، فوعظنا، وقال: أنتم قراء البلد، فلا يطولن عليكم الأمد، فتقسو قلوبكم.» [3]

وقد امتاز قراء هذه المدرسة بالاشتغال بالمباحث اللغوية ، إلى جانب اشتغالهم بالقراءات ، إذ يعود إلى مجموعهم الفضل في وضع القواعد ، وتطوير نظام الكتابة ، ووضع النقط في المصاحف كما سيأتي.

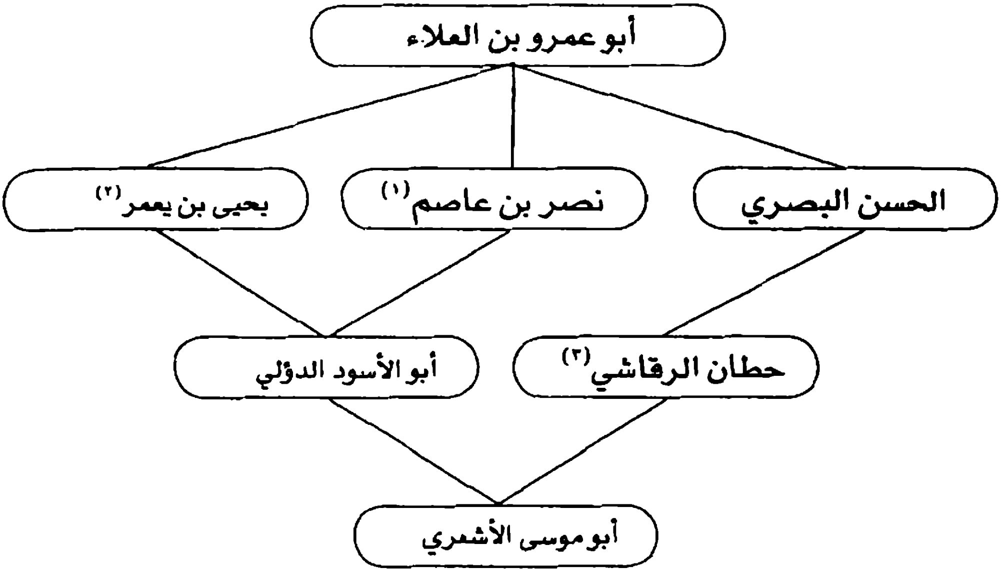
ونشير إلى ان طائفة منهم قد سلكوا في اختياراتهم للحروف التي يقرأون بها مسالك لغوية ، فاعتبروا بذلك من قراء الشواذ كما سيأتي ، وهذا رسم يصل بين أبي موسى وأبي عمرو بن العلاء أحد السبعة وإمام القراءة بالبصرة في المائة الثانية :

---

١- سورة العلق . الآية رقم ١.

٢- أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي البصري الكناني ، من كبار التابعين ، أدرك الجاهلية ، وروى عن عمر وعلي ومعاذ وأبي ذر وابن مسعود والزبير وأبي بن كعب وعمران بن حصين وابن عباس وجماعة ولي قضاء البصرة ، وكان من أعلم الناس بلغة العرب ، واليه تنسب الأولية في وضع قواعد النحو. توفى سنة ٦٩. ترجمته في طبقات ابن سعد جـ٧ ص٩٩ – مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص٢٥ – والإصابة جـ٢ ص٢٣٢ – والبيان والتبيين للجاحظ جـ٢ ص٣٢٤ – وغاية النهاية جـ١ ص٣٤٥.

٣- انظر حلية الأولياء جـ١ ص٢٥٧ – و المطالب العالية لابن حجر جـ٣ ص٢٩٧.




## د - مدرسة ابن مسعود بالكوفة :

كانت الكوفة كما قدمنا محط رحال أفواج من الصحابة منذ تمصيرها ، ولذا فقد كان عدد القراء بها كبيراً ، ومع هذا فإن نهضة القراءة بها لم تتضح معالمها

---

١- نصر بن عاصم الليثي ويقال الدؤلي البصري النحوي الذي يقال له نصر الحروف ، ذكر الإمام الداني في المحكم ص ٦ أن نصرا أول من نقط المصاحف وعشرها وخمسها ، ويعنون بالنقط علامات الشكل بالنقط. قرأ نصر على أبي الأسود الدؤلي ، وروى القراءة عنه أبو عمرو وعبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي ، وسمع منه قتادة ، وروى عنه الحروف مالك بن دينار ، وثقه النسائي ، وقال أبو داود: كان من الخوارج. توفي قبل سنه ١٠٠. انظر ترجمته في معرفة القراء الكبار جـ ١ ص ٥٨ الطبقة ٣ – وغاية النهاية جـ ٢ ص ٣٣٦ ترجمة رقم ٣٧٢٨ –

٢- يحيى بن يعمر الليثي الكناني البصري . قال ابن سعد: « وكان نحوياً صاحب علم بالعربية والقرآن ثم نزل خراسان ، فنزل مرو ، وولي القضاء بها ، وكان ثقة » قال ابن الجزري : تابعي جليل ، عرض على ابن عمر وابن عباس وعلى أبي الأسود الدولي، وعرض عليه أبو عمرو بن العلاء وعبدالله بن أبي إسحاق توفي سنة ٩٠» . انظر طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ٣٦٨ – وغاية النهاية جـ ٢ ص ٣٨١ ترجمة ٣٨٧٣–

٣- حطان بن عبدالله الرقاشي البصري ويقال السدوسي ، قرأ على أبي موسى ، وسمع من علي وعبادة ابن الصامت ، وروى عنه الحسن وأبو مجلز لاحق بن حميد ، وكان كبير القدر صاحب ورع كما يقول الذهبي. قال: مات فيما أحسبه سنة نيف وسبعين. انظر معرفة القراء الكبار للذهبي جـ ١ ص ٤٣. وانظر غاية النهاية جـ ١ ص ٢٥٣.

إلا بعد وصول عبدالله بن مسعود إليها سنة ٢١ بعد أن كان بمدينة حمص[١].

فلم يكد يستقر به المقام ، حتى التف عليه عدد كبير من الأتباع من أفاضل التابعين من قراء الكوفة ، وبلغ من إعجابهم به، « أنهم لم يكونوا يقدمون عليه أحداً من أصحاب النبي ﷺ في العلم»[٢] ولم يخرج منها سنة ٣٢ حتى خلفها تعج بالفقهاء والقراء من كبار أصحابه ، الذين وصفهم سعيد بن جبير[٣] بقوله: «كان أصحاب عبدالله سرج هذه القرية».[٤]

ومن أبرزهم علقمة النخعي[٥] والأسود[٦] ومسروق[٧] وزر بن حبيش[٨] وأبو

---

١- انظر طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٨.

٢- تذكرة الحفاظ للذهبي جـ ١ ص١٤.

٣- سعيد بن جبير بن هشام الأسدي مولى بني والبة من الطبقة ٣ من التابعين ، قرأ القرآن على ابن عباس وقرأ عليه أبو عمرو بن العلاء والمنهال بن عمرو . وكان يقال له جهبذ العلماء ، خرج مع ابن الأشعث فيمن خرج من العلماء والقراء على الحجاج الثقفي ، ولما قتل ابن الأشعث اختفى سعيد . وتنقل في الري وغيره حتى ظفر به الحجاج فقتله سنة ٩٥، وبقتله انتهى عهده فقد مات بعده بقليل. انظر ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٢٥٧ – معرفة القراء الكبار جـ ١ ص ٥٦ الطبقة ٣ – طبقات المفسرين للدوادي جـ ١ ص ١٨٢ ترجمة ١٨١ – غاية النهاية جـ ١ ص ٣٠٥ – وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٧١ ترجمة ٢٦١.

٤- طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ١٠.

٥- علقمة بن قيس بن عبدالله النخعي الفقيه المقرىء، أوسع أصحاب ابن مسعود أثراً في القراءة والتفسير والفقه ، روى عن عمر وعثمان وعلي وطائفة. وتوفي سنة ٦٢. ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٨٦ – تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٤٨ – معرفة القراء الكبار جـ ١ ص ٤٤ الطبقة ٢ – غاية النهاية جـ ١ ص ٥١٦.

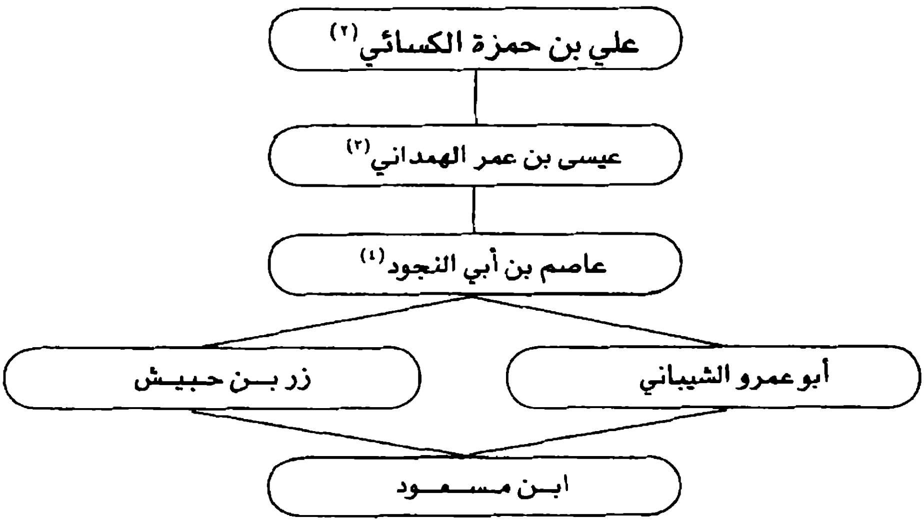
٦- الأسود بن يزيد أبو عمرو النخعي الفقيه الزاهد عالم الكوفة وابن أخي علقمة الآنف الذكر ، أخذ عن معاذ وابن مسعود وحذيفة وبلال والكبار ، وحدث عن الخلفاء الأربعة وعائشة ، وقرأ عليه يحيى بن وثاب وأبو إسحاق السبيعي ، وتوفي سنة ٧٥. ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٧٠ – تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٥٠ – ٥١ –معرفة القراء الكبار جـ ١ ص ٤٣ -٤٤ – غاية النهاية جـ ١ ص ١٧١ –.

٧- مسروق بن الأجدع بن مالك ، روى عن عمر وعلي و ابن مسعودوأبي بن كعب وخباب وعائشة وغيرهم، توفي سنة ٦٣. ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٧٦ – غاية النهاية جـ ٢ ص ٢٩٤ ترجمة ٣٥٩١.

٨- زر بن حبيش الأسدي الكوفي عاش ١٢٠ سنة ، قرأ علي ابن مسعود وعمر بن الخطاب وأبي بن كعب وحدث عن جماعة ، وقرأ عليه عاصم ، وكان من أعرب الناس. توفي سنة ٨٢. ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٦/ ١٠٤ الاستيعاب جـ ١ ص ٥٧٠ – تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٥٧ – غاية النهاية جـ ١ ص ٢٩٤. تذكرة الحفاظ ١/ ٥٧.

عمرو الشيباني[1] وينبغي أن نشير إلى أن قراءته قد أصبحت بعد الإجماع على المرسوم في المصحف العثماني تعتبر قراءة شاذة ، ومع هذا فقد صحت عنه قراءة موافقة لقراءة الجماعة ، وهي التي قرأبها عاصم بن أبي النجود على زر بن حبيش ، ولكل من حمزة و الكسائي أسانيد متصلة به من طرق عديدة ، وهذه طرق الثلاثة إليه:

**أ- إسناد عاصم و الكسائي من طريق عاصم إليه:**



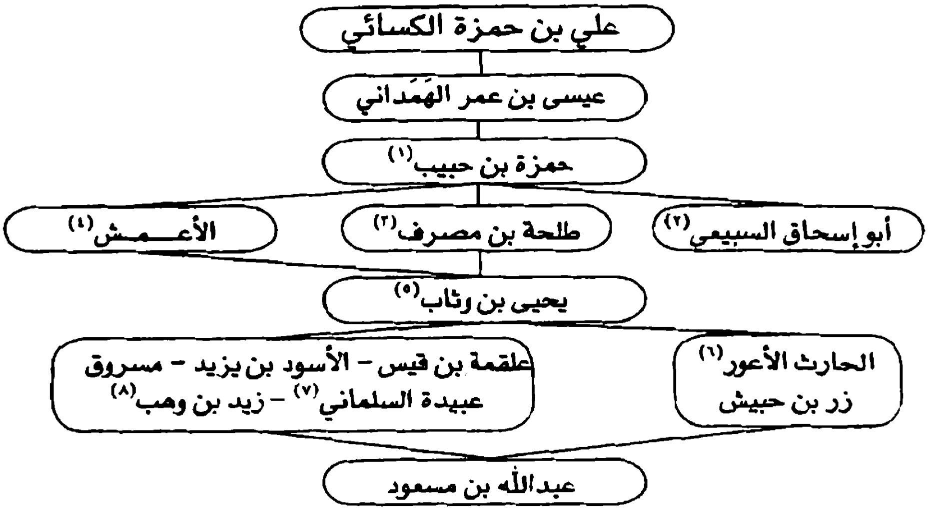

١- أبو عمرو سعد بن اياس الشيباني ، روى عن عمر وعلي وحذيفة وقرأ على ابن مسعود ، وعليه عاصم بن أبي النجود والأعمش . ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ١ ص ١٠٤ - تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٦٨ - غاية النهاية جـ ١ ص ٣٠٢ -.

٢- ستأتي ترجمته مع القراء السبعه.

٣- تقدمت ترجمته في مدرسة أبيّ.

٤- ستأتي ترجمته مع القراء السبعة.

## أ- إسناد حمزة بن حبيب والكسائي من طريقه إليه:




---

١- ستأتي ترجمته مع السبعة.

٢- تقدمت ترجمته في مدرسة أبيّ.

٣- طلحه بن مصرف اليامي الهمداني المتوفي سنة ١١٢. ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٣٠٨ – المعارف لابن قتيبة ص ٥٢٩ – حلية الأولياء لأبي نعيم جـ ٥ ص ١٤ – غاية النهاية جـ ١ ص ٣٤٣ – مرآة الجنان لليافعي جـ ص ٢٤٣.

٤- سليمان بن مهران الأعمش الأسدي مولاهم الكوفي المقرئ المحدث ، أحد قراء الشواذ وشيخ حمزة ابن حبيب. توفي سنة ١٤٨. ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٣٤٢ – المعارف لابن قتيبة ص ٥٠٠ – حلية الأولياء جـ ٥ ص ٤٦ – معرفة القراء الكبار جـ ١ ص ٧٨ الطبقة ٣ – تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٥٤ – وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٤٠٠ ترجمة ٢٧١ – غاية النهاية جـ ١ ص ٣١٥ –.

٥- يحيى بن وثاب مولى بني كاهل الأسدي ، قال ابن سعد: كان ثقة قليل الحديث صاحب قرآن «» روى عن ابن عباس وابن عمر ، وعن مسروق وعبيدة السلماني وزر بن حبيش وأبي عبد الرحمن السلمي وأبي عمرو الشيباني وعلقمة والأسود ، وقرأ على جماعة منهم ، وقرأ أيضا القرآن على عبيد بن نضيلة. وقرأ عليه الأعمش وطلحة بن مصرف اليامي ، وأبو حصين الأسدي وحمران بن أعين، وحدث عنه عاصم وجماعة توفي سنة ١٠٣. ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٣٠٠ – معرفة القراء الكبار جـ ١ ص ٥١ الطبقة ٣ – المعارف ص ٥٢٩ – غاية النهاية جـ ٢ ص ٣٨٠ ترجمة ٣٨٧١ – مرآة الجنان جـ ١ ص ٢١٢.

٦- الحارث بن عبدالله الأعور الهمداني الكوفي الفقيه المتوفي سنة ٦٥. ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٦ ص١٦٨ غاية النهاية جـ ١ ص ٢٠١ – العبر للذهبي جـ ١ ص ٧٣ – مرآة الجنان جـ ١ ص ١٤١.

٧- عبيدة السلماني ابن قيس المرادي أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين وهاجر في زمن عمر ، وروى عنه وعن علي وعبدالله ، ومات سنة٧٢. انظر طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٩٣ – الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٢ ص ٤٣٦ – تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٥٠.

٨- زيد بن وهب الجهني ، روى عن عمر وعلي وعبدلله وحذيفة وشهد مع علي مشاهده ، وتوفي في ولاية الحجاج. انظر طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ١٠٢ – ١٠٣.

وسنعود في الباب الثالث بحول الله لنرى المسار الذي سارت فيه الروايه عنه وموقف العلماء من القراءات والحروف التي تسند إليه مخالفة لما رسم في المصحف العثماني، كما سنرى كيف وقفت مدرسته في القراءة من المصحف عند وصوله إلى الكوفة في حياة ابن مسعود وبعدها فيما نستقبله من البحث بحول الله.

وأما بلاد الشام فقد انتشرت فيها القراءة لهذا العهد على أيدي جماعة من الصحابه الذين دخلوها، أو انتدبوا إليها بهدف التعليم ، وكان ازدهار القراءة بها في مركزين:

أ – مدينة حمص، وكان بها معاذ بن جبل كما قدمنا ، وقد أخذت عنه القراءة، كما أخذ عنه الفقه والفتيا ، روى ابن سعد عن أبي مسلم الخولاني[1] قال:

«دخلت مسجد حمص ، فإذا فيه نحو من ثلاثين كهلاً من أصحاب النبي ﷺ، واذا فيهم شاب أكحل العينين ، براق الثنايا ، ساكت لا يتكلم ، فإذا امترى القوم في شيء ، أقبلوا عليه ، فسألوه ، فقلت لجليس لي : من هذا؟ قال : معاذ بن جبل.»[2]

وقد أرسل عمر بعد معاذ إلى الشام عبد الرحمن بن غنم[3] ليفقه الناس[4]، وقد لزم معاذاً حتى عُرف بصاحب معاذ ، لأنه لزمه منذ بعثه رسول الله ﷺ

---

١- أبو مسلم عبدالله بن ثوب الخولاني من أهل البصرة، قال ابن سعد : كان ثقة، توفي في خلافة يزيد بن معاوية طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ٤٤٨.

٢- طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ٥٨٩ – ٥٩٠ – وتذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٠.

٣- عبد الرحمن بن غنم الأشعري أدرك الجاهلية وأسلم على عهد رسول الله ﷺ ولم يره ، ولازم معاذاً حتى عرف بصاحب معاذ ، وهو الذي فقه عامة التابعين بالشام ، وكان له جلالة وقدر، مات سنة ٧٨ . انظر طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ٤٤١ – والاستيعاب جـ ٢ ص ٤١٦ – ٤١٧.

٤- طبقات ابن سعد الجزء والصفحة المذكورة. وكذا الاستيعاب.

إلى اليمن إلى أن مات. وكان للمقداد بن عمرو[1] أيضاً تأثير واسع في القراءة بحمص، وقد أخذ عنه عامة أهلها[2].

ب – مدينة دمشق، أثر في القراءة في دمشق جماعة من الصحابة وردوا عليها، منهم أبو أيوب الأنصاري وواثلة بن الأسقع[3]، وفضالة بن عبيد[4] وجماعة قرأوا على أُبيّ بن كعب ، ولكن مركز الثقل في القراءة المنظمة كان في «مدرسة أبي الدرداء»[5].

## هـ - مدرسة أبي الدرداء:

تحتفظ لنا بعض المصادر بصورةٍ مثيرةٍ عن هذه المدرسة، تمثل أسلوباً ناضجاً في التعليم وطريقته، أخرج الحافظ ابن عساكر[6] في تاريخ مدينة دمشق، بسنده عن أبي عبدالله مسلم بن مشكم[7] قال :

---

١- المقداد بن عمرو واشتهر بابن الأسود باسم الأسود بن عبد يغوث القرشي ، وكان تبناه في الجاهلية. فنسب إليه، كان أحد الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ ، أسلم من السابقين ، وشهد المشاهد كلها ، ونزل مدينة حمص وكان يغزو منها ويقرئ اهلها. مات بالمدينة سنة ٣٣. ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٣ ص ١٦١ – وحلية الأولياء جـ ١ ص ١٧٦ – وحسن المحاضرة جـ ١ ص ٩٩-.

٢- انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير جـ ٣ ص ٥٥.

٣- واثلة الليثي من القراء أصحاب الصفة ، قرأ عليه يحيى بن الحارث الذماري تلميذ ابن عامر، توفي سنة ٨٥. ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ٣٠٧ – غاية النهاية جـ ٢ ص ٣٥٨ ترجمة ٣٧٩٧.

٤- فضالة بن عبيد قاضي دمشق لمعاوية رضي الله عنهما توفي سنة ٥٣. انظر حسن المحاضرة جـ ٩٥/١.

٥- أبو الدرداء عويمر بن زيد على المشهور من بني الحارث بن الخزرج الأنصاري ، كان تاجراً قبل إسلامه وقد آخى النبي ﷺ في المدينة بينه وبين سلمان الفارسي ، وجمع القرآن حفظاً في حياة النبي ﷺ ، وأرسله عمر إلى الشام معلماً ومفقها ، وولاه عثمان القضاء أيضاً بدمشق. ولم يزل كذلك حتى مات سنة ٣٢. انظر ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٧ ص ٣٩١ – والمعارف ص ٢٦٨ – والاستيعاب جـ ٣ ص ١٥ – ومعرفة القراء الكبار جـ١ ص ٣٨ -٣٩ الطبقة ١ – وغاية النهاية جـ ١ ص ٦٠٦ – والعبر جـ١ ص ٣٣ – وحسن المحاضرة جـ ١ ص ١٠١ . وتذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٢٤.

٦- الحافظ ابن عساكر علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي المتوفي سنة ٥٧١. انظر ترجمته في وفيات الأعيان جـ ٣ من ٢٩٩ ترجمة رقم ٤٣٥.

٧- كان كاتباً لأبي الدرداء كما ذكر ابن سعد في الطبقات ج ٧ ص ٤٥٠.

قال لي أبو الدرداء : اعدد من يقرأ عندنا، يعني في مجلسنا هذا، فعددت ألفاً وستمائة ونيفا، فكانوا يقرأون ويتسابقون، عشرة عشرة، لكل عشرة منهم مقرئ، وكان أبوالدرداء يبتدئ في كل غداة إذا انفتل من الصلاة، فيقرأ جزءاً من القرآن، وأصحابه محدقون به يستمعون ألفاظه، فإذا فرغ من قراءته، جلس كل رجل منهم في موضعه، وأخذ على العشرة الذين أضيفوا إليه، وكان ابن عامر[1] مقدماً فيهم.[2] وفي هذه المدرسة امتزج الإقراء بالفقه والتفسير، وكانت حلقته شاملةً لكل ذلك، وقد حدث الليث بن سعد[3] عمن أخبره قال:

«رأيت أبا الدرداء، ومعه من الأتباع مثل ما يكون مع السلطان، وهم يسألونه عن العلم»[4].

«وتمتاز هذه المدرسة عن غيرها من مدارس القراءات، من حيث سندها إلى قارئ من القراء السبعة، بعدم وجود واسطة فيها بين الصحابي وإمام القراءة من السبعة، فقد رأينا فيما نقل ابن عساكر. أن عبدالله بن عامر قرأ مباشرة على أبي الدرداء، بل إنه كان عريفاً من جُملة العرفاء الذين كانوا يساعدونه في تعليم المتعلمين، على كل عشرة عريف، ويلاحظ أن هذه المدرسة أيضاً تمتاز باتصالها المبكر بالقراءة الرسمية التي دونت في مصحف عثمان، إذ أن عثمان سيرسل كما سيمربنا مصحفه إلى الشام مع المغيرة بن أبي شهاب[5]، وسيكون ابن عامر أهم تلاميذه الذين أخذوا عنه، وخلفوه في مجلسه للإقراء بما في المصحف، ولعل هذا هو السبب في قلة قراء الشواذ في المدرسة الشامية، لأن معظم قرائها أخذوا عن المغيرة، أو ابن عامر وتلامذته الذين خلفوه وأهمهم

---

١- عبدالله بن عامر اليحصبي إمام قراء الشام وأحد السبعة، ستأتي ترجمته معهم.

٢- تاريخ دمشق ٣١٥/١.

٣- الليث بن سعد الفهمي فقيه مصر وإمامها، من طبقة مالك، توفي سنة ١٧٥ . ترجمته في طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي ص٧٨ – وتاريخ بغداد جـ ١٣ ص ١ ترجمة ١٤ – حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢٠.

٤- تذكرة الحفاظ للذهبي جـ ١ ص ٢٢.

٥- ستأتي ترجمته.

يحيى بن الحارث الذماري[1].

هذه أهم مدارس القراءات في الأمصار الإسلامية الخمسة، في الحجاز والعراق والشام، حاولت أن أعطي عنها نظرة موجزة، عن طريق عرض ملامحها، والنظر في امتداداتها إلى القراء السبعة في المائة الأولى والثانية. وقد أهملت الحديث عن مدرسة صغيرة نشأت بالكوفة متأخرة في عهد الراشدين، وهي مدرسة الإمام علي بن أبي طالب في الكوفة، وذلك لأنها ضعيفة الأثر من جهة، ومن جهة ثانية لمجيئها متأخرة عن تدوين المصاحف الأئمة، ومثل ذلك يمكن قوله عن مدرسة ابن عباس المكية، وقد أرجأت الحديث عنها، لأن سماتها البارزة، لم تتبلور في ميدان القراءات، بقدر ما تبلورت في مزجها بين القراءات والتفسير كما سيأتي لنا بحول الله.

وقد كان هدفنا من الحديث عن هذه المدارس، أن نبين مدى التأثيرات التي أحدثها في تطور اختلاف القراءات، انتشار الصحابة في الأمصار، لنؤكد أن تلك الآثار كانت عميقة، وأن كل مصر من الأمصار المهمة قد عرف مدرسة أو أكثر، وأخذ عن قارئ أو مجموعة من القراء، وتركزت فيه القراءة على وفق مصحف إمامه أو أئمته في القراءة، فكان لا مفر من أن يحدث في القراءة بين مصر وآخر، أو في المصر الواحد نوع من التمايز بين الحروف التي أطلقت القراءة بموجبها على سبعة أنحاء، على غرار ما حدث بين القراء في زمن الوحي، فيما عرضنا فيه القول في الباب الماضي.

وإلى أقطاب هذه المدارس أشار الإمام الداني في أرجوزته «المنبهة» فقال:

---

١- يحيى بن الحارث الذماري الغساني الدمشقي إمام جامع دمشق، قرأ على ابن عامر وواثلة بن الأسقع وهو الذي خلف ابن عامر في الإقراء، وحدث عن واثلة وسعيد بن المسيب، وقرأ عليه أيوب بن تميم وعراك والوليد بن مسلم وجماعة من كبار القراء بالشام، توفي سنة ١٤٥. ترجمته في معرفة القراء الكبار جـ ١ ص ٨٧ الطبقة ٤ – غاية النهاية جـ٢ ص ٣٦٧ ترجمة ٣٨٣٠.

وأقرأ الناس بغير الدار　　من المهاجرين والأنصار
جماعة في الشام والعراق　　حين توجهوا إلى الآفاق
فقام في الكوفة عبدالله　　ثم عليٌّ الرفيعُ الجاه
وقام بالبصرة الأشعريُّ　　وهو أبو موسى الرضا الزكيُّ
وقام بالشام أبو الدرداء　　عويمر ذو الفهم والذكاء
وقبله فيها مُعاذٌ قاما　　مفقِّها، ومقرئا أعواما
فهؤلاء المتصدرونا　　في هذه الأقطار والمفتونا[1]

وفي الفصل التالي سوف نرى بحول الله كيف أدى تعدد مصادر تلقين القرآن، واتساع الناس في الرواية عن الشيوخ، إلى ظهور الخلاف بين القراء من جديد، وكيف حزب الخليفتين : عمر ثم عثمان أمرُ ذلك الخلاف، حتى تتوج التفكير في أسلوب للتخفيف من حدّته، والتدرج بالقراء فيه إلى الوحدة الجامعة فتمثل ذلك في تدوين المصحف العثماني الإمام كما سنعرضه بحول الله.

---

١- الأرجوزة المنبهة م. خ. ع. حـ د رقم ٢١٨٦ صحيفة ٧.

# الفصل الثاني

## إحتدام الخلاف بين القراء قبل تدوين المصحف الإمام

أشرنا فيما قدمنا إلى ما كان لتفرق الصحابة في الأقطار، واشتراكهم في حركة الفتوح وعمارة المدن، من آثار حميدة في نشر القرآن، وتعدد مصادر الأخذ عند المتعلمين، وكان لأولئك القراء صحف أو مصاحف خاصة، فيها القرآن كلاً أو بعضاً، «وكان فيها اختلاف حسب الأحرف السبعة»[1] قال العلامة محمد بن عبدالعظيم الزرقاني في مناهله:

«وكان أهل كل إقليم من أقاليم الإسلام، يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة. فأهل الشام يقرأون بقراءة أُبيّ بن كعب، وأهل الكوفة يقرأون بقراءة عبدالله بن مسعود. وغيرهم يقرأ بقراءة أبي موسى، فكان بينهم اختلاف في حروف الأداء ووجوه القراءة، بطريقة فتحت باب الشقاق والنزاع في قراءة القرآن، أشبه بما كان بين الصحابة قبل أن يعلموا أن القرآن أنزل على سبعة أحرف، بل كان هذا الشقاق أشد، لبعد عهد هؤلاء بالنبوة، وعدم وجود الرسول ﷺ بينهم.»[2] أضف إلى ذلك أن «الأحرف السبعة» التي نزل بها القرآن، لم تكن معروفة لأهل تلك الأمصار، ولم يكن من السهل عليهم أن يعرفوها كلها، حتى يتحاكموا إليها فيما يختلفون، إنما كان كل صحابي في كل إقليم، يقرئهم بما يعرف فقط، من الحروف التي نزل عليها القرآن، ولم يكن بين أيديهم مصحف جامع يرجعون إليه فيما شجر بينهم من هذا الخلاف.»[3].

لهذه الأسباب بدأ الخلاف بين القراء منذ أوائل عهد عمر ينمو مع الزمن، على الرغم من وجود مصحف أبي بكر في متناول الخليفة، لكن يبدو أن هذا

---

١- انظر المحرر الوجيز لابن عطية جـ ١ ص ٣٣- ٣٤.

٢- مناهل العرفان للزرقاني جـ ١ ص ٢٤٨.

٣- نفس المصدر ص ٢٤٩.

المصحف لم يكن بالإمكان أن يحل المشكلات التي حدثت في القراءة، بسبب اشتماله هو أيضاً على الأرجح، على الحروف السبعة التي أنزل عليها القرآن، وهو ما ذكره الإمام الداني في منبهته حين قال :

| | |
|---|---|
| وجَمَعَ القرآن في الصحائف | ولم يمَيِّز أحرفَ التخالُف |
| بل رَسَمَ السبعَ من اللغات | وكلٌ ماصح من القِرات[١] |

ولذلك يبدو أن انتساخ نسخ من صحف أبي بكر أو مصحفه، لا يفي بالغرض من ذلك ، طالما أنه تضمن الأحرف السبعة جميعاً، ولذلك لم يعمل عمر فيما يبدو على حمل الناس عليه، على الرغم من أن وقائع الخلاف قد بلغت أشدها في أواخر عهده، وكان مستشعرا لما يمكن أن ينجم عن استمرار الأمر على هذا الإطلاق، من اختلاف وشقاق بين القراء.

أخرج الحافظ عبدالرزاق بن همام الصنعاني بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

«قدم رجل على أمير المومنين عمر، فجعل يسأله عن الناس، فقال يا أمير المؤمنين، قرأ منهم القرآن كذا وكذا، فقال ابن عباس : فقلت : والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة، قال : فزبرني عمر، ثم قال : مه، فانطلقت إلى أهلي مكتئبا حزينا، ثم ذكر أن عمر أرسل إليه، فقال:

ما الذي كرهت مما قال الرجل آنفاً؟ قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، متى تسارعوا هذه المسارعة يحيفوا، ومتى يحيفوا يختصموا، ومتى ما يختصموا يختلفوا، ومتى ما يختلفوا يقتتلوا، فقال عمر: لله أبوك، لقد كنت أكاتمها الناس، حتى جئت بها»[٢].

١- يعني القراءات وخففها للضرورة.
٢- أنظر المصنف الكبير لعبد الرزاق جـ١١ ص٢١٧ - ٢١٨ وقد اختصرت بعض لفظه.

فهذه فطنة ابن العباس لما يمكن أن يؤدي إليه الخلاف إذا تزايد، وذلك استشعار عمر لمغبته، وإذا كان الخلاف في أول عهد عمر لم يكتس طابع الخطورة، فلعل ذلك ناشئٌ عن قلة القراء يومئذ بالنسبة لما أضحوا عليه بعد ذلك، يضاف إلى هذا تلك الصرامة المعهودة في عمر، والتي تجعل الخوض في أمر الخلاف في عهده مخاطرة يمكن أن تترتب عليها آثار غير محمودة، وموقف عمر من صبيغ العراقي[1] مشهور، وقد غضب على أُبيّ وابن مسعود لما اختلفا في حكم الصلاة في الثوب الواحد» إذ قال أُبيّ: حَسَنٌ جميل، وقال ابن مسعود: إنما كان ذلك والثياب قليلة، فخرج عمر مغضباً، فقال: اختلف رجلان من أصحاب رسول الله عليه السلام، ممن ينظر إليه ويؤخذ عنه، وقد صدق أُبيّ، ولم يألُ ابن مسعود، ولكني لا أسمع أحداً يختلف فيه بعد مقامي هذا إلا فعلت به كذا وكذا[2] ومع هذا التصلب من الخليفة في عدم إثارة مسائل الخلاف، فإن حوادثه قد تطورت، و اتّسع مداها حتى شهد عمر بنفسه الكثير منها، وأدرك أبعاد استمرار الأمر على ما هو عليه، وحتى قيل: «كان عمر قد هم أن يجمع الناس على قراءة واحدة، فطعن طعنته التي مات بها.»[3]

إن هنالك روايات عديدة وآثاراً تدل على أن عمر كان يؤرقه أمر الخلاف، بل إن في بعضها ما يشير إلى أن الأمر كان قد بدأ في حيز التنفيذ بصورة ما، يدل على ذلك ما أخرجه ابن أبي داود في المصاحف قال:

«لما أراد عمر أن يكتب الإمام، أقعد له نفراً من أصحابه، وقال: إذا اختلفتم في اللغة، فاكتبوها بلغة مضر، فإن القرآن نزل على رجل من مضر.»[4]

---

١- قال السيوطي في حسن المحاضرة جـ٢ ص٢: «كان صبيغ بن عسل يسأل عن أشياء من القرآن، فأرسله عمرو بن العاص إلى عمر بالمدينة، فضربه ونفاه إلى الكوفة، وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن لا يجالسه أحد من المسلمين». و انظر للمزيد من المعلومات عن صبيغ تفسير القرطبي جـ ٤ ص ١٥ والروض الأنف للسهيلي جـ٢ / ٢٨٩.

٢- انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر جـ١ ص ١٠٣، ومصنف عبدالرزاق جـ١ ص٣٥٦.

٣- نقله السيوطي في الإتقان جـ١ ص٣٥٦ عن كتاب المصاحف لمحمد بن عبدالله بن أشته الأصبهاني.

٤- انظر المصاحف لابن أبي داود صـ١١.

ومن المأثور عن عمر أنه كان يقول: لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش أو ثقيف [١]

فهذه النقول تثير احتمالا في أن يكون قد خطط للمشروع، وإن كنا نرجح أن هدفه لم يكن توحيد الحرف الذي يقرأ به، وإنما كان هدفه توحيد النص المقروء، بوضع مصحف في التناول يكون مقصوراً على ما لم يثبت نسخه من القرآن .

وفي خبر عند ابن جرير الطبري أن زيداً كتب لعمر القرآن في صحيفه واحدة. [٢].

فلعلّ هذه الصحيفه كانت بمنزلة الإمام الذي تؤخذ منه النسخ عند الحاجة، وقد ورد في الأخبار أن عمر كان قد استكتب بعض الكتاب في انتساخ المصاحف، يذكر العلامة أبوبكر بن دريد [٣] في كتاب الاشتقاق «أن نافع بن ظريب بن عمرو بن نوفل من بني نوفل بن عبد مناف ، هو الذي كتب المصاحف لعمر بن الخطاب.»[٤]

وعلى كلٍ فإن أمراً كهذا لايبعد أن يكون مما يبادر إليه مثل عمر في عزمه وحزمه، لاسيما وأن مشكل المنسوخ الذي ظل بعض القراء يقرأ به، كان في حاجة إلى علاج حاسم، إذا لم يتأت علاج المشكلة من أساسها بجمع الناس على قراءة واحدة. وقد ابتلي عمر في عهده بالنظر في قضايا عديدة من قضايا القراءة بالمنسوخ، في المدينة نفسها:

فمن ذلك ما أخرجه الحاكم في مستدركه بالسند عن ابن عباس قال:

---

١- أخرجه ابن أبي داود بسنده عن عبدالله بن معقل . انظر المصاحف ص ٨٦

٢- جامع البيان للطبري جـ ١ ص ٢٦.

٣- ابوبكر محمد بن الحسن بن دريد اللغوي الأديب صاحب المقصورة المشهورة ، ولد بالبصرة ونشأ بعمان، مات سنه ٣٢١ . انظر تاريخ بغداد جـ ٢ ص ١٩٥ ترجمه ٦٢ - مراتب النحويين ص ١٣٥ - ١٣٦ - غاية النهاية جـ ٢ ص ١١٦ ترجمة ٢٩٢١.

٤- الاشتقاق لابن دريد صـ ٦٩ .

«بينما أنا أقرأ آيةً من كتاب الله عز وجل ، وأنا أمشي في طريق من طرق المدينة ، فإذا أنا برجل يناديني من بعدي : اتَّبِعْ ابنَ عباس ، فإذا هو أمير المؤمنين عمر، فقلت : أتَّبِعُك عَلَى أبيٍّ بن كعب؟ فقال : أهو أقرأكها كما سمعتك تقرأ ؟ قلت: نعم ، قال: فأرسل معي رسولا ، قال: اذهب معه إلى أُبيّ بن كعب، فانظر أيقرأ أُبيّ كذلك؟ قال: فانطلقت أنا ورسوله إلى أُبيّ بن كعب، قال: فقلت: يا أُبيّ ، إني قرأت آية من كتاب الله ، فنادى من بعدي عمر بن الخطاب: اتبع ابن عباس، فقلت: أتبعك على أبي بن كعب ؟ فأرسل معي رسوله ، أفأنت أقرأتنيها كما قرأتُ؟ قال: نعم ، قال : فرجع الرسول وانطلقت أنا إلى حاجتي، قال : فراح عمر إلى أُبيّ ، فوجده وقد فرغ من غسل رأسه ، ووليدته تُذَرِي لحيته بِمدراها ، فقال أُبيّ : مرحبا بأمير المؤمنين، أزائراً جئت ، أم طالبَ حاجة؟ فقال عمر : بل طالب حاجة، قال : فجلس ، ومعه موليان له، حتى فرغ من لحيته، ثم ولاها جانبه الأيسر، حتى إذا فرغ أقبل على عمر بوجهه، فقال: ما حاجة أمير المؤمنين؟ فقال عمر: يا أُبيّ عَلَامَ تُقَنِّط الناسَ؟[1] فقال أُبيّ : يا أمير المؤمنين، إني تلقيت القرآن من تلقاء جبريل ، وهو رطب[2]، فقال عمر: تالله ما أنت بمنته، وما أنا بصابر – ثلاث مرات – ثم قام فانطلق.[3]

وهذه واقعة أخرى ابتلي بها عمر في هذا المجال ، إلا أنها أشد من الأولى، لأن الاختلاف فيها جماعي ، وهي ناشئة من القراءة بالمنسوخ من الآي ، أخرج ابن أبي داود واللفظ له ، وأخرج الحاكم في المستدرك بالسند عن أبي أدريس الخولاني [4] قال: ركب أبو الدرداء إلى المدينة في نفرٍ من أهل دمشق ، ومعهم

---

١- يبدو أن تأويل الآية حسب تلك القراءة فيه هذا المعنى.

٢- يعني أنه كان يحضر الوحي.

٣- المستدرك للحاكم جـ ٢ ص ٢٢٥ .

٤- أبو أدريس الخولاني عائذ بن عبدالله عالم الشام وزاهدها ، قال ابن سعد : ولد عام حنين ، وكان ثقة ، روى عنه الزهري ، وقال أبو إسحاق الشيرازي : جالس أبا الدرداء وعبادة بن الصامت وشداد بن أوس، وولي القضاء من قبل عبدالملك بن مروان. انظر طبقات ابن سعد جـ٧ ص ٤٤٨ – وطبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٤

المصحف الذي جاء به أهل دمشق ليعرضوه على أُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت وعلي وأهل المدينة، فقرأ يوماً عند عمر بن الخطاب ، فلما قرأ هذه الآية من سورة الفتح [1] (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حميةَ الجاهلية —ولو حميتم كما حَمُوا لفَسَد المسجد الحرام -)[2] فقال عمر: من أقرأكم ؟ قالوا: أُبيّ بن كعب، فقال لرجل من أهل المدينة: ادع إليّ أُبيّ بن كعب ، وقال للرجل الدمشقي: انطلق معه ، فذهبا ، فوجدا أُبياً عند منزله يهنئ [3] بعيراً له هو بيده، فسلما عليه قال له المدني : أجب أميرَ المؤمنين، قال أُبيّ ولِمَ يدعوني أميرُ المؤمنين؟ فأخبره المدني بالذي كان ، فقال أُبيّ للدمشقي ماكنتم تنتهون معشر الرُّكَيْب، أو يَشْدِفَنِي منكم شرٌّ، ثم جاء إلي عمر ، وهو مشمِّر ، والقطران على يديه، فلما أتى عمر قال لهم عمر : اقرأوا فقرأوا (ولو حميتم كما حَمُوا لفسد المسجد الحرام) فقال أُبيّ أنا أقرأتهم ، فقال عمر لزيد . اقرأ فقرأ قراءة العامة[4] فقال: اللهم لا أعرف إلا هذا ، فقال أُبيّ : والله ياعمر، إنك لتعلم أني كنت أحضر ويغيبون ، و أُدعى ويُحجَبون، ويُصنع بي ، والله لئن أحببت لألزمن بيتي، فلا أحدّث أحداً بشيء. [5]

وهذا مثالٌ ثالثٌ قريب من المثالين السابقين ذكره ابن حجر في المطالب العالية وقال : صحيح على شرط البخاري [6] قال :

وجد عمر بن الخطاب مصحفاً في حجر غلامٍ له ، فيه ( النبي أولى بالمؤمنين

١- السورة رقم ٤٨ في المصحف الشريف .

٢- الآية رقم ٢٦ من سورة الفتح ، وقولهم (ولو حميتم كما حموا...) الخ ليس في قراءتنا و مصاحفنا.

٣- يعني يعالج بعيره بالهناء بكسر الهاء وهو القطران.

٤- يعني بدون زيادة (ولو حميتم... إلى .. الحرام).

٥- المصاحف لابن أبي داود ١٥٥ — ١٥٦ — المستدرك للحاكم جـ ٢ ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

٦- شرط البخاري في الراوي بعد شرطي العدالة و الضبط أن تثبت معاصرته ويثبت لقاؤه لمن يروي عنه، وشرط مسلم بعدهما المعاصرة وحسب.

من أنفسهم – وهو أب لهم – وأزواجه أمهاتهم) [1]، فقال: احككها يا غلام، فقال: والله لا أحكها و هي في مصحف أُبيّ بن كعب، فانطلق عمر إلى أُبيّ بن كعب، فقال أُبيّ: شغلني القرآن، وشغلك الصفق بالأسواق.» [2]

هذه صور من الاختلاف الذي ثار مرةً أخرى بسبب الإحكام والنسخ الذي سبق لنا الحديث عن آثاره في فصل «أسباب الخلاف»، وقد ذكرنا هناك أن أُبيّاً لم يكن يرى العدول عن آيةٍ أو حرفٍ سمعه من رسول الله ﷺ، وإن أخبره غيره أن التلاوة بذلك قد نسخت.

وقد رجحنا أن مثل هذه الأحداث لابد أن تحفز رجلاً كعمر على التفكير في إنجاز مشروعٍ يعصم الناس من الفتنة في القراءات، وهو مشروع ليس من المتيسر تنفيذه على عجل، لأنه يتطلب الزمن الكافي، والدراسة المتأنية، والجو المواتي، وهي عناصر لابد من توافرها في إنجاز عمل جليل كهذا، ولعل الذي حال دون المسارعة إلى تنفيذه هو ما حدث من اغتيال عمر رضى الله عنه على يد أبي لؤلؤة المجوسي أواخر سنة ٢٣ ولذا لم يتخذ صورته النهائية إلا في عهد عثمان، بعد أن نضجت الفكرة، واكتمل التخطيط لها، وبعد أن تزايدت النذر من أطراف الجزيرة بمغبة الخلاف، وارتفع النزاع من مستوى القراء، إلى مستوى الجند، ومعه السلاح، والعصبية للقطر والمصر، أو للمصحف والقارىء الذي ائتم بقراءته أهل ذلك المصر.

وفي هذا الإطار ينبغي أن يفهم مشروع عثمان رضى الله عنه، لأن الروايات التاريخية وكتب الآثار تتحدث عنه، وكأنه مجرد إنتساخ لصحف أبي بكر التي وضعت عند حفصة، وإرسال مجموعة من النسخ إلى الجهات بعدد الأمصار المهمة.

---

١- سورة الأحزاب الآية رقم ٦، وليس في المصحف قوله (وهو أب لهم) وهي من النماذج التي مثل بها غير واحد لما نسخ من القرآن. انظر «فهم القرآن» للحارث المحاسبي ص٤٠٠ وما بعدها.

٢- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية جـ٣ ص٣٥٨ – ٣٥٩. ومعنى الصفق: الاتجار بالأسواق.

إن عمل عثمان لو كان مجرد انتساخ لصحف أبي بكر ، لما احتاج في الإقدام عليه إلى استشارة عامة من حضره من الصحابة ، ولو كان انتساخ تلك الصحف كافياً في رفع الخلاف لما تم تأخيره إلى عهد عثمان ، لأن الإحساس بالخلاف قد بدأ مبكراً في عهد عمر، وإنما جاء الفهم القاصر من عدم التفريق في هذا المشروع بين مرحلتين اثنتين مر منهما ، سيأتي الحديث عنهما.

وأرى أيضاً أن لجنة التدوين التي وكل إليها كتابة المصحف الإمام ، لو كان عملها مقصوراً على انتساخ الصحف التي عند حفصة في المصاحف ، لما احتاج أعضاؤها إلى التوقف عند بعض الآيات حتى يراجعوا فيها من كان قد سمعها من رسول الله ﷺ ، وكيف يفعلون هذا وهم إنما ينسخون المصحف المجموع على عهد الصديق؟

وإنما جاء سوء الفهم للمشروع بُرُمّته ، من تضارب الروايات فيه في شأن عملية التدوين ، سواء في تاريخها أو في عدد أعضائها ، أو في أسمائهم ، ذلك أن في بعض الروايات عند الطبري في سياق خبر زيد بن ثابت : «فأمرني عثمان بن عفان أن أكتب له مصحفاً ، وقال إني مدخل معك رجلاً لبيباً ، فما اجتمعتما عليه فاكتباه، وما اختلفتما فيه فارفعاه إلي ، فجعل معه أبان بن سعيد بن العاص [1]

ثم ذكر أنهما اختلفا في قوله تعالى (أن يأتيكم التابوت) [2] فقال زيد: التابوه، وقال أبان بن سعيد التابوت، فرفعنا ذلك إلى عثمان ، فكتب التابوت.

ثم ذكر أنه لما فرغ منه ، عرضه مرتين ، تدارك في العرضة الأولى آيتين من سورة التوبة، وفي الثانية آية من سورة الأحزاب ، ثم عرضه الثالثة ، فلم يفقد شيئاً، قال :

---

١- ذكر ابن حجر نقلاً عن الخطيب أن ذكر أبان هنا وهم ، لأنه قتل في خلافة عمر بالشام ، والصحيح سعيد بن العاص وهو ابن أخي ابان. انظر فتح الباري جـ١٠ ص٣٩٢-.

٢- سورة البقرة الآية رقم ٢٤٨.

«ثم أرسل عثمان إلى حفصة يسألها أن تعطيه الصحيفة ، وحلف لها ليردنّها إليها، فأعطته إياها، فعرض الصحف عليها ، فلم يختلفا في شيء ، فردها إليها، و طابت نفسه، وأمر الناس أن يكتبوا مصاحف .» (١)

ففي هذه الرواية كان عدد أفراد لجنة الكتابة اثنين فقط ، وكان الرجوع في المختلف فيه إلى عثمان ، وكانت الكتابة من غير صحيفة أبي بكر ، ثم كان العرض و المقابلة عليها ، ثم بعد ذلك أمر الناس أن يكتبوا مصاحف ، ولم يجر فيها ذكر لإرسال نسخ إلى الآفاق ، ومع هذا كله فقد سيق الخبر في سياق إنذار حذيفة (٢) رضي الله عنه لعثمان في غزوه لأرمينية وأذربيجان ، فمن هنا جاء الالتباس والخلط بين مرحلتين متباعدتين تاريخاً وهدفاً وأسلوباً :

ا — مرحلة كتابة النص المحكم المقروء به .

ب — مرحلة جمع القراءات الثابتة في ذلك النص مع التأتي لرسمها في صورة جامعة من الخط .

وفي نظري أن التمييز بين المرحلتين ضروري في فهم ما وقع في هذا الصدد، وبه يأتي الجمع بين الروايات التي تبدو متدافعة متناكرة في الأحداث والأشخاص والزمن، حتى قال الرافعي (٣) بعد أن لاحظ هذا التضارب بينها «» و ظاهرٌ أنه من المحال أن تكون كل هذه الروايات هي الواقع .» (٤)

فأما المرحلة الأولى في نظري فقد كانت امتداداً لما كان عمر قد عزم عليه، ويمكن تحديد تاريخها بأوائل خلافة عثمان ، وقد ولي أوائل سنة ٢٤هـ . ويشهد

---

١- انظر جامع البيان لابن جرير جـ ١ ص ٢٦ — ٢٧.

٢- حذيفة بن اليمان حليف للأنصار كان صاحب سر رسول الله ﷺ ،ولي لعمر ثم لعثمان ، وهو الذي أنذره باختلاف الجند في القراءة ، توفي سنة ٣٦ بالمدائن . ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ١٥. الاستيعاب جـ ١ ص٢٧٧. غاية النهاية جـ ١ ص٢٠٣.

٣- مصطفى بن عبد الرزاق صادق الرافعي صاحب ( تحت راية القرآن) و (اعجاز القرآن) وغيرها.

٤- انظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية له ص ٣٦.

لهذا ما ورد في المصاحف لابن أبي داود بسنده عن مصعب بن سعد [1] قال:

«جلس عثمان على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، فقال : ألا إن عهدكم بنبيكم منذ ثلاث عشرة سنة ، وأنتم تختلفون في القراءة ، يقول الرجل لصاحبه: والله ماتقيم قراءتك ، فأعزم على من عنده شي من القرآن ، إلا جاء به ، فجاء الناس بما عندهم ، فجعل يسألهم على ذلك البينة أنهم سمعوه من رسول الله ﷺ ، ثم قال : مَن أعربُ الناس؟ فقيل : سعيد بن العاص ، [2] قال: من أكتبُ الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله ﷺ ، زيد بن ثابت ، قال عثمان : فليُملِ سعيد ، وليكتب زيد ، فكتب زيد مصاحف ، ففرقها في الناس.»[3]

وأما المرحلة الثانية فقد تأخرت عن هذه بنحو خمس سنوات ، وهي التي تقترن في نظري بما وقع من إنذار حذيفة لعثمان أبان غزوه لأرمينية وأذربيجان، وقد جاء في سياق رواية ابن جرير لخبر حذيفة ما يلي:

«غزوت أرمينية ، فحضر أهل العراق والشام ، فإذا أهل الشام يقرأون بقراءة أُبيّ بن كعب ، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق ، فتكفّرهم أهل العراق ، وإذا أهل العراق يقرأون بقراءة ابن مسعود ، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام ، فتكفّرهم أهل الشام. » [4]

ويتحدث ابن الأثير عن هذه الواقعة فيقول :

«وفي سنة ٣٠ صرفَ حذيفةَ – يعني صرفه عثمان – عن غزو الري، إلى غزو «الباب» مدداً لعبد الرحمن بن ربيعة ، وخرج معه سعيد بن العاص، فبلغ معه أذربيجان ، وكانوا يجعلون الناس ردءاً ، فأقام حتى عاد حذيفة، ثم رجعا،

---

١- مصعب بن سعد بن أبي وقاص ، مات سنه ١٠٣. انظر طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٢٢٢.

٢- سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس ، ولد عام الهجرة ، استعمله على الكوفة عثمان. توفي سنة ٥٩. انظر طبقات ابن سعد جـ٥ ص ٣٠- ٣٤ – الاستيعاب جـ ٢ / ١٢٨.

٣- المصاحف ص ٢٣- ٢٤ .

٤- جامع البيان لابن جرير جـ ١ ص٢٦ – ٢٧.

فلما عاد حذيفة قال لسعيد بن العاص: لقد رأيت في سفرتي هذه أمراً لئن تُرِكَ الناس لَيختلفُنَّ في القرآن ، ثم لا يقومون عليه أبدا ، قال: وما ذاك ؟ قال:

«رأيت أناساً من أهل حمص ، يزعمون أن قراءتهم خيرٌ من قراءة غيرهم، وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد، ورأيت أهل دمشق يقولون : إن قراءتهم خيرٌ من قراءة غيرهم ، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك ، وأنهم قرأوا على ابن مسعود، وأهل البصرة يقولون مثل ذلك ، وأنهم قرأوا على أبي موسى ، ويسمون مصحفه «لباب القلوب» ، فلما وصلوا إلى الكوفة أخبر حذيفة الناس ، وحذرهم ما يخاف ، فوافقه أصحاب رسول الله ﷺ وكثير من التابعين، وقال له أصحاب ابن مسعود : ما تنكر؟ ألسنا نقرؤه على قراءة ابن مسعود؟ فغضب حذيفة ، ومن وافقه، وقال: إنما أنتم أعراب فاسكتوا ، فإنكم على خطأ، وقال حذيفة : لئن عشت ، لآتين أمير المؤمنين ، ولأشيرَن عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك، فأغلظ له ابن مسعود ، فغضب سعيد وقام ، وتفرق الناس، وغضب حذيفة ، وسار إلى عثمان فأخبره بالذي رأى.»[1]

وقد أخرج ابن أبي داود خبراً ربما كان هو المباشر لنهوض حذيفة إلى عثمان مبلغاً بمغبة ما وقع ، فقد روى بسنده عن يزيد بن معاوية [2] قال: إني لفي المسجد زمن الوليد بن عقبة [3]، وفي حلقة فيها حذيفة ، وليس فيها حجزة ولا جلاوزة[4]، إذ هتف هاتف : من كان يقرأ على قراءة أبي موسى [5] فليأت الزاوية التي عند باب كندة ، ومن كان يقرأ على قراءة عبدالله ، فليأت هذه الزاوية التي

١- الكامل في التاريخ لعز الدين ابن الأثير جـ ٣ ص ٥٥ – ٥٦.

٢- يزيد بن معاوية العامري كوفي يروي عن عبدالله بن مسعود . انظر طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٢٠٥ .

٣- الوليد بن عقبة بن أبي معيط كان أخا عثمان لأمه ، وأمهما أروى بنت كريز ، استعمله عثمان على الكوفة سنة ٢٥ ، وعزله عنها سنة ٣٠ ومات بالرقة في عهد معاوية. انظر طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٢٤ – مرآة الجنان لليافعي جـ١ ص ٦٣٩ – والإصابة جـ ٢ ص ٦٣٩.

٤- يعني ليس فيها حراسة.

٥- يعني أن قراءة أبي موسى منتشرةٌ أيضاً في الكوفة، لأنه لما عزل عن البصرة قبل سنة ٢٧ وقيل ٢٩ سكن الكوفة.

عند دار عبدالله ، واختلفا في آية ، قرأ هذا ( وأتموا الحج والعمرة للبيت ) [١]، وقرأ هذا ( وأتموا الحج والعمرة لله. ) [٢] فغضب حذيفة واحمرت عيناه ، ثم قام ، ففرز قميصه في حُجْزَته وهو في المسجد ،و ذلك في زمن عثمان، فقال : إما أن يُرْكَبَ إلى أمير المؤمنين ، و إما أن أركب، فهكذا كان مَن قَبلكم. [٣]

وهكذا كانت النذر سواء منها ما لحظه عثمان بنفسه في المدينة ، وما أبلغه إياه حذيفة ، حافزاً على وجوب اتخاذ الخطوة الحاسمة لوضع الأمر في نصابه، وقطع دابر الخلاف، كما يقول الإمام الداني في المنبهة:

| | |
|---|---|
| فاجْتَمَعوا ، وكَتبـوا الإمـامـا | واجتهـدوا ونصحـوا الأنـامـا |
| ونسخـوا مـن ذلـك الإمـام | مصاحفـاً تبقـى مـع الأيـام |
| ووجّهـوا بهـا إلى الآفـاق | فـحصـلت بالشـام والعـراق |
| وشقَّقوا الصحف والمصاحفـا | بعدُ ، وما مرسومَهم قد خالفـا |
| فارتفـع الخـلاف في التـلاوة | وزالـت البغضـاء والعـداوة |
| من ذلك العصر إلى ذا العصر | بكـل قطـرٍ، وبكـل مصـر |
| فهـذه القصـة في المصاحـف | كما رواها خالفٌ عن سالـف[٤] |

وفي الفصل التالي بحول الله سوف نرى كيف سلكوا في التدوين ، وكيف تأتّى لهم جمع القراءات في صورة خطية واحدة ، وكيف نهجوا في ذلك نهجاً دقيقاً حكيما ، رفع الله ببركته الشقاق ، وجعله داعية التآلف والاتفاق.

١- هذه قراءة ابن مسعود كما في معاني القرآن للفراء جـ ١ ص ١١٧ وفي المصاحف لابن أبي داود ص ٥٦.
٢- على هذا التلاوه في مصحفنا ، وهي الآية ١٩٦ من سورة البقرة وهو أول الآية.
٣- المصاحف لابن أبي داود ص ١١ – ١٢ .
٤- الأرجوزة المنبهه نسخة م . خ . ع بالرباط حرف د رقم ٢١٨٦ صحيفة ١٠.

# الفصل الثالث

## هيئة التدوين ومنهجها في احتواء الخلاف وجمع القراءات

رأينا في الفصل الماضي إلى أي حدٍ بلغ الاختلاف بين القراء في الأمصار، وكيف تطور حتى أوشك أن يظاهره حمل السلاح ، وانتهينا إلى أن ما حدث في الخطوة الأولى ليس إلا كتابة مصحفٍ إمام، ليأخذ منه الناس لأنفسهم نسخاً محررةً خالصةً مما ثبت أنه وقع عليه النسخ مما ظل محفوظاً عند بعض القراء في صحف أو مصاحف خاصة، وأن ذلك إذا أمكن بفضله تحديد النص المحكم المقروء، فإنه لم يكن ليضع الحد للاختلاف في الحروف المقروءة بأكثر من وجه وصورة مما كان مأذوناً في القراءة به على حسب الأحرف السبعة ، ورجحنا أن المشروع قد مر بالمرحلة الأولى التي قدرنا أنها تمت سنة ٢٥.

وهي في نظرنا امتدادٌ لما كان عمر قد بدأ فيه أو على الأقل قد هم به.

إلا أن الأمر كان كما قدمنا في حاجة إلى علاجٍ أكثر نجاعةٍ في تطويق الاختلاف واحتواء مادته، كما أنه كان في حاجة أولاً إلى إجماع من عند الخليفة من الحُفّاظ ، حتى يكون ما سيدوَّن في المصاحف مَحَلَّ تسليمٍ وثقةٍ وقبولٍ من الجميع ، وحتى يتأتى سماع كل ما أثر عن النبي ﷺ من وجوه القراءة في كل آية ، ليتم رسمها في المصحف في صورةٍ من الخط جامعة يتيسر فيها لكل قارىء أن يقرأ بما روى ، ولتكون عمدةً ومرجعاً لما قد يختلف فيه من الوجوه التي يحتملها الرسم ، والتي لا يحتملها.

وهذه هي المرحلة الثانية ، وهي التي شكلت فيها اللجنة الرباعية [1]، ثم زيد

---

١- في الرواية المشهورة عند البخاري وغيره «فأمر عثمان زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام ، أن ينسخوها في المصاحف... صحيح البخاري بشرح ابن حجر جـ١٠ ص٢٨٣ وكذلك ٣٩٢ ، وفي المصاحف لابن أبي داود ص٢٠.

في أعضائها لتفي بالحاجة ، روى ابن أبي داود وابن سعد في الطبقات بالسند عن محمد بن سيرين[١] عن كثير بن أفلح[٢] قال :

«لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف ، جمع له اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار ، فيهم أُبيّ بن كعب[٣] وزيد بن ثابت ، قال : فبعثوا إلى الربعة[٤] التي في بيت عمر ، فجيء بها ، قال : وكان عثمان يتعاهدهم ، فكانوا إذا تدارأوا في شيء أخروه ، قال محمد –بن سيرين– : فقلت لكثير : –وكان فيهم فيمن يكتب– : هل تدرون لم كانوا يؤخرونه ؟ قال : لا ، قال محمد : فظننت أنما كانوا يؤخرونها ، لينظروا أحدثهم عهداً بالعرضة الأخيرة ، ليكتبوها على قوله.[٥]

وقد ورد في هذه الرواية ذكر أُبيّ بن كعب ضمن أعضاء لجنة التدوين ، ويؤيده حديث قال السيوطي : أخرجه أبوعبيد[٦] ،وذكره ابن حجر في المقاصد العالية ، بالسند عن هانيء البربري مولى عثمان بن عفان قال :

«لما كان عثمان يكتب المصاحف ، شَكُّوا في ثلاث آيات ، فكتبوها في كتف شاة، وأرسلوني إلى أُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت ، فدخلت عليهما ، فناولتها أُبيّ بن كعب ، فقرأها فوجد فيها (لا تبديل للخلق الله)[٧]. فمحا بيده أحد اللامين، وكتبها (لا تبديل لخلق الله) ، قال : ووجد فيها (فانظر إلى طعامك وشرابك

---

١- محمد بن سيرين أبوبكر البصري مولى أنس بن مالك ، روى عنه قتادة وأيوب السختياني وخالد الحذاء وجماعة ، وكان من فقهاء البصرة من طبقة الحسن ، وقد توفيا معاً سنة ١١٠. انظر ترجمته في طبقات ابن سعد جـ٧ ص١٩٢ – ٢٠٦ – و تاريخ بغداد جـ٥ ص٣٣١ ترجمة ٢٣٦ – وغاية النهاية جـ٢ ص١٥١ ترجمة ٣٠٥٧.

٢- كثير بن أفلح مولى أبي أيوب الأنصاري ، قتل يوم الحرة سنة ٦٣. انظر طبقات ابن سعد جـ٥ ص٢٩٨.

٣- رجح ابن سعد في الطبقات جـ٣ ص٤٩٨ تأخر وفاة أُبيّ إلى سنة ٣٠ بناء على ورود ذكره في أخبار تدوين المصحف ، وفي الإحكام لابن حزم مجلد ٢ ص٢١٩ نقلاً عن البخاري ما يشهد لهذا.

٤- المراد بها : الكتب المجتمعة كما فسرها ابن كثير في فضائل القرآن له ص٤٤٨.

٥- المصاحف لابن أبي داود ص٢٦ وذكر مثل ذلك ابن سعد في الطبقات جـ٣ ص٥٠٢.

٦- القاسم بن سلام تقدمت ترجمته.

٧- سورة الروم الآية رقم ٣٠.

لم يتسن)[1] فمحا النون، وكتب (لم يتسنه)، وقرأ فيها (فأمهل الكافرين)[2] فمحا الألف، وكتب (فمهل)، قال: ولا أعلمه إلا قال فيها: فنظر فيها زيد بن ثابت ثم انطلقت بها إلى عثمان، فأثبتوها في المصاحف كذلك.»[3]

ومهما يكن فإن من الحكمة ألا يقتصر عثمان في عملٍ كهذا، على أربعةٍ أو أقل من الحفاظ وهو يرمي إلى حسم الخلاف، فمن الأصوب إذن أن يشهد الحفاظ بأنفسهم عملية التدوين، حتى لا يكتب في المصاحف من الحروف إلا ما أجمعوا عليه. وفي هذا يقول الإمام القرطبي:[4]

«كان هذا من عمل عثمان بعد أن جمع المهاجرين والأنصار وجلة أهل الإسلام وشاورهم في ذلك، فاتفقوا على ما صح من القراءات المشهورة عن النبي ﷺ، واطّراح ما سواه.»[5]

وقد صح عن علي رضى الله عنه أنه قال:

«لا تقولوا في عثمان إلا خيراً، فوالله ما فعل ما فعل إلا عن مَلَإٍ منّا».[6]

وقد غضب ابن مسعود لعدم إدراجه في لجنة التدوين، قال الحافظ بن حجر:

«والعذر لعثمان أنه فعل ما فعله، وابن مسعود في العراق، فكان الأمر يتطلب الإسراع والتعجيل بالتنفيذ».[7]

---

١- سورة البقرة الآية رقم ٢٥٩.

٢- سورة الطارق آخر آية منها.

٣- الإتقان للسيوطي جـ٢ ص٢٧١ و المطالب العاليه جـ٣ ص٢٨٦.

٤- أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري المالكي القرطبي، مصنف التفسير المشهور، أخذ الفقه والقراءة بالأندلس ثم رحل إلى مصر، فاستقر بمنية ابن الخصيب بنواحي الصعيد، وبها توفى سنة ٦٧١. انظر طبقات المفسرين للداودي جـ٢ ص٦٥ – ٦٦.

٥- الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص٤٥.

٦- المصاحف لابن أبي داود ص٢٢.

٧- نقلته بمعناه وهو في فتح الباري جـ١٠ ص٣٩٤..

أما منهجهم في جمع القراءات فكان حسب الخطوات التالية :

أولاً : كتابة الآيات المتفق على قراءتها بصورة واحدة.

ثانياً : سماع أكبر قدرٍ ممكنٍ من القراءات في الآية التي تتوارد عليها وجوه الخلاف ، مع العمل على كتابتها بصورة من الرسم يتأتّى فيها لكل قارىء أن يقرأ بما روى.

ثالثا : ترك مكانٍ فارغٍ بقدر الآية أو الحرف الذي اختلفوا فيه ، ولم يتيسر لهم مراجعة من عنده علم بكل ما ورد فيه ، يدل على ذلك ما جاء في حديث أنس بن مالك[1] قال : «فكانوا إذا اختلفوا في آية وتدارأوا، قالوا: هذه أقرأها رسول الله ﷺ فلاناً فيرسل إليه ، وهو على رأس ثلاث من المدينة : فيقال له : كيف أقرأك رسول الله ﷺ آية كذا وكذا ؟ فيقول : كذا وكذا ، فيكتبونها ، وقد تركوا لذلك مكانا.» [2]

رابعاً : تنزيل ما اختلف فيه من جهة اللغة على لغة قريش ، يدل على ذلك قول عثمان للجنة :فإذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن ، فاكتبوها بلسان قريش ، فإن القرآن أنزل بلسانهم.»[3]

خامسا : كتابة المصاحف خاليةً من النقط والشكل ليحتمل رسمها في صورته ما صح من القراءات.

سادسا : توزيع ما اشتهر من الوجوه في قراءة بعض الآيات على المصاحف ، إذا لم يتيسر الجمع بينها في صورة خطية واحدة كما سيأتي.

---

١- هو ليس أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ . وفي فضائل القرآن لابن كثير جـ٧ من تفسيره ص٤٤٨ نقلاً عن كتاب «المصاحف» لأبي بكر بن أشته ذكر هذا الخبر نفسه ، وفيه : «فحدثني رجل من بني عامر يقال له أنس بن مالك»

٢- المقنع للداني ص٧ – ٨ والإتقان للسيوطي جـ١ ص١٧٠ .

٣- انظر صحيح البخاري بشرح ابن حجر جـ١٠ ص٣٨٢. «باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب.

ومن النظر في عناصر هذا التخطيط يتبين ما وصلنا إليه فيما أسلفنا، من القول بأن هيئة التدوين كانت بإزاء مشروع ضخم، تطلب خبرةً واسعةً بالقراءات ووجوهها، ومعرفةً دقيقةً بقواعد الكتابة [1]، ولم تكن فقط أمام انتساخ نسخٍ معدودةٍ من صحف أبي بكر، كما فهم كثيرون، [2] إذ لو كان انتساخ النسخ كافياً في رفع الخلاف في القراءات لما كان الأمر في حاجة إلى كل هذا التثبت والاحتياط للروايات وانتظار مراجعة من يكون من المدينة على ثلاث أو يكون غائباً في بعض البوادي، فيكتبون ما قبل الآية المختلف فيها وما بعدها، ويدعون موضعها حتى يجيء أو يرسل إليه.»[3] لا سيما وأن لجنة التدوين مشتملة على خيرة الحفاظ.[4]

وإذن فالهدف كان كتابة مصحفٍ على نسخٍ عديدة، يتأتى فيها احتواء القراءات الثابتة عن النبي ﷺ، مع محاولة الملاءمة بينها في صورة خطية واحدة، قال القاضي أبوبكر بن العربي: «لاشك في أن الاختلاف في القراءة كان أكثر مما في ألسنة الناس اليوم، ولكن الصحابة ضبطت ا لأمر إلى حد يقيد مكتوبا، وخرج ما بعده عن أن يكون معلوما، حتى إن ما تحتمله الحروف المقيدة

---

١- نقل الزركشي في البرهان جـ١ ص٣٧٨ عن ابن فارس في كتاب الصاحبي أنه قال: ما اشتهر أن أبا الأسود أول من وضع العربية، وأن الخليل أول من وضع العروض، فلا ننكره، وإنما نقول: إن هذين العلمين كانا قديما، وأتت عليهما الأيام، وقلاَّ في أيدي الناس، ثم جددهما هذان الإمامان. قال: ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم ذلك، كتابتهم المصحف على الذي يعلله النحويون في ذوات الواو والياء والهمز والمد والقصر، فكتبوا ذوات الياء بالياء، وذوات الواو بالواو، ولم يصوروا الهمزة إذا كان ما قبلها ساكنا، ونحو (الخَبْء) و (دِفْء) و (مِلْء)، فصار ذلك كله حجة، وحتى كره بعض العلماء ترك اتباع المصحف.

٢- من ذلك قول ابن حجر في الفتح جـ١٠ ص٣٩٤: «فإن عثمان إنما أراد نسخ الصحف التي كانت جمعت في عهد أبي بكر، وأن يجعلها مصحفاً واحداً.»

٣- انظر جامع البيان للطبري جـ١ ص٢٧، والمقنع للداني ص٧-٨.

٤- انظر ما تقدم في تسمية أعضاء اللجنة و انظر فتح الباري ج١٠ ص٣٩٢، وقد ذكر فيه زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام وعبدالله بن عباس وأبي بن كعب ومالك بن أبي عامر جد مالك بن أنس الإمام، وكثير بن أفلح وأنس بن مالك الذي ذكرنا أنه رجل من بني عامر، فهذه أسماء تسعة من الاثني عشر الذين هم عدد اللجنة.

في القرآن قد خرج أكثره عن أن يكون معلوما ، وقد انحصر الأمر إلى ما نقله القراء السبعة في الأمصار الخمسة.»[1]

وقد عرضت للجنة التدوين مشكلةٌ هامة ، وهي وجود روايات متواترة ببعض القراءات التي لم يتأت لهم رسمها في المصحف الواحد بصورة واحدة، فاضطروا إلى توزيعها على المصاحف ، وفي ذلك يقول الداني في كتابه المقنع:

«فإن سأل سائل عن السبب الموجب لاختلاف مرسوم هذه الحروف الزوائد في المصاحف ؟قلت : السبب في ذلك عندنا أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، لما جمع القرآن في المصاحف ، ونسخها على صورة واحدة، وآثر في رسمها لغة قريش دون غيرها مما لا يصح ولا يثبت نظراً للأمة، واحتياطاً على أهل الملة ، وثبت عنده أن هذه الحروف من عند الله عز وجل كذلك منزّلة، ومن رسول الله ﷺ مسموعة ، وعلم أن جمعها في مصحفٍ واحدٍ على تلك الحال غير ممكن ، إلا بإعادة الكلمة مرتين ، وفي رسم ذلك كذلك من التخليط والتغيير للمرسوم ما لا خفاء به ، ففرقها في المصاحف لذلك ، فجاءت مثبتةً في بعضها ، ومحذوفةً في بعضها الآخر ، لكي تحفظها الأمة كما نزلت من عند الله.»[2]

وصورة المشروع أن أعضاء اللجنة قد كتبوا عدة أصول ، هي المصاحف الأئمة أو العثمانية ، وربما اعتبرت أصلاً واحداً فقيل : المصحف الإمام ، وأو العثماني، وقد اتبعوا في رسمها أسلوباً ذكياً يمتاز بالمرونة والقابلية لأكثر من احتمال في القراءة ، وفي ذلك يقول الإمام ابن العربي :

«كانت المصاحف أصلاً ، وكانت القراءة روايةً ، وكان نقل المصحف إلى نسخه على النحو الذي كانوا يكتبونه لرسول الله ﷺ : عثمان وزيد وأُبيّ وسواهم، من

١- أحكام القرآن: القسم ٢ ص١٠٢٨.

٢- المقنع في رسم مصاحف الأمصار ص١٢٣ - ١٢٤.

غير نقط ولا ضبط ، واعتمدوا هذا النقل ، ليبقى بعد جمع الناس على ما في المصحف نوع من الرفق في القراءة باختلاف الضبط.»[1]

وقال أبو عمرو الداني :

«إنما أخلوا المصاحف من ذلك ، من حيث أرادوا الدلالة على بقاء السعة في اللغات ، والفسحة في القراءات التي أذن الله تعالى للأمة في الأخذ بها، والقراءة بما شاءت منها ، فكان الأمر على ذلك إلى أن حدث في الناس ما أوجب نقطها وشكلها.»[2]

وقال الحافظ ابن الجزري :

«وإنما أَخْلَوا المصاحف من النقط والشكل ، لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين شبيهةً بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين.»[3]

قال الزرقاني في المناهل مقرباً لمنهجهم في ذلك:

**قاعدة ما فيه قراءتان:**

«خلاصتها، أن الكلمة إذا قرئت على وجهين تكتب برسم أحدهما ، كما رسمت الكلمات الآتية بلا ألف في المصحف ، وهي (ملك يوم الدين)[4]، (يخدعون الله)[5] (وعدنا موسى)[6]، (تفدوهم)[7] ونحوها ، وكلها مقروءة بإثبات

---

١- العواصم من القواصم جـ٢ ص١٩٧.
٢- المحكم في نقط المصاحف ص٢ ، ويعني بما أوجب نقطها وشكلها ، ظهور اللحن.
٣- النشر في القراءات العشر جـ١ ص ٣٣.
٤- سورة الفاتحة.
٥- سورة البقرة الآية ٩. والصواب التمثيل بقوله : ( و ما يخدعون ) لأن ( يخدعون الله) لا خلاف أنها بألف بعد الخاء
٦- سورة البقرة الآية ٥١ والاعراف الآية ١٤٢.
٧- سورة البقرة الآية ٨٥.

الألف وحذفها ، وكذلك رسمت الكلمات الآتية بالتاء المفتوحة ، وهي (غيبت الجب)[١]، و (أنزل عليه آيت)[٢] في العنكبوت ، و(ثمرت من أكمامها)[٣] في فصلت، (وهم في الغرفت آمنون)[٤] في سبأ ، لأنها جمعاء مقرؤة بالجمع والافراد ، وهذا كثير.»[٥].

ولا أريد أن أطيل بالمزيد من التمثيل ، فالموضوع بسطه غير واحد من العلماء ، ومنهم الإمام الداني في المقنع والمحكم ، والسيوطي في الإتقان ، والزرقاني في مناهل العرفان.[٦]

كما لا أريد أن أخوض في قضايا أثارها المستشرقون ومن سار في ركبهم ، ومنهم «أثر جيفري» في تقديمه لكتاب المصاحف لابن أبي داود ، الذي زعم فيه «أن الأسلوب الذي اتبع في تدوين المصاحف لم يستطع أن يحول دون عودة القراءات القديمة إلى الظهور تدريجياً ، كما أنه جعل بعض القراء يقعون في اختياراتهم على كثير مما كان في المصاحف التي منع عثمان استعمالها ، ثم بعد ذلك ظهرت بالتدريج في كل مصر من الأمصار قراءة مشهورة ، معهودة في ذلك البلد ، وتبعها الناس دون غيرها.»[٧]

فلا يخفى ما في هذا الكلام من تشويه لصورة المشروع ، لأنه يصور الغرض الذي استهدفوه عند التدوين وهو التأتي لجمع القراءات المروية في صورة واحدة من الخط وكأنه إنما وقع نتيجة لعدم ضبط المشروع وعدم سلوك أسلوب سليم

١- سورة يوسف الآيتان ١٠ – ١٥.
٢- سورة العنكبوت الآية ٥٠.
٣- سورت فصلت الآية ٤٧.
٤- سورة سبأ الآية ٣٧.
٥- مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد بن عبد العظيم الزرقاني جـ١ ص٣٦٥ – ٣٦٦. وهو ملخص لما ذكره السيوطي بإفاضة في الإتقان جـ٤ ص١٥٦ – ١٥٧.
٦- انظر المقنع من ص١٧ إلى ص١٢٤ والمحكم ص١٧٤ وما بعدها ، والإتقان جـ٤ ص١٤٥ – إلى ص١٦٢ النوع السادس والسبعون . وانظر مناهل العرفان ج١ ص٣٦٢ – ٣٧٠.
٧- تقديم أثر جيفري لكتاب المصاحف لابن أبي داود ص٧ – ٨.

يحول دون عودة القراءات القديمة إلى الظهور تدريجيا ، مع أن ذلك كان جوهر المشروع برمته.

وقريب من هذا التشويه ما زعمه آخرون في شأن خلو الكتابة من النقط والشكل، وعدم اتباع القاعدة التي تعورف عليها في الإملاء وأصول الكتابة ، فزعموا «أن ذلك كان بسبب بدائية الخط في ذلك العصر ، وتأثره بالخط النبطي القديم.»[1]

وأما علماء هذا الشأن فقد ادركوا سر الصناعة فيه ، وهذا الإمام الداني يقول : «وليس شيءٌ من الرسم ولا من النقط اصطلح عليه السلف ، إلا قد حاولوا به وجها من الصحة والصواب ، وقصدوا فيه طريقاً من اللغة والقياس، لموضعهم من العلم ، ومكانهم من الفصاحة ، علم ذلك من علمه ، وجهله من جهله ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم.»[2]

وقال الإمام بدر الدين الزركشي :

«ولم يكن ذلك منهم كيف اتفق ، بل على أمر عندهم قد تحقق، وجب الاعتناء به، والوقوف على سببه.»[3] ويكفي في إدراك مزايا هذه الطريقة، أنه بفضلها تأتى لعامة المسلمين في أقطار الأرض أن يجتمعوا على مصحفٍ واحد، وهو كما يقول الحافظ ابن حجر في الفتح «المتفق على إنزاله، المقطوع به، المكتوب بين يدي النبي ﷺ، وفيه بعض ما اختلف فيه من الأحرف السبعة، لا جميعها، كما وقع فيه في المصحف المكي (تجري من تحتها الأنهار) في آخر براءة[4]، وفي

---

١- انظر مثالا على ذلك في كتاب دراسات في القرآن للدكتور السيد أحمد خليل ص١٠١.

٢- المحكم في نقط المصاحف للداني ص١٨٦.

٣- البرهان للزركشي جـ١ ص٢٧٦ ، وقد ألف في رسم القرآن وخرجه على كثير من المعاني المقصودة العلامة المراكشي أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي قاضي الجماعة بمراكش المشهور بابن البنا المتوفى سنة ٧٢١ وكتابه «عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل »–ذكره الزركشي في البرهان ١/ ٣٨٠ والسيوطي في الإتقان جـ٤ ص١٤٥.

٤- الآية رقم ١٠٠.

غيره بحذف (من) ، وكذا ما وقع من اختلاف مصاحف الأمصار من عدة واوات ثابتة في بعضها دون بعض وعدة هاءات وعدة لامات [1] ونحو ذلك، وهو محمول على أنه نزل بالأمرين معا، وأمر النبي ﷺ بكتابته لشخصين، أو أعلم بذلك شخصاً واحدا ، وأمره بإثباتها على الوجهين ، وما عدا ذلك من القراءات ، مما لا يوافق الرسم فهو مما كانت القراءة جوزت به ، توسعةً على الناس وتسهيلا ، فلما آل الحال إلى ما وقع من الاختلاف في زمن عثمان ، وكفر بعضهم بعضا ، اختار الاقتصار على اللفظ المأذون في كتابته ، وتركوا الباقي، قال الطبري : «وصار ما اتفق عليه الصحابة كمن اقتصر مما خُيّر فيه على خصلةٍ واحدة ، لأن أمرهم بالقراءة على الأوجه المذكورة لم يكن على سبيل الإيجاب ، بل على سبيل الرخصة.» [2]

وأهم ما هو واقع فعلاً بين المصاحف من اختلاف في زيادة بعض الحروف، هو ما يلاحظه القارئ العادي اليوم إذا قرأ في مصحفٍ مطبوعٍ برواية ورش، مع مقارنته بمصحفٍ مطبوعٍ على قراءة عاصم من رواية حفص، وهذه أهم الفروق التي بينهما:

---

١- ولم يقع الاختلاف بينها في الكلمات إلا في موضعين : أحدهما في سورة التوبة في قوله تعالى: (وأعد لهم جنات تجري تحتها الانهار) الآية رقم ١٠٠. وفي مصحف أهل مكة (تجري من تحتها) وبذلك قرأ عبدالله بن كثير. وأما الموضع الثاني فهو في سورة الحديد في قوله تعالى (ومن يتول فإن الله الغني الحميد) الآية ٢٤ وفي المصاحف الكوفية وقراءة عاصم (فإن الله هو الغني الحميد.

٢- انظر فتح الباري جـ١٠ ص٤٠٥ ، وما نقله عن الطبري مذكور في تفسيره جـ١ ص٢٦ لكن نقله بالمعنى دون اللفظ.

| أ ) قراءة نافع من رواية ورش | ب) قراءة عاصم من رواية حفص |
|---|---|
| في الآية ١٣٢ من سورة البقرة ﴿وأوصى بها إبراهيم بنيه﴾ | ﴿ووصى﴾ بالتشديد |
| في الآية ١٣٤ من سورة آل عمران ﴿سارعوا إلي مغفرة من ربكم﴾ | ﴿وسارعوا﴾ بالواو |
| في الآية ٥٤ من سورة المائدة ﴿من يرتدد منكم﴾ | ﴿من يرتدّ﴾ بالتضعيف |
| في الآية ٥٣ من المائدة أيضاً ﴿يقول الذين آمنوا﴾ | ﴿ويقول﴾ بالواو |
| في الآية ٦٣ من سورة الأنعام ﴿لئن انجيتنا من هذه﴾ | ﴿لئن أنجانا﴾ بضمير الغائب |
| في الآية ٣٦ من سورة الكهف ﴿لأجدن خيرا منهما منقلبا﴾ | ﴿خيرا منها﴾ بالإفراد |
| في الآية ٢١٧ من سورة الشعراء ﴿فتوكل على العزيز الرحيم﴾ | ﴿وتوكل على العزيز﴾ بالواو |
| في الآية ٢٦ من سورة حم المؤمن ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم وأن يظهر في الارض الفساد﴾ | ﴿أو أن يظهر﴾ بأو |
| في الآية ٢٠ من سورة الجن ﴿قال إنما أدعوا ربي﴾ | ﴿قل إنما أدعوا﴾ بصيغة الأمر |

قال الإمام القرطبي في سياق حديثه عن المصاحف الأئمة :

«فاتخذها قراء الأمصار معتمد اختيارهم ، ولم يخالف أحدٌ منهم مصحفه على النحو الذي بلغه ، وما وجد بين هؤلاء القراء السبعة من الاختلاف ، في حروف ينقصها بعضهم ، ويزيدها بعضهم ، فذلك لأن كلاً منهم اعتمد على ما بلغه في مصحفه ورواه ، وكان عثمان كتب تلك المواضع في بعض النسخ ، ولم يكتبها في بعض ، إشعاراً بأن كل ذلك صحيح.» [١]

هكذا تم إنجاز هذا المشروع الضخم الذي رفع الله ببركته الخلاف بين الأمة في التلاوة، ووضع لها صمام الأمن الدائم من الزيغ والانحراف ، وعصمها به من استمرار الخلاف، الذي من شأنه أن يجر إلى التشاحن والجدال والفرقة في الدين.

وفي الباب التالي بحول الله ، سوف نرى صدى وصول هذه المصاحف في الأمصار، وكيف تمت لها الهيمنة على ما كان متداولاً بين القراء من وجوه القراءات، وكيف أصبحت معياراً يحتكم إليه ، لتمييز الثابت الصحيح من غيره مما لم يستوف شرائط القبول والاعتبار. والله المستعان.

---

١- الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص٤٧.

# البَابُ الثَّالِثُ

# اختلاف القراءات في ضوء المصاحف المرسلة إلى الأمصار

## ويشتمل على مايلي:

- **الفصل الأول:**
  **مواقف قراء الأمصار من المصاحف العثمانية.**

- **الفصل الثاني:**
  **القراءات الشاذة ، وأنواع القراءات.**

- **الفصل الثالث:**
  **القراء السبعة ، والأسس الموضوعية لاختياراتهم.**

# الفصل الأول

## مواقف قراء الأمصار من المصاحف العثمانية

أطلق على المصاحف الأئمة التي بعث بها عثمان رضى الله عنه إلى الأمصار الإسلامية ، اسم المصاحف «العثمانية» ، تمييزا لها عن بعض المصاحف الخاصة التي كانت متداولةً لبعض الصحابة ، كمصحف أُبيّ بن كعب ومصحف ابن مسعود ، ومصحف أبي موسى الأشعري ، وكانت هذه المصاحف الثلاثة مشهورةً فيها قبل وصول المصاحف العثمانية إليها .

**قال الحافظ ابن كثير في فضائله :**

«وقد نسبت هذه المصاحف إلى عثمان ، ولم يعرف أنه كتب بخطه هذه المصاحف ، وإنما كتبها زيد بن ثابت في أيامه وغيره ، فنسبت إليه ، لأنها بأمره وبإشارته ، ثم قرئت على الصحابة بين يدي عثمان ، ثم نفذت إلى الآفاق.»[1]

أما عدد المصاحف المرسلة ، فقيل أربعة : واحد إلى الكوفة ، وآخر إلى البصرة، وآخر إلى الشام وأمسك لنفسه مصحفا ، قال الإمام أبوعمرو الداني: على هذا أكثر العلماء ، وقد قيل : إنه جعله سبع نسخ، ووجه من ذلك نسخةً إلى مكة ، ونسخة إلى اليمن ، ونسخة إلى البحرين والأول أصح.»[2]

وما رجحه الداني يتفق وما أخرجه ابن أبي داود بسنده عن حمزة بن حبيب أحد القراء السبعة قال :

«كتب عثمان أربعة مصاحف ، فبعث بمصحفٍ منها إلى الكوفة، فوضع عند

---

١- فضائل القرآن بذيل جـ٧ من تفسيره ص٤٥٠.

٢- المقنع ص١٠.

رجل من مراد، فبقي حتى كتبت مصحفي عليه.»[1]

ولعل الأصح مع هذا هو ما ذكره السيوطي، وهو «أن المشهور أن عددها خمسة»[2]، وهو الذي يتفق وما يذكره الذين تناولوا اختلاف المصاحف في مؤلفاتهم، فإنهم يذكرون اختلاف الكوفي والبصري والشامي والمكي والمدني، وعلى ذلك درج ابن أبي داود في كتاب «المصاحف» وأبو عمرو الداني في كتاب «المقنع» [3]

ومن أمثلة ذلك قول الداني في المقنع عند تعرضه للخلاف في قوله تعالى (قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ، فاسأل العادين ، قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون)[4] فقد ذكر اختلافها في (قال كم لبثتم) و(قال إن لبثتم) بلفظ الماضي أو الأمر، ثم قال:

«وينبغي أن يكون الحرف الأول في مصاحف أهل مكة بغير ألف ، والثاني بألف، لأن قراءتهم فيها كذلك، ولا خبر في ذلك عندنا عن مصاحفهم، إلا ما رويناه عن أبي عبيد [5] أنه قال : «ولا أعلم مصاحف أهل مكة إلا عليها.»[6]

ومهما يكن عددها فإن الغرض من إرسالها قد تحقق في أوفى صورة ممكنة، قال العلامة محمد بن عبدالعظيم الزرقاني في مناهله :

«لم يرد أن عثمان أمرهم أن يتركوا ستة أحرف – من الأحرف السبعة –

---

١- المصاحف ص٣٤.
٢- الإتقان جـ١ ص١٧٢.
٣- المصاحف ص٣٩ – ٤٠ والمقنع ص١٧ – ٤١ – ١١٢.
٤- سورة المؤمنون الآيات ١١٢ – ١١٤.
٥- القاسم بن سلام.
٦- المقنع ص١١٢.

ويبقوا حرفا واحدا ، كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء [1]... ثم إن دفع الفتنة وتوحيد الكلمة ، إنما يكون بإقرار النازل كما نزل، من تعدد حروفه إلى سبعة ، رحمة بهذه الأمة ، غاية ما يجب في هذا الباب، هو إحاطة المسلمين علماً بهذه الحروف حتى يتركوا ما عداها ، ولا يعتمدوا سواها، وحتى يعتمد كلٌّ منهم صواب قراءة غيره ، ما دامت قراءته لا تتعدى هذه المصاحف، على نمط ما فعل الرسول ﷺ ، حين اشتعلت الفتنة بين الصحابة في مثل ذلك، فعالجهم بأن أفهمهم أن القرآن أنزل على سبعة أحرف.»» [2]

«وقد كان من تمام الحكمة في تعميق أثر المصاحف العثمانية في الأمصار، أن عهد الخليفة بإقرائها إلى جماعة من القراء ، إذ أن القراءة إنما تؤخذ من الأفواه ، لا من المصاحف ، قال الزرقاني:

«لذلك اختار عثمان حفّاظاً يثق بهم، وأنفذ المصاحف معهم إلى الأقطار الإسلامية ، فكان يرسل إلى كل إقليمٍ مصحفه مع من يوافق قراءته في الأكثر الأغلب ، رُوي أن عثمان رضي الله عنه أمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدني ، وبعث عبدالله بن السائب [3] مع المكي ، والمغيرة بن أبي شهاب [4] مع الشامي، وأبا عبدالرحمن السلمي [5] مع الكوفي ، وعامر بن عبدالقيس [6] مع البصري.»[7]

---

١- ومنهم الطبري ، انظر رأيه في جامع البيان جـ١ ص٢٦ ، وقد صحح ابن الجزري في النشر جـ١ ص٣١ أن المصاحف مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط..

٢- عن مناهل العرفان جـ١ ص٣٩٢ – ٣٩٣ ببعض الاختصار.

٣- تقدمت ترجمته .

٤- المغيرة بن أبي شهاب المخزومي ، قرأ القرآن على عثمان وقرأ عليه أهل الشام وإمامهم عبدالله بن عامر . مات سنة ٩١. ترجمته في معرفة القراء الكبار جـ١ /٤٣ الطبقة ٣ – وغاية النهاية جـ٢ص٣٠٥ ترجمة ٣٦٣٥.

٥- تقدمت ترجمته.

٦- عامر بن عبدالقيس العنبري التميمي ، قال ابن سعد : نفاه عثمان من البصرة إلى الشام ، قال ابن دريد لأنه كان يطعن عليهم ، وكان من خيار المسلمين ، وله كلام في التوحيد كثير ، قال : وهو الذي اعتزل حلقة الحسن البصري ، فسموا المعتزلة. «انظر الاشتقاق لابن دريد ص٢١٢ – طبقات ابن سعد جـ٧ ص١٠٣.

٧- مناهل العرفان جـ١ ص٣٩٦ – ٣٩٧.

وكان وصول هذه المصاحف إلى الأمصار حدثاً عظيماً ولا ريب ، ولذا كانت له فيها أصداء وردود فعل متفاوتة في القوة والاتجاه ، إزاءه وإزاء ما صدر من تعليمات بمصادرة المصاحف القديمة وإحراقها أو خرقها والاعتماد فحسب على المدون في المصحف المبعوث إلي المصر.

فمن الردود الهادئة نوعاً ما ما أخرجه الأئمة واللفظ لمسلم بسنده عن علقمة بن قيس صاحب ابن مسعود قال :« لقيت أبا الدرداء فقال : ممن أنت؟ قلت : من أهل العراق ، قال : من أيهم؟ قلت : من أهل الكوفة ، قال : هل تقرأ على قراءة ابن مسعود؟ قال : قلت : نعم ، قال : فاقرأ (والليل إذا يغشى) قال : فقرأت (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ، والذكر والأنثى) [1]، قال : فضحك ثم قال : هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها.» [2]

وفي رواية البخاري : «وهؤلاء يريدونني أن أقرأها (وما خلق) ، فلا أتابعهم.»[3]

لكن يبدو أن أبا الدرداء سرعان ما أدرك صواب جمع الناس على ما في المصحف الإمام ، فقد نقل عنه أنه استنكر تشدد ابن مسعود في موقفه إزاء ما حدث ، فقال : كنا نعد عبدالله جبانا [4]، فما باله يواثب الأمراء؟[5]

وفي تهذيب تاريخ دمشق «»لما قدم كتاب عثمان إلى أهل الشام في القراءة، قالوا: سمعنا وأطعنا وما اختلف في ذلك اثنان ، انتهوا إلى ما أجمعت عليه الأمة، وعرفوا فضله.»[6]

---

١- الآيات ١ إلى ٣ من سورة الليل ، والتلاوة في المصحف (وما خلق الذكر والأنثى).
٢- صحيح مسلم جـ١ ص٥٦٦.
٣- صحيح البخاري بشرح ابن حجر جـ١٠ ص٣٣٥ وجامع الترمذي بشرح ابن العربي جـ١١ ص٥٨.
٤- في المصاحف لابن أبي داود وردت الكلمة ( حنانا ) بالحاء ونونين ، وقد ارتضيت ما في فضائل القرآن لابن كثير بذيل تفسيره جـ٧ ص٤٤٧. ولعله الصحيح.
٥- المصاحف ص١٨.
٦- تهذيب تاريخ دمشق لابن بدران جـ١ ص٦٥.

ومن الردود الهادئة ما كان من موقف أبي موسى الأشعري ، فقد أخرج ابن أبي داود بسنده عن عبدالأعلى بن الحكم الكلابي قال :

«أتيت دار أبي موسى [1]، فإذا حذيفة بن اليمان وعبدالله بن مسعود وأبوموسى الأشعري ، فقلت : هؤلاء والله الذين أريد ، فأخذت أرتقي اليهم ، فأتيتهم ، حتى جلست اليهم ، فإذا عندهم مصحف أرسل به عثمان ، وأمرهم أن يقيموا مصاحفهم عليه ، فقال أبو موسى : ما وجدتم في مصحفي هذا من زيادة ، فلا تنقصوها ، وما وجدتم من نقصان ، فاكتبوه ، فقال حذيفة : فكيف بما صنعنا؟ والله ما من أحد من أهل هذا البلد يرغب عن قراءة هذا الشيخ ، يعني ابن مسعود - ، ولا أحد من أهل اليمن يرغب عن قراءة هذا الشيخ -يعني أبا موسى- ، قال : وكان حذيفة هو الذي أشار على عثمان رضى الله عنه بجمع المصاحف على مصحفٍ واحد.» [2]

وأما ردود الفعل القوية فهي الصادرة عن عبدالله وأصحابه من أهل الكوفة، روى ابن أبي داود بسنده عن أبي وائل [3] قال : خطبنا ابن مسعود على المنبر، فقال : (ومن يغلل يات بما غل يوم القيامة) [4]، غلوا مصاحفكم [5]، وكيف تأمرونني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت ، وقد قرأت من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة [6]، و إن زيدا ليأتي مع الغلمان ، له ذؤابتان ، قال أبو وائل:

---

١- يمني في الكوفة ، وقد نزل الكوفة بعد عزله عن إمارة البصرة بعد سنة ٢٧.

٢- المصاحف ص٣٥.

٣- أبو وائل شقيق بن سلمة الأسدي ، أدرك النبي ﷺ ولم يره ، وكان عمره عند البعثة عشر سنين. انظر طبقات ابن سعد جـ٦ ص٩٦ - والاستيعاب ١٦٧/٢.

٤- الآية ١٦١ من سورة آل عمران.

٥- أي أخفوها ، وأصل الغلول هو إخفاء المقاتل شيئاً من الغنائم ، انظر سبب نزول الآية الآنفة الذكر في جامع الترمذي بشرح ابن العربي ج١١ ص٣٧ ، وسنن أبي داود ج٢ ص٣٥٦.

٦- في تفسير القرطبي جـ١ ص٥٠-٥١ عن أبي بكر الأنباري في كتاب الرد بسنده عن ابن مسعود قال: قرأت من في رسول الله ﷺ اثنتين وسبعين سورة ، أو ثلاثا وسبعين سورة وقرأت عليه من البقرة إلى قوله تعالى ( إن الله يحب التوابين و يحب المتطهرين ) قال أ بو إسحاق السبيعي : وتعلم عبدالله بقية القرآن من مجمع بن جارية الأنصاري.

فلما نزل عن المنبر جلست في الحِلَق ، فما أحدٌ ينكر ما قال.»[1]

لقد رفض ابن مسعود الفكرة لأول وهلة ، ورفض تسليم مصحفه ليحرق أو يخرق كما فعل بمصحف أُبيّ[2] والحق أن استياءه لم يكن عن اقتناع، بقدر ما كان موقفاً أملاه الغضب ، يدل على ذلك ما ذكره الذهبي من أن عثمان قال للناس :«من يعذرني من ابن مسعود؟ غَضِبَ إذ لم أولّه نسخ القرآن، فهلا غضب على أبي بكر وعمر ، وهما عزلاه عن ذلك ، وولّيا زيدا ، فاتبعت أمرهما.»[3]

وتدل المصادر على أنه تراجع عن هذا الموقف ، بل إنه عمل على شرح مشروعية عمل عثمان وتهدئة الناقمين عليه في أمر المصاحف ، وقد أقام ابن أبي داود الدليل على تراجعه ، في قوله للقوم الذين فزعوا فيمن فزع إليه من أهل الكوفة في أمر المصاحف : إن القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب على سبعة أحرف أو حروف.[4]

ويروي ابن الأثير في تاريخه «أنه لما وصلت المصاحف إلى الأمصار ، وأمر أن يعتمدوا عليها ، ويَدعوا ما سوى ذلك ، فكل الناس عرف فضل هذا الفعل ، إلا ما كان من أهل الكوفة ، فإن المصحف لما قدم عليهم فرح به أصحاب رسول الله ﷺ ، وإن أصحاب عبدالله ومن وافقهم امتنعوا من ذلك وعابوا الناس ، فقام فيهم ابن مسعود وقال :

«ولا كل ذلك ، فإنكم والله قد سُبِقْتم سَبقاً بَيّناً ، فاربعَوا على ظَلَعِكم.»[5]

ومع هذا فيبدو أن مصحف ابن مسعود والنسخ المأخوذة عنه ، لم تسلّم

---

١- المصاحف لابن أبي داود ص١٦.

٢- انظر الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي للشيخ محمد الحجوي الثعالبي جـ١ ص١٣٧.

٣- معرفة القراء الكبار للذهبي ، ترجمة زيد جـ١ ص٣٦ الطبقة١.

٤- المصاحف ص١٨.

٥- الكامل لابن الأثير جـ٣ ص٥٦.

للمسؤولين، بل ظلت بأيدي أصحابها ، وظل الكثيرون من المشاغبين يتنقصون عثمان رضى الله عنه بإحراق المصاحف ، حتى إنه لمَّا قدم عَلِيٌّ الكوفة في عهده حاول بعضهم إثارة الموضوع من جديد ، فقال علي : لا تقولوا في عثمان إلا خيرا، فما فعل ما فعل في المصاحف إلا عن ملأٍ منا.» [1]

وقد استمر إلحاح أصحاب عبدالله على التمسك بمصحفه بعد وفاته، بل اكتسب درجةً زائدةً من القداسة عند أصحابه ، حتى إنه لما جاء عهد الحجاج[2] بالغ في اضطهاد من كان يقرأ بقراءته ، أو يتمسك بمصحفه ، حتى إنه تناول سيدنا عبدالله بالتنقيص الشنيع ، وقد أخرج أبو داود «أن الحجاج قال وهو على المنبر :

«ويا عذيري من عَبْدِ هُذَيْلٍ ، يزعم أن قراءته من عند الله ، والله ما هي إلا رَجَزٌ من رَجَز الأعراب ، ما أنزلها الله على نبيه عليه السلام.»[3]

ونقل أيضاً أن الحجاج قد اتبع كافة الوسائل في عهده لمصادرة المصاحف المخالفة لمصحف عثمان وشكل لهذا الغرض لجنةً من بعض القراء ، قال العلامة ابن قتيبة:

«كان الحجاج قد وكَّل عاصماً الجَحْدَري[4] وناجية بن رمح وعلي بن أصمع عم أبي الأصمعي [5] بتتبع المصاحف ، وأمَرَهم أن يقطعوا كل مصحف وجدوه

---

١- المصاحف لابن أبي داود ص٢٢.

٢- الحجاج بن يوسف الثقفي والي الامويين على العراق والحجاز ، صاحب الأفاعيل في انتهاك حرمة البيت الحرام وقتل ابن الزبير ، وقد ذكر أنه كان في أول أمره معلم كتاب ، وله يقول القائل :
أينسى كليب زمان الهزال – وتعليمه سورة الكوثر . وفي البيان والتبيين للجاحظ جـ١ ص٢٥٢ قال : «وقد أنشدوا شاهداً من الشعر على أن الحجاج وأباه كانا معلمين بالطائف.»

٣- سنن أبي داود جـ٢ ص٥١٤.

٤- عاصم الجحدري أبو المجشِّر البصري من بني قيس بن ثعلبة ، أحد قراء الشواذ ، قرأ عليه سلام أبو المنذر شيخ يعقوب الحضرمي. انظر طبقات ابن سعد جـ٧ ص٢٣٥ – ومعرفة القراء الكبار ترجمة سلام جـ١ ص١٠٩ الطبقة ٤ – وغاية النهاية جـ١ ص٣٤٩.

٥- في مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص١٠٥ أن علي بن أصمع المذكور جد أبي الأصمعي.

مخالفا لمصحف عثمان رضي الله عنه ، وأن يعطوا صاحبه ستين درهما.»[١]

وهذا كما نرى أسلوبٌ ناضجٌ في المصادرة ، لأنه يغري بالتعويض المادي ، لكنه فيما يبدو لم يستطع أن يستأصل شأفة هذه المصاحف ، لحرص أصحابها عليها حرصاً لا مزيد عليه ، وفي تفسير سورة الفتح [٢] من الكشاف ، «أن الحارث بن سُوَيْد [٣] صاحب ابن مسعود ، كان له مصحفٌ دفنه في عهد الحجاج لأنه كان مخالفاً للمصحف الإمام.»[٤]

ولعل الأمر كان قد اتخذ صبغةً سياسية ، فكان الحجاج ، وهو ولي أمر الأمويين ، يرى في الانحراف عن مصحف عثمان انحرافا عن عثمان نفسه ، وبنو أمية هم في نظره أولياء عثمان ، فلذا ضايق القراء ونكل بطائفة منهم ، وكان ذلك من أسباب غليان حقدهم عليه ، حتى كانت حركة عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الذي خرج على الحجاج ، فانضم إليه عامة العلماء والقراء والزهاد بالبصرة والكوفة . وهي حركةٌ هلك فيها أو بسببها جماعةٌ من خيرة القراء ، ويكفي أنه كانت فيها كتيبةٌ كاملةٌ تسمى «كتيبة القراء» [٥]

وقد هلك فيها عبدالرحمن بن أبي ليلى [٦]، وأبوعبيدة بن عبدالله بن مسعود، وأبو الشعثاء سليم بن الأسود صاحب ابن مسعود، وأفلت منها الإمام

---

١- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٣٧.

٢- السورة رقم ٤٨ في المصحف.

٣- الحارث بن سويد التيمي قال ابن سعد في الطبقات جـ٦ ص١٦٧ : روى عن علي وعبدالله وحذيفة وسلمان ، توفي بالكوفة في آخر أيام ابن الزبير ، وكان ثقةً كثير الحديث.»

٤- الكشاف للزمخشري جـ٣ ص٥٤٩.

٥- في الكامل لابن الأثير جـ٤ ص٨١ – ٨٢ «واجتمع إلى عبدالرحمن –بن الأشعث– أهل الكوفة وأهل البصرة والقراء. فاجتمعوا على حرب الحجاج لبغضه.... وجعل على القراء جبلة بن زحر بن قيس الجعفي ، وفيهم سعيد بن جبير وعامر الشعبي وأبو البختري الطائي وعبدالرحمن بن أبي ليلى ، وكانت كتيبةُ جَبَلَة بن زحر تُدعى «القراء» وعبّى لها الحجاج ثلاث كتائب.»

٦- عبدالرحمن بن أبي ليلى يسار بن بلال الأنصاري المدني ، روى عن عمر وعلي وأُبيّ وعبدالله وسهل بن حنيف وجماعة ذكرهم ابن سعد ، أدرك ١٢٠ من الأنصار من الصحابة. انظر طبقات ابن سعد ١٠٩/٦.

الشعبي[1]، وقَبِل الحجاج توبته ، وفر منها بعد مقتل ابن الأشعث ، سعيد بن جبير ، فما زال مختفياً كما قدمنا حتى جيء به إلى الحجاج فقتله.

وهكذا كان وصول المصاحف العثمانية إلى الأمصار منعرجاً خطيراً في تاريخ تطور القراءات ومدارسها ، فقد انقسم القراء بسببها منذ أوائل العقد الرابع من الهجرة في الأمصار الإسلامية إلى ثلاث فئات.

أ - فئةٌ ملتزمة، استجمعت الروايات المأثورة في حروف القراءة ، فميزت من بينها ما هو مستفيضٌ بين القراء ومنسجمٌ مع خط المصحف الإمام تمام الانسجام ، وقد تمثل هذا الاتجاه في أصفى مظاهره في «اختيارات القراء السبعة» الذين أصبحوا لهذه المزية أئمة أمصارهم ، كما سيأتي.

ب - فئة شبه ملتزمة ، أي : أنها لم تتحرَّ في اختياراتها الشائع المستفيض في القراءة ، كما أن عندها خروجاً يسيراً عن المرسوم في خط المصحف ، ومن هذا القبيل قراءات أبي جعفر المدني.[2]، والحسن البصري [3]، وابن محيصن المكي[4]، والأعمش[5]، ويعقوب الحضرمي[6] على تفاوت بينهم.

---

١- عامر بن شراحيل الشعبي الفقيه الكوفي توفي سنة ١٠٤ . انظر طبقات ابن سعد جـ٦ ص٢٤٦ وغاية النهاية جـ١ ص٣٥٠. - وفيات الأعيان جـ٣ ص١٢ ترجمة ٣١٧ - مرآة الجنان جـ١ ص٢١٥.

٢- تقدمت ترجمته.

٣- تقدمت ترجمته.

٤- محمد بن عبدالرحمن بن محيصن السهمي مولاهم المكي ، كان مقرئ أهل مكة مع عبدالله بن كثير، عرض القرآن على مجاهد ودرباس وسعيد بن جبير ، وعرض عليه شبل بن عباد وأبو عمرو بن العلاء. قال ابن الجزري في غاية النهاية جـ٢ ص١٦٧ : «لابن محيصن اختيار على مذهب العربية ، فخرج به عن إجماع أهل بلده ، فرغب الناس عن قراءته ، واجمعوا على قراءة ابن كثير لا تباعه.»انظر ترجمته في غاية النهاية ترجمة ٣١١٨ - ومعرفة القراء الكبار جـ١ ص٦١ - ٦٢ الطبقة ٣.

٥- تقدمت ترجمته.

٦- ستأتي ترجمته.

**جـ – فئةٌ منها من التزم جانب الرواية ، فقرأ بكل ما صح ، سواء وافق الرسم أو خالفه، ومنها من قرأ حسب ما يسمح به خط المصحف ، مهما تكن درجته من جهة السند والنقل.**

وعلى ضوء هذا التقسيم ، يمكن تصنيف القراء مع بعض التسامح في اتجاهين رئيسيين :

أ – الاتجاه الحر أو ما يسمى بالشاذ.

ب – الاتجاه الملتزم بالمرسوم في المصحف.

وسنخص كل اتجاه بفصل خاص فيما نستقبله من البحث بحول الله.

# الفصل الثاني

## القراءات الشاذة ، وأنواع القراءات

لم يكن الاختلاف بين القراء في القراءات في مجموعهِ ناشئاً عن الاجتهاد في حل رموز المصحف كما حاول أن يصل إلى إثباته بعض الماكرين من دجاجلة المستشرقين[1]، لأن الاختلاف في القراءات كما رأينا كان سابقاً في الزمن على تدوين المصاحف، بل كان هو الباعث عليه ، وإنما «كانت المصاحف –كما يقول الإمام ابن العربي– تذكرةً لئلا يضيع القرآن، فأما القراءة، فإنما أخذت بالرواية ، لا من المصاحف.» [2]

وإذا كان هناك استثناءٌ في هذا الصدد، فإنما يتعلق بقراءاتٍ خاصة ، تدخل في قسم الشاذ ، أو هي من قبيل الموضوع، مما قرأ به بعض أهل البدع والأهواء، مما يوافق رسم المصحف. [3]

وقد قدمنا أن القراءات في مدارس الإقراء بالأمصار كانت مطلقةً حسب الأحرف السبعة، وأن العمدة فيها على النقل الصحيح وحده، فكان القراء يقرأون بالروايات المختلفة، إلى أن وقع ما قدمنا من نشوب الخلاف في عامة الأمصار بين القراء، ولم تصل المصاحف العثمانية إليها حتى كانت القراءات بمختلف وجوهها ورواياتها قد أخذت تتلاقى في الأمصار، وتتلاقح عن طريق الرواية وتعدد مصادر التلقي.

ثم ازدادَ الاهتمام برواية الحروف خاصة ، ورحل القراء في سماعها وعني

---

١- يقول جولد زيهر في كتابه «مذاهب التفسير الاسلامي» ص٨ – ٩ : «ترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات في القراءات إلى خصوصية الخط العربي، الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة تبعا لاختلاف النقط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته وعدد النقط. إلى أن يقول... واذن فاختلاف تحليةِ هيكل الرسم بالنقط واختلاف الحركات، كانا هما السبب في نشأة حركة اختلاف القراءات».

٢- أحكام القرآن: القسم ٢ ص١٠٢٨.

٣- انظر أمثلة من ذلك في منجد المقرئين لابن الجزري ص٢٣.

بعضهم بتسجيل الفروق بينها في المعاني، وخصوصا في مدارس التفسير التي بدأت بذرتها في عهد الراشدين، ثم تنامت على أيدي تلامذة ابن مسعود بالكوفة، وابن عباس في مكة ، وأبي العالية وأبي الأسود الدؤلي في البصرة.

وبالنظر إلى ما للقراءات من مزايا وقيمة بيانية في مجال التفسير ، باعتبارها تفاسير ضمنية ، مقروؤة على وفق تأويلات معينة ، فإن المشتغلين بالتفسير لم يكن يعنيهم أن تكون الحروف المروية موافقةً لرسم المصحف أو مخالفة ، ما دامت تُكوِّن رصيداً شرعياً في أعلى درجات الوثوق بالنسبة للتفسير بالمأثور.

ومن هنا نجد كتب التفسير ملأى بالروايات عن الصحابة والتابعين ، بما تنقله عنهم في القراءة ببعض الحروف المخالفة للمرسوم في المصحف . وربما لم تكن قراءةً لهم ، وإنما ينبغي أن تحمل على التفسير : إلا أن المولعين برواية الحروف ، كانوا ربما قرأوا بها إغراباً على الرواة، وكان هؤلاء يستكثرون من المرويات قبل أن يستقر القارئ منهم على الحروف المختارة عنده ، ليلزم القراءة والإقراء بها.

وقد كان المقياس الأول والأخير في الصدر الأول هو صحة النقل ، ولم يكن هناك نكير على من يروي ما صح عن الصحابة والتابعين من الحروف ، إذ لم يستقر الأمر على «أصول القراءة المقبولة» إلا في المائة الثانية ، لما تكاثرت الروايات ، واختلط الصحيح بالسقيم منها كما سيأتي.

وأهم المدارس التي عنيت بالقراءات الشاذة ثلاث:

### أ – المدرسة الكوفية :

وهي أقدم مدارس الشواذ ، لمقام عبدالله بن مسعود بها، ومكان مصحفه منها، وما نقل عنه من حروفٍ في القراءة ، وأقوالٍ في التفسير على مقتضى تلك القراءات.

وينبغي أن نذكر بما سبق أن تعرضنا له في مدارس القراءات بأنه ليس كل ما رُوي عن ابن مسعود في القراءة ، هو من قبيل الشاذ ، لأن لكلٍ من عاصمٍ وحمزة والكسائي طرقاً بقراءة كل منهم إليه ، بل إن لعاصم قراءةً متواترةً عنه في جميع القرآن ، يرجع السند بها إليه من طريق زر بن حبيش عنه ، مما كان عاصم يعرضه عليه أثناء قراءته على شيخه أبي عبدالرحمن عبدالله بن حبيب السلمي[1]، وهي بروايته عنه التي قرأ بها عليه أحد الراويين عنه ، وهو أبوبكر بن عياش.[2]

ومعنى هذا أن ما تواتر عند الثلاثة : عاصم وحمزة والكسائي، من قراءة ابن مسعود، لا يخالف رسم مصحف عثمان، وبذلك استدل ابن حزم على أنه لم يصح عنه غير ما في مصحفنا، وأن ما روى عنه من غير ذلك هو من قبيل المنسوخ.[3]

**وقال القاضي أبو بكر بن العربي:**

«لوصحت قراءته لكانت القراءة بها سنة، ولكن الناس أضافوا إليه ما لم يصح عنه، فلذلك قال مالك: لا يصلى بما يذكر عن ابن مسعود، والذي صح عنه، ما في المصحف الأصلي.»[4]

ومع هذا، فإن بعض الكتب التي عنيت بإيراد القراءات الشاذة ككتب القراءات، والتفسير، تذكر له خلافاً واسعاً في كثير من القرآن، لا في حروف

---

١- لعاصم قراءتان : قراءة قرأ بها على أبي عبدالرحمن عن علي ، وأخرى قرأ بها عرضاً على زر عن عبدالله ابن مسعود ، والأولى مروية عن عاصم من رواية حفص ، والثانية من رواية شعبة وهو أبوبكر بن عياش.

٢- أبو بكر بن عياش بن سالم الأسدي ، قرأ القرآن على عاصم خمساً خمساً ، وأخذ عنه الحروف مفسرة، وقرأ عليه الكسائي وغيره ، توفى سنة ١٩٣. ترجمته في المعارف لابن قتيبة ص٥٠٩ – معرفة القراء الكبار جـ١ ص١١٠ الطبقة ٤. تذكرة الحفاظ جـ١ ص٢٦٥- غاية النهاية جـ١ ص٣٢٥.

٣- انظر الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم جـ١ ص٥٢٧.

٤- أحكام القرآن : القسم ٤ ص١٦٧٩ – ١٦٨٠.

القراءة فقط، ولكن أحيانا في النص المقروء[١].

وقد أخرج ابن أبي داود في «المصاحف» قائمةً طويلةً بما خالف فيه مصحفه مصحف عثمان، من سورة البقرة إلى آخر القرآن.[٢]

وقد تحدث الإمام ابن عطية في مقدمة تفسيره عن عدول العلماء عن قراءته «سداً للذريعة،ولأنه روي أنه كتب فيه أشياء على جهة التفسير ، فظنها قوم من التلاوة، فتخلط الأمر فيه.»[٣]

ولعل هذا هو السبب فيما قيل من تباين النسخ في المصاحف المنسوبة إليه، وقد ذكر صاحب الفهرست «أنه رأى عدة مصاحف ذكر نساخُها، أنها مصحف ابن مسعود، ليس فيها مصحفان متفقان.»[٤]

وأهم قراء الشواذ في هذه المدرسة هم : يحيى بن وثاب ، وطلحة بن مصرف، وسليمان الأعمش وعبيد بن نضيلة[٥] وأبو وائل شقيق بن سلمة ، وأبو الشعثاء سليم بن الأسود المحاربي[٦].

## ب – المدرسة البصرية :

وقد اتجهت هذه المدرسة منذ البداية اتجاهاً لغوياً، سواء في القراءة أو التفسير ، وكانت لها جهود مذكورة في مجال نقط المصاحف وشكلها ، وقد كان رائد هذه المدرسة في هذه المباحث أبوالأسود[٧] وجاء الآخذون عنه كنصر

---

١- من ذلك ما ذكره الحافظ ابن كثير من قراءته في سورة يوسف لقولة تعالى (فأوف لنا الكيل وتصدق علينا) قال : «قرأ ابن مسعود : (فأوقر ركابنا وتصدق علينا) . تفسير ابن كثير جـ٤ ص٤٥.

٢- انظر من ص ٥٤ إلى ص٧٣ من كتاب «المصاحف».

٣- المحرر الوجيز جـ١ ص٣١- ٣٢.

٤- الفهرست لابن النديم ص٤٦.

٥- عبيد بن نضيلة الخزاعي ، قرأ على عبدالله وروى عنه ، وقرأ أيضاً على علقمة بن قيس ، وقرأ عليه يحيى بن وثاب ، وكان ثقة كثير الحديث. انظر طبقات ابن سعد جـ٦ ص٢١١. غاية النهاية جـ١ ص٤٩٨.

٦- توفي بالكوفة زمن الحجاج بن يوسف. انظر طبقات ابن سعد جـ٦ ص١٩٥.

٧- تقدمت ترجمته.

بن عاصم[1] ويحيى بن يعمر[2]، فتنمى على أيديهم هذا الاتجاه ، وظهر أثره في حروف القراءة ، إذ دخلت الاعتبارات اللغوية في اختيارات القراء ، بل أخذ بعض القراء كعبدالله بن أبي إسحاق [3]، وعيسى بن عمر[4] يقرأون بموجب القياس النحوي الذي بدأت أسسه تستقر منذ أواخر المائة الأولى ، وقد انعكس أثر هذا الاتجاه في قراءة أبي عمرو بن العلاء من السبعة ، فنجده يقرأ في بعض الحروف كما سيأتي بموجب القياس اللغوي أو النحوي[5].

وقد تطعمت هذه المدرسة اللغوية، باتجاه آخر هو مزيجٌ من القراءة والتفسير، وهو الاتجاه الذي تفرع عن مدرسة أُبيّ المدنية، على يد أبي العالية الرياحي[6]، ومعظم الحروف الشاذة المروية عن أُبيّ مروية من هذه الطريق ، وكان ظهور مدرسة الحسن البصري في القراءة والتفسير امتداداً لهذا الاتجاه ، وهي معتبرة في مرتبة وسطى بين الاتجاه الملتزم بالرسم ، والاتجاه الحر ، ولذا عدها العلماء من القراءات الأربع التي ترتب في الصحة وتوافر الشروط المعتبرة ، بعد القراءات العشر [7]، ومخالفتها للمصحف يسيرة جداً.[8]

---

١- تقدمت ترجمته.

٢- تقدمت ترجمته.

٣- عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي المقرئ النحوي أول من فرع النحو وتوسع في القياس ، وله مع الفرزدق مناوشات في قضايا لغوية. توفى سنة ١١٧ . انظر مراتب النحويين ص٣١ – ٣٢. غاية النهاية ١/ ١١٠.

٤- عيسى بن عمر الثقفي من طبقة أبي عمرو بن العلاء وان كان قرأ عليه ، وهو أول من ألف في النحو ، توفى سنة ١٤٩ ، ترجمته في مراتب النحويين ص٤٢ – الفهرست ص٦٨ – مرآة الجنان جـ١ ص٣٠٧.

٥- مثال ذلك قراءته (إن هذين لساحران) وفي المصحف (إن هذان).

٦- أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي مولاهم البصري المقرئ المفسر من علماء التابعين، دخل على أبي بكر ، وقرأ القرآن على أبيّ وروي عنه تفسيره ، وكان من أعلم الناس ، توفي سنة ٩٤. ترجمته في طبقات الفقهاء للشيرازي ص٨٨ – المعارف لابن قتيبة ص٤٥٤ – معرفة القراء- جـ١ ص٤٩ طبقة ٢ – طبقات ابن سعد جـ٧ ص١٢٢.

٧- القراءات الأربع قراءة الحسن والأعمش وابن محيصن واليزيدي.

٨- انظر الإتحاف للدمياطي.

وقد أسند أبو السَّمَّال[1] قراءةً شاذةً عن الحسن البصري، قال ابن الجزري: «وهذا سند لا يصح.»[2]

وقد انتهت معرفة الشواذ من الحروف ، والعناية بجمع طرقها ورواياتها إلى المقرئ البصري هارون الأعور[3]، وقد روى أبو حاتم «أن هارون أول من سمع بالبصرة وجوه القراءات، وألفها وتتبع الشاذ منها ، فبحث عن إسناده.»[4] وإليه يشير الإمام الداني في منبهته إذ يقول:

أول من تتَّبعَ الحروفا ... وصَنَّفَ المجهول والمعروفا
منها، بالاسناد عن الثقات ... من الشيوخ وعن الأثبات
عمن مضى من جلة الأسلاف ... وجاء بالإجماع والخلاف
العَتَكِيُّ واسمه هارونُ ... وهو ابن موسى الثقة المأمون[5]

## جـ- المدرسة المكية :

وهي من المدارس التي كان لها الشفوف في ميدان التفسير على الخصوص، وإن كانت لها جهود في القراءة مذكورة، وقد تطعمت مدارس القراءات في الأمصار باتجاهها الجامع بين القراءة والتفسير.

وقد أُثِرَتْ عن ابن عباس الذي هو قطبها الرئيسي قراءات في حروف القرآن، منها ما هو مخالف للرسم ، ومنها ما هو موافق له ، ولكن الناظر إليها، يشعر

١- أبو السمال قعنب بن أبي قعنب العدوي البصري قال ابن الجزري له اختيار في القراءة شاذ عن العامة رواه أبو زيد سعيد بن أوس. انظر غاية النهاية جـ٢ ص٢٧ ترجمة ٢٦١٤.
٢- غاية النهاية جـ٢ ص٢٧ قال : أسند الهذلي قراءته عن هشام البربري عن عباد بن راشد عن الحسن عن سمرة عن عمر ، وهذا سند لا يصح.
٣- هارون بن موسى الأعور العتكي الأزدي البصري روى القراءة عن عاصم الجحدري وعاصم بن بهدلة وابن كثير وابن محيصن وأبي عمرو وجماعة. وتوفي سنة ٢٠٠. انظر غاية النهاية ٢/ ٣٤٨.
٤- نقله ابن الجزري في غايته جـ٢ ص٣٤٨ ترجمة ٣٧٦٢.
٥- الأرجوزة المنبهة للداني نسخة م.خ.ع بالرباط رقم ٢١٨٦ حرف د صحيفة ١٧.

وكأنما هي اجتهاد في توسيع دلالة الآي ، عن طريق ما يقتضيه اللفظ من معان لا يجافيها السياق ، وذلك داخلٌ عنده في الفهم الخاص الذي أوتيه في القرآن. ولذلك تراه في بعض المواطن لا يستدل لصحة قراءته وثبوتها بواسطة السند بها إلى النبي ﷺ ، بل بالاحتجاج لها بما يؤيدها من القرآن، ومثال ذلك ما روى أن علياً قرأ قوله تعالى (قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ، وإني لأظنك يافرعون مثبورا)[1] قرأها علي (لقد علمتُ) بضم التاء على أن الضمير لموسى ، وقال : والله ما علم عدو الله يعني فرعون – ولكن موسى هو الذي علم.»

ولما بلغ ابن عباس قراءة عليّ ويمينه ، احتج لقراءته (لقد علمتَ) على الخطاب لفرعون ، بقوله تعالى (وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا..) [2] [3]

وقد نقل عن ابن عباس أنه قال : قراءتي قراءة زيد بن ثابت ، وأنا آخذ بضعة عشر حرفاً من قراءة ابن مسعود.» [4]

وقد استمر هذا الاتجاه في مدرسته على يد تلامذته كمجاهد بن جبر[5] الذي نقل أنه كان يقرأ القرآن على خمسة أحرف [6]، وكسعيد بن جبير الذي كان يقرأ على حرفين [7]

ومن أهم قراء الشواذ في مكة محمد بن عبد الرحمن بن محيصن المكي قال

---

١- سورة الإسراء الآية ١٠٢.
٢- سورة النمل الآية ١٤.
٣- انظر حل مشكلات القرآن لمحمد بن أبي بكر الرازي بحاشية إملاء ما من به الرحمن جـ٢ ص٥-٦.
٤- المصاحف لابن أبي داود ص٥٥ بسنده عن إبراهيم التيمي.
٥- ستأتي ترجمته.
٦- انظر جامع البيان لابن جرير الطبري جـ١ ص٢٢.
٧- نفس المصدر ، وفي طبقات الداودي قال إسماعيل بن عبدالملك : كان سعيد بن جبير يؤمنا في رمضان، فيقرأ ليلة بقراءة ابن مسعود ، وليلة بقراءة زيد.»وفي مرآة الجنان جـ١ ص١٩٧ أنه كان يقرأ بقراءة ثالثة.

ابن الجزري :

«قرأت بقراءته القرأن ، ولولا ما فيها من مخالفة المصحف، لألحقت بالقراءات المشهورة. [1]

وهو يعني أنها صحيحة النقل ، وإنما جاءها الشذوذ من جهة مخالفة المرسوم في المصحف ، وهي من القراءات الأربع الزائدة عن العشر ، وقد ذكرها الشيخ الدمياطي البنا في كتابه «إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر» وهو من مصادر هذه الدراسة.

وقد أجمل الإمام الداني في المنبهة قراء الشواذ تحت عنوان (القول في الشواذ من القراء)

ومما قال في ذلك :

| | |
|---|---|
| كم من إمام فاضلٍ معظم | وماهرٍ في علمه مقدم |
| مشتهرٍ بالصدق والأمانة | والعلم بالقرآن والديانة |
| لكنه شَذَّ عن الجماعة | فلم يرَ الناس لذا اتّباعه |
| بل أسقطوا اختيارهَ وما روى | من أحرف الذكر ، وكلّ ما قرا |
| إذ كان قد حاد عن الرواية | و نَبَذَ الإسنادَ والحكاية |
| عمن مضى من علماء الناس | وقال بالرأي وبالقياس |
| وخَلَطَ الصحيحَ بالسقيم | والواهيَ المعلولَ بالسليم |
| فلا تجوز عندنا الصلاة | بحرفه ذاك ، ولا القراةُ |
| لأنه ليس له اتصال | بالمصطفى فهو لِذا مُحال |
| هذا الذي عليه الاجتماع | وقاله الأصحاب والاتباع |

---

١- غاية النهاية جـ٢ ص١٦٧ ترجمة ٣١١٨.

ثم أخذ يسميهم فقال :

فمنهم من ساكني المدينة ... يزيدُ السعديُّ ذو السكينة
وهو أبو وَجْزَةَ[1] أروى الخلق ... لخبر مع عفة وصدق
ومنهم محمدُ اليماني[2] ... وابنُ محَيْصنٍ أخو اليمان
ومنهم من ساكني العراق ... الحَضرميُّ ابن أبي إسحاق
ونصرُ بْنُ عاصم الليثيُّ ... والجَحدريُّ عاصمُ البصريُّ
وقَعْنب[3] والثقفيُّ عيسى ... ولم يزل مُقَدَّما رئيسا
والفَرَقيُّ وأبو دُناس[4] ... ثم أبو البلاد[5] والرؤاسي[6]
ومنهم من ساكني الشآم ... شريحٌ الحمصي[7] ذو التمام

---

١- أبو وجزة يزيد بن عبيد وقيل يزيد بن أبي عبيد السعدي نسبة إلى بني سعد أظآر النبي عليه السلام لولائه فيهم ، كان من التابعين رأى عمر وروى عن جماعة من الصحابة ، وله مدائح في آل الزبير ذكرها المبرد في الكامل جـ١ ص١٠٨ – وفي الأغاني لأبي الفرج جـ١٢ ص٢٢٩ – ٢٥٢ ترجمته وأشعاره.

٢- محمد بن عبد الرحمن بن السميفع اليماني قال ابن الجزري في غاية النهاية جـ٢ ص ١٦١-١٦٢ ترجمة ٣١٠٦: قرأ على أبي حيوة شريح بن يزيد عن أبي البرهسم ، وقيل قرأ على نافع وقرأ ايضا على طاوس ابن كيسان عن ابن عباس وفي الجملة القراءة ضعيفة والسند بها فيه نظر وإن صح فهي شاذة.

٣- قعنب بن أبي قعنب أبو السمال تقدمت ترجمته بهامش ص١١٩.

٤- هكذا ورد ذكره في نسخة الخزانة العامة بالرباط ، ولعل الصحيح أبو أناس بالهمز وهو جوبة بن عائك الأسدي الكوفي ، ترجم له ابن الجزري في غاية النهاية جـ١ ص١٩٩ ترجمة ٩١٩.

٥- أبو البلاد يحيى بن أبي سليم الكوفي النحوي صاحب الاختيار في القراءة ، قال الداني : أكثره على قياس العربية ، روي عن الشعبي. انظر غاية النهاية ج٢ ص٣٧٢ ترجمة ٣٨٥٠.

٦- محمد بن الحسن بن أبي سارة ابو جعفر الرؤاسي الكوفي أول من ألف في النحو من الكوفيين ، روى الحروف عن أبي عمرو ، وله اختيار في القراءة يُروى عنه ، واختيار في الوقوف ، روى عنه الكسائي والفراء وجماعة ترجمته في مراتب النحويين ص٤٨ – الفهرست ص١٠٢ – معجم الأدباء لياقوت جـ١٨ ص٢٥٣ – بغية الوعاة للسيوطي جـ١ ص٨٢ – غاية النهاية جـ٢ ص١١٦ ترجمة ٢٩٢٤ – طبقات الداودي ٢/١٣٠.

٧- شريح بن يزيد أبو حيوة الحضرمي الحمصي. ترجمته في غاية النهاية جـ١ ص٣٢٥.

وابن قطيب[١] وأبو البَرَهْسَم[٢] عمرانُ ، وهو منهم مقدَّمُ
وابنُ أبي عَبْلَةَ إبراهيم[٣] وهو شيخ ثقة قديم
عنه أتت حروف أهل حمص وهو مخالف لكل شخص
ومثلُ هؤلاء ممن شَذَّا عن الجماعة وصار فذا
ناس كثير ، ذِكْرُهم يطول وفيهم المشهور والمجهول
تركتُ تسميتهمْ لذا كا فاطِّرِحَنْ جميعَ ما أتاكا
عنهم وإن سُطِّرَ في كتاب أو وافق القويَّ في الاعراب
واقرأ بما قرا به الأكابر من الصحيح المنتقى والسائر
وهو الذي الآن بأيدي الأمة من مذهب القَرَأةِ الأئمة[٤]

كانت الروايات الشاذة قد أصبحت في نطاقٍ ضيق ، وأصبح النظر إليها بشيء من الريبة ، ابتداء من عصر الأئمة السبعة ، حتى إن أحكام الفقهاء قد استقرت على عدم صحة الصلاة بها ، وحتى بلغ الأمر في بغداد إلى التنكيل ببعض من حاول إحياء بعض الروايات ، والقراءات بها[٥]

وبعد أن كان الأمر موكولاً إلى القراء ، وكان المعيار هو صحة النقل ، تغيرت

١- ابن قطيب يزيد بن قطيب السكوني الشامي روى القراءة عن أبي بحرية صاحب معاذ بن جبل واسم أبي بحرية عبدالله بن قيس ، ولابن قطيب اختيار في القراءة ينسب اليه ، روى القراءة عنه أبو البَرَهْسَم عمران بن عثمان الحمصي. انظر غاية النهاية جـ٢ ص٣٨٢ ترجمة رقم ٣٨٨١.

٢- أبو البرهسم عمران بن عثمان الحمصي الشامي الزبيدي من قراء الشواذ انظر ترجمته في غاية النهاية جـ١ ص٦٠٤ ترجمة ٢٤٧١.

٣- ابراهيم بن أبي عبلة شمر بن يقظان بن عبدالله المرتحل الرملي وقيل الدمشقي ، روى عن أنس بن مالك وروى عنه مالك والليث وابن المبارك وابن اسحاق مات سنة ١٥٢. تهذيب التهذيب جـ١ / ١٤٢-١٤٣.

٤ - الأرجوزة المنبهة م.خ.ع. رقم ٢١٨٦ صفحة ١٥ - ١٦.

٥- من أشهر ما وقع من ذلك حادثة أبي الحسن محمد بن أحمد بن أيوب بن شنبوذ المتوفى سنة ٣٢٨ وقد ذكر ابن النديم في الفهرست ص٥٣ - ٥٤ والخطيب في تاريخ بغداد جـ١ ص٢٠٨ قصة امتحانه في مجلس الوزير أبي علي بن مقلة على يد أبي بكر بن مجاهد وبعض فقهاء بغداد ، وقد ذكرا أنه عرض عليه بعض ما كان يقرأ به من الحروف الشاذة ، مما يروى عن أبيّ وابن مسعود ، فاعترف بقراءته بها وأبى الرجوع عنها ، حتى جرد وضرب فأذعن بالتوبة ، وكتب عليه محضر بها. انظر معرفة القراء للذهبي جـ١ ٢٢٤ ترجمة ١٠ الطبقة ٨. وغاية النهاية جـ٢ ص٥٢ ترجمة ٢٧٠٧.

الحال «وكثر الاختلاف وقل الضبط ، واتسع الخرق ، وكاد الباطل يلتبس بالحق، فقام جهابذة الأمة ، وصناديد الأئمة ، فبالغوا في الاجتهاد ، وبينوا الحق المراد، وجمعوا الحروف والقراءات ، وعَزَوا الوجوه والروايات ، وميزوا المشهور والشاذ ، والصحيح والفاذ، بأصولٍ أصلوها ، وأركانٍ فصلوها .»[1]

على أساس هذه الأصول التي ذكرها ابن الجزري تم تصنيف القراءات، والتمييز بين المقبول منها والمردود، والمقروء، به وغير المقروء ، وهذه الأصول تحدث عنها الإمام مكي بن أبي طالب[2] فقال:

فإن سأل سائلٌ فقال : فما الذي يقبل من القراءات الآن ، فيقرأ به ؟ وما الذي لا يقبل ولا يقرأ به؟ وما الذي يقبل ولا يقرأ به؟ فالجواب أن جميع ما روي في القرآن على ثلاثة أقسام:

**القسم الأول:** قسم يقرأ به اليوم ، وذلك ما اجتمع فيه ثلاث خلال ، وهن :

أ – أن ينقل عن الثقات ، عن النبي ﷺ.

ب – ويكون وجهه في العربية التي نزل بها القرآن سائغا.

جـ – ويكون موافقاً لخط المصحف.

**القسم الثاني:** ما صح نقله عن الآحاد ، وصح وجهه في العربية ، وخالف لفظه لفظ المصحف ، فهذا يقبل ، ولا يقرأ به ، لعلتين : إحداهما أنه لم يؤخذ عن إجماع إنما أخذ بأخبار الآحاد ولا يثبت قرآن يقرأ به بأخبار الآحاد.

---

١- النشر في القراءات العشر جـ١ ص٨ – ٩.

٢- مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني الأندلسي القرطبي ، شيخ القراءة في عصره ، قرأ بالقيروان ، ورحل إلى المشرق ، وقرأ بمصر وغيرها ثم دخل الأندلس وجلس للإقراء وتولى خطابة مسجد قرطبة. توفي سنة ٤٣٧. انظر الصلة لابن بشكوال جـ٢ ص٥٩٧ ترجمة ١٣٩٠ – معرفة القراء جـ١ ص٣١٦ طبقة ١٠ غاية النهاية جـ٢ ص٣٠٩ ترجمة ٣٦٤٥ – طبقات المفسرين للداودي جـ٢ ص٣٣١ ترجمة ٦٤٣ – ترتيب المدارك للقاضي عياض جـ٤ ص٧٣٧. – الديباج المذهب لابن فرحون ص٢٩٢.

والعلة الثانية: أنه مخالفٌ لما أجمع عليه ، فلا يقطع على يقينه وصحته ، وما لم يقطع على صحته لا تجوز القراءة به ، ولا يكفر من جحده ، ولبئس ما فعل إذْ جحده.

القسم الثالث: هو ما نقله غير ثقة، أو نقله ثقة، ولا وجه له في العربية ، فهذا لا يقبل، وإن وافق خط المصحف.»[١]

فهذا التقسيم الثلاثي للإمام مكي ، ينتظم جميع أنواع القراءات ، ويصنفها على أساس مدى توافر شرائط القبول فيها ، وأهمها صحة النقل ، ويليها موافقة العربية ، ويليهما موافقة خط المصحف ، فما توافرت فيه الأصول الثلاثة قُبِلَ روايةً ، وقرئ به قرآنا ، وما فقد موافقة خط المصحف لم تجز القراءة به للعلتين اللتين ذكرهما، ولكنه يقبل باعتباره خبراً شرعياً بمنزلة أخبار الآحاد التي يحتج بها، وما فقد ركن موافقة العربية ، لم يقبل ، ولم يقرأ به، و إن نقله الثقة، لاحتمال الخطأ في الرواية، أو سبق الوهم ، وأما إذا نقله غير ثقة ، فأمره واضح، ويجري مجرى الأحاديث الضعيفة ، وهي إذا لم تستند إلى غيرها ، لم يصح بها احتجاج.

وتقسيم مكي هذا هو في نظري أسلم التقسيمات لأنواع القراءات ، وذلك لأنه يفرد لقراءات الصحابة المروية بالآحاد قسماً على حدة ، ولا يسلكها في ضميمة واحدةٍ مع ما لم يصح سنده ، أو خالف العربية فيطلق على الجميع «قراءة شاذة»، بل إن مكياً أفرد للشاذ القسم الثالث ، وهو ما اختل نقله ، أو اختل وجهه في العربية ، تمييزاً له عن الذي توفرت له صحة النقل ، وصحة الوجه في العربية، ولكنه خالف الرسم ، ولم يقع لمكي ما وقع للذين قسموا القراءات إلى قسمين : مشهور ، وشاذ [٢]، فسلكوا في المشهور ما توافرت فيه الأصول الثلاثة، وجعلوا ما اختل فيه أحدها شاذاً ، مع شيوع القول بأن القراءة الشاذة ليست

١- نقله ابن الجزري في النشر جـ١ ص١٤.

٢- انظر تقسيم ابن جزي الكلبي في التسهيل لعلوم التنزيل جـ١ ص٧.

قرآنا [1]، فيخرج من هذا أن كثيراً مما روي عن الصحابة قراءة لهم، ليس بقرآن.

وقد اختلف علماء القراءات والفقهاء والمفسرون في مفهوم «الشذوذ» في القراءة ، اختلافاً متباينا ، فجعل منه بعضهم مخالفة القارئ ولو كان أحد السبعة – لجمهور القراء ، وعلى هذا درج ابن جرير الطبري في تفسيره ، كما سيمر بنا. فعلى هذا الإطلاق ، يكون الشاذ هو : ما انفرد به راوٍ عن طبقته من المشتركين معه في الرواية ، وبهذا المعنى قيل بوقوع الشاذ في قراءات السبعة ، وضابطه ما انفرد بروايته قارئ ما عن بقية الرواة عن نفس الشيخ ، وإليه يشير ابن الجزري في منظومته «طيبة النشر» إذ يقول :

| | |
|---|---|
| وكل ما وافق وجه نحو | وكان للرسم احتمالاً يحوي |
| وصح إسناداً، هو القرآن | فهذه الثلاثة ، الأركان |
| وحيثما يختل شرط أثبتِ | شذوذه ، لو أنه في السبعةِ.[2] |

وقال في النشر: ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة، أطلق عليها أنها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة، أو عمن هو أكبر منهم.»[3]

ونقل ابن الجزري عن أبي شامة [4] قوله:

«إن القراءات المنسوبة إلى كل قارئ من السبعة وغيرهم ، منقسمة إلى المجتمع عليه ، والشاذ ، غير أن هؤلاء السبعة لشهرتهم وكثرة الصحيح المجمع عليه في قراءتهم ، تركن النفس إلى ما نقل عنهم فوق ما ينقل عن غيرهم.»[5]

فالشاذ إذن أطلق اطلاقات :

---

١- انظر البرهان للزركشي جـ١ ص٢٣٣.

٢- انظر طيبة النشر في مجموع «إتحاف البررة بالمتون العشرة» ص١٦٩.

٣- انظر النشر جـ١ ص١٠.

٤- تقدمت ترجمته.

٥- نقله في النشر جـ١ ص١٠ عن كتاب «المرشد الوجيز» لشهاب الدين أبي شامة.

أ – شاذٌ صحيح النقل ، وهو ما روي عن الصحابة مما يخالف المصحف في الرسم ، وإليه أشار ابن الجزري بقوله :

«فثبت من ذلك، أن القراءة الشاذة ، ولو كانت صحيحة في نفس الأمر، فإنها مما كان أذن في قراءته ، ولم يتحقق إنزاله ، وأن الناس كانوا مخيرين فيها في الصدر الأول ، ثم أجمعت الأمة على تركها للمصلحة.»(١)

ب – وشاذٌ مرويٌ عن بعض السبعة ، وهو ما انفرد به عنهم بعض الرواة ، ولم يشتهر ما انفرد به في القراءة، وعليه يحمل بعض ما تذكره كتب الشواذ من بعض الروايات عن السبعة.(٢)

جـ – شاذٌ ضعيف السند ، أو موضوع. فالموضوع لا يلتفت إليه ، والضعيف السند يجري في الاعتبار مجرى الأحاديث الضعيفة ، كما يقول ابن الجزري.»(٣)

وهكذا نجد أن اصطلاح «الشذوذ» غير محدد في المفهوم منه، فبعضهم يستعمله استعمال المحدثين(٤) وبعضهم يجعله في مقابل «المتواتر»، فيعرّفه «بأنه ما نقل قرآنا من غير تواترٍ واستفاضةٍ متلقاةٍ بالقبول.»(٥) فعلى هذا الحد يدخل في الشاذ، ما نقل بالآحاد، وهو صحيح السند ، وما اشتهر ولم يبلغ حد التواتر وهو ما فوق القراءات العشرة، كقراءة الحسن والأعمش وابن محيصن واليزيدي، وما لم يصح له سند.

وقد استفاد الإمام السيوطي مما ذكره مكي وابن الجزري في النشر ، فقسم القراءات إلى أنواع :

---

١- منجد المقرئين ص٢٤.

٢- من ذلك ما ذكره ابن خالويه في سورة طه في قوله تعالى (ولي فيها مآرب أخرى) روى ورش عن نافع (ولي) بفتح الياء ، انظر مختصر شواذ القراءات من كتاب البديع لابن خالويه ص٩٠. وفي ص٨١ منه ذكر قراءة ابن عامر وقالون (فلا تصاحبني) قرآها (تصحبني) ثلاثيا.

٣- منجد المقرئين ص١٩.

٤- يعرفونه بأنه «مخالفة الثقة لمن هو أوثق منه ، أو لجماعة الثقات» انظر الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير ص٥٦ – ٥٧.- ومقدمة ابن الصلاح ص٣٦ – ٣٧.

٥- هذا تعريف ابن الصلاح نقله الزركشي في البرهان جـ١ ٣٢٢.

أ – المتواتر، وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على ا لكذب ، عن مثلهم إلى منتهاه، وغالب القراءات كذلك.

ب – المشهور، وهو ما صح سنده ، ولم يبلغ درجة التواتر، ووافق العربية والرسم ،واشتهر عند القراء ، فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ ، ويقرأ به. قال : ومثله : ما اختلفت في نقله عن السبعة الطرق ، فرواه بعض الرواة عنهم دون بعض ، وأمثلة ذلك كثيرة في «فرش الحروف»[1] من كتب القراءات.

جـ – الآحاد ، وهو ما صح سنده ، وخالف الرسم أو العربية ، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور ، ولا يقرأبه.

وقد عقد الترمذي في جامعه ، والحاكم في مستدركه لذلك بابا ، أخرجا فيه شيئاً كثيراً صحيح الاسناد.[2]

د – الشاذ ، وهو ما لم يصح سنده.

هـ – الموضوع كقراءات الخزاعي[3]

و – قال : وظهر لي قسمٌ سادسٌ يشبهه من أنواع الحديث المدرج ، وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير.»[4]

---

١- تنقسم كل قراءة مروية إلى قسمين : أصول وهي تتعلق بكيفيات الأداء كالتزام القارئ للهمز أو الإمالة، ومعنى أنها «أصول» أنها لا تتغير ولا تتبدل باختلاف المواضع. وأما ما يتعلق بغير الأداء من «حروف القرآن» أي الكلمات ذاتها فإنها تعتمد في كل موضع على النقل ولا تخضع لقياس متبع. ويعبر عن الكلمات التي يختلف فيها القراء «بالفرش» وفي كتب القراءات جرت العادة بتقديم الحديث عن الأصول ثم فرش الحروف.

٢- انظر جامع الترمذي بشرح ابن العربي جـ١١ ص٣٧. والمستدرك جـ٢ ص٢٢٠ – ٢٢٦.

٣- أبو الفضل محمد بن جعفر بن عبدالكريم الجرجاني الخزاعي المقرئ مؤلف «الواضح في القراءات» حكى الذهبي عن أبي العلاء الواسطي أنه ذكر أن الخزاعي وضع كتاباً في الحروف نسبه إلى أبي حنيفة رحمه الله قال: فأخذت خط الدار قطني وجماعة بأن الكتاب موضوع لا أصل له ، فكبر ذلك عليه ونزح عن بغداد. توفي الخزاعي سنة ٤٠٨. انظر معرفة القراء الكبار جـ١ ص٣٠٤ – ٣٠٥ طبقة ١٠ – غاية النهاية جـ٢ ص٢٤٢.

٤- انظر الإتقان للسيوطي جـ١ ص٢١٥ – ٢١٦ وقد اختصرته.

فهذا التقسيم يفرز «الشاذ» عن غيره ، ويقصره على ما لم يصح سنده ، ويجعل قراءات الصحابة مما روي عنهم مخالفاً للمرسوم قسماً على حدة ، ومن هنا يصح أن يعتبر أصح التقسيمات وأوفاها ، لا سيما عند الذين يجعلون الشاذ ليس بقرآن. لكن يختلف الأمر بالنسبة لمن يجعلونه قسيماً للمتواتر أو المشهور كما فعل ابن جزي(١)

وعلى كل فنحن مضطرون إلى أن نجاري سواد العلماء الذين يجعلون ما لم يستوف الأصول الثلاثة شاذاً ، وإن كان تقسيم السيوطي يساعدنا على إدراك الفرق بين الصحيح المروي بالآحاد ، وهو عند البعض من الشاذ لمخالفته للرسم، وهو في نفس الوقت مما يحتج به من يرى الاحتجاج بالشاذ من الفقهاء كما سيأتي ، وبين ما ليس صحيحاً في النقل مما سيأتي لنا مما قرىء به على وفق نحلةٍ أو مذهبٍ من المذاهب الفاسدة.

ويهمنا ههنا من تلك الأقسام أو الأنواع الستة التي انتهى إليها السيوطي في تقسيم القراءات، القسمان الأولان وهما : المتواتر والمشهور ، وهما القسمان اللذان يقرأ بهما، وتؤخذ منهما الأحكام ، كما أنهما القسمان اللذان تحققت فيهما الأركان الثلاثة التي اعتبرها العلماء معياراً لقبول القراءة أو ردّها ، وقد تحققت في أوفى مظاهرها في قراءات «البدور السبعة» أئمة الأمصار الخمسة، الذين تواترت إلينا قراءاتهم ، واستقر الأمر عليها في المشرق والمغرب من زمانهم إلى اليوم.

---

١- محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي توفي في وقعة طريف. انظر الديباج للمذهب ص٢٦٥ – ٢٦٥.

# الفصل الثالث

## القراء السبعة والأسس الموضوعية لاختياراتهم

بدأت القراءات تتلاقى في رواياتها، وتتلاقح في معانيها، منذ أواسط عهد الراشدين كما رأينا، وذلك عن طريق تعدد المصادر، وتزايد الاحتكاك بين القراء من المدارس المختلفة، وقد تزايد الولوع باستجماع الروايات، وبدأت الرحلة في طلب الحروف، رغبةً من القراء في تحصيل أكبر قدر من الروايات تمهيدا لاختيار القارئ ما هو الأولى عنده منها، ليجعله مادة قراءته التي يلتزم القراءة والإقراء بحروفها، وهكذا كان القارئ يتنقل بين الأمصار ليستجمع الروايات، ويسمع من الشيوخ مباشرة، ثم يعود من رحلته برصيد هام من الروايات، لينتقي منها اختياره الخاص.

وكانت الروايات التي تدور في أوساط القراء متفاوتةً في مراتب القوة من جهة أسانيدها، ومتمايزةً أيضاً في مراتب الفصاحة ووضوح الدلالة ومقدار الشهرة وجلالة القارئين بها، يضاف إلى هذه الاعتبارات، العامل الجديد الذي أصبح بعد تدوين المصاحف معياراً للقبول والرد في القراءات عند سواد القراء وهو مقدار التزام الرواية للمرسوم في المصحف الإمام، فكان لابد أن تتفاوت اختيارات القراء لهذه الاعتبارات، وأن يكثر الإقبال أو يضعف على الرواية عنهم. وهكذا بدأت اختيارات القراء منذ أواسط المائة الأولى تتميز وتتحدد سماتها، إلى أن استقرت آخر الأمر في «اختيارات البدور السبعة»[1] الذين أصبحوا بفضل ما تحقق في اختياراتهم من ضوابط وأسسٍ موضوعية،

---

١- لعل أول من استعمل هذا الاصطلاح في تسمية القراء السبعة هو الإمام أبو القاسم الشاطبي إذ قال في الحرز:

فمنهم بدور سبعة قد توسطت سماء العلا والعدل زهرا وكملا

قال ابن القاصح في شرحه لهذا البيت في كتابه «سراج القارئ» ص٨: أي: فمن تلك الأئمة الناقلين للقرآن سبعة، جعلهم كالبدور لشهرتهم وانتفاع الناس بهم.»

سادة هذا الفن ، وفرسان هذا الشأن ، وهذه تراجمهم مع تعريفاتٍ موجزةٍ بقراءاتهم وسمات اختياراتهم :

## أ - عبدالله بن عامر:

هو عبدالله بن عامر بن يزيد بن تميم اليحصبي الشامي ، تابعيٌ جليل، قرأ على أبي الدرداء كما تقدم، وعلى المغيرة بن أبي شهاب[1] بقراءته على عثمان بن عفان، وقيل: قرأ أيضاً على عثمان نفسه[2] ولقي من الصحابة عدداً هاماً منهم فضالة بن عبيد وواثلة بن الأسقع. وولي القضاء بدمشق للأمويين، وهو أقدم القراء السبعة مولدا، إذ ذكر أنه ولد سنة ٨ وقيل سنة ٢١ وهو الأقرب، وهو أقدم السبعة وفاة أيضاً إذ توفى سنة ١١٨ .[3]

اشتهرت قراءة ابن عامر من رواية راويين رويا عنه بواسطة ، وهما : هشام بن عمار[4] وابن ذكوان [5] قرأ كلاهما على أيوب[6]، وقرأ هو على يحيى بن

---

١- تقدمت ترجمته.

٢- انظر الفهرست لابن النديم ص٥٠ وفي معرفة القراء للذهبي جـ١ ص٦٨ ما يفيد أنه سمع قراءة عثمان في الصلاة.

٣- ترجمته في معرفة القراء الكبار جـ١ ص٦٧ – ٧٠ طبقات ابن سعد جـ٧ ص٤٤٩ الفهرست لابن النديم ص٥٠ غاية النهاية جـ١ ص٤٢٣ – النشر جـ١ ص١٤٤ سراج القارئ ص١١.

٤- هشام بن عمار بن نصر السلمي الدمشقي إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم ، ولد سنة ١٥٣ وأخذ القراءة عرضاً على أيوب بن تميم وعراك بن خالد وسويد بن عبدالعزيز والوليد بن مسلم وصدقة بن خالد وغيرهم ، وروى القراءة عنه جماعة من أشهرهم أبوعبيد القاسم بن سلام، توفي سنة ٢٤٥. ترجمته في معرفة القراء جـ١ ص١٦٠ طبقة ٦ – غاية النهاية جـ٢ ص٣٥٤ ترجمة ٣٧٨٧ – طبقات ابن سعد جـ٧ ص٤٧٢ – سراج القارئ ص١١.

٥- أبو عمر عبدالله بن أحمد بن بشير بن ذكوان النهرواني الدمشقي مقرئ دمشق وامام جامعها ، قرأ على أيوب بن تميم وغيره ، وقرأ عليه جماعة ، وكان أقرأ من صاحبه هشام بن عمار وهشام أعلم منه، توفي ٢٤٢. انظر معرفة القراء جـ١ ص١٦٢ – ١٦٥ الطبقة ٦ – غاية النهاية جـ١ ص٤٠٤ – سراج القارئ ص١١.

٦- أيوب بن تميم أبو سليمان التميمي الدمشقي ، قرأ على يحيى بن الحارث الذماري وهو الذي خلفه في الإقراء بقراءة ابن عامر ، أخذ القراءة عنه عرضاً ابن ذكوان والوليد بن عتبة ومات سنة ١٩٨. ترجمته في معرفة القراء جـ١ ص١٢٢ – ١٢٣ – غاية النهاية جـ١ ص١٧٢-.

الحارث الذماري [1] بقراءته على ابن عامر، وكان يحيى هو الذي خلف ابن عامر في مدرسته في الإقراء بدمشق، وعنه انتشرت قراءته، ومات يحيى سنة١٤٥.

## ب - عبدالله بن كثير

هو عبدالله بن كثير بن عمرو بن عبدالله أبو معبد المكي الداري. قرأ على عبدالله بن السائب[٢] وعلى مجاهد بن جبر عن ابن عباس، وعلى درباس مولى ابن عباس أيضاً، وقد رأينا اتصال قراءته بأبيّ بن كعب في مدارس القراءات[٣]، وذكر ابن الجزري له سندين إلى عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت[٤]. وتوفي سنة ١٢٠.[٥]

اشتهرت قراءته من رواية قارئين بينهما وبينه عدة وسائط، أحدهما: محمد قنبل[٦]، وثانيهما أحمد البزي[٧]، وما تزال قراءته ببلدنا إلى اليوم مشهورة متداولة بين القراء، يقرأ بها عادة بعد الانتهاء من قراءة نافع براوييه.

وقد روى عن ابن كثير جماعةٌ أشهرُهم أبو عمرو بن العلاء البصري، وشبل

---

١- تقدمت ترجمته.

٢- تقدمت ترجمته.

٣- تقدم ذكر أسانيد القراءة إليه.

٤- النشر جـ١ ص١٢٠.

٥- انظر ترجمته في معرفة القراء جـ١ ص٧١ طبقة ٢ - وغاية النهاية جـ١ ص٤٤٥ - وسراج القارئ ص١٠ وطبقات ابن سعد جـ٥ ص٤٨٤ - والفهرست ص٤٨ - ووفيات الأعيان جـ٢ ص٤١ ترجمة ٣٢٧.

٦- محمد بن عبدالرحمن بن محمد المخزومي المكي المشهور بقنبل، ولد سنة ١٩٥، أخذ القراءة عن أبي الحسن القواس وعن البزي الآتي، وانتهت إليه رئاسة الإقراء بالحجاز في عصره، فقرأ عليه خلقٌ كثيرٌ منهم شيخ القراء أبوبكر بن مجاهد البغدادي جامع القراءات السبع، وأبوالحسن بن شنبوذ، توفي سنة ٢٩١. ترجمته في معرفة القراء جـ١ ص١٨٦ الطبقة ٧- غاية النهاية جـ٢ ص١٦٦ ترجمة ٣١١٥ - سراج القارئ ص١٠.

٧- البزي أحمد بن محمد بن عبدالله بن أبي بزة المكي، قارئ مكة ومؤذن المسجد الحرام، ولد سنة ١٧٠ وقرأ على القواس على أبي الإخريط على اسماعيل القسط على ابن كثير. توفي سنة ٢٥٠. ترجمته في معرفة القراء جـ١ ص١٤٣ طبقة ٦ - غاية النهاية جـ١ ص١٩ - النشر جـ١ ص٢١ - سراج القاري ص١٠.

بن عباد[1] ومعروف بن مشكان[2] وإسماعيل القسط[3]، وحدث عنه جماعةٌ ذكرهم الذهبي في معرفة القراء.

## جـ - عاصم بن بهدلة

هو عاصم بن أبي النجود أو ابن بهدلة الأسدي الكوفي، قرأ القرآن على أبي عبدالرحمن السلمي، وعرض على زر بن حبيش، وقراءته مسندة من الطريق الأولى إلى علي بن أبي طالب، وهي الرواية التي رواها عنه حفص[4]، ومن الطريق الثانية إلى عبدالله بن مسعود، وهي الرواية التي رواها عنه شعبة[5]

حدث عاصم عن جماعة، وهو معدودٌ في التابعين، وقرأ عليه خلقٌ كثير، منهم سليمان بن مهران الأعمش والمفضل الضبي[6] إلى جانب روايبه اللذين اشتهرت قراءته من طريقهما، وقد انتهت إليه الإمامة في

---

١- شبل بن عباد مقرئ مكة قرأ على ابن كثير وابن محيصن روى عنه القراءة إسماعيل القسط وابنه داود بن شبل وأبو الإخريط، وروى عنه حمزة وجماعة وروى التفسير عن مجاهد توفي سنة ١٤٨. ترجمته في معرفة القراء جـ١ ص١٠٧ طبقة ٤ – غاية النهاية جـ١ ص٣٢٣ – طبقات المفسرين للداودي جـ٢ ص٢٠٨.

٢- معروف بن مشكان أبو الوليد المكي عرض على ابن كثير وحدث عن عطاء ومجاهد وغيرهما وقرأ عليه أبو الإخريط وإسماعيل القسط. توفي سنة ١٦٥. انظر معرفة القراء جـ١ ص١٠٨ طبقة ٤ غاية النهاية جـ٢ ص٣٠٢.

٣- إسماعيل بن عبدالله بن قسطنطين المخزومي المكي آخر أصحاب ابن كثير وفاة، قرأ عليه الإمام الشافعي، وأقرأ الناس بمكة دهرا، توفى حول سنة ١٧٠. انظر معرفة القراء جـ١ ص١١٧ – غاية النهاية جـ١ ص١٦٥.

٤- حفص بن سليمان الدوري الغاضري الكوفي ربيب عاصم توفى سنة ١٨٠، وقراءة عاصم من روايته منتشرة اليوم في العالم الاسلامي لا تكاد تنافسها إلا قراءة نافع في الغرب الإسلامي. انظر معرفة القراء جـ١ / ١١٦.

٥- شعبة أو أبوبكر بن عياش الأسدي الكوفي قرأ القرآن على عاصم وعرض أيضاً على عطاء بن السائب وأسلم المنقري، وعمّر دهرا مات سنة ١٩٣. وانظر معرفة القراء جـ١ ص١٠٨ – غاية النهاية ص٣٢٥.

٦- المفضل محمد بن سالم الضبي الكوفي الإمام المقرئ النحوي الراوية صاحب ديوان «المفضليات» من جمعه، روى القراءة عنه الكسائي مات سنة ١٦٨. انظر معرفة القراء جـ١ ص١٠٨ – غاية النهاية جـ٢ ترجمة ٢٦٣٩.

القراءة بالكوفة بعد موت شيخه أبي عبدالرحمن السلمي ، وكان واسع العلم بالعربية خبيرا بها، توفي سنة ١٢٧. [١]

## د - حمزة بن حبيب

حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الزيات الكوفي ، ولد سنة ٨٠ ، وأدرك بالسن عدداً من الصحابة وعرض القرآن على الأعمش وحمران بن أعين[٢] ومحمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى[٣] وأبي إسحاق السبيعي الهمداني وطلحة بن مصرف[٤] وجعفر الصادق [٥]، وتصدر للإقراء مدة ، فقرأ عليه أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي، وسُلَيْم بن عيسى[٦]، وهما أجل أصحابه ، ومن طريق سُلَيم انتشرت قراءته من رواية راويين هما خلف[٧] وخلاد[٨] وما تزال مشهورة ببلدنا تحت اسم «قراءة الشيخ» توفى حمزة سنة ١٥٦ [٩].

---

١- انظر طبقات ابن سعد جـ٦ ص٣٢٠ - المعارف ص٥٣٠ - معرفة القراء جـ١ ص٧٣ - وفيات الأعيان ٨/٣.

٢- حمران بن أعين مولى بني شيبان أخذ القراءة عن عبيد بن نضلة ويحيى بن وثاب وجماعة، توفي حول ١٣٠. ترجمته في معرفة القراء جـ١ ص٥٧ طبقة ٣ - غاية النهاية جـ١ ص٢٦١.

٣- قاضي الكوفة أخذ القراءة عرضاً عن الشعبي وطلحة بن مصرف والمنهال بن عمرو والأعمش ومات سنة ١٤٨. انظر غاية النهاية جـ٢ ص١٦٥ ترجمة ٣١١٤ - وطبقات الفقهاء للشيرازي ص٨٤ - مرآة الجنان جـ١ ص٣٠٦.

٤- تقدمت ترجمته.

٥- جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم. انظر غاية النهاية جـ١ ص١٩٦. - مرآة الجنان جـ١ ص٣٠٤ = ٣٠٥.

٦- سليم بن عيسى بن سليم الحنفي الكوفي صاحب حمزة توفى سنة ١٨٨. انظر معرفة القراء ١١٥/١.

٧- خلف بن هشام بن ثعلب البغدادي البزار قرأ على سُليم ، وله اختيار خالف فيه حمزة ، وعد به من القراء الثلاثة المتمين للعشرة ، قرأ بقراءة عاصم على أبي يوسف الأعشى ، وبقراءة نافع على إسحاق المسيبي صاحب نافع ، وحدث عنه مسلم وأبو داود وأحمد وجماعة ، توفى سنة ٢٢٩. انظر معرفة القراء الكبار جـ١ ص١٧١ - ١٧٢ طبقة ٦ - طبقات المفسرين للداودي جـ١ ص١٦٣.

٨- خلاد بن خالد الكوفي قرأ على سليم عن حمزة وتوفى سنة ٢٢٠. انظر معرفة القراء جـ١ ص١٦٣.

٩- ترجمة حمزة في معرفة القراء جـ١ ص٩٣ طبقة ٤ - المعارف ص٥٢٩ - غاية النهاية جـ١ ص٢٦٢.

## هـ - أبو عمرو بن العلاء

قيل اسمه كنيته ، وقيل زبان بن العلاء بن عمار المازني البصري إمام اللغة والنحو والقراءات أخذ معظم قراءته عن أهل الحجاز ، فقرأ على أبي جعفر المدني ويزيد بن رومان المدني وشيبة بن نصاح ، وابن كثير ومجاهد بن جبر والحسن البصري وحميد بن قيس(١) وعبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي وابن محَيْصن وعاصم بن أبي النجود ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وجماعة من أهل البصرة ، وقرأ عليه جمهور من قراء الأمصار ، وقد اشتهرت قراءته من رواية الدوري(٢) والسوسي(٣) عن اليزيدي(٤) عن أبي عمرو ، وما تزال قراءته واسعة الانتشار بالمغرب و السودان ، ويقرأ بها في المغرب عادةً بعد إتقان قراءة ابن كثير ، توفى سنة ١٥٤.(٥)

## و- نافع بن أبي نعيم

نافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيم الليثي مولاهم المدني إمام أهل المدينة

---

١- حميد بن قيس الأعرج قارئ أهل مكة مع ابن كثير مولى آل الزبير بن العوام ، قرأ على مجاهد وروى عنه تفسير ابن عباس ، كما ذكره الداودي في ترجمة ابن عباس في طبقات المفسرين جـ١ ص٢٢٣ رقم ٢٢٤. وانظر طبقات ابن سعد جـ٥ ص٤٨٦.

٢- أبو عمر حفص بن عمر بن عبدالعزيز الدوري الضرير البغدادي المتوفى سنة ٢٤٦ ، هو أول من جمع القراءات قال ابن الجزري في النشر. جـ١ ص١٣٤: و قد روينا القراءات العشر من طريقة . روى قراءة أبي عمرو عن اليزيدي ترجمته في معرفة القراء جـ١ ص ١٥٧ طبقة ٦ – طبقات الداودي جـ١ ص١٦٢ ترجمة ١٥٩.

٣- ابوشعيب صالح بن زياد السوسي الرقي، قرأ على اليزيدي وقرأ عليه جماعة منهم الإمام النسائي ، مات سنة ٢٦١ انظر معرفة القراء جـ١ ص١٥٩ طبقة ٦.

٤- أبو محمد يحيى بن المبارك بن المغيرة اليزيدي العدوي البصري النحوي المقرئ قرأ القرآن وأخذ اللغة عن أبي عمرو ، وله اختيار في القراءة خالفه فيه ،وهو معدودٌ في القراءات الأربع بعد العشر ، توفى سنة ٢٠٢. انظر معرفة القراء جـ١ ص١٢٥ طبقة ٥ – مراتب النحويين ص١٠٨ – غاية النهاية جـ٢ ص٣٧٥ رقم ٣٨٦٠.

٥- ترجمته في معرفة القراء ٨٣/١ – مراتب النحويين ص٣٢ – ٤٢ – غاية النهاية ٢٨٨/١ – مرآة الجنان ٣٢٦/١.

في القراءة ، وعمدة أهل المغرب والأندلس في تلقي كتاب الله منذ أواخر القرن الثاني إلى اليوم. قرأ على سبعين من التابعين ، وأهم شيوخه ترجمنا لهم في مدرسة أبيّ المدنية.

ومن أجلّ الآخذين عنه شيخ المذهب وإمام أهل المدينة مالك بن أنس الأصبحي ، وكان يقدره ويقول قراءته سنة.[1]

اشتهر بالرواية عنه راويان : ورش[2] وقالون[3] ومن طريقهما انتشرت قراءته في الغرب الاسلامي ، لكن قبل ذلك دخلت إلى الأندلس في النصف الثاني من المائة الثانية ، على يد الغازي بن قيس[4] وبقيت روايته هي السائدة بها إلى أواخر القرن الثالث حين عاد ابن وضاح[5] إلى الأندلس من رحلته ، فدخل إليها برواية ورش ، قال الإمام الداني :

---

١- معرفة القراء جـ١ ص٩٠.

٢- أبو سعيد عثمان بن سعيد بن عبدالله المصري الملقب بورش لشدة بياضه . ولد سنة ١١٠ ، وقرأ على نافع سنة ١٥٥ ، وتوفي بمصر سنة ١٩٧ ، انظر ترجمته في معرفة القراء الكبار جـ١ ص١٢٦ – ١٢٨ – طبقة ٥٠٢ – حسن المحاضرة جـ ص٢٠٧.

٣- عيسى بن مينا بن وردان بن عيسى الزرقي المدني مولى بني زهرة قارئ أهل المدينة في زمنه، لقب بقالون لجودة قراءته ، لم يزل يقرأ على نافع حتى حذق في القراءة ، وجلس للإقراء بعد نافع و كان يدرس النحو أيضاً ، وطال عمره وبعد صيته ، توفى سنة ٢٢٠. انظر معرفة القراء جـ١ ص١٢٨ – ١٢٩ الطبقة ٥ وسراج القارئ ص٩ – والنشر جـ١ ص١١٢ – وغاية النهاية جـ١ ص٦١٢.

٤- الغازي بن قيس أبو محمد القرطبي الأندلسي ، كان مؤدباً بقرطبة ، رحل وحج واتصل بمالك بن أنس ونافع بن أبي نعيم ، فأخذ قراءة نافع وصحح مصحفه عليه ثلاث عشرة مرة ، وضبط اختياره ، ورجع به إلى الأندلس ، وهو أول من أدخل موطأ مالك أيضاً إليها ، وقد ترجم له عياض في الطبقة الأولى من أصحاب مالك. انظر ترجمته في تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ص٣٤٥ – وترتيب المدارك جـ٣ ص١١٤ – والديباج المذهب لابن فرحون ص٢١٠ – وغاية النهاية جـ٢ ص٢ ترجمة ٢٥٢٤.

٥- الإمام الفقيه المحدث محمد بن وضاح بن بزيع القرطبي ، روى القراءة عن عبدالصمد بن عبدالرحمن ابن القاسم العتقي ، عن ورش وله عنه نسخة رواها. توفي سنة ٢٨٦ ، وبه وبابن مخلد صارت الأندلس دار حديث. انظر غاية النهاية جـ٢ ص٢٧٥ ترجمة ٢٥١٨.

«ومن وقته اعتمد أهل الأندلس على رواية ورش ، وصارت عندهم مدونة، وكانوا قبل ذلك معتمدين على رواية الغازي بن قيس عن نافع.»[١]

وقد عللوا لاقبال أهل الأندلس على رواية ورش ، فقال الذهب في ترجمة أبي الأزهر عبد الصمد العتقي:

«ولمكانه اعتمد الأندلسيون على قراءة ورش.»[٢]

ويعني بتلك المكانة كونه ابن الفقيه المالكي عبدالرحمن بن القاسم أحد تلامذة مالك ، وأحد الفقهاء الذين كان لهم ولفتاويهم في المذهب المقام الأول عند الأندلسيين.

وذكروا في ترجمة ابن خيرون[٣] أنه «لم يكن يقرأ من أهل افريقية بحرف نافع إلا خواص من الناس، حتى قدم ابن خيرون، فاجتمع عليه الناس.»[٤]، وكان الغالب عليهم حرف حمزة.»[٥]

وعلى هذا تكون قراءة نافع قد دخلت إلى الغرب الاسلامي على ثلاث دفعات: الأولى في المائة الثانية على يد الغازي بن قيس، والثانية في أواخر المائة الثالثة من رواية ورش على يد ابن وضاح، وعلى طريق القيروان على يد ابن خيرون الذي جاء عن الداني قوله : روى القراءة عنه عامة أهل القيروان وسائر المغرب.»[٦].

---

١- غاية النهاية نفس الجزء والصفحة.

٢- معرفة القراء جـ١ ص١٥١ طبقة ٦ ومثل ذلك عند السيوطي في حسن المحاضرة جـ١ ص٢٣١.

٣- محمد بن عمر بن خيرون المعافري شيخ الإقراء بالقيروان ، رحل إلى مصر وقرأ على أصحاب عبدالصمد كالأنماطي وإسماعيل النحاس ، وحذق في قراءة ورش وتوفى سنة ٣٠٢. انظر معرفة القراء الكبار جـ١ ص٢٢٧ طبقة ٨ – النهاية جـ٢ ص٢١٧ ترجمة ٣٣١٤.

٤- معرفة القراء جـ١ ص٢٢٨.

٥- غاية النهاية جـ٢ ص٢١٧.

٦- انظر معرفة القراء للذهبي جـ١ ص٢٢٧.

وقد ازدهـرت قـراءة نافع من رواية ورش بعد هذا في الأندلس والمغرب، وذكر الإمام أبوالوليد بن رشد[1] في مسائله «أنها الرواية التي اختارها الشيوخ المتقدمون عندنا ، فكان الإمام في الجامع لا يقرأ إلا بها.»[2]

وقد غدت منذ هذا التاريخ وإلى اليوم عمدة أهل المغرب، ولا تنافسها في الصدارة إلا رواية قالون في تونس وبعض القطر الليبي.[3] توفى نافع سنة ١٦٩.[4]

## ز – علي بن حمزة الكسائي

أبو الحسن علي بن حمزة بن بهمن الكسائي الأسدي مولاهم الكوفي امام النحو والقراءة ، قرأ القرآن وجّوده على حمزة بن حبيب ، وقرأ على عيسى بن عمر الهمداني والقاضي محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى ، وسمع من الأعمش وجعفر الصادق ، ورحل إلى البصرة فأخذ العربية عن الخليل بن أحمد[5] ثم خرج إلى البوادي فسمع اللغة والغريب ، ودون عن أعراب نجد وتهامة ، ثم عاد فجلس إلى الأخفش[6] وقرأ عليه «كتاب» سيبويه[7] ، ثم جلس للتصنيف فصنف كتاب معاني القرآن ، وكتاب القراءات ،» وغير ذلك ،

١– أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (الجد) زعيم فقهاء الأندلس في وقته، من كتبه «البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل» وكتاب «المقدمات الممهدات» المشهور بمقدمات ابن رشد توفي سنة ٥٢٠. انظر ترجمته في تاريخ قضاة الأندلس ص٩٥ – والديباج المذهب ص٢٥٢ – وشذرات الذهب لابن العماد جـ٤ ص٦٢،

٢– مسائل ابن رشد جـ٤ ص٦٨١ وهي موضوع رسالة دبلوم بدار الحديث الحسنية ، دراسة وتحقيق تقدم بها الاستاذ محمد بن الحبيب التجكاني. ومنها نسخ بخزانة دار الحديث.

٣– انظر مقدمة تفسير ابن عاشور المسمى «التحرير والتنوير» جـ١ ص٦٢ المقدمة السادسة.

٤– انظر ترجمته في معرفة القراء الكبار جـ١ ص٨٩ طبقة ٤ – وغاية النهاية جـ٢ ص٣٣٠ ترجمة ٣٧١٨ وسراج القارئ ص٩.

٥– الخليل بن أحمد الفراهيدي ستأتي ترجمته.

٦– الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة ستأتي ترجمته.

٧– أبو بشر عمرو بن قنبر المشهور بسيبويه ستأتي ترجمته.

ثم استدعاه هارون الرشيد لتأديب الأمين والمأمون ، قال الخطيب البغدادي في تاريخه :

«فأقرأ ببغداد زماناً بقراءة حمزة ، ثم اختار لنفسه قراءةً فأقرأ بها الناس، وقرأ عليه خلق ببغداد كثير وبالرقة وغيرهما من البلاد.»(1)

ومن أشهر الآخذين عنه أبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو زكريا يحيى بن زياد الفراء(2) وأبو عمر حفص بن سليمان الدوري(3) قال أبوعبيد :«كان الكسائي يتخير القراءات ، فأخذ من قراءة حمزة ببعض وترك بعضاً ، وكان من أهل القراءة ، وهي كانت علمه وصناعته ، ولم نجالس أحداً كان أضبط ولا أقوى بها منه.»(4)

اشتهرت قراءته من رواية راويين : أحدهما حفص الدوري أحد راويي قراءة أبي عمرو ، وثانيهما : أبو الحارث(5). وتوفي الكسائي سنة ١٨٩ .(6)

١- تاريخ بغداد جـ١١ ص٤٠٣ رقم الترجمة ٦٢٩٠.

٢- أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبدالله الفراء شيخ نحاة الكوفة بعد الكسائي ، روى الحروف عن أبي بكر بن عياش والكسائي ، وله اختيار في القراءة ذكره الإمام الداني في المنبهة فقال :

| | |
|---|---|
| وابن زياد وهو الفراء | له اختيار ما به خفـــاء |
| علله بواضح الإعراب | وما رواه عن ذوي الألباب |

ألّف معاني القرآن وهو مطبوع ، وكان أول من توسع في انتقاد بعض القراءات. وتوفى سنة ٢٠٧. ترجمته في مراتب النحويين ص١٣٩ – تاريخ بغداد جـ١٤ ص١٤٩ – ١٥٥ ترجمة ٧٤٦٤ – وغاية النهاية جـ٢ ص٣٧١ ترجمة ٣٨٤٢ – الفهرست ص١٠٥ – ١٠٦.

٣- تقدم ذكره.

٤- معرفة القراء جـ١ ص١٠١.

٥- أبو الحارث الليث بن خالد البغدادي المقرئ صاحب الكسائي والمقدم من بين أصحابه ، قرأ عليه ، وسمع الحروف من حمزة بن قاسم الأحول وأبي محمد اليزيدي ، توفى سنة ٢٤٠. انظر معرفة القراء جـ١ ص١٧٣ الطبقة السادسة. وغاية النهاية جـ٢ ص٣٤ ترجمة ٢٦٣٧.

٦- ترجمة الكسائي في تاريخ بغداد جـ١١ ص٤٠٣ ترجمة رقم ٦٢٩٠ – معرفة القراء الكبار جـ١ ص١٠٠ – ١٠٧ طبقة ٤ – ومراتب النحويين ص١٢٠ – ١٢١ – وفيات الأعيان جـ٣ ص٢٩٥ ترجمة ٤٣٣.

هؤلاء هم القراء السبعة الذين تواترت إلينا قراءاتهم ، وتلك لمحات من تراجمهم.

فأما الطرائق التي كانوا يسلكونها في الاختيار ، فسوف نرى أنها هي التي رشحتهم لتبوُّءِ هذه المكانة في أرجاء المعمورة ، ولأن تجري قراءاتهم على ألسنة الخلق جيلاً بعد جيل ، وأعصاراً بعد أعصار ، قال الداني في المنبهة بعد ذكره لتراجمهم :

فهؤلاء السبعة الأئمة — هم الذين نصحوا للأمة
ونقلوا إليهم الحروفا — ودونوا الصحيح والمعروفا
وميزوا الخطأ والتصحيفا — واطَّرحوا الواهي والضعيفا
ونبذوا القياس والآراء — وسلكوا المحجة البيضاء
في الاقتدا بالسادة الأخيار — والبحث والتفتيش للآثار
فنقلهم به تقوم الحجة — يا بُؤْسَ مَن مال عن المحجة[1]

لقد انطلق الأئمة السبعة «البدور»من أصول موضوعية في اختياراتهم، جعلها العلماء بعدهم معياراً لصحة الاختيار ، وأضافوا إليها شروطاً أدبية تكميلية تجعل الاختيار على اساسها في أعلى درجات القبول والاعتبار ، قال الإمام أبوبكر بن مجاهد[2]:

لاتغتروا بكل مقرئ، إذ الناس على طبقات :

فمنهم من حفظ الآية والآيتين ، والسورة والسورتين ، ولا علم له في غير

---

١- الأرجوزة المنبهة م.خ.ع ص١٢.

٢- أبوبكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد العطشي البغدادي شيخ قراء عصره ببغداد وأول من صنف قراءات السبعة ، ولد سنة ٢٤٥ ببغداد ، قرأ القراءات ببلده على أبي الزعراء بن عبدوس وعلى محمد قنبل المكي وجماعة ، وتصدر للإقراء واجتمع عليه الخلق ، ورحل إليه من الأقطار وبَعُد صيته ، ومنذ زمانه اتجه الناس إلى الاكتفاء بالقراءات السبع والروايات التي دونها في كتابه عن «السبعة» وكتابه مطبوع متداول. توفي سنة ٣٢٤. — الفهرست ص٥٣.- تاريخ بغداد جـ٥ ص١٤٤ ترجمة ٢٥٨٠.

ذلك، فلا تؤخذ عنه القراءة ، ولا تنقل عنه الرواية ، ولا يقرأ عليه.»»

ومنهم من حفظ الروايات ، ولم يعلم معانيها ، ولا استنباطها من لغة العرب و نحوها ، فلا تؤخذ عنه، ربما يصحف، ومنهم من يعلم العربية ، و لا يتبع المشايخ و الأثر في القراءة ، فلا تنقل عنه الرواية، لأنه ربما حسنت له العربية حرفا لم يقرأ به ، والرواية متبعة ، والقراءة سنة يأخذها الآخر عن الأول.»

ومنهم من فهم التلاوة وعلم الرواية ، وأخذ حظاً من الدراية والنحو واللغة، فتوخذ منه الرواية ، ويقصد للقراءة.

«وليس الشرط أن يجتمع فيه جميع العلوم ، إذ الشريعة واسعة ، والعمر قصير ، وفنون العلم كثيرة ، ودواعيه قليلة ، والعوائق معلومة ، تشغل كل فريق بما يعنيه.»[1]

هذه شروط الأخذ عن الشيوخ كما حددها ابن مجاهد ، وهي تنصب على شيئين : الرواية والدراية ، ولا غنى عنده بأحدهما عن الآخر ، إذ لا تؤخذ الرواية عنده عمن حفظ الروايات ولم يعلم معانيها ولا استنباطها من لغة العرب». ومن هذه الجهة تلتقي القراءات مع «علم التفسير».

وللإمام الداني في منبهته بسطٌ زائدٌ لهذه الشروط قال فيه :

فإن رغبت العرض للحروف ... والضبطَ للصحيح والمعروف
فاقصد شيوخ العلم والرواية ... ومن سما بالفهم والدراية
ممن روى وقيد الأخبارا ... وانتقد الطرق والآثارا
وفهمِ اللغة والإعرابا ... وعلم الخطأ والصوابا
وحفِظ الخلاف والحروفا ... ومَيَّزَ الواهيَ والمعروفا

١- نقله ابن الجزري في منجد المقرئين ص٥.

| | |
|---|---|
| وأدركَ الجلـيَّ والخفيــا | وما أتى عن نـاقـل مـرويـا |
| وشاهَدَ الأكابر الشيـوخـا | ودوَّنَ النـاسـخ والمنسـوخـا |
| وجَمَعَ التفسيرَ والأحكـامـا | ولازَمَ الحُـذّاق والأعـلامـا |
| وصاحَبَ النُسّاك والأخيـارا | وجـانَـبَ الأرذال والأشـرار |
| واتّبع السنـة والجمـاعـة | وقام لله بحسـن الطـاعـة. |

وقد تعرض الداني بعد هذا لكثيرٍ من الشروط الأدبية ، فنهى عن الأخذ عن الصحفي والكتبي والمجهول وكذا الكذاب والبدعي ، ومن يجهل النحو والعربية، لأنه ربما قوّل الأئمة ما لم يقولوا.

هذه جملة الشروط التي كانت متبعةً عند الأئمة المعتبرين في أخذ القراءة عن الشيوخ وجمع الروايات فيها وقد رأينا أنها تتحدد في المهمات منها في ثلاثة عناصر :

أ – المعرفة بالحروف والروايات.

ب – التمكن من اللغة والنحو.

جـ – العلم بالتفسير والآثار.

وقد كانت جملة هذه العناصر الضرورية في الاختيار متوافرة أعظم توافر في الصدر الأول ، حين كان المقرئ في معظم الأحيان إماماً في كثير من العلوم النقلية والأدبية ، وقد توافرت في أسمى مظاهرها في قراءات القراء السبعة.

فأما فيما يرجع إلى الأسانيد فقد رأينا أن منهم من تلقى عن بعض الصحابة مباشرة كابن عامر وابن كثير، ومنهم من أخذ عن التابعين ، وهم بقية السبعة، ونقرأ في تراجمهم أن الواحد منهم كان أولاً يقرأ بقراءة من أخذ عنه من الشيوخ ، حتى إذا استكمل عناصر الإمامة ، وهي الشروط الموضوعية والأدبية التي تحدثنا عنها. نجده يتخذ لنفسه قراءةً يختارها من بين مروياته ، ويلتزم

حروفها ، فيقرأ ويُقرئ بها ويُرحل إليه فيها ، وقد رأينا في ترجمة الكسائي أنه كان يُقرئ بقراءة حمزة ، فلما تصدر للإقراء ببغداد اتخذ لنفسه قراءته الخاصة ، وقد سلك مسلكه خلف بن هشام البزار الذي قدمنا أنه أحد راوِيَيّ قراءة حمزة عن شيخه سليم ، ولكنه اختار لنفسه قراءةً خالف فيها حمزة في ١٢٠ حرفاً كما ذكر ابن الجزري[١].

ومثل ذلك فعله اليزيدي الراوي عن أبي عمرو الذي اختار قراءته الخاصة من قراءة شيخه ، وإن كان لم يخالفه إلا في حروف يسيرة[٢].

وقد كان الأئمة أنفسهم سلكوا المسلك ذاته في اختيار قراءاتهم ، على وفق الأسس التي تحدثنا عنها ، فروَى اليزيديُّ أن أبا عمرو بن العلاء «كان قد عرف القراءات ، فقرأ من كل قراءةٍ بأحسنها ، وبما يختار العرب ، وبما بلغه من لغة النبي ﷺ ، وجاء تصديقه في كتاب الله عز وجل».[٣]

ومعنى هذا أنه كان يستخدم ثقافته النقلية واللغوية في اختيار الوجوه الأرضى عنده ، ومع هذا فقد كان يحرص على التزام الأثر حتى في اللغات ، وقد أُثر عنه أنه كان يقول :

«لولا أنه ليس لي أن أقرأ إلا بما قُرِيء به ، لقرأت حرف كذا وحرف كذا ، وذكر حروفاً.»[٤]

وما فعله أبو عمرو أيضاً فعله نافع بن أبي نُعَيْم الذي كان يقرأ أولاً بقراءة أبي جعفر ردحاً من الزمن ثم اتخذ لنفسه مقرأه الخاص ، ويكشف لنا خبرٌ عند الذهبي في معرفة القراء الأسباب التي حملته على العدول إلى اختياره ، وهو

---

١- النشر جـ١ ص١٩١.

٢- معرفة القراء جـ١ ص١٢٥ وغاية النهاية جـ٢ ص٣٧٥ – ٣٧٦.

٣- انظر معرفة القراء الكبار جـ١ ص٨٤ ترجمة ١ طبقة ٤.

٤- نفس المصدر والصفحة.

سببٌ يتصل بالتوثيق للروايات ، والتثبُّت من الأسانيد ، والتحرّي في الأخذ عن الشيوخ ، واختيار ما هو مجمع عليه من الحروف.

نقل الذهبي عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم[1] قال :

«كنا نقرأ على أبي جعفر القارئ [2]، وكان نافعٌ يأتيه فيقول : يا أبا جعفر، ممن أخذت حرف كذا وكذا ؟ فيقول : من رجلٍ قارئ ، من مروان بن الحكم[3]، ثم يقول : ممن أخذت حرف كذا وكذا؟ فيقول : من رجل قارئ ، من الحجاج بن يوسف[4]، فلما رأى ذلك ، تتبع القراءة يطلبها.»[5]

ونقل الذهبي أيضاً أن نافعاً قال متحدثا عن طريقته في الاختيار :

«قرأت على هؤلاء ، فنظرت إلى ما اجتمع عليه اثنان منهم فأخذته ، وما شذ فيه واحد تركته ، حتى ألفت هذه القراءة.»[6]

ومع هذا التحري في تنقيح الروايات ، فقد أثر عنه ««أنه كان يجيز كل ما قرئ عليه ، إلا أن يقول له إنسان : أريد قراءتك»[7]

---

١- عبدالرحمن بن زيد بن أسلم العدوي المدني من أقران مالك بن أنس ، روي عن أبيه ومحمد بن المنكدر وروى عنه أصبغ وغيره ، وهو من رواة التفسير عن أبيه ، توفي سنة ١٨٢. انظر طبقات المفسرين للداودي جـ١ ص٢٦٥ – ٢٦٦.

٢- هو يزيد بن القعقاع أحد القراء العشرة. تقدمت ترجمته.

٣- مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبدشمس ، كان كاتب عثمان الخاص ، ودعا إلى نفسه بعد موت معاوية بن يزيد وتنازله عن الخلافة ، ولم يتم سنة حتى توفي ، فولي الخلافة ابنه عبدالملك. انظر في طبقات ابن سعد جـ٥ ص٣٥.

٤- تقدمت ترجمته.

٥- انظر معرفة القراء جـ١ ص٩١.

٦- نفس المصدر والصفحة.

٧- في غاية النهاية جـ٢ ص٣٣٢ عن أبي يوسف الأعشى قال : «كان نافعٌ يسهل القرآن لمن قرأ عليه ، إلا أن يقول له إنسان : أريد قراءتك».

وروى عن يونس بن عبد الأعلى[١] قال:

«سافرت بكتاب الليث بن سعد[٢] إلى نافع، لأقرأ عليه، فوجدته يُقرئ الناس بجميع القراءات، فقلت له: يا أبا رؤيم، ما هذا؟ فقال لي: سبحان الله، أحرم ثواب القرآن؟ أنا أقرئ الناس بجميع القراءات، حتى إذا كان من يريد حرفي، أقرأته به.»[٣]

وهكذا كان القارئ إنما يختار قراءته بعد أن تنمو حصيلته من الروايات في حروف القراءة، وتتكامل لديه عناصر الاختيار، ولذلك تجدهم يقومون أولا بعملية استقراء وجمع للروايات، وقد ازداد الولوع بذلك حتى رحل القراء في طلبه من بلاد إلى أخرى، وهذا خلف بن هشام أحد راويي قراءة حمزة، وصاحب الاختيار الذي اعتبر به من القراء العشرة، يقول:

«منذ أربعين سنة، لم أرفع القلم عن كتابة الحروف[٤]، ما أعياني شيء، ما أعياني جبريل وميكائيل»[٥]، يعني حصر وجوه قراءة هذين الاسمين، ولذلك تجد في بعض تراجم القراء أن للقارئ اختيارين: أولاً وثانياً[٦]. وهذا يدل على أن القارئ كان في عمل دائب في تنقيح قراءته حتى يقيم حروفها على آخر ما ترجح عنده من الوجوه والروايات، ولذلك تجد القارئ يرجع من قراءة إلى أخرى.

---

١- يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة الصدفي المصري قرأ القرآن على ورش، ومعلى بن دحية، وأقرأ القرآن، وحدث عن سفيان بن عيينة وابن وهب والوليد بن مسلم والشافعي وجماعة وتفقه على هذا الأخير، وحدث عنه مسلم والنسائي في كتابيهما، وتوفي سنة ٢٦٤ وله ٩٤ سنة. انظر معرفة القراء جـ١ ص١٥٦ – ١٥٧ طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي ص٩٩ – ترتيب المدارك لعياض جـ٤ ص١٧٤.

٢- تقدمت ترجمته.

٣- انظر غاية النهاية لابن الجزري جـ٢ ص٤٠٢.

٤- يعني الكلمات التي يتوارد عليها اختلاف القراءات.

٥- سنن أبي داود جـ٢ ص٣٦٠.

٦- من أمثلة ذلك في غاية النهاية جـ٢ ص٢٢٣ في ترجمة محمد بن عيسى بن إبراهيم بن رزين الاصبهاني، قال ابن الجزري: امام في القراءة، له اختيار أول وثان، توفي سنة ٢٤٢».

ولما غلبت على طائفةٍ من القراءِ الاعتبارات اللغوية ، ورعاية الوجوه الأفصح في القراءة ، وجدنا أنهم قد أدخلوا في وسائل الاختيار ، ثقافتهم اللغوية والنحوية، وهذا الإمام أبو سعيد ورش روى الإمام الذهبي عن يوسف الأزرق[1] أنه «لما تعمق في النحو ، اتخذ لنفسه مقرأ ، يسمى «مقرأ ورش» قال الأزرق : «فلما جئت لأقرأ عليه ، قلت له : يا أبا سعيد ، اني أحب أن تقرئني «مقرأ نافع» خالصا ، وتدعني مما استحسنت لنفسك ، فقلدته مقرأ نافع ، وكنت نازلا مع ورش في الدار ، فقرأت عليه عشرين ختمة.»[2]

هذه أسس الاختيار وأصوله عند السبعة ومن نحا نحوهم من أئمة القراء، وهو اختيارٌ لم يكن بمعنى اختراع الوجوه والحروف ، وتنزيل القراءة على ما قد يهدي إليه السياق من المعاني ، وإنما الأمر كما ذكر الإمام أبو عبدالله القرطبي في تفسيره :

«إن هذه القراءات المشهورة ، هي اختيارات أولئك الأئمة القراء ، وذلك أن كل واحدٍ منهم اختار فيما روى وعرف وجهه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى ، فالتزمه طريقة ، ورواه ، وأقرأ به ، واشتهر عنه ، وعرف به ، ونسب إليه ، فقيل : حرف نافع ، وحرف ابن كثير ، ولم يمنع واحدٌ منهم اختيار الآخر، بل سوغه وجوزه ، وكل واحدٍ من هؤلاء السبعة روي عنه اختياران أو أكثر ، وكلٌّ صحيح.»

«وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار ، على ما صح عن هؤلاء الأئمة ، مما رووه ورأوه من القراءات ، وكتبوا في ذلك مصنفات ، فاستمر الإجماع على

---

١- أبو يعقوب يوسف بن عمرو بن يسار المدني ثم المصري ، لزم ورشاً مدةً طويلةً وأتقن عنه الأداء وجلس للإقراء وقرأ عليه جماعة منهم إسماعيل النحاس ومواس بن سهل ومحمد بن سعيد الأنماطي توفى في حدود سنة ٢٤٠. انظر معرفة القراء جـ١ ص١٤٩ – ١٥٠ طبقة ٦ – حسن المحاضرة جـ١ ص٢٠٧.

٢- غاية النهاية: جـ٢ ص٤٠٢ ترجمة ٣٩٣٤.

الصواب ، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب.»[1]

وقد أصبحت مرويات هؤلاء السبعة ، معياراً لصحة القراءة وشهرتها ، وقد عبر عن ذلك مكي بن أبي طالب ، فقال متحدثاً عن أصحاب الاختيارات :

«وقد اختار الناس بعد ذلك ، وأكثر اختياراتهم إنما هو في الحرف إذا اجتمعت فيه ثلاثة أشياء : قوة وجه العربية ، وموافقته للمصحف ، واجتماع العامة عليه. والعامة عندهم : هو ما اتفق عليه أهل المدينة والكوفة. فذلك عندهم حجة قوية توجب الاختيار ، وربما جعلوا «العامة» ، ما اجتمع عليه أهل الحرمين، وربما جعلوا الاعتبار بما اتفق عليه نافع وعاصم ، فقراءة هذين الإمامين، أولى القراءات ، وأصحها سندا ، وأفصحها في العربية ، ويتلوها في الفصاحة خاصة قراءة أبي عمرو بن العلاء والكسائي.»[2]

وقد تحدث الداني في منبهته عن أصحاب الاختيارات الخاصة من القراء، وميزة كل اختيار مما ذكر ، ومن الملاحظ أن اختيار القراءات قد أخذ في التراجع منذ أواخر المائة الثالثة ، حتى إن الداني ختم ذلك بالطبري فقال :

والطبري صاحب التفسير     لـه اختيـار ليس بالشـهيـر

ثم قال :

فهـؤلاء أهـل الاختيـار     لأحرف القرآن في الأمصار[3]

ومعنى هذا أن الاختيارات منذ عصر ابن جرير المتوفى سنة ٣١٠ قد توقفت، وأصبح الاهتمام منصرفاً عند القراء إلى رواية القراءات دون الاحتفاء بتدوين

---

١- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ١ ص٤٠.

٢- نقله الإمام الزركشي في البرهان جـ١ ص٣٣١.

٣- المنبهة م.خ.ع رقم ٢١٨٦ حرف د صحيفة رقم ٢٠.

الحروف ، لأن اختيارات السبعة ومن كان على شاكلتهم من الأئمة ، كانت قد استحوذت على اهتمام جمهرة القراء ، فعكفوا على روايتها وتتبع طرقها ، والسعي في طلب علو السند بها ، فاتسع الرحيل إلى الآفاق والأصقاع في طلب ذلك ، ولم تعد هناك رغبة من لدن القراء ليختاروا فيما يروون ، وهذا شيخ العصر أبوبكر بن مجاهد ، الذي كان أول من جمع قراءات السبعة في كتاب. «سأله رجل فقال :

«لم لا يختار الشيخ لنفسه حرفاً يحمل عليه؟ فقال : نحن أحوج إلى أن نعمل أنفسنا في حفظ ما مضى عليه أئمتنا ، أحوجُ منّا إلى اختيار حرف يقرأ به من بعدنا.»(١)

والواقع أن هذا القول من ابن مجاهد قد قيل في كافة المجالات العلمية ، بعد عصور العطاء والازدهار سواء في الفقه أو الحديث أو التفسير أو علوم اللغة ، فما كاد يطل القرن الرابع ، حتى بدأت جذوة النبوغ تخمد ، وابتدأ عهد التراجع في كافة هذه العلوم ، وأصبح هم الناس ، مجرد التكريس على آثار الماضين من الأئمة ، وشرح آرائهم وأقوالهم ، وتأويل نصوصهم والتفريع على أصولهم.

ومع هذا التراجع ، فإن العناية بالرواية لم تنقطع ، ولا سيما رواية القراءات السبع ، التي اعتنى العلماء برواياتها وطرقها التي بلغت في أواسط القرن السادس كما قال القاضي أبوبكر بن العربي «ألفاً وخسمائة رواية ، وفي شاذ السبعة إلى خمسمائة»» قال :

«وأكب الخلق على الحروف ليضبطوها ، فأهملوها ، وليحصروها ، فأرسلوها إلى غير غاية.»(٢)

---

١- نقله الذهبي في معرفة القراء الكبار جـ١ ص٢١٧ ترجمة ابن مجاهد الطبقة ٨.

٢- انظر العواصم من القواصم جـ٢ ص١٩٩.

وسوف نرى هذه القراءات ، ومعها الأنواع الأخرى من القراءات التي سارت على هامشها ، كيف فرغ منها القراء قراءةً ورواية ، ثم تلقفتها كتب التفسير بمناهجها واتجاهاتها المختلفة ، لتنظر من خلالها إلى معاني الذكر الحكيم ، وتستعين بما تقدمه للتفسير من دلالات ومقاصد هي من أهم ما يساعد على الفهم ويعين على استخراج المعاني واستنباط الأحكام.

وفي الباب التالي سنرى مظاهر اختلاف القراءات ومدى تأثيرها في توجيه المعاني ، وما لرعاية الخلاف في عملية التفسير من أهمية قصوى ، لما يقدمه تعدد القراءات من إثراءٍ وتوسيعٍ للدلالات.

# الباب الرابع

# مظاهر اختلاف القراءات في ضوء التفسير، وقيمتها البيانية

## ويشتمل على مايلي:

- **الفصل الأول:**
  مظاهر اختلاف القراءات، وصلتها بالتفسير.

- **الفصل الثاني:**
  اختلاف القراء في مواقع الوقف وأثره في توجيه المعاني.

- **الفصل الثالث:**
  القيمة البيانية لاختلاف القراءات، وأهمية رعايته في التفسير.

# الفصل الأول

## مظاهر اختلاف القراءات وصلتها بالتفسير

أشرنا في فصلٍ مضى إلى ما حاوله بعض الأئمة المتقدمين ، من حصر مظاهر الاختلاف بين القراءات في قوالب محددة ، يندرج فيها جميع ما ورد عن القراء من اختلاف في حروف القراءة وكيفيات الأداء ، ما بين متواتر ومشهور وشاذ ، إلا أن غرض أولئك الأئمة في الواقع لم يكن يستهدف حصر مظاهر هذا الخلاف ، بقدر ما كان تحايلاً على حصره في سبعة أنماط أو أنحاء لا يتجاوزها، وذلك لتنزيل حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف»، على أن القصد منه سبعة أوجهٍ من التغاير سعى أولئك الأئمة إلى تحديدها وربط معنى الحديث بها.

ولم يكن قصدي في هذا المجال إلى رصد وجوه الخلاف جميعاً ، ومحاولة تصنيفها أو حصرها في أوضاعٍ وأنماطٍ معينة ، فذلك شيء فوق الطوق ، ويخرج عن القصد ، ولكني هنا بصدد التنبيه فقط ، على مظاهر الاختلاف من حيث صلتها بتنويع دلالات القرآن ، وتوسيع مدارك المفسر من المعاني التي تتنزل عليها قراءات القراء ، والتي من شأن الاعتبار بها في التأويل أن ينوع المعاني ويوسع الدلالات.

فلذا رأيت أن التقسيم السباعي الذي ذهب إليه ابن قتيبة ، وتبعه فيه علماء كثيرون ، لا يقدم لي الفائدة المرجوة من النظر في مظاهر الخلاف ، فرأيت أن التقسيم على الأساس المعنوي يستوعب أنماط الخلاف جميعاً، ويساعد على إدراك الاختلاف في ضوء أثره في التفسير، إدراكاً يساعد على تقدير أهميته الكبرى. وقيمته العظمى في تفسير القرآن.

إن للقراءات وتعددها بالنسبة للتفسير حالتين :

إحداهما لا صلة لها بالتفسير ، والثانية تشكل الرصيد السخي والمادة المعطاء في تزويد المفسر وإمداده بما توفره من ثراء في المعاني والمقاصد والأحكام.

فأما الأولى التي لا تعلق لها بالتفسير ، فتتمثل في اختلاف القراء في وجوه النطق بالحروف والحركات ، مما يتعلق بكيفيات الأداء وصفات الحروف، وذلك كمقادير المد وأحوال الهمز ، وأماكن الجهر والهمس والغنة والإخفاء والإشمام والإدغام والإظهار والفتح والإمالة والتفخيم والترقيق، وبعض اللغات في مثل أف، وهيهات ، وهزؤا بضم الزاي أو إسكانها ، مع الهمز أو بدونه ، وإسكان دال القدس وسين الرسل ونحو ذلك من بعض صور الإعراب التي لا تؤثر في تنويع المعاني وتلوين الدلالات.

ومزية هذا الاختلاف هو أنه حفظ طريقة الأداء وضبطها حتى لا تلتبس المعاني ، ولا تختل طريقة عرضها، بالاضافة إلى مزيته التاريخية العظمى ، إذ بفضله أمكن لنا ولمن بعدنا أن نتعرف على كيفية نطق العرب الأولين بالحروف والأصوات من مخارجها بصفاتها وسماتها المتميزة ، ومن شأن هذا أن يفيد الدارس لعلم الصوتيات وخصائص اللهجات ، كما أن له في بعض الأحيان دلالة على بعض المعاني، التي يساعد حسن الأداء على التمييز بينها.[1]

---

١- من أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء الآية ٧٢ : (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا.») قال ابن جرير الطبري في جامع البيان جـ١٥ ص١٢٩ :

اختلفت القراء في قراءة قوله (فهو في الآخرة أعمى) فكسرت القرأةُ جميعاً الحرف الأول (يعني لفظ أعمى الأول قرأته بالإمالة) ، وأما قوله (فهو في الآخرة أعمى) ، فإن عامة قراء الكوفيين أمالت أيضاً قوله (فهو في الاخرة أعمى) ، وأما بعض البصريين ، فانه فتحه – ويعني أبا عمرو – وتأوله بمعنى «فهو في الآخرة أشد عمى ، واستشهد لصحة قراءته بقوله (وأضل سبيلا) ، وهذه القراءة هي أولى القراءتين في ذلك بالصواب.»

فهكذا فرق أبو عمرو بن العلاء بين لفظ ( أعمى ) الأول الذي هو وصف ، وبين الثاني وهو اسم تفضيل، وذلك بواسطة إمالة الأول دون الثاني.

وأما الحالة الثانية ، فهي اختلاف القراء في غير صفات الأداء وكيفياته ، وهو الاختلاف الواقع في «فرش الحروف» أي في الكلمات التي تتوارد عليها القراءات، وتتناول بنيتها ، وأوضاعها في التركيب وأحوالها في الإفراد والتثنية والجمع ، وفي التذكير والتأنيث ، وفي الإسناد والصيغة والزمن ، وترتيب الحروف أحيانا وأماكن النقط وعددها ، أو استبدال الكلمة بغيرها تماماً كما في بعض الآحاد أو الشواذ ، إلى غير ذلك من صور التغاير والتنويع بين القراءات.

وفي هذه الحالة تدور القراءات على صور ثلاث:

أ – اختلاف لفظ القراءتين ومعناهما.

ب – اختلاف لفظ القراءتين واتفاق معناهما.

جـ – اتفاق لفظ القراءتين واختلاف معناهما.

فأما الصورة الأولى ، وهي اختلاف اللفظ بين القراءتين مع اختلاف معنييهما ، فهي عظيمة الأهمية في التفسير، لأن كل قراءة بالنسبة إلى الأخرى تؤسس معنى جديداً في الآية ، ولذلك كثيراً ما لا يتأتى الجمع في ذلك بين القراءتين في معنى واحد ، وفي مثل ذلك يقول أبو البركات الأنباري في الإنصاف:

«وليس الشرط أن تكون إحدى القراءتين بمعنى الأخرى ، واذا اعتبرتم هذا في القراءات ، وجدتم الاختلاف في معانيها كثيراً جدا.» [1]

ومع عدم إمكان الجمع بين القراءتين أحيانا ، فإن النظر في مؤدّي القراءتين من شأنه أن يكشف عن المعنى الأكثر انسجاماً مع السياق ، أو مع الأصول الشرعية، حتى يتأتى للمفسر أو الفقيه ، الوصول إلى هدفه من الجمع بين القراءتين في ما فيه الجمع ، والترجيح في ما يستوجب الترجيح ، وإعمال القراءتين على سبيل

---

١- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين جـ١ ص١٧٥.

المبادلة بينهما إذا تعذر الجمع أو الترجيح عند من يرى ذلك ، كما سيأتي.

وهذا القسم أكثر الاختلاف فيه واقع بين القراءة المتواترة ، وبين الشاذة أو الآحاد ، ولذلك فإن الشواذ ذات قيمة كبرى بالنسبة للمفسر حينما تخفى عليه دلالة الآية ، ويتعذر عليه الوصول إلى المراد منها ، ولا سيما ما كان منها موثوق النسبة إلى الصحابة والتابعين مما قرأوا به مخالفا للمرسوم في المصحف الإمام.

وهذه نماذج مختارة من كتب التفسير والقراءات ، ممّا هو واقع بين المتواترة وغيرها :

فمن ذلك في سورة البقرة الآية ٣٠: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾.

قرأ الجمهور (خليفة) بالفاء، وقرأ زيد بن علي ، وأبو البرهسم عمران الحمصي (خليقة) [١]

وفي السورة نفسها الآية ٢٥٩: ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾.

قرأ الجمهور ( لم يتسنه) ، وقرأ طلحة بن مصرف (لمائة سنة) [٢].

وفي الأنعام الآية ٧٣ وفي سور أخرى ﴿يوم ينفخ في الصور﴾.

قرأ الجمهور (في الصور) بضم الصاد، وفسرت بالبوق العظيم، وعن الحسن (الصور) بفتح الواو ، وعن أبي رزين بفتح الواو وكسر الصاد، قال في الكشاف : وهذا دليل لمن فسر (الصور) بجمع الصورة. [٣]

---

١- البحر المحيط لأبي حيان جـ١ ص ١٤١.

٢- الجامع لاحكام القرآن للقرطبي جـ ص ٢٩٢.

٣- الكشاف للزمخشري جـ٢ ص ٤٢.

وقال أبو عبيدة : ﴿ونفخ في الصور﴾ جمع صورة ، خرجت مخرج بسرة وبسر، ولم تحمل على ظلمة وظلم . [١]

وفي الأعراف الآية ١٥٦ ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء﴾.

وقرأ الحسن ( من أساء ) بالسين ولفظ الماضي ، وقال الداني : لاتصح نسبتها إلى الحسن [٢] و في هود الآية ٩٦ ﴿بقية الله خير لكم إن كنتم مومنين﴾

وقرأ (تقاة الله) بمعنى تقواه [٣]

وفي الأنبياء الآية ٩٦ ﴿حتى إذا فتحت ياجوج وماجوج ، وهم من كل حدب ينسلون﴾.

قرأ ابن مسعود (من كل جدث) بالجيم والثاء ، وهو القبر .[٤]

وفي سورة مريم الآية ٢٣ ( فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ..)

قرأ الجمهور ( فأجاءها ) من المجيء بمعنى ألجأها ، وقرأ الحسن (فاجأها) من المفاجأة بتخفيف الهمز في الألف الاولى . [٥]

وفي الفرقان الآية ٦٨ ﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاما﴾

وقرأ ابن مسعود (يلق أياما) بالياء ، أي : الشدائد. [٦]

١- مجاز القرآن لأبي عبيدة جـ ٢ ص ١٦٢- ١٦٣.
٢- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للدمياطي البنا ص ٢٧٤.
٣- نفس المصدر ص ٣١٠ المقصود الحسن البصري.
٤- المستدرك على الصحيحين جـ ٢ ص ٢٤٥.
٥- الإتحاف للدمياطي ص ٣٦٠.
٦- الكشاف جـ٣ ص ١٠١ وقال ابن حجر في فتح البا ري جـ١٠ ص ٤٠٢ : وروي عن ابن مسعود أيضاً (آثاما) بالثاء جمع إثم.

وفي النور الآية ١٥ في قصة الإفك ﴿إذ تلقونه بألسنتكم﴾.

قال في الكشاف:

«قرئ على الأصل (تتلقونه) و(تلقونه) من إلقائه بعضهم على بعض، (وتلقونه) و( تألقونه) من الولق والألق وهو: الكذب، وتلقونه بكسر اللام – محكية عن عائشة رضي الله عنها، وعن سفيان يعني الثوري قال : سمعت أمي تقرأ ( إذ تثقفونه)، وكان أبوها يقرأ بحرف عبد الله بن مسعود»[1]

وفي النور أيضاً الآية ٦٣ ﴿لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا﴾.

وقرأ الحسن (دعاء الرسول نبيّكم) من النبوة .[2]

وفي النمل الآية ٣١ ﴿ألا تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين﴾.

وقرأ ابن عباس(تغلوا) بالغين من الغلو .[3]

وفي السجدة الآية ١٠ ﴿وقالوا ائذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد﴾.

وقرأ الحسن (صللنا) بصاد مهملة ، أي: صرنا بين الصلة ، وهي الأرض الصِلبة .[4]

وفي الكشاف: من صل اللحم و أصل إذا أنـتن، وقيل: صرنا من جنس الصِلَّة.[5]

---

١- الكشاف جـ ٣ ص ٥٤.
٢- إتحاف فضلاء البشر ص ٣٩٦.
٣- الكشاف جـ ٣ ص ١٤٦.
٤- إتحاف فضلاء البشر ص ٤٢٨ . وانظر مختصر شواذ القراءات من كتاب البديع لابن خالويه ص ١١٨.
٥- الكشاف. جـ ٣ ص ٢٤٢.

وفي القصص ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾ الآية ١٥.

وقرأ الحسن وسيبويه (فاستعانه) بالتاء والعين والنون.[١]

وفي سورة يس الآية ٦٢ ﴿ولقد أضل منكم جبلّا كثيراً﴾

في لفظ (جبلا) خمس قراءات، وقراءة نافع بكسر الجيم والباء وتشديد اللام.

وفي قراءة علي رضي الله عنه (جيلا كثيراً) بالياء، واحد الأجيال.[٢]

وفي الأحزاب الآية ٦٩ (وكان عند الله وجيها)

وقرأ ابن مسعود والأعمش وأبو حيوة (عبد الله) بالباء [٣]

وفي الجاثية الآية ١٣ ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾.

قرأ الجمهور (منه) أي: من الله، وقرأ ابن عباس (منّةً) بالتنوين من المن والفضل.[٤]

وفي سورة آل عمران ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أُحُد﴾ الآية ١٥٣.

قراءة الجمهور (على أحد) بفتح الهمزة والحاء، وقرئت (على أُحُد) بالضم أي: الجبل الذي وقعت فيه وقعة أحد.[٥]

---

١- الكشاف جـ ٢ ص ١٦٨ — الإتحاف للدمياطي ص ٤١٥.

٢- الكشاف جـ ٣ ص ٣٢٨.

٣- الكشاف جـ ٣ ص ٢٧٩ وجاء فيه: وقراءة العامة أوجَه لأنها مفصحة عن وجاهته عند الله، كقوله تعالى (عند ذي العرش مكين).

وقال ابن خالويه كما في مختصر شواذ القراءات من كتاب البديع له ص ١٢٠ : «صليت خلف ابن شنبوذ وكان يقرأ ( وكان عبد الله وجيها ) على قراءة ابن مسعود».

٤- الكشاف جـ ٣ ص ٥١٠

٥- انظر املاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن لأبي البقاء العكبري جـ ١ ص ٩٠.

وفي سورة سبأ الآية ٣٣ ﴿بل مكر الليل والنهار﴾.

قراءة الجمهور (مكر) بسكون الكاف وتخفيف الراء، وقرأ سعيد بن جبير وجعفر الصادق (بل مَكَرّ الليل والنهار) [١] بمعنى تتابعهما.

وفي آل عمران الآية ٦ ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾.

وقرأ طاوس بن كيسان (تَصوَّركم) بالتاء المفتوحة وفتح الواو مشددةً بصيغة الماضي.[٢]

وفي البقرة الآية ١٩٩ ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾

وقرأ سعيد بن جبير

(أفاضَ الناسي)، قال ابن خالويه: يعني آدم، عُهِدَ إليه فنسي. [٣]

هذه أمثلة من الاختلاف بين المتواترة وغيرها مما يختلف في اللفظ والمعاني، وقد جاء مثل ذلك بين القراءتين المتواترتين، فمن ذلك:

في سورة البقرة الآية ١٠ ﴿ولهم عذاب أليمٌ بما كانوا يكذبون﴾

فسرها القرطبي أولا بحسب قراءة( يُكَذّبون) فقال: أي: بتكذيبهم الرسل، وردهم على الله عز وجل، وتكذيبهم بآياته، قاله أبو حاتم. قال:

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي (يَكْذبون) بالتخفيف، ومعناه: بكذبهم وقولهم

---

١- مختصر شواذ القراءات لابن خالويه ص ١٢٢.

٢- نفس المصدر ص ١٩.

٣- نفس المصدر ص ١٢ وانظر المحرر الوجيز لابن عطية جـ ٢ ص ١٣٠.

آمنا وليسوا بمؤمنين [1]

وفي البقرة أيضاً الآية ٢٢٢ ﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾.

قرئ (يَطْهُرن) بالتخفيف من الطهر ، وهو انقطاع الدم ، وهي قراءة الجمهور، وقرئ (يطَّهَّرن) من التطهر ، بمعنى الاغتسال من دم الحيض بعد النقاء من الدم ، وهو قراءة عاصم وحمزة والكسائي. [2]

وفي الأنعام الآية ١٥٩ ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، لست منهم في شيء..﴾

قراءة الجمهور ( فرّقوا) من التفريق ، وقرأ علي وقتادة ( فارقوا ) [3] ، وهي قراءة حمزة والكسائي والحسن البصري ، وهي بمعنى الترك « لأن من آمن بالبعض ، وكفر بالبعض ، ترك الدين القيم». [4]

وفي التوبة الآية١٢ ﴿إنهم لا أيمان لهم..﴾

قراءة الجمهور (أيمان) بالفتح جمع يمين ، وقرأ ابن عامر ( لا إيمان لهم) بكسر الهمزة [5] قال ابن خالويه في الحجة : « والفتح ههنا أولى ، لأنها بمعنى اليمين والعهد ، أليق منها بمعنى الإيمان». [6]

وفي سورة الزخرف الآية ٥٧ ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾.

---

١- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١ ص ١٧٢.
٢- انظر المحرر الوجيز جـ٢ ص ١٨١ والبحر المحيط جـ٢ ص ١٦٨ ، الحجة لابن خالويه ص ٩٦.
٣- جامع البيان للطبري جـ ٨ ص ١٠٤.
٤- انظر إتحاف فضلاء البشر ص ٢٦٢ ، والحجة لأبن خالويه ص ١٥٢.
٥- اتحاف فضلاء البشر ص ٢٨٦ . وهي قراءة الحسن أيضاً كما في معاني القرآن للفراء جـ١ ص ٤٢٥.
٦- الحجة في القراءات السبع ص ١٧٤.

قال ابن خالويه في الحجة: (يصدون) يقرأ بكسر الصاد وضمها، فالحجة لمن ضم، أنه أراد يعدلون ويعرضون، ودليله قوله ﴿وان كان كبر عليك إعراضهم﴾ الأنعام ٣٥.

والحجة لمن كسر: أنه أراد يصيحون، ودليله على ذلك مجئ منه قبلها، ولو كانت بمعنى الإعراض، لجاءت معها «عن» كقوله أو أعرض عنهم، وقيل: كسر الصاد وضمها... بمعنى واحد.[١]

و في كتاب التفسير من صحيح البخاري اقتصر على قراءة الكسر، فقال: يصدون : يضجون.[٢]

وعلى هذا تفسير ابن عباس لها: وفي تفسير الطبري أن ابن عباس لقي ابن أخي عبيد بن عمير فقال: إن عمك لعربي ، فما له يلحن في قوله (إذا قومك منه يصُدون)؟ وإنما هي (يصِدون)[٣]

قال الطبري : وحدثت عن الفراء، قال: حدثني أبو بكر بن عياش أن عاصماً ترك (يصُدون) من قراءة أبي عبد الرحمن –السلمي-، وقرأ (يصِدون)[٤] يعني ترك الضم.

قال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك، انهما قراءتان معروفتان، ولغتان مشهورتان ، بمعنى واحد.[٥]

---

١- نفس المصدر ص ٣٢٢.

٢- صحيح البخاري بشرح ابن حجر جـ ١٠ ص ١٨٨.

٣- جامع البيان للطبري جـ٢٥ ص ٨٦-٨٧.

٤- نفس المصدر.

٥- نفس المصدر ، وقال أبو عبيدة في مجاز القرآن جـ٢ ص ٢٠٥ : ( يصدون) من كسر الصاد فمجازها يضجون ، ومن ضمها فمجازها : يعدلون.

وفي سورة التكوير الآية ٢٤ ﴿وماهو على الغيب بضنين﴾.

في الحجة لابن خالويه : يقرأ (بضنين) بالضاد والظاء ، فوجه الضاد يراد به: ما هو ببخيل ، ووجه الظاء يراد به : ما هو بمتهم.[١]

قال الزمخشري: «وهو في مصحف عبد الله بالظاء، وفي مصحف أُبيّ بالضاد، وكان رسول الله ﷺ يقرأ بهما».[٢]

وأما الصورة الثانية ، وهي اختلاف اللفظ مع اتفاق المعنى، فهي التي تشكل المادة العظمى من اختلاف القراءات ، وهي على قسمين : ما فيه اختلاف كلي، وما فيه اختلاف جزئي.

فأما ما اختلف فيه لفظ القراءتين اختلافاً كليا، فإنما يكون بين المتواترة والشاذة ، لأن رسم المصحف لا يتحمل الاختلاف الكلي في اللفظ بيت المتواترتين ، وهذه نماذج من هذا القسم:

في سورة الفاتحة ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، وقرأ ابن مسعود (أرشدنا)[٣]

وفي سورة البقرة الآية ٢٢٧ ﴿وإن عزموا الطلاق..﴾، وقرأ ابن عباس (وإن عزموا السراح).[٤]

وفيها أيضاً الآية ١٠٠ ﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾، وقرأ ابن

---

١- الحجة في القراءات السبع ص ٣٦٤.

٢- انظر الكشاف جـ٤ ص ٢٢٥ وفي مستدرك الحاكم جـ٢ ص ٢٥٢ ، بسنده عن عروة عن عائشة ان النبي ﷺ كان يقرأ «وما هو على الغيب بظنين) بالظاء».

٣- انظر مختصر في شواذ القراءات من كتاب البديع لأبن خالويه ص ١.

٤- نفس المصدر ص ١٤ . وانظر المحرر الوجيز جـ ٢ ص ١٩٣.

مسعود (نقضه فريق)(١)

وفي الإسراء الآية ٩٣ ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾، وقرأ ابن مسعود (بيت من ذهب)(٢)، وعن مجاهد قال: كنا لا ندري ما الزخرف؟ حتى رأيتها في قراءة عبد الله (أو يكون لك بيت من ذهب)(٣)

وفي الفرقان الآية ٧٥ ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا﴾، وقرأ ابن مسعود (يجزون الجنة)(٤)

وفي القارعة الآية ٥ ﴿وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾، وقرأ ابن مسعود (كالصوف المنفوش)(٥)

وفي سورة البقرة ٢١٣ ﴿كان الناس أمة واحدة﴾، وقرأ أُبَيّ (كان البشر أمة واحدة)(٦)

وفي سورة القلم الآية قبل الآخرة منها ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ..﴾ وقرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش وأبو وائل ومجاهد (ليزهقونك)(٧)

وفي سورة اليقطين الآية ١٢٣ ﴿وإن إلياس لمن المرسلين﴾، وقرأ ابن مسعود (وإن إدريس).(٨)

---

١- انظر البحر المحيط جـ١ ص ٣٢٤.
٢- انظر جامع البيان للطبري جـ١٥ ص ١٦٣.
٣- نفس المصدر، وانظر أيضاً فتح الباري جـ ١٠ ص ١٨٨.
٤- فتح الباري جـ ١٠ ص ٤١١.
٥- صحيح البخاري بشرح ابن حجر جـ ١٠ ص ٣٥٨.
٦- البحر المحيط جـ٢ ص ١٣٥.
٧- انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٨ ص ٢٥٥.
٨- انظر الكشاف جـ ٣ ص ١٠٢.

وأما ما اختلف في اللفظ اختلافاً جزئيا ، فهو الذي يشكل معظم مظاهر الاختلاف بين القراءات المتواترة والمشهورة، ويدور أكثر الخلاف فيه على أمور، منها اختلاف الإسناد بين الإفراد والتثنية والجمع ، والتكلم والخطاب والغيبة، ومنها اختلاف الصيغة في الأسماء والأفعال ، ومنها تغير الزمن ، ومنها تغيير الإعراب ، ومنها تغيير النقط أو الشكل مع اتحاد المعنى.

فمن تغيير الإسناد : قوله تعالى في سورة البقرة الآية ١٦٥ (ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون العذاب..) قرأ نافع وابن عامر (ولو ترى) بالتاء[1]، قال العكبري:

«هي من رؤية العين ، (ولو يرى) بالياء ، وهي من رؤية القلب».[2]

وفي الأنعام الآية ٩١ ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس ..﴾

قرئ بالتاء (تجعلونه) خطابا لأمة الدعوة ، وقرئ (يجعلونه) بالياء ردا على قوله للناس.[3]

وفي طه الآية ١٢ ﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى﴾، وقرأ حمزة ( وأنّا اخترناك) [4]بتشديد (وأنّا).

وفي الأحقاف الآية ١٦ ﴿أولئك الذين يُتقبل عنهم أحسنُ ما عملوا ، ويُتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة﴾

---

١- انظر سراج القارئ لابن القاصح ص ١٦٥.
٢- إملاء ما من به الرحمن لأبي البقاء العكبري جـ ١ ص ٤٣.
٣- وقراءة الياء لابن كثير وأبي عمرو . كما في الاتحاف ص ٢٥٣ وانظر إملاء ما من به الرحمن جـ١ ص ١٤٦ .
٤- انظر جامع البيان جـ١٦ ص ١٤٧ والنشر جـ ٢ ص ٣٢٠ وغيث النفع في القراءات السبع ص ١٦٩ .

وقرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص عن عاصم (نَتقبل)، (ونَتجاوز) مع نصب (أحسنَ).[1]

ومن تغاير القراءتين في الصيغة في الأسماء:

في الأعراف الآية ١٩٠ ﴿ فلما آتاهما صالحا ، جعلا له شِرْكًا فيما آتاهما﴾.

قرأ نافع وعاصم من رواية أبي بكر بن عياش ، وأبو جعفر المدني وابن محيصن المكي (جعلا له شِرْكاً) بكسر الشين وسكون الراء وتنوين الكاف بالنصب ، وقرأ باقي الأربعة عشر (شركاء) جمع شريك.[2]

وفي يوسف الآية ٦٢ (وقال لفتيته)، وقرأ خمزة والكسائي وخلف وحفص (لفتيانه)[3]

وفيها في الآية ٦٤ ﴿فالله خير حِفْظاً﴾، قرأ حمزة والكسائي وحفص ( خير حافظا ) وهي قراءة ابن محيصن وأبي الفرج الشنبوذي .[4]

وفي البقرة الآية ٢٥١ والحج الآية ٤٠ ﴿ولولا دفاع الله الناس..﴾، قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب (دفاع) وقرأ باقي العشرة ( ولولا دفع ) بفتح الدال وسكون الفاء.[5]

ومن تغيير الصيغة في الأفعال :

---

١- النشر جـ ٢ ص ٣٧٣ ، وسراج القارئ ص ٢٩٤.
٢- إتحاف فضلاء البشر ص ٢٧٨.
٣- سراج القارئ ص ٢٣٩ والنشر جـ ٢ ص ٢٩٥.
٤- انظر إتحاف فضلاء البشر ص ٣١٩ وسراج القارئ ص ٢٣٩.
٥- سراج القارئ ص ١٧٢ والنشر جـ ٢ ص ٢٣٠.

في البقرة الآية ٢٣٦ ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن ...﴾، وقرأ حمزة والكسائي (تماسوهن) قال أبو حيان: ويقتضي اشتراك الزوجين في المسيس.[١]

وفي سورة هود الآية ٤٦ ﴿أنه عمل غير صالح﴾ قرئ (عملٌ) مفرد أعمال، وقرئ بصيغة الفعل الماضي، وهي مرويةٌ من قراءة النبي صلى الله عليه وسلم[٢]، وقال ابن العربي مشيرا إلى القراءتين:

«وقد قرئ بهما في الأمصار، واختاره الأحبار، فالاول فعلٌ صريحٌ على طريقة الأفعال، والثاني على قول الشاعر: « فإنما هي إقبالٌ وإدبارٌ.»[٣]

وفي سورة النور الآية ٩ (والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين)، قرأ نافع بإسكان (أن) مخففة و (غضِبَ اللهُ) بكسر الضاد وفتح الباء فعلاً ماضياً، ورفع لفظ الجلالة على الفاعلية، وقرأ يعقوب بإسكان (أن)، و(غضب) بفتح الضاد ورفع الباء وجر الجلالة، ووافقه الحسن، وقرأ الباقون أي: الأربعة عشر بتشديد (أنّ) و(غَضَبَ) اسمها، مضافاً إلى اسم الجلالة، والجار والمجرور خبرها.[٤]

ومن تغيير زمن الفعل:

في الفرقان الآية ٢٥ ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا﴾، قرأ ابن كثير (ونُنْزِلُ) بنونين الأولى مضمومة والثانية ساكنة، مع تخفيف الزاي ورفع اللام، ونصب (الملائكةَ)، وهي كذلك في المصحف المكي، وقرأ الباقون من العشرة (ونزّلَ) بنون واحدة وتشديد الزاي وفتح اللام، ورفع (الملائكةُ)،

---

١- انظر البحر المحيط جـ٢ ص ٢٣١.

٢- انظر جامع الترمذي جـ ١١ ص ٥٣-٥٤ وسنن أبي داود جـ٢ ص ٣٥٧ - والمستدرك جـ٢ ص ٢٤١.

٣- انظر عارضة الاحوذي على جامع الترمذي للقاضي أبي بكر بن العربي جـ١١ ص ٥٤.

٤- انظر إتحاف فضلاء البشر للدمياطي ص ٣٩١ وسراج القارئ لابن القاصح ص ٢٦٦٨.

وكذلك هي في مصاحفهم.[١]

ومن اختلاف القراءتين في اللفظ باختلاف النقط:

في سورة البقرة الآية ٢٠٩ ﴿قل فيهما إثم كبير﴾، وقرأ حمزة والكسائي (إثم كثير) بالثاء[٢]. ومثل ذلك في سورة الأحزاب الآية ٦٨ ﴿والعنهم لعناً كثيراً﴾.

وفي البقرة أيضاً الآية ٢٥٩ ﴿وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما﴾، قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (نُنشرها) بضم النون الاولى وبالراء، وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي .(ننشزها) بالزاي وقرأ أُبيّ بن كعب (ننشيها) بالياء.[٣]

ومن اختلاف الإعراب بين القراءتين مع اتفاق المعنى:

في سورة الأنعام الآية ٣٢ ﴿وللدار الآخرة خير للذين يتقون﴾، قرأ ابن عامر (ولدار الآخرة).[٤]

وفي سورة البقرة الآية ٣٧ ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾، قرأ ابن كثير (آدمَ) بالنصب،و (كلماتٌ) بالرفع وباقي السبعة برفع (آدمُ) ونصب (كلماتٍ)[٥] والمعنى في القراءتين واحد .[٦]

وفي سورة الكهف الآية ٨٨ ( وأما من آمن وعمل صالحا ، فله جزاء الحسنى) ، قرأ يعقوب وحمزة والكسائي وخلف وحفص ( جزاءً) بالنصب والتنوين وكسره

---

١- انظر النشر في القراءات العشر جـ ٢ ص ٢٣٤.
٢- النشر جـ ٢ ص ٢٢٧.
٣- المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي جـ ٢ ص ٢٩٧ ، وانظر معاني القرآن للفراء جـ ١ ص ١٧٣.
٤- أعني بالإضافة ، انظر النشر جـ ٢ ص ٢٥٧.
٥- انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١ ص ٢٧٦.
٦- قال القرطبي : والقراءتان ترجعان إلى معنى واحد ، لأن آدم إذا تلقى الكلمات فقد تلقته.

للساكنين ، وقرأ باقي العشرة بإضافة ( جزاء ) إلى ( الحسنى ).[1]

هذه هي أهم مظاهر التغاير بين القراءات في اللفظ مع اتفاق المعنى أو تقاربه، بحيث يمكن فيه الجمع بين القراءتين أو القراءات في معنى واحد.

وقد رأينا نماذج كثيرةً للصورتين الأوليين من الصور الثلاث التي قلنا إنها تستوعب مظاهر الاختلاف بين القراءات مما له علاقةٌ وأثرٌ في التفسير والبيان، فعرضنا لاختلاف لفظ القراءتين مع اختلاف المعنى، واختلاف لفظ القراءتين مع اتفاق المعنى، وبقي النمط الثالث، وهو اتفاق لفظ القراءتين مع اختلاف معنييهما ، وهو يتعلق باختلاف القراء في مواقع الوقف من الآي ، ولما له من الأهمية القصوى في إبراز المعاني وتنويع الدلالات وتوجيه القاريء إلى معانٍ شتى حسب موقع الموقف، رأيت أن أخصه بفصل خاص.

---

١ - انظر النشر جـ٢ ص ٢١٥.

# الفصل الثاني

## اختلاف القراء في مواقع الوقف، وأثره في توجيه المعاني.

كان الاختلاف في مواقع الوقف من الآي أحد مظاهر الاختلاف في اختيارات القراء، كما كان أحد مظاهر اختلاف المفسرين في تأويل كثير من آي الذكر الحكيم ، وفاقا لقراءة معينة ، حسب الوصل أو الوقف.

وقد نبه العلامة المرحوم محمد الطاهر بن عاشور في المقدمة الثامنة من أول تفسيره إلى أهمية هذا النوع من الاختلاف في بلورة المعاني وتنويع الدلالات، فقال:

«على أن التعدد في الوقف ، قد يحصل به ما يحصل بتعدد وجوه القراءات، من تعدد المعنى مع اتحاد الكلمات ، فقوله تعالى: (ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قواريرا من فضة قدروها تقديرا)[١] فإذا وقف على (قواريرا) الأول ، كان ( قواريرا) الثاني تأكيداً لرفع احتمال المجاز في لفظ (قوارير)، و إذا وقف على (قواريرا) الثاني، كان المعنى الترتيب والتصنيف ، كما يقال: اقرأ الكتاب باباً بابا ، واحضروا صفا صفا ، وكان قوله (من فضة) عائداً إلى قوله (بآنية من فضة).[٢]

فاختلاف القراء في مواقع الوقف عظيم الأهمية في تنويع المعاني المستفادة من الآية، حتى إن المفسر كثيراً ما يحتار إزاء بعض الآيات التي وقع فيها التداخل بين مقاطعها ، بحيث يلتبس تماماً ما هو مراد في التلاوة ، وهذا أحد النماذج منها:

---

١- سورة الإنسان الآية ١٥-١٦.

٢- التحرير والتنوير لابن عاشور جـ ١ ص٨٣.

في سورة الأنعام الآية ٧٣ ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق، ويوم يقول كن ، فيكون ، قوله الحق، وله الملك ، يوم ينفخ في الصور ، عالم الغيب والشهادة، وهو الحكيم الخبير﴾.[1]

في هذه الآية اجتمعت كما نرى طائفة من الجمل التامة المتناسقة تناسقاً يقبل أكثر من احتمال ، بحيث يمكن فهم كل مقطعٍ مما جملته بين فاصلتين على حدة، ويمكن فهمه مرتبطاً في القراءة بما قبله أو بما بعده، وقد وقف الطبري عندها طويلا ، فقال في توجيهها:

«قوله: (كن فيكون) معني به ما كان الله معيده في الآخرة بعد إفنائه ، ومنشئه بعد إعدامه ، فالكلام على مذهب هؤلاء متناهٍ عند قوله (كن فيكون) ، وقوله: (قوله الحق) خبرٌ مبتدأ ، أي : هذا الحق الذي لا شك فيه ، وأخبر أن له الملك يوم ينفخ في الصور ، فـ(يوم ينفخ في الصور) على هذا التأويل ، من صلة الملك وقد يجوز على هذا التأويل أن يكون (يوم ينفخ في الصور) من صلة (الحق)».

وقال آخرون : بل معنى الكلام (ويوم يقول) لما فني (كن ، فيكون قوله الحق) ، فجعل القول مرفوعاً بقوله : ﴿ويوم يقول كن ، فيكون﴾، وجعل قوله ﴿كن فيكون﴾ للقول محلا ، وقوله ﴿يوم ينفخ في الصور﴾ من صلة (الحق) ، كأنه وجه تأويله إلى « ويومئذ ﴿قوله الحق يوم بنفخ في الصور﴾».

«وإن جعل على هذا التأويل ﴿يوم ينفخ في الصور﴾ بياناً عن اليوم الأول، كان وجهاً صحيحا ، ولو جعل قوله : ﴿قوله الحق﴾ مرفوعاً بقوله ﴿يوم ينفخ في الصور﴾، وقوله : ﴿يوم ينفخ في الصور﴾ محلا ، وقوله ﴿يوم يقول كن فيكون﴾ من صلته، كان جائزا».

---

١ - وضعت الفواصل بين المقاطع على حسب وقف الإمام الهبطي كما نقرأ به في المغرب اليوم.

فهذه التأويلات كلها بحسب مواقع الوقف ، وهي جاريةٌ على اعتبار الوقف على لفظ (الصور)، ثم روى الطبري بسنده عن ابن عباس في قوله: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾، الذي لم يسم فاعله في قوله : ﴿يوم يُنفَخ في الصور﴾، وأن معنى الكلام : ﴿ويوم يُنفَخ في الصور عالمُ الغيب و الشهادة﴾، كما تقول العرب: « أُكِلَ طعامُك عبدُ الله »، فتظهر اسم الآكل ، بعد أن قد جرى الخبر بما لم يسم آكلهُ ، وذلك وإن كان فيها غير مرفوع، فإنّ أحسن من ذلك (عالم الغيب والشهادة) مرفوعاً على أنه نعت للذي في قوله ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق﴾».[1]

فهكذا تشابكت هذه المعاني في الآية وتراكبت بحيث لا يتأتى تمايز معنى عن معنى فيها إلا حسب موضع الوقف في كل مقطع، وحسب ما يعمد إليه القارئ الفطن من المعاني في قراءته ، فلذلك وجب أن يكون القارئ يقظاً منتبهاً إلى مثل هذه النكات البديعة المترتبة على مواضع الوقف والابتداء، وعلى المفسر بالتالي لمثل هذه الآيات أن يكون معتبراً لهذه المقتضيات ، على غرار ما يراعي اختلاف القراءات في حروف القرآن على حدٍ سواء.

ولهذا نبه العلماء على وجوب رعاية المعاني التي يقتضيها الوقف في مكان معين من الآي، تفادياً للوقوع في الإخلال بالمعاني وإفساد النظم القرآني ، وذلك في مثل الوقف على لفظ ( الموتى) في قوله تعالى: ﴿إنما يتسجيب الذين يسمعون، والموتى يبعثهم الله...﴾.[2]

وذلك لأن الوقف على (الموتى) يوهم اشتراكهم مع الذين يسمعون في الاستجابة لله.

١- انظر جامع البيان للطبري جـ٧ ص ٢٤٠.

٢- سورة الأنعام الآية ٣٦.

وقد نص علماء القراءة على نوعٍ من الوقف يجوز على قراءة ، ويمتنع على غيرها ، ومثاله الوقف على كلمة (والآصال) في قراءة من قرأ (يسبِّح) بكسر الباء وهم الجمهور في قولة تعالى ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾.[1]

فلفظ (والآصال) هنا رأس آية ، ولكنه لا يجوز الوقف عليه في هذه القراءة، وهي قراءة الجمهور نظراً للتعلق اللفظي بينه وبين قوله ( رجال) ، لأنه الفاعل للفعل (يسبِّح)، لكن يجوز الوقف على لفظ (والآصال) في قراءة ( يسبَّح) بفتح الباء مبنياً للمفعول لعدم التعلق اللفظي، وهي قراءة ابن عامر وشعبة عن عاصم ، لأن ( رجال) على هذه القراءة ، خبر لمبتدإٍ محذوف ، والتقدير : هم رجال.»[2]

وقد يتنازع الوقف والوصل كلمةً ، فتكون على الوقف من تمام الكلام، وعلى الوصل محتملة لأن تكون من تمامه، ومحتملة لأن تكون من الكلام الذي بعدها ، فلذلك تجد القراء يختلفون فيها والمفسرون أيضاً ، وإلى ذلك يشير ابن الجزري في النشر في قوله:

« قد يجيزون الوقف على حرف ، ويجيز آخرون الوقف على آخر، ويكون بين الوقفين مراقبة [3]على التضاد، فإذا وقف على أحدهما امتنع الوقف على الآخر، وأول من نبه على المراقبة أبو الفضل الرازي».[4]

---

١- سورة النور الآية ٣٦-٣٧.

٢- انظر معالم الاهتداء إلى معرفة الوقف والابتداء للشيخ محمود خليل الحصري ص ٥٦.

٣- قال الحصري في معالم الاهتداء ص ٣٧: قد اصطلح على هذا النوع من الوقف بتسميته « وقف المراقبة» أو « المعانقة» قال: وهو : أن يجتمع في آية كلمتان يصح الوقف على كل منهما ، لكن إذا وقف على إحداهما امتنع الوقف على الأخرى».

٤- النشر في القراءات العشر جـ١ ص ٢٣٧ .

وقد مثل محمود خليل الحصري لوقف المراقبة بقوله تعالى ﴿ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين﴾[1]

قال: فالكلمتان (ريب) و(فيه) يصح الوقف على كلٍّ منهما ، لكن إذا وقف على كلمة ( ريب) امتنع على كلمة ( فيه) ، بل يتعين وصلها بما بعدها، وإذا أريد الوقف على كلمة ( فيه)، امتنع الوقف على كلمة (ريب) ،فالقارئ مخير بين الوقف على الاولى أو الثانية ، ولا يصح له الوقف عليهما معا».[2]

ويبدو أثر هذا واضحاً في استحسان كل مفسر لما يراه أنسب في المعنى ، من الوقف على الأولى أو التي بعدها ، وقد وقف صاحب الكشاف عند هذه الآية فقال:

«الوقف على فيه هو المشهور، وعن نافع وعاصم أنهما وقفا على ( لاريب)، ولا بد للواقف أن ينوي خبرا، ونظيره قوله تعالى ﴿قالوا لا ضير﴾[3]، وقول العرب : لا بأس ، وهي كثيرة في لسان أهل الحجاز».

والتقدير : « لاريب فيه». ثم قال:

«والذي هو أرسخ في البلاغة أن يضرب عن هذه المحالّ صفحا، وأن يقال: (الم) جملة برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها ، (وذلك الكتاب) جملة ثانية ، ( ولاريب فيه) ثالثة، و (هدى للمتقين) رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم ، حيث جيء بها متناسقةً من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متآخية ، آخذاً بعضها برقاب بعض.»[4]

---

١- سورة البقرة الآية رقم ٢

٢- معالم الاهتداء ص ٣٧.

٣- سورة الشعراء الآية ٥٠.

٤- الكشاف للزمخشري جـ١ ص ١١٥ إلى ١٢١.

وسلك الفخر الرازي في مفاتح الغيب مسلك الزمخشري في اختياره للوقف على ( فيه) ، إلا أنه وجه ذلك توجيهاً معنوياً فيه نوع من الوجاهة فقال:

(واعلم أن القراءة الأولى أولى – يعني الوقف على لاريب فيه – لأن على القراءة الأولى يكون الكتاب نفسه هدى، وفي الثانية لا يكون الكتاب نفسه هدى، بل يكون فيه هدى[1] .

وقد ذكر ابن الجزري في النشر أمثلةً لما يتعسفه بعض المقرئين وأهل العربية من بعض الوقفات ، وأتى بهذه الآية ، واعتبر هذا ومثله «تحريفاً للكلم عن مواضعه»، وذكر ان الوقف على ( لاريب) هنا يرده قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين﴾.[2]

وأما أبو حيان فقد اختار الوقف على قوله ( لاريب)، قائلا:

«الأولى جعل كل جملة مستقلة ، فـ ( ذلك الكتاب) جملة ، و ( لاريب) جملة، و(فيه هدى) جملة .»[3]

وقد وجه الإمام السهيلي[4] في الروض الأنف هذه الآية على مقتضى قراءة الوقف على (فيه) ، فقال: « وقوله سبحانه ( لاريب فيه) وقد ارتاب فيه كثير من الناس؟ قيل : هو على الخصوص في المؤمنين ، أي ( لاريب فيه ) عندهم . «قال: وهذا ضعيف ، لأن التبرئة تعطي العموم.»

---

١- مفاتيح الغيب للفخر الرازي جـ٢ص ١٩.

٢- النشر جـ١ ص ٢٣٢ ، والآية في سورة السجدة رقم ٢.

٣- البحر المحيط جـ١ ص ٣٧.

٤- الإمام أبو القاسم أو أبوزيد عبد الرحمن ين الخطيب بن عبد الله بن الخطيب أبي عمر أحمد بن أصبغ الخثعمي السهيلي المالقي النحوي صاحب الروض الأنف في السيرة المتوفى بمراكش سنة ٥٨١.
انظر ترجمته في الديباج المذهب لابن فرحون ص١٥٨ – وشذرات الذهب لابن العماد جـ٤ ص ٢٧١- وفيات الأعيان لأبن خلكان جـ٣ ص ١٤٣ ترجمة ٢٧١- طبقات المفسرين للداودي جـ١ ص٢٦٦- ٢٦٧ ترجمة ٢٥٧ .

«وأصح منه: أن الكلام ظاهره الخبر ، ومعناه النهي ، أي: لا ترتابوا ، وهذا النهي عامّ لا يخصص، وأدق من هذا : أن يكون خبراً محضاً عن القرآن ، أي : ليس فيه ما يريب.»[١]

وقد ربط المرحوم العلامة محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره بين القراءتين وما يترتب عنهما من معنى ، فقال:

«وجملة ( لاريب) إن كان الوقف على قوله (لاريب) ، تعريضٌ بكل المرتابين فيه من المشركين وأهل الكتاب، أي: إن الارتياب في هذا الكتاب نشأ من المكابرة، وأن (لاريب) فهو الكتاب الكامل».

«وإن كان الوقف على قوله (فيه) كان تعريضاً بأهل الكتاب، في تعلقهم بمحرَّف كتابَيهم ، مع مافيهما من مثار الريب والشك والاضطراب الواضح، الدال على أنه من صنع الناس».[٢]

وهذا مثالٌ آخر مشهور وقف عنده جميع المفسرين متأولين ومرجحين، ولكل واحد منزع ذهب إليه، وذلك هو قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿وما يعلم تاويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا..﴾.[٣]

قال الإمام القرطبي:

اختلف العلماء في ( والراسخون في العلم ) هل هو ابتداء كلامٍ مقطوعٍ من ما قبله ، أو هو معطوفٌ على ما قبله ، فيكون الواو للجمع؟

---

١- الروض الأنف جـ٢ ص ٣١.
٢- التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي جـ١ ص ٢٢٧- ٢٢٨.
٣- سورة آل عمران الآية رقم ٧.

فالذي عليه الأكثر: أنه مقطوع مما قبله، وأن الكلام تم عند قوله: (إلا الله)، هذا قول عائشة وابن عمر وابن عباس وعروة بن الزبير وعمر بن عبدالعزيز وغيرهم، وهو مذهب الكسائي والأخفش والفراء وأبي عبيد...).[1]

وقد اقتصر الفراء في كتابه «معاني القرآن» على وجه الوقف على (إلا الله) فقال:

﴿ومايعلم تأويله إلا الله﴾، ثم استأنف (والراسخون) فرفعهم بـ(يقولون)، لا بإتباعهم إعراب (الله)، وفي قراءة أُبيّ: (ويقول الراسخون)، وفي قراءة عبد الله: (وإن تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون)».[2]

وذكر في كشف الظنون تأليفاً في «وقوف النبي ﷺ» قال: جمعها الشيخ أبو عبد الله محمد بن عيسى المغربي[3]، وهي سبعة عشر وقفا، ذكرها هناك، ومن جملتها الوقف على اسم الجلالة من قوله: (ومايعلم تأويله إلا الله).[4]

وقال أبو حيان في البحر:

«تم الكلام عند قوله: (إلا الله)، ومعناه أن الله استأثر بعلمه تأويل المتشابه، وهو قول ابن مسعود وأُبيّ وابن عباس وعائشة والحسن وعروة وعمر بن عبدالعزيز وأبي نهيك الأسدي ومالك بن أنس والكسائي والفراء والجبائي[5]

١- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ٤ ص١٦.

٢- معاني القرآن جـ١ص١٩١.

٣- لم أقف على ترجمته لاشتباه الاسم.

٤- انظر كشف الظنون لحاجي خليفة جـ٢ عمود رقم ٢٠٢٥.

٥- أبو علي الجبائي محمد بن عبد الوهاب بن سلام شيخ المعتزلة، كان رأساً في الكلام أخذ عنه ابنه أبو هاشم عبد السلام، والشيخ أبو الحسن الأشعري وكان زوج أمه توفي سنة ٣٠٢. انظر الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي جـ٤ ص ٧٢-٧٣ – وطبقات المفسرين للداودي جـ٢ص١٨٨ – ترجمة ٥٢٩.

والأخفش وأبي عبيد ، واختاره الخطابي [1] والفخر الرازي [2]، ويكون قوله (والراسخون) مبتدءاً ، ويقولون خبراً عنه.

قال : «وقيل ( والراسخون معطوف على الله ،وهم يعلمون تأويله ، ( ويقولون) حال منهم أي : قائلين، وروي هذا عن ابن عباس أيضاً [3]، ومجاهد والربيع بن أنس [4] ومحمد بن جعفر الزبيري وأكثر المتكلمين»».

ثم أفاض أبو حيان في بسط حججهم ، وأهمها أن وصفهم في الآية بالرسوخ لا يتحقق لهم فيه فضل على غيرهم ، بمجرد قولهم : ( آمنا به) ، لأن هذا القول مشتركٌ بين الراسخين وغيرهم». [5]

وممن رجح العطف بدلاً من الوقف ، على اعتبار أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه العلامة أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، وزعم «أن الوقف على (إلا الله) هو غلط من متأوليه على اللغة والمعنى ، ولم ينزل الله شيئاً من القرآن إلا لينفع به عباده ، ويدل به على معنى أراده». [6]

---

١- الإمام الخطابي حمد بن إبراهيم بن خطاب البستي صاحب معالم السنن في شرح سنن أبي داود توفي سنة ٣٨٨ . ترجمته في وفيات الأعيان جـ٢ص٢١٤ – شذرات الذهب جـ٤ ص ١٢٧- وتفصيل قول الخطابي في تفسير القرطبي جـ٤ ص ١٦-١٧.

٢- فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن القرشي الرازي المشهور بابن خطيب الري إمام وقته في العلوم العقلية وصاحب مفاتيح الغيب توفي سنة ٦٠٦ . انظر ترجمته في شذرات الذهب جـ٥ص٢١- طبقات المفسرين للداودي جـ٢ص ٢١٣-٢١٤ ترجمة ٥٠٥ –وفيات الأعيان جـ٤ ٢٤٨.

٣- نقل القرطبي في تفسيره جـ٤ ص ١٨ قول ابن عباس : « أنا ممن يعلم تأويله، قال : وقرأ مجاهد هذه الآية وقال : أنا ممن يعلم تأويله ، حكاه عنه إمام الحرمين أبو المعالي.» يعني الجويني المتوفى سنة ٤٧٨.

٤- الربيع بن أنس قال ابن سعد : كان من بكر بن وائل من أنفسهم ، وكان من أهل البصرة ، لقي ابن عمر وجابراً وأنس بن مالك ، وكان هرب من الحجاج فأتى مرو، وسكن بها ، وتوفي هناك في خلافة أبي جعفر وهو راوي التفسير عن أبي العالية ، انظر طبقات ابن سعد جـ٧ص٣٦٩-٣٧٠ – طبقات الداودي في ترجمة أبي العالية جـ١ ص ١٧٢ ترجمة ١٦٩.

٥- انظر البحر المحيط جـ٢ص ٢٨٤-٢٨٥.

٦- انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٧٢-٧٣.

وقد أطال في بسط هذا المذهب.

وممن ذهب إلى ذلك أيضاً القاضي عبد الجبار من المعتزلة [1] فقال بعد أن عرض المذهبين :

«ولو كان المراد ماقاله المخالف ، من أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ، وأن سائر المكلفين إنما كلفوا بالإيمان به، لم يكن لتخصيصه العلماء في باب الإيمان به بالذكر معنى، لأن غير العلماء لا يلزمهم إلا مايلزم العلماء، فلما قال ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾ فخصهم بذلك ، علم أن المراد به أنهم لما علموا المراد بالمتشابه صح منهم الإيمان ، فخصهم بالذكر دون غيرهم، ولولا أن الأمر كما قلناه ، لم يكن لجعله تعالى المحكم أصلاً للمتشابه معنى إن لم يلزم إلا الإيمان به». [2]

وعلى هذا المذهب أيضاً سار الزمخشري في الكشاف. [3]
وقال العلامة الجصاص [4] ومذهبه مذهبٌ وسطٌ بين المذهبين:

«الذي يقتضيه اللفظ على مافيه من الاحتمال ، أن يكون تقديره : (وما يعلم تأويله إلا الله) أي: جميع تأويل المتشابه على مابينا ، (والراسخون في العلم) يعلمون بعضه قائلين آمنا به كلٌّ من عند ربنا ، يعني ما نصب لهم من الدلالة عليه.» [5]

١- القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار المعتزلي ، كان ينتحل مذهب الشافعي في الفروع، ومذاهب المعتزلة في الأصول ، وله في ذلك مصنفات كما يقول الخطيب ، ولي القضاء بالري وتوفي سنة ٤١٥ . ومن كتبه التي وصلتنا كتاب « متشابه القرآن» وهو مطبوع في جزءين انظر ترجمته في تاريخ بغداد جـ١١ص ١١٣ ترجمة رقم ٥٨٠٦- شذرات الذهب جـ٣ص٢٠٢ — طبقات الداودي جـ١ /٢٥٢ ٢٥٨ ترجمة ٢٤٨.

٢- متشابه القرآن جـ١ ص ١٥.

٣- انظر الكشاف جـ١ ص ٢١٣ .

٤- احمد بن علي الرازي الجصاص الحنفي المتوفى سنة٣٧٠ ، من مؤلفاته أحكام القرآن وهو مطبوع وله شرح مختصر الطحاوي في الفقه الحنفي، وشرح الجامع الكبير لمحمد بن الحسن. انظر الفهرست ص ٣٠٧-٣٠٨.

٥- أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص جـ٢ ص٥.

وهذا الجمع بين القراءتين وقفاً ووصلاً هو ماذهب إليه السهيلي في الروض فقال بعد أن عرض قول من رأى الوقف على ( إلا الله) ، على اعتبار أن علمه مقصورٌ عليه، وقول من قرأ ( إلا الله والراسخون في العلم ) على اعتبار أنهم يعلمون تأويل المتشابه ، قال:

«والذي أرتضيه من ذلك مذهبٌ ثالث ، وهو الذي قاله ابن إسحاق[١] في هذا الكتاب[٢] ، ومعناه كله أن الكلام تم عند قوله : ﴿ومايعلم تأويله إلا الله﴾، ﴿والراسخون في العلم﴾ مبتدأ، لكن لا نقول انهم لا يعلمون تأويله، كما قالت الطائفة الأولى، ولكن نقول: إنهم يعلمونه برد المتشابه إلى المحكم ، وبالاستدلال على الخفي بالجلي ، وعلى المختلف فيه بالمتفق عليه، فتنفذ بذلك الحجة، ويزاح الباطل ، وتعظم درجة العالم عند الله تعالى ، لأنه يقول آمنت به كلٌّ من عند ربي ، فكيف يختلف؟»

«ولما كان العِلْمان مختلفين : عِلْم الله ، وعلم الراسخين في العلم، لم يجز عطف (الراسخون) على ما قبله، فالله يعلم تأويله بالعلم القديم ، لابتذكر ولا بتفكر ولا بتدقيق نظر ولاً بفحص عن دليل ، فلا يعلم تأويله هكذا إلا الله ، والراسخون يعلمون تأويله بالفحص عن الدليل، وبتدقيق النظر ، وتسديد العبر فهم كما قال الله تعالى: ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾، وهذا معنى كلام ابن إسحاق في الآية.»[٣]

وهكذا تدافعت الآراء في فهم المراد من الآية بسبب عدم الاتفاق على موقع الوقف فيها ، وأرى أن الإشكال المعنوي فيها لم يجيء من الوقف على اسم الجلالة أو وصله بما بعده ، بل أن الإشكال جاء من عدم الاتفاق على معنى

---

١- محمد بن إسحاق صاحب السيرة تقدمت ترجمته.

٢- يشير إلى قصة وفد نجران وما نزل فيهم من القرآن في سيرة ابن إسحاق انظر سيرة « ابن هشام» بهامش الروض الأنف ص٤٧ جـ٢.

٣- الروض جـ٢ ص ٤٧.

«التأويل» ، وذلك أان له كما ذكر الإمام ابن تيمية ثلاثة إطلاقات:

أ. إطلاقٌ في إصطلاح كثير من المتأخرين ، وهو : صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن بذلك ، وقد خطّأ الذين حملوا الآية على هذا المعنى.

ب. وإطلاقٌ بمعنى تفسير الكلام سواء وافق ظاهره أو لم يوافقه ، وهذا هو التأويل في إصطلاح جمهور المفسرين وهذا يعلمه الراسخون في العلم ، وهو موافقٌ لوقف من وقف من السلف على قوله ﴿ومايعلم تاويله إلا الله والراسخون في العلم﴾.

جـ. وإطلاقٌ بمعنى الحقيقة التي يؤول إليها الكلام ، وإن وافقت ظاهره ، فتأويل ما أخبر الله به في الجنة من الأكل والشرب واللباس والنكاح ، وقيام الساعة وغير ذلك هو الحقائق الموجودة أنفسها ، لا مايتصور من معانيها في الأذهان ، ويعبر عنه اللسان ، وهذا هو التأويل في لغة القرآن كما قال تعالى في يوسف : ( وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ).[١] ثم ذكر أمثلة أخرى وقال:

وهذا التأويل هو الذي لا يعلمه إلا الله.[٢]

ومن السور القصيرة التي وقع فيها تداخل المعاني بسبب اختلاف مواقع الوقف. سورة القدر ، من قوله تعالى ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر﴾.[٣]

١- سورة يوسف الآية رقم ١٠٠.

٢- انظر مزيداً من البيان في الموضوع في مجموعة فتاوي ابن تيميه جـ٥ ص ٢٣٤-٢٣٥ وقد لخصت بعض كلامه هنا.

٣- الايتان ٤-٥ من سورة القدر.

قال الإمام أبو الوليد بن رشد (الجد) في مقدماته:

«قوله عز وجل: ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾ معناه: بكل أمر مما يقضي الله عز وجل في ليلة القدر من السنة، إلى أن تأتي ليلة القدر من السنة المقبلة، وعلى هذا يتم الكلام في قوله: (من كل أمر)، ويحسن الوقف عليه، والابتداء من قوله (سلام هي حتى مطلع الفجر)، أي: هي سلام من أن يحدث فيها مالم يحدث في غيرها، أو أن يستطيع شيطانٌ أن يعمل فيها شيئاً، معناه في الأغلب والله اعلم».

وقيل: خير هي إلى مطلع الفجر، و قيل: رحمة إلى مطلع الفجر، وقد قيل: إن التمام في قوله ﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم﴾، فيكون المعنى في الابتداء (من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر) من كل داء، من كل شيطان ليلة القدر مسلمة إلى طلوع الفجر.

وقيل: إن التمام في قوله: ﴿من كل أمر سلام﴾، ثم ابتدأ جزءاً آخر، فقال: ﴿هي حتى مطلع الفجر﴾ أي: ليلة القدر هي حتى مطلع الفجر، ويكون معنى قوله ﴿من كل أمر سلام هي﴾ أي: هي مسلمة من كل داءٍ وشيطان.

وقد قيل: إن معنى (من كل أمر سلام): أن الملائكة يسلمون على عباد الله المؤمنين الليلة، إلى طلوع الفجر، واحتج من ذهب إلى هذا بما روي من قراءة ابن عباس (من كل امرئ سلام هي حتى مطلع الفجر)[1].

وقال أبو عبيدة في مجاز القرآن في هذه السورة:

---

١- مقدمات ابن رشد جـ١ ص ٢٠٠ وهي موضوع دراسة وتحقيق تقدم بها الاستاذ محمد بن الحبيب التجكاني لنيل دبلوم الدراسات العليا من دار الحديث.

(من كل أمر سلام) : من كل ملك ، وتفسير الكلبي[1]: وقرأ ابن عباس: (من كل امرئ سلام) أي : من كل ملك ، قال: ينزل جبريل، فيحيّي كل مؤمنٍ ومؤمنة.

«ومن قرأ (من كل أمر)، انقطع الكلام، أي: ينزلون من كل أمر، ثم بدأ فقال: (سلام هي )» .[2]

وهذا الوقف الأخير على (من كل أمر) من الوقفات السبع عشرة المنسوبة إلى النبي ﷺ التي ذكر في كشف الظنون – كما قدمنا – أن الشيخ أبا عبد الله محمد بن عيسى المغربي جمعها.[3]

هذه نماذج ترشد إلى ضرورة رعاية القاريء والمفسر في آنٍ واحدٍ للمعاني التي يقتضيها الوقف والابتداء لما لهما من أثرٍ في بلورة المعاني وإبراز المقاصد التي سيقت الآية لبيانها ، وذلك لأن كثيراً من مواطن الوقف غير المشروع، تحيل المعاني إحالةً يفسد معها تأليف الكلام ، ويختل بها نظمه اختلالاً فاحشا، وربما دخل المتعمد لها في الإلحاد أو الابتداع ، لاسيما إذا كانت مبنية على منزعٍ مذهبيٍ فاسد. قال المحقق ابن الجزري:

«وليس كل ما يتعسفه بعض المعربين ، أو يتكلفه بعض القراء ، أو يتأوله بعض أهل الأهواء مما يقتضي وقفاً أو ابتداء، ينبغي أن يتعمد الوقف عليه ، بل ينبغي تحري المعنى الأتم، والوقف الأوجه.[4]

وقال الشيخ محمود خليل الحصري في معالم الاهتداء:

---

١- محمد بن السائب بن بشر الكلبي الكوفي النسابة المفسر ، روى عنه الشعبي وجماعة، وله تفسير مشهور كما قال الداودي في طبقاته . توفي سنة ١٤٦ . انظر ترجمته في طبقات ابن سعد جـ٦ ص ٣٥٨-٣٥٩ – وطبقات المفسرين للداودي جـ٢ ص ١٤٤ ترجمة ٤٩١ – الفهرست ص ١٤٥-١٤٦.
٢- مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى جـ٢ ص ٣٠٥.
٣- انظر الوقفات السبع عشرة في كشف الظنون جـ٢ -٢٠٢٥.
٤- النشر جـ١ ص ٢٣١.

«قال بعض الأفاضل: إن الوقف قد يميز مذهب أهل السنة من مذهب المعتزلة، كالوقف على (ويختار) في قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ماكان لهم الخيرة﴾ [١] فإن الوقف على (ويختار) يفيد مذهب أهل السنة ، وهو ثبوت الاختيار لله وحده، ونفي الاختيار عن عباده، وعلى هذا تكون (ما) في (ماكان لهم الخيرة) نافية، بخلاف وصل (ويختار) بما بعده، فإنه يفيد أن ما (موصولة) ، وأن للعباد الخيرة ، وأن الله تعالى يختار لعباده مايختارون لأنفسهم وهذا مذهب المعتزلة.»[٢]

وقال الإمام الزركشي : « قد نُسِب أبو علي الفارسي [٣]إلى مذهب الاعتزال بقوله في [٤] «الإيضاح» حين تكلم على هذه الآية ، وهي قوله تعالي: ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ..﴾ [٥] قال أبو علي:

«ألا ترى أن الرهبانية لا يستقيم حملها على جعلنا ، مع وصفها بقوله (ابتدعوها) ، لأن مايجعله الله لا يبتدعونه ، فكذلك ينبغي أن يفصل بالوقف بين المذهبين .»[٦]

ويعني بالفصل بين المذهبين : أن يكون الوقف على (ورحمة) ثم يبتدئ القاريء بقوله (ورهبانية) وتكون الرهبانية من فعلهم هم لا من جعل الله،

---

١- سورة القصص الآية ٦٨.

٢- معالم الاهتداء إلى معرفة الوقف والابتداء للحصري ص٨.

٣- أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النحوي مؤلف الحجة في القراءات السبع ت ٣٧٧ ترجمته في وفيات الأعيان جـ٢ ص ٨٠ ترجمة ١٦٣ — غاية النهاية جـ١ ص٢٠٦- الفهرست ص ١١٠ شذرات الذهب جـ٣ ص ٨٨ بغية الوعاة جـ ١ - ٤٩٦-٤٩٧ — ترجمة ١٠٣٠.

٤-الإيضاح في الوقف والابتداء ، انظر كشف الظنون جـ٢ع ١٣١٨.

٥- سورة الحديد الآية ٢٧.

٦- البرهان في علوم القرآن جـ١ ص ٣١٩ . وقال ابن هشام في مغني اللبيب جـ٢ ص ٥٧٧: مشيراً إلى قطع أبي علي لقوله ( ورهبانية) عما قبلها :« وانما لم يحمل أبو علي الآية على ذلك لاعتزاله فقال :« لأن ما يبتدعونه لا يخلقه الله عز وجل».

وهذا يطابق نظرية المعتزلة في خلق العبد لأفعاله.

وهكذا تكون رعاية المعاني ضرورية للقارىء والمفسر حين يتناول النص ، على ضوء مواقع الوقف ومقتضياته المعنوية ، لأن القراءة والتفسير كثيراً ماتنعكس فيهما نحلة القارئ ومذهبه الذي يختار القراءة المطابقة له ، على غرار ما نجده عند الزمخشري في كشافه كما سيأتي.

وأبلغ من ذلك أن على القارئ اليوم أن يلتزم بما رسمه علماء هذا الشأن من علامات الوقف في المصاحف التي بين أيدينا حتى لا يقع عن غفلةٍ أو جهلٍ في الوقوع في قراءته على وفاق نِحَلٍ أو مذاهبٍ لا يعتقدها ، أو مخالفة مذهبه الذي يدين به في أصول العقيدة.[1]

وقد نقل الإمام السيوطي في الإتقان عن الإمام النكزاوي[2] أنه قال في كتاب الوقف:

«لابد للقارئ من معرفة بعض مذاهب الأئمة المشهورين في الفقه ، لأن ذلك يعين على معرفة الوقف والابتداء ، لأن في القرآن مواضع ينبغي فيها الوقف على

١- من ذلك مثلاً وقف بعضهم على ( السموات) في قوله تعالى ( وهو الله ، في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون) الأنعام الآية ٣ . حكى الزركشي في البرهان جـ٢ ص ٨٣ قراءة بعضهم ( وهو الله في السموات) على أن هذه جملة تامة ( وفي الأرض يعلم ) كلام آخر ، قال: وهذا قول المجسمة . واستدل الجهمية بهذه الآية على أنه تعالى في كل مكان ، وظاهر ما فهموه من الآية من أسخف الأقوال.

٢- الإمام عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عمر النكزاوي مقرئ من أهل الإسكندرية صاحب كتاب «الاقتضاء في الوقف والابتداء» توفي سنة ٦٨٣ ترجمته في حسن المحاضرة للسيوطي جـ١ - ٢١٥ غاية النهاية جـ١ ص ٤٥٢.

مذهب بعضهم [1]، ويمتنع على مذهب آخرين». [2]

وإذا كان هذا مطلوباً من القارئ، فلما له من الأهمية في هدايته إلى المعاني التي تتنزل عليها قراءته وقفاً ووصلا، وهو أمر ليس باليسير، ولذلك يقول أبو بكر بن مجاهد [3]:

«لا يقوم بالتمام [4] في الوقف إلا نحويٌّ عالمٌ بالقراءات، عالمٌ بالتفسير والقصص، وتخليص بعضها من بعض، عالمٌ باللغة التي نزل بها القرآن.» [5]

هذه صورةٌ عن أثر الاختلاف في مواقع الوقف في توجيه المعاني، وهي الصورة التي تتفق فيها القراءتان في اللفظ، وتختلفان في المعنى بحسب موقع الوقف، وهي صورة يحصل بها من تنوع المعاني، واتساع دلالات الآي، نظير ما يحصل من اختلاف القراء في حروف القراءة.

وفي الفصل التالي بحول الله سنرى الأهمية البيانية التي يقدمها للمفسر، النظر فيما بين القراءات المتواترة منها وغير المتواترة، من وجوه الاختلاف والتغاير، وما لاختلاف القراءات من أثر في الكشف عن وجوه التأويل واستنباط الأحكام.

---

١- مثال قوله تعالى في سورة النور الآية في شأن توبة القاذف هل ترفع وصف الفسق ويبقى غير مقبول الشهادة، أم أن الاستثناء في قوله ( إلا الذين تابوا) عائدٌ إلى الجميع، فعلى الأول يكون الوقف على قوله ( ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا)، وعلى الثاني يوصل بما بعده. والاول قول أبي حنيفة في أن التوبة ترفع الفسق، ويبقى غير مقبول الشهادة. انظر بداية المجتهد جـ١ ص ٣٢٣ والبرهان ١/ ٣٤٣.

٢- الإتقان للسيوطي جـ١ ص ٢٤٢ .

٣- تقدمت ترجمته.

٤- الوقف ثلاثة أقسام: تام وكاف وحسن، وبعضهم يزيد « وقبيح» انظر البرهان جـ١ ص ٣٤٩.

٥- البرهان جـ١ ص ٣٤٨.

# الفصل الثالث

## القيمة البيانية لاختلاف القراءات وأهمية رعايته في التفسير

التحم التفسير بالقراءات نشأةً وتطوراً منذ عهد النبي ﷺ إلى عهد الصحابة والتابعين ، حتى إن طائفةً من الصحابة كما سبق أن أشرنا إلى ذلك كانوا ربما أدرجوا التفسير في القراءة بقصد البيان، لأنهم آمنون فيه من الالتباس ، ومتحققون لما تلقوه من القرآن، ولأنهم كانوا يتلقون القرآن مقروناً بما أُثر فيه عن النبي ﷺ من وجوه التأويل والتفسير ، وساعد في زيادة الالتحام أن الصحابة الذين نقلت عنهم معظم وجوه القراءات، هم في الوقت ذاته الذين نقل عنهم التفسير بالمأثور.[1]

وحتى حينما أخذت القراءات تستقل عن التفسير، وصارت صناعةً مخصوصة[2]، حتى أصبح المفسرون متميزين عن القراء، باعتبار أن القراء يتناولون النص المقروء من جهة الرواية والأداء ، والآخرين يتناولونه من جهة الدراية والمقاصد الشرعية ، فإن هؤلاء وأولئك ظلوا يلتقون حول مجموعة من المعارف والأصول التي هي ضرورية لكلا الطرفين ليصل إلى غايته من التثبت والضبط، فأما القاريء فَلِكَي يعرف فيما يرويه عن شيوخه كيف يختار بين الروايات المتعددة في حروف القراءة ما هو أمثل عنده وأقوى مما بسطناه في الباب الماضي.

وأما المفسر فَلِكَي يعرف على أي قراءة يستند فيما يطمئن إليه من وجوه

---

١- يراد بالتفسير بالمأثور : ماجاء في القرآن أو السنة أو كلام الصحابة بياناً لمراد الله تعالى من كتابه. انظر مناهل العرفان لمحمد بن عبد العظيم الزرقاني جـ١ ص ٤٨٠.

٢- قال العلامة ابن خلدون في مقدمته ص ٤٣٧-٤٣٨ :« ولم يزل القراء يتداولون هذه القراءات وروايتها إلى ان كتبت العلوم ودونت ، فكتبت فيما كتب من العلوم، وصارت صناعة مخصوصة ، وعلماً منفردا ، وتناقله الناس بالمشرق والاندلس في جيل بعد جيل.»

التأويل، وما منزلة القراء بها من الرسوخ وصحة الديانة ، ذلك أن ما من مفسر يستهدف في تفسيره بلوغ المستوى المطلوب في البيان والكشف عن مقاصد القرآن، باستطاعته أن يستغني بحق عن اعتبار ما صح من القراءات والاستعانة بها في استخراج المعاني واستنباط الأحكام والمقاصد الشرعية.

ولما كانت القراءات الثابتة متعددةً ومختلفة ، وكان فيها المتواتر والمروي آحاداً مما يطلق عليه عند الكثيرين اصطلاح « الشذوذ» ، وكانت المعاني كما رأينا في الفصلين الماضيين كثيراً ما تختلف باختلاف القراءة ، فإن أي مفسرٍ يغض طرفه عن اعتبار القراءات عند النظر في تأويل الآي ، يضيّع من يده مفتاحاً عظيم الأهمية كان من المتيقن أنه يقدم له العون الكبير في فتح أغلاق المعاني والكشف عن أسرار التنزيل.

يضاف إلى ذلك أن تنزيل معاني القرآن على قراءةٍ واحدةٍ لا يعدوها المفسر، فيه ترجيح لإحدى القراءات بلا مرجح ، وذلك إن لم يكن وراءه التعصب لإمام القراءة في القطر الذي ينتسب إليه المفسر.[1] فلا أقل من أن فيه تضييقاً لما أراد الله سبحانه أن يكون فسيحا ، بحمل القرآن على وجهٍ واحدٍ وتأويلٍ واحدٍ. ولما كانت القراءات المشهورة لا مجال للشك في حجيتها من جهة النقل ولا من جهة اللغة، فإنها من هاتين الجهتين تعتبر تفاسير ضمنية في أعلى درجات الوثوق مما يعرف بالتفسير بالمأثور ، وبالتالي فلا مسوغ لتقديم غيرها عليها ، من تفسيرٍ قد يهدي إليه النظر في اللغة، أو يرشد إليه السياق ومقتضى الكلام، أو ما إلى ذلك من وجوه استمدادات المفسر في تناوله للتفسير.

---

١- قل من المفسرين من يشير إلى القراءة التي يعطيها الرتبة الأولى في التفسير ، ولم أر غير تفسيرين فعل مؤلفاهما ذلك ، أحدهما «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزي الكلبي الأندلسي فقد جاء في أوله: وانما بنينا هذا الكتاب على قراءة نافع لوجهين : أحدهما أنها القراءة المستعملة في بلادنا بالأندلس وسائر بلاد المغرب، والاخرى اقتداء بالمدينة شرفها الله.ص٧

وأما الثاني فهو التحرير والتنوير لابن عاشور قال في المقدمة جـ١ ص ٦٢: «وأبني أول التفسير على قراءة نافع برواية عيسى بن مينا المدني الملقب بقالون ، لأنها القراءة التي يقرأ بها معظم أهل تونس...»

وقد جاء في الأثر : القراءة سنة، فاقرأوا كما تجدونه»[1] فهي إذن تفاسير مأثورة عن رسول الله ﷺ ، داخلة في مفهوم البيان الذي تكفل الله به لرسوله في قوله : ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾.[2] ولذا وجب أن تكون لها الصدارة في إبراز معاني الآي ، لأنها أوثق ثبوتاً من كل مايؤثر في التفسير من نقولٍ وأخبار.

قال الحافظ ابن الجزري:

«وكل ما صح عن النبي ﷺ من ذلك . فقد وجب قبوله ، ولم يسع أحداً من الأمة رده، ولزم الإيمان به، وأن كله منزل من عند الله ، إذ كل قراءةٍ منها مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية ، يجب الإيمان بها كلها ، واتباع ما تضمنته من المعنى علماً وعملاً.»[3]

وقد بسط هذا المعنى العلامة التونسي محمد الطاهر بن عاشور فقال في التحرير والتنوير:

«اختلاف القراء في حروف الكلمات مثل (مالك يوم الدين) و (ملك يوم الدين)[4] و(ننشرها) و(ننشزها)[5] (وظنوا أنهم قد كذبوا)[6] بتشديد الذال أو (قد كذبوا) بتخفيفه ، وكذلك اختلاف الحركات الذي يختلف معه المعنى كقوله ﴿ولما ضرب بن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾.[7]

---

١- الحديث رواه أبو الزناد عن خارجة بن زيد عن أبيه ، قال السيوطي في الاتقان جـ١ ص ٢١١ : أخرجه سعيد بن منصور في سننه ، قال البيهقي : أراد اتباع من قبلنا في الحروف سنة متبعة».

٢- سورة القيامة الآيتان ١٨-١٩.

٣- النشر جـ١ ص ٥١ وقال الحليمي : يسن استيفاء كل حرف أثبته قارئ ، ليكون قد أتى على جميع ما هو قرآن . انظر الإتقان للسيوطي جـ١ ص ٢٠٩.

٤- سيأتي موقف الطبري من القراءتين.

٥- انظر ماتقدم في الباب الأخير.

٦- سورة يوسف الآية قبل الآخرة منها.

٧- انظر ماتقدم في الفرق بينهما.

قرأ نافع بضم الصاد ، وقرأ حمزة بكسر الصاد، فالأولى بمعنى : يصدون غيرهم عن الإيمان، والثانية بمعنى: صدودهم في أنفسهم [1]، وكلا المعنيين حاصل منهم ، وهي من هذه الجهة لها مزيد تعلق بالتفسير، لأن ثبوت أحد اللفظين في قراءة قد يبين المراد من نظيره في القراءة الأخرى، أو يثير معنى غيره، ولأن اختلاف القراءات في ألفاظ القرآن الكريم يكثر المعاني في الآية الواحدة ، نحو (حتى يطهرن) [2] بفتح الطاء المشددة والهاء المشددة، وسكون الطاء وضم الهاء مخففة [3]، ونحو (لامستم النساء) و(لمستم النساء) [4]، وقراءة (وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن إناثا) [5] مع قراءة (الذين هم عباد الرحمن ) قال:

«والظن أن الوحي نزل بالوجهين وأكثر تكثيراً للمعاني ، إذا جزمنا بأن جميع الوجوه في القراءات المشهورة هي مأثورة عن النبي ﷺ ، على أنه لا مانع من أن يكون مجئ ألفاظ القرآن على ما يحتمل تلك الوجوه مراداً لله تعالى، ليقرأ القراء بوجوه، فتكثر من جراء ذلك المعاني فيكون وجود الوجهين فأكثر من مختلف القراءات ، مجزئاً عن آيتين فأكثر». [6]

وعلى هذا فرعاية اختلاف وجوه القراءات ضروريةٌ للمفسر المثالي، نظراً لتعدد المعاني بتعدد القراءات في مواطن كثيرة ، واقتصار المفسر على بعضها تقصيرٌ في عملية التفسير وبلورةِ معاني الآية من جميع وجوهها ، إذ لايستقيم

---

١- بنى هذا التفسير على توافق المعنيين في الفعل واختلاف الصيغة الصرفية في التعدي واللزوم، وقد مر بنا أن بعضهم كابن عباس وأبي عبيدة كانوا يرون القراءة ( يصدون) بالكسر على معنى : يصيحون ويضجون. انظر الكشاف ٣-٤٩٣ وجامع البيان ٢٥/٨٦-٨٧ وفتح الباري جـ١٠/١٨٨ ومجاز القرآن لأبي عبيدة جـ٢/٢٠٥.

٢- قرأ بالتشديد حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر والمفضل الضبي. انظر البحر المحيط ٢/١٦٨ .

٣- ومعنى قراءة التشديد : حتى يغتسلن ، ومعنى قراءة التخفيف : حتى ينقطع عنهن الدم.

٤- سورة النساء الآية ٤٣ والمقود الآية ٦ وسيأتي الحديث عن اختلاف الفقهاء في المقصود باللمس.

٥- سورة الزخرف الآية ١٩ ( قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ويعقوب ( عند الرحمن) وباقي العشرة ( عباد الرحمن ) بالباء . انظر النشر جـ٢ ص ٣٦٨.

٦- التحرير والتنوير جـ١ ص ٥٥ -٥٦.

إقرار معنى واحد من جملة معانٍ تحتملها الآية وتقتضيها وجوه القراءة فيها، إلا بعد بسطها جميعاً ، والنظر في دلالاتها وما تقتضيه كل قراءةٍ من معنى ووجه في التأويل، إذ أن الأحكام الشرعية كثيراً ماتتغاير باختلاف القراءة كما سيأتي.

قال الإمام الزركشي:

«وباختلاف القراءة يظهر الاختلاف في الأحكام.»[1]

وقال الشيخ الدمياطي البنا في أول الإتحاف:

«ولم تزل العلماء تستنبط من كل حرفٍ يقرأ به قارىء معنىً لا يوجد في قراءةِ الآخر، والقراءة حجة الفقهاء في الاستنباط ، ومحجتهم في الاهتداء».[2]

وقد أثار الزركشي في البرهان فيما نقل عن أبي الليث السمرقندي [3] في كتابه «البستان»[4] إشكاليةً حول الآية إذا قرئت بقراءتين ، فعلى أي القراءتين تحمل ؟ وأيهما قال به الله تعالى؟

وقد ذكر في الجواب عن هذا الإشكال قولين:

الأول: أن الله قال بهما جميعاً، والثاني: أن الله قال بقراءةٍ واحدة، وأذن أن يقرأ بقراءتين ثم اختار في المسألة توسطا ، وهو : أنه إن كان لكل قراءةٍ تفسير يغاير الآخر، فقد قال بهما جميعاً ، وتصير القراءتان بمنزلة الآيتين ، مثل قوله:

---

١- البرهان في علوم القرآن جـ١ ص ٣٢٦.

٢- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ص٣.

٣- أبو الليث ناصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي النصيبي المصري، له تفسير للقرآن في أربع مجلدات كما ذكر الداودي ، وفي مناهل العرفان ١/ ٤٩٧ أن تفسيره في مجلدين وهو من مخطوطات مكتبة الأزهر بمصر ، وقد رأيت القاضي عياض ينقل عنه كثيراً في تفسير بعض الآيات في كتاب الشفاء، توفي أبو الليث سنة ٣٧٥ كما ذكر في كشف الظنون جـ١ ص ٢٤٣- وذكر الداودي وفاته سنة ٣٩٣ . انظر طبقات المفسرين للداودي جـ٢ص ٣٤٥ ترجمة ٦٥٨.

٤- بستان العارفين قال في كشف الظنون جـ١ ص ٢٤٣: هو مختصر مفيد في مائة وخمسين باباً في الأحاديث والآثار الواردة في الآداب الشرعية والخصال والأخلاق وبعض الأحكام الفرعية.

(ولا تقربوهن حتى يطهرن)[1] ، وإن كان تفسيرهما واحداً كالبيوت والبيوت، بكسر الباء وضمها ، والمحصنات والمحصنات بكسر الصاد وفتحها ، فإنما قال بإحداهما ، وأجاز القراءة بهما لكل قبيلة على ما تعود لسانهم».

«فإن قيل : إذا صح أنه قال بإحداهما ، فبأي القراءتين ؟ قال: قيل : التي بلغة قريش»[2]

وهذا الذي انتهى إليه أبو الليث في شأن القراءتين إذا اختلف معناهما ذكر الطبري نحواً منه عند قوله تعالى: ﴿بل عجبت ويسخرون﴾[3] فقد ذكر قراءة عامة قراء الكوفة (عجبت) بالضم ، وقراءة عامة قراء المدينة والبصرة وبعض قراء الكوفة بالفتح، وقال:

«والصواب من القول في ذلك : أنهما قراءتان مشهورتان في قراءة الأمصار، فبأيتهما قرأ القاري فمصيب ، فإن قال قائل : وكيف يكون مصيباً القارئ بهما مع اختلاف معنييهما؟ قيل : إنهما وإن اختلف معنياهما فكل واحدٍ من معنييه صحيح، وقد عجب محمدٌ مما أعطاه الله من الفضل ، وسخر منه أهل الشرك بالله وقد عجب ربنا من عظيم ما قاله المشركون في الله ، وسخر المشركون بما قالوه».

«فإن قال: أكان التنزيل بإحداهما أو بكلتيهما ؟ قيل : التنزيل بكلتيهما . فإن قال: وكيف يكون نزل حرفٌ مرتين ؟ قيل : إنه لم ينزل مرتين ، إنما نزل مرةً واحدة، ولكنه أمر رسول الله ﷺ أن يقرأ بالقراءتين كلتيهما».[4]

ويحقق هذا المعنى ما روته كتب الصحاح والسنن من قراءاتٍ في حروفٍ من القرآن قرأ بها النبي ﷺ ، ولكنها لم تتواتر في النقل كما تواتر غيرها ، وقد

---

١- سورة البقرة الآية ٢٢٢.

٢- نقلة الزركشي في البرهان جز ١ ص ٣٢٦- ٣٢٧ والسيوطي في الإتقان جـ١ ص ٢٢٦.

٣- سورة اليقطين الآية ١٢.

٤- جامع البيان لابن جرير الطبري جـ٢٣ ص ٤٣-٤٤.

أخرج منها البخاري وأبو داود والترمذي والحاكم في المستدرك شيئاً كثيراً.[1]

وقد ورد في بعض الآثار أن النبي ﷺ كان ربما أقرأ الشخص الواحد بأكثر من حرف في القراءة ، ومثاله ما أخرجه ابن أبي داود عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال:

قرأتُ على النبي ﷺ ( ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا )[2]، قال: فاقرأ ﴿ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا﴾ جميعاً».[3]

ومع أن طائفةً من العلماء يرون وجوب حمل مثل هذا على أنه تفسيرٌ لا قراءة قرآنٍ منزل، فإنه مع ذلك تظل له القيمة ذاتها في مجال البيان والكشف عن المعاني إذ هو تفسير سيق مساق القراءة فهو في هذا أعلى في المرتبة من كثيرٍ من النقول التي تُروى في التفسير، وإلى ذلك يشير أبو عبيدة القاسم بن سلام، مشيداً بالقيمة البيانية التي تقدمها للمفسر رعاية الاختلاف بين القراءات حتى الشواذ منها.

قال أبو عبيد

«إن القصد من القراءة الشاذة تفسير القراءة المشهورة وبيان معانيها، وذلك كقراءة عائشة وحفصة: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى- صلاة العصر -) [4]وكقراءة ابن مسعود (والسارق والسارقة فاقطعوا —

---

١- انظر صحيح البخاري جـ١٠ بشرح ابن حجر ص ٣٢٥ ، وجامع الترمذي جـ ١١ بشرح ابن العربي ص ٥١ — ٦٠ وسنن أبي داود جـ ٢ ص ٣٥٦ –٣٦١ ، والمستدرك جـ٢ ص ٢٣٣-٢٥٢.

٢- سورة المائدة الآية ٨٢.

٣- المصاحف لابن أبي داوود ص ١٠٣ والخبر بصورة أخرى عند ابن حجر في المطالب العالية جـ٣ ص ٣٢٤ قال: أخرجه الحارث بن أبي اسامة وأبوبكر بن أبي شيبة عن حامية بن رئاب قال: سألت سلمان الفارسي عن هذه الآية ( ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا ) فقال: دع قسيسين ورهباناً في الصوامع والخرب، أقرأنيها رسول الله ﷺ : ( ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا )».

٤- وردت الرواية عنهما بالواو (وصلاة العصر) وهي الأشهر . ووردت بغير حرف العطف، والرواية الأولى عنهما أصح وهي التي في الموطأ وغيره، وفي أحكام القرآن للشافعي ص ٥٩- ٦٠ قال الشافعي معلقاً على رواية أبي يونس عن عائشة :« فحديث عائشة يدل على ان الصلاة الوسطى ليست صلاة العصر». ولعله بنى على أن العطف يقتضي المغايرة ..

أيمانهما )[1]، ومثل قراءة أُبّي : (للذين يولون عن نسائهم تربص أربعة أشهر، فإن فاؤوا- فيهن- فإن الله غفور رحيم) [2]، وكقراءة سعد بن أبي وقاص (وإن كان رجل يوث كلالة أو امرأة ، وله أخ أو أخت-من أم-) [3]، وكقراءة جابر[4]: (فإن الله من بعد إكراههن – لهن- غفور رحيم.»»[5]

قال أبوعبيد:

«فهذه الحروف وما شاكلها قد صارت مفسرةً للقرآن ، وقد كان يروى مثل هذا عن التابعين في التفسير فيستحسن، فكيف إذا روي عن كبار الصحابة ، ثم صار في نفس القراءة، فهو الآن أكثر من التفسير وأقوى، فأدنى ما يستنبط من هذه الحروف ، معرفة صحة التأويل ، على أنها من العلم الذي لا يعرف العامة فضله، إنما يعرف ذلك العلماء ، ولذلك يعتبر بها وجه القرآن، كقراءة من قرأ (يقص الحق) [6]، فلما وجدتها في قراءة عبد الله ( يقضي الحق)[7] ، علمت أنها إنما هي (يقص) ، فقرأتها على ما في المصحف، واعتبرت صحتها بتلك القراءة.»

«وكذلك قراءة من قرأ: ﴿أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم﴾ [8]، ثم

---

١- الآية ٣٨ من سورة العقود في مصحفنا ( فاقطعوا أيديهما ) وفي معاني القرآن للفراء جـ١ ص ٣٠٦ قال: وفي قراءة عبد الله ( والسارقون والسارقات فاقطعوا أيمانهما ) هكذا ذكرها مثناة وقال ابن عطية في المحرر الوجيز جـ٥ ص ٩٥ وقرأ ابن مسعود وإبراهيم النخعي .. فاقطعوا أيمانهم.

٢- سورة البقرة الآية ٢٢٦ ومابين العارضتين مدرج.

٣- سورة النساء الآية ١٢ ومابين العارضتين مدرج.

٤- جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاري من المكثرين في الرواية انظر الاستيعاب ص ١ ص ٢٢٢- ٢٢٣.

٥- سورة النور الآية ٣٣.وما بين العارضتين مدرج

٦- سورة الأنعام الآية ٥٧ وهي قراءة الجمهور.

٧- وقال الفراء في معاني القرآن جـ١ ص ٣٣٨ :« هذه قراءة أصحاب عبد الله ، وذكر عن علي أنه قال (يقص الحق) بالصاد.» واختار ابن جرير في تفسيره جـ٧ ص ٢١١ قراءة ( يقضي) واحتج لها بأن الفصل بين المتقاضيين إنما يكون بالقضاء لا بالقصص»، وهذا على عادته في توهين وجه القراءة التي تخالف اختياره كما سيأتي بحول الله ، ولا شك أنه واهمٌ في تخريجه، لأن المادة هنا من قص الخبر إذا تتبعه ، وقص القضية إذا بحثها وتتبع جوانبها ، فتتوجه هذه القراءة بالصاد على هذا المعنى.

٨- سورة النمل الآية ٨٢.

لما وجدتها في قراءة أبي: (تنبئهم)[1] علمت بأن وجه القراءة (تُكلِمهم)، في أشياء من هذا كثيرة.»[2]

وقد نبه الإمام عز الدين بن عبد السلام [3] في كتابه «الفوائد» على أن الآية التي يختلف معناها باختلاف القراءة لا تدخل في الحروف السبعة التي أنزل عليها القرآن ، فقال في قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون﴾: قوله عز وجل : ﴿بما كانوا يكذبون﴾[4] بالتشديد والتخفيف ونحو ذلك من آيات الكتاب، ليست من القراءات السبع [5]، بل هما خبران عن مخبرين : أحدهما: أنهم كذبوا في أنفسهم، والثاني : أنهم كذبوا غيرهم، وإنما يدخل في الحروف السبعة ما كان من مختلف اللفظ متحد المعنى ، مثل (الدنيا) و (الدنيي) بالتخفيف والإمالة».[6]

وقد وجه الاختلاف بين القراءتين طائفةً من الأئمة على تعدد العرضات ، فقال ابن قتيبة في قوله تعالى

في سورة سبأ : ﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا﴾[7] قال:

---

١- وقد فسرها الزمخشري في الكشاف جـ٣ ص ١٦٠ فقال: ( تكلمهم) من الكلم وهو: الجرح ، والمراد به الوسم بالعصا والخاتم- يعني عصا موسى وخاتم سليمان- ويجوز أن تكون (تكلمهم) ( من الكلم ايضاعلى معنى التكثير). ثم أنه يجوز ان يستدل بقراءة أبي ( تنبئهم) وبقراءة ابن مسعود ( تكلمهم بأن الناس) على أنه من الكلام، وهذا منه قلب للوضع لأنه جعل المقام الأول لما تحتمله اللغة، وترك ما هو أوثق وأثبت لأن اتفاق قراءة الجمهور على القراءة بالتشديد وورود ما يؤكدها في قراءة أبيّ (تنبئهم) وقراءة ابن مسعود ( تكلمهم بأن) قاطع على ان التأويل فيها على وفاق هذه القراءات.

٢- نقله الزركشي في البرهان جـ١ ص ٣٢٨ والسيوطي في الإتقان جـ١ ص ٢٢٨.

٣- عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن السلمي سلطان العلماء المصري ، له مواقف صالحة في الجهر بالحق ومقاومة غزو التتار ، توفي سنة ٦٦٠ . له ترجمة وافية في طبقات الشافعية لابن السبكي جـ٨ ص ٢٠٩- ٢٥٥ وفي حسن المحاضرة جـ١ ص ١٢٦ وشذرات الذهب جـ٥ ص ٣٠١.

٤- البقرة الآية ١٠.

٥- يعني ليست من الأحرف السبعة كما سيذكره.

٦- الفوائد في مشكل القرآن ص ٣١.

٧- سورة سبأ الآية ١٩.

«(ربَنا باعِد بين أسفارنا) على طريق الدعاء والمسالة، (وربُنا باعَدَ بين أسفارنا) على جهة الخبر[1] والمعنيان وإن اختلفا صحيحان، لأن أهل سبأ سألوا الله أن يفرقهم في البلاد، فقالوا: ( ربنا باعد بين أسفارنا )، فلما فرقهم الله في البلاد أيدي سبأ[2] وباعد بين أسفارهم، قالوا: (ربنا باعد بين أسفارنا)، وأجابنا إلى ماسألنا، فحكى الله عنهم سبحانه بالمعنيين في عرضين».[3]

وقال ابن خالويه[4] في الحجة في توجيه قراءة ( واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) حسب قراءة ( واتخذوا) بلفظ الماضي أو الأمر[5]:

«والحجة لمن فتح — الخاء — : أن الله تعالى أخبر عنهم بعد أن فعلوه، فإن قيل: فإن الأمر ضد الماضي، وكيف جاء القرآن بالشيء وضده

فقل: «إن الله تعالى أمرهم بذلك مبتدئا، ففعلوا ما أمروا به، فأثنى عليهم بذلك وأخبر به، وأنزله في العرضة الثانية.»[6]

---

١- قال ابن الجزري في النشر جـ٢ ص ٣٥٠ : « اختلفوا في ( ربنا باعد) فقرأ يعقوب برفع الباء من (ربنا) وفتح العين والدال والف قبل العين من ( باعد) . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بنصب الباء وكسر العين مشددة من غير ألف مع إسكان الدال ( بعد). وقرأ باقي العشرة «كذلك — يعني بلفظ الماضي — إلا انهم بالألف وتخفيف الدال» . وانظر في مختصر شواذ القراءات من كتاب البديع ص ١٢١ قراءتين شاذتين ( بعد) بضم العين ( و بوعد) بالبناء للمفعول.

٢- أصبح هذا مثلاً، وفي شعر كثير: «أيادي سبأ يا عز ما كنت بعدكم..»

٣- انظر معه أمثلة أخرى في تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٣١- ٣٢.

٤- ابن خالويه العلامة اللغوي الحسين بن أحمد بن خالويه بن حمدان الهمداني الحمصي النحوي الإمام في اللغة والعربية، نشأ بحمص ودخل بغداد، وقرأ القرآن على ابن مجاهد والنحو والأدب على ابن دريد ونفطويه وأبي بكر بن الأنباري وأبي عمر غلام ثعلب وتوفي سنة ٣٧٠، انظر ترجمته في وفيات الأعيان جـ٢ ص ١٧٣ ارجمة ١٩٤- غاية النهاية جـ١ ص ٢٧٣ – طبقات المفسرين للداودي جـ١ ص ١٤٨-١٤٩ ترجمة ١٤٥- شذرات الذهب جـ٣ ص ٧١.

٥- سورة البقرة الآية ١٢٥ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي والجمهور ( واتخِذوا) بكسر الخاء على الأمر . وقرأ نافع وابن عامر ( واتخذوا) بفتحها جعلوه فعلاً ماضيا . البحر المحيط جـ١ ص ٣٨١. وانظر إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للدمياطي ص ١٧٧.

٦- الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص ٨٧ وانظر معاني القرآن للفراء جـ١ ص ٧٧.

وهذا عند ابن قتيبة وابن خالويه نوعٌ من التأتي للجمع بين القراءتين ، إذ أن ظاهرهما يوهم أنهما متضادتان، ولكن بعض مواطن الخلاف بين القراءتين في المعنى لا يتأتى فيه كما أسلفنا الجمع بين القراءتين على معنى واحد ، بل كل واحدة منهما تؤسس معنى جديدا ، ومن هنا انتقد أبو حيان على أبي علي الفارسي أنه حاول ذلك في قوله تعالى في سورة الحديد ( ومن يتول فإن الله الغني الحميد )[1] بإثبات ( هو) بعد ( فإن الله) أو حذفها كما قدمنا فقال أبو حيان:

«ماذهب إليه أبو علي ليس بشيء لأنه بنى ذلك على توافق القراءتين ، وليس كذلك ، إلا ترى أنه قد تكون قراءتان في لفظٍ واحدٍ لكلٍ منهما توجيه يخالف الآخر، كقراءة ﴿والله أعلم بما وضعت﴾[2] بضم التاء وسكونها».[3]

وقد أشرنا إلى قول أبي البركات الأنباري في قوله تعالى : ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجةٌ إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني..﴾[4] قال:

ليس من الشرط أن تكون إحدى القراءتين بمعنى الأخرى، فإذا اعتبرتم هذا في القراءات وجدتم الاختلاف في معانيها كثيراً جدا ، وهذا مما لا خلاف فيه، وإذا ثبت هذا فيجوز أن تكون قراءة من قرأ (إلى الذين) بالتخفيف «مع»، قراءة من قرأ (إلا) بالتشديد بمعنى «لكن» على مابينا ، والله اعلم».[5]

وقد ذكر السيوطي في الإتقان أنه ألف في الموضوع كتاباً سماه: « أسرار التنزيل» اعتنى فيه ببيان كل قراءة أفادت معنى زائداً على القراءة المشهورة»[6]. كما نبه

---

١- الآية ٢٤ وليس في مصحفنا لفظ ( هو) وفي المصحف المطبوع برواية حفص ( فإن الله هو الغني).

٢- قال الدمياطي في الإتحاف ص ٢٠٦ : واختلف في (وضعت) فابن عامر وأبو بكر ويعقوب بإسكان العين وضم التاء للتكلم من كلام أم مريم ، والباقون يعني من الأربعة عشر – بفتح العين وبتاء التأنيث الساكنة من كلام الباري تعالى . » وانظر معاني القرآن للفراء جـ١ ص ٢٠٧ والحجة لابن خالويه ص ١٠٨.

٣- سورة آل عمران الآية ٣٦.

٤- سورة البقرة الآية ١٥٠.

٥- الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين جـ١ ص ١٧٦.

٦- الإتقان جـ١ ص ٢٢٨.

في الإتقان على أن بعض ما روي في التفسير عن الصحابة حسب قراءة خاصة في تفسير الآية الواحدة، قد يرد عنهم فيظن اختلافا ، وليس باختلاف وإنما كل تفسير على قراءة ، قال : وقد تعرض السلف لذلك ، فأخرج ابن جرير في قوله تعالى : ﴿قالوا إنما سكرت أبصارنا..﴾[1] من طرق عن ابن عباس وغيره ، أن (سكّرت) بمعنى : سدت، ومن طرقٍ أنها بمعنى : أخذت ، ثم أخرج عن قتادة[2] قال: من قرأ (سكّرت) مشددة ، فإنما يعني : سُدَّت ومن قرأ (سكرت) مخففة، فانه يعني : سحرت .»[3] قال السيوطي:

«وقد خرجت على هذا قديماً الاختلافَ الوارد عن ابن عباس وغيره في تفسير آية (أو لامستم)[4] هل هو الجماع ، أو الجس باليد؟ فالأول تفسيرٌ لقراءة (لامستم)[5] ، والثاني لقراءة (لمستم) ولا اختلاف.»[6]

وعلى هذا ينبغي على القارىء لكتب التفسير أن يكون يقظاً لما قد يكون بين الأقوال من اختلاف مردّه فقط إلى اختلاف القراءة ، وقد لاحظ ابن حجر في شرحه على صحيح البخاري نوعاً من هذا فقال معلقاً على ما رواه البخاري في كتاب التفسير ، بسنده عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾[7] : لا تفتاتوا [8]على رسول الله حتى يقضي الله على لسانه.[9] قال ابن حجر:

---

١- سورة الحجر الآية ١٥.

٢- قتادة بن دعامة السدوسي البصري المتوفى سنة ١١٧ انظر ترجمته في طبقات ابن سعد جـ٧ ص ٢٢٩ طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي ص ٨٩- طبقات المفسرين للداودي جـ٢ ص ٤٣ ترجمة ٤١٥. غاية النهاية جـ ٢ ص ٢٥ ترجمة ٢٦١١.

٣- انظر جامع البيان لابن جرير جـ١٤ ص ١٢ والإتقان للسيوطي جـ٤ ص ١٩٢-١٩٤ .

٤- يعني في سورة النساء الآية ٤٣ والمائدة الآية ٦.

٥- في النشر جـ٢ ص ٢٥١: قرأ حمزة والكسائي وخلف بغير ألف فيهما وباقي العشرة بالألف.

٦- الإتقان جـ ٤ ص ١٩٤.

٧- سورة الحجرات الآية رقم ١.

٨- من الافتئات بمعنى الاختلاق والكذب.

٩- صحيح البخاري بشرح ابن حجر جـ١٠ ص ٢١١.

«ضبط أبو الحجاج البناسي ( تقدموا ) بفتح القاف والدال، وهي قراءة ابن عباس ويعقوب الحضرمي وهي التي ينطبق عليها هذا التفسير».[1]

وقد ذكر الحافظ ابن الجزري فوائد اختلاف القراءات وتعددها، وما يستقى من ذلك من أحكام فعدّ منها الفوائد التالية:

أ. ما يكون لبيان حكم مجمعٍ عليه، كقراءة سعد بن أبي وقاص وغيره: (وله أخ أو أخت — من أم)[2] فإن هذه القراءة تبين أن المراد بالإخوة: الإخوة للأم، وهذا أمر مجمعٌ عليه، وقد استدل بهذه القراءة جماعة من الصحابة، فجعلوا الثلث للإخوة للأم ولا شيء للأخوين للأبوين[3] وهو مذهب أبي حنيفة[4]

---

١- فتح الباري جـ١٠ ص ٢١١.

٢- في تفسير ابن عطية المحرر الوجيز جـ٤ ص ٤٣ ذكر قراءة سعد وفيها (لأمه) بدل ( من أم).

٣- وهي المسألة المشهورة في المواريث بالمشتركة أو «الحمارية» وهي زوج وأم أو جدة أو اثنان من ولد الأم وواحد أو أكثر من ولد الأبوين، فعلى قول الجمهور: للزوج النصف، وللأم أو الجدة السدس، ولولد الأم الثلث، ويشاركهم فيه ولد الأب و الأم بما بينهم من القدر المشترك وهو: الإخوة من قبل الأم، وقد وقعت هذه المسألة في زمان أمير المؤمنين عمر، فأعطى الزوج النصف، والأم السدس، وجعل الثلث لأولاد الأم فقال له أولاد الأبوين: يا أمير المؤمنين: هب أن أبانا كان حمارا، ألسنا من أم واحدة؟ فشرك بينهم وصح التشريك عن عثمان، وهو إحدى الروايتين عن ابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس رضي الله عنهم «وبه يقول سعيد بن المسيّب وشريح القاضي ومسروق وطاوس وابن سيرين وإبراهيم النخعي وعمر بن عبد العزيز والثوري وشريك، وهو مذهب مالك والشافعي وإسحاق بن راهويه».

وكان علي بن أبي طالب لا يشركٍ بينهم، بل يجعل الثلث لأولاد الأم، ولاشيء لأولاد الأبوين والحالة هذه، لأنهم عصبة، وهذا قول أبي كعب وأبي موسى الأشعري وهو المشهور عن ابن عباس، وهو مذهب الشعبي وابن أبي ليلى وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن. وداود وجماعة. انظر تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢١٨ ومنه هذا النقل. وانظر أيضاً المحرر الوجيز جـ٤ ص ٤٣. وبداية المجتهد جـ٢/٢٥٩.

٤- النعمان بن ثابت مولى تيم الله بن ثعلبة ولد سنة ٨٠ ومات ببغداد سنة ١٥٠ وهو إمام المذهب المشهور ورأس «مدرسة الرأي» انظر ترجمته في طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٥ والفهرست ص ٢٩٨ وطبقات ابن سعد جـ٦ ص ٣٦٠- وغاية النهاية جـ٢ ص ٣٤٢ ترجمة ٣٧٤٥.

وأصحابه الثلاثة[١] وأحمد بن حنبل[٢] وداود الظاهري[٣] وغيرهم».

ب. ما يكون مرجحاً لحكم اختلف فيه، كقراءة (أو تحرير رقبة – مؤمنة)[٤] في كفارة اليمين ، فكان فيها ترجيح لاشتراط الإيمان فيها، كما ذهب إليه الشافعي وغيره ، ولم يشترطه أبو حنيفة رحمه الله .[٥]

جـ. ما يكون للجمع بين حكمين مختلفين: كقراءة (يطهرن) و(يطّهّرن)، ينبغي الجمع بين مقتضى القراءتين.[٦]

د. ما يكون لأجل اختلاف حكمين شرعيين : كقراءة ( وأرجلكم)[٧] بالخفض والنصب، فإن الخفض يقتضي فرض المسح ، والنصب يقتضي فرض الغسل ، فبينهما النبي ﷺ ، فجعل المسح للابس الخف، والغسل لغيره.»[٨]

هـ. ما يكون لإيضاح حكمٍ يقتضي الظاهرُ خلافَهَ: كقراءة ( فامضوا إلى ذكر

١- أصحابه أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وزفر بن الهذيل.

٢- أحمد بن حنبل الشيباني ولد سنة ١٦٤ وتوفي سنة ٢٤١ إمام المذهب الحنبلي وصاحب المسند في الحديث ، ترجمته في طبقات الشيرازي ص ٩٢- الفهرست ص ٣٣٤ – وغاية النهاية ١١٢/١.

٣- داود بن علي بن خلف الظاهري الأصفهاني ، ولد سنة ٢٠٢ وتوفي سنة ٢٧٠ ، أخذ العلم عن إسحاق ابن راهويه وأبي ثور ، وتعصب للمذهب الشافعي ، ثم استقل بمذهبه الفقهي ، في الأخذ بالظاهر دون إعمال القياس ، وانتهت إليه رياسة العلم ببغداد ، وانتشر مذهبه بالشرق والأندلس بعد وفاته ومن أشهر فقهاء مذهبه أبو محمد بن حزم الأندلسي . انظر ترجمته في الفهرست لابن النديم ص ٢١٧-٢١٩ – وطبقات الشافعية لابن السبكي جـ٢ ص ٤٢- ووفيات الأعيان جـ٢ ص ٢٥٥-٢٥٧ وطبقات المفسرين للداودي جـ١ ص ١٦٦-١٦٩ ترجمة رقم ١٦٥.

٤- كلمة مؤمنة ليست في مصحفنا ، والآية من سورة المائدة رقم ٨٩.

٥- قال الحافظ ابن كثير في تفسيره جـ٢ ص ٦٣٣: « أخذ أبو حنيفة بإطلاقها فقال: تجزئ الكافرة، كما تجزئ المؤمنة ، وقال الشافعي وآخرون : « لا بد ان تكون مؤمنة».

٦- سيأتي الحديث عن منهج الفقهاء في العمل بالقراءتين أو حمل إحداهما على الأخرى.

٧- يعني في قوله تعالى في سورة المائدة الآية ٦ : « ( يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم ، وأرجلكم إلى الكعبين..).

٨- سيأتي اختلاف العلماء في اعمال القراءتين وكيفية الجمع بينهما.

الله)[1] فإن قراءة ( فاسعوا ) يقتضي ظاهرها المشي السريع ، وليس بمراد ، فكانت القراءة الأخرى موضحةً لذلك ورافعةً للوهم.[2]

و. ما يكون مفسراً لما لعله لا يعرف، مثل: قراءة ( كالصوف المنفوش ).[3]

ز. ما يكون حجة لأهل الحق ، ودفعاً لأهل الزيغ ، كقراءة ( وملكا كبيراً )[4] بكسر اللام ، وردت عن ابن كثير وغيره ، وهي من أعظم دليلٍ على رؤية الله تعالى في الدار الاخرة.

ح. مايكون حجةً ترجيحٍ لقول بعض العلماء ، كقراءة ( أو لمستم النساء ) ، إذ اللمس يطلق على الجس والمس.[5]

ط. ما يكون حجةً لقول بعض أهل العربية ، كقراءة و ( الارحام )[6] بالخفض،

---

١- يعني في سورة الجمعة الآية ٩ ( يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله..) وقرأ عمر وابن مسعود ( فامضوا ) وقال ابن مسعود : لو قرأتها ( فاسعوا ) لسعيت حتى يسقط ردائي، وانظر طرق قراءتهما بذلك في جامع البيان للطبري جـ ٢٨ ص ١٠٠ – ١٠١.

٢- وقد ذكر ابن العربي للسعي ثلاث معان: النية قاله الحسن، العمل وهو قول الجمهور، السعي على الأقدام ، قال: ويحتمل ظاهره رابعاً وهو الجري والاشتداد وهو الذي أنكره الصحابة..وقرأها عمر ( فامضوا ) فرارا عن ظن الجري والاشتداد الذي يدل عليه الظاهر .» انظر أحكام القرآن لأن العربي القسم الرابع ص ١٧٩٢-١٧٩٣. وحَمَل السعي في الآية على العمل لا غير الإمامُ الشافعي واستدل لذلك بكثير من الآيات . انظر أحكام القرآن للشافعي ص ٩٣-٩٤.

٣- يعني في قوله تعالى في سورة القارعة الآية ٣ ( وتكون الجبال كالعهن المنفوش) وقراءة ( كالصوف ) أخرجها الإمام البخاري في صحيحه جـ١٠ بشرح ابن حجر ص ٣٥٨ من قراءة ابن مسعود.

٤- سورة الإنسان الآية ٢٠ ( وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكا كبيراً...).

٥- سيأتي الحديث عن ذلك ، وقد أشرنا إلى شيء منه في تفريق السيوطي بين ( لامستم ) و ( لمستم ) .

٦- من قوله تعالى في سورة النساء الآية ١ ( واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام) وسيأتي تغليظ بعض النحويين والمفسرين لحمزة في قراءته ( والارحام ) بالخفض.

(وليجزى قوما) [١] على ما لم يسم فاعله مع النصب.[٢] [٣]

وقد أضاف السيوطي في الإتقان فوائد أخرى معنوية لتعدد القراءات، وتعود إلى عظم الأجر في ضبط قراءات القرآن، وإظهار سر الله سبحانه في كتابه، مع المبالغة في إعجازه بإيجازه، إذ تنوع القراءات، بمنزلة تعدد الآيات. قال:

«ولو جعلت دلالة كل لفظ آية على حدة لم يخفَ ما كان فيه من التطويل، ولهذا كان ( وارجلكم) منزلا لغسل الرجل، والمسح على الخف، واللفظ واحد، لكن باختلاف إعرابه)».[٤]

وبعد: فهذه صورة عن القمة البيانية العظيمة التي يوفرها اختلاف القراءات ورعاية الوجوه المعنوية التي تتنزل عليها، هي ثروة هائلة لا ينبغي أن يغض الطرف عنها المفسر المثالي الذي يسعى إلى فهم القرآن الكريم، والوصول إلى اكتشاف مقاصده ومراميه، واستنباط أحكامه ومغازيه، وإدراك ما في أساليبه من مظاهر الفصاحة والبلاغة والإيجاز والإعجاز.

وسوف نرى في الباب التالي بحول الله آثار القراءات، وما أثارته من قضايا معنوية ولغوية ونحوية في كتب التفسير، وماذا استفادت منها أنواع التفسير من نقلية ولغوية ومذهبية.

---

١- من قوله تعالى في سورة الجاثية الآية ١٤ ( قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما كانوا يكسبون).

٢- قرأ الجمهور ( ليجزي) بالبناء للمعلوم، وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني ( ليجزى قوما) بالبناء للمفعول مع نصب ( قوما) . قال ابن الجزري : وكذا قراءة شيبة وجاءت أيضاً عن عاصم، وهذه القراءة حجة على إقامة الجار والمجرور وهو ( بما) مع وجود المفعول به الصريح، وهو ( قوما) مقام الفاعل كما ذهب إليه الكوفيون وغيرهم..»

٣- النشر في القراءات العشر جـ ١ ص ٢٨-٢٩ ، وانظر ذلك مبسوطاً في مناهل العرفان جـ١ ص ١٣٩ ١٤٢ للشيخ محمد بن عبد العظيم الزرقاني.

٤- الإتقان جـ ١ ص ٢٢٧.

# الباب الخامس

# الموازنة بين القراءات عند المفسرين بين الاتجاه النقلي والمذهب اللغوي والنحوي

**ويشتمل على مايلي:**

- **الفصل الأول:**
  القراءات والتفسير بالمأثور.
- **الفصل الثاني:**
  الاتجاه اللغوي في التفسير
  وموقف علمائه من القراءات.
- **الفصل الثالث:**
  أثر الخلاف بين النحويين في الموازنة بين القراءات
  عند المفسرين.
- **الفصل الرابع:**
  الموازنة بين القراءات في ضوء التراث اللغوي
  عند الطبري والزمخشري في التفسير.

# الفصل الأول

## القراءات والتفسير بالمأثور

يراد بالتفسير بالمأثور : «ماجاء في القرآن أو السنة أو كلام الصحابة بياناً لمراد الله تعالى من كتابه.[1] ولفظ « مأثور» مأخوذٌ من أثر الحديث ورواه من طريق الأثر».[2] وفي التنزيل: ﴿فقال ان هذا إلا سحر يؤثر﴾[3] قال الحافظ ابن كثير أي: «هذا سحرٌ ينقله محمدٌ عن غيره».[4]

وأعلى مراتب التفسير بالمأثور: تفسير القرآن بالقرآن، فما أُجمِل في مكان، فإنه قد فسر في موضعٍ آخر، وما اختصر في مكان، فقد بسط في موضع آخر».[5]

والمرتبة الثانية منه: تفسير القرآن بالسنة، لما ورد في حديث النبي ﷺ من قوله : «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه».[6]

وقد نقل القرطبي عن الإمام الخطابي أنه قال في تفسير هذا الحديث:

«كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ، ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك».[7]

ومن أمثلته المشهورة تفسيره عليه السلام للفظ قوة في قوله تعالى : ﴿وأعدوا لهم

---

١- هذا تعريف محمد بن عبد العظيم الزرقاني في مناهل العرفان جـ١ ص ٤٨٠.
٢- انظر مادة : «أثر» في مفردات الراغب الأصفهاني ص ٥ ع ١.
٣- سورة المدثر الآية ٢٤.
٤- تفسير ابن كثير جـ٧ ص ١٥٧.
٥- مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٢٢.
٦- رواه أبو داود في سننه جـ٢ ص ٥٠٥.
٧- انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ١ ص ٣٢- ٣٣.

ما استطعتم من قوة﴾[1] فقال : «ألا إن القوة : الرمي، ألا إن القوة: الرمي».[2]

وبهذا المعنى تدخل القراءات الثابتة عن رسول الله ﷺ في التفسير بالمأثور ، لأنها منزلةٌ من عند الله ، داخلةٌ في البيان الذي علّمه الله لرسوله، ولذلك جاء في الأثر : القراءة سنة، فاقرأوا كما تجدونه.»[3]

## قال الحافظ أبو شامة :[4]

«وهذه السنة التي أشاروا إليها هي: ما ثبت عن رسول الله ﷺ نصاً، أنه قرأه أو أذن فيه، على ما صح عنه : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف».[5]

ومعنى ذلك أن القراءات تفاسير ضمنية للقرآن ، موحى بها ، مأخوذةٌ عن رسول الله ﷺ مما قرأ به أو أذن فيه، فعلى كلا الحالين هي داخلةٌ إما في تفسير القرآن بالقرآن ، على اعتبار أنها قرآنٌ منزل، وإما في تفسير القرآن بالسنة على اعتبارها بياناً من رسول الله لما أنزل عليه.

وإلى هذا المعنى لمح الطبري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ، وقل رب زدني علما.﴾ [6] قال:

معناه : « ولاتعجل يا محمد بالقرآن ، فتُقرئه أصحابك ، أو تقرأه عليهم، من قبل أن يوحى إليك بيان معانيه ، وقيل : «لاتتله على أحد ولا تُمّلِه عليه ، حتى نبينه لك».[7]

١- سورة الأنفال الآية ٦٠.

٢- قال ابن كثير في تفسيره جـ ٣ ص ٣٢٩ معقباً على هذا الحديث:: هذا الحديث رواه مسلم عن هارون بن معروف ، وأبو داود عن سعيد بن منصور، وابن ماجة عن يونس بن عبد الاعلى، ثلاثتهم عن عبد الله بن وهب ، وله طرق أخرى عن عقبة بن عامر».

٣- تقدم.

٤- تقدمت ترجمته.

٥- إبراز المعاني من حرز الأماني لشهاب الدين أبي شامة ص ٤.

٦- سورة طه الآية ١١٤.

٧- جامع البيان للطبري جـ ١٦ ص ٢١٩ ببعض الاختصار.

والمرتبة الثالثة من مراتب التفسير بالمأثور: التفسير بأقوال الصحابة، وذلك للمكانة التي لهم من شهود الوحي ،ومعرفتهم بأسباب النزول ، ورسوخ أقدامهم في العلم والفهم عن رسول الله ﷺ ، وسؤالهم له عادةً فيما كان يعرض لهم في التنزيل من غموضٍ أو إجمال . وبهذا تدخل قراءاتهم أيضاً في التفسير المأثور، بل هي أكثر من التفسير وأقوى كما ذكر أبو عبيد فيما قدمنا.

وأدنى مراتب هذا النوع من التفسير: التفسير بأقوال التابعين، لاحتمال أخذهم تلك الاقوال عن بعض الصحابة.

وقد اقترن التفسير بالقراءات منذ أوائل نشأتهما، وكان ذلك منطلقا من مجلس النبي عليه السلام، وفي حديث عثمان وأبيّ وابن مسعود رضي الله عنهم: «أن رسول الله ﷺ كان يُقرئهم العشر من الآيات، فلا يجاوزونها إلى عشرٍ أخرى، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا : فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً».[١]

ولهذا الأسلوب المتريث الحكيم في التلقي والتلقين أثر أن بعض الصحابة لبث زماناً طويلاً في حفظ بعض سور القرآن، فروي أن عمر لبث في سورة البقرة اثنتي عشرة سنة، فلما ختمها نحر جزورا.»[٢]

وروى مالك في الموطأ «أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها»[٣]. وما ذلك إلا لتلقيهم القرآن بقراءته مفسرةً بما أُثر فيها عن الرسول ﷺ ، ولذلك قال أنس بن مالك : «كان الرجل إذا حفظ البقرة و آل عمران جل في أعيننا».[٤]

---

١- هذا لفظ ابن جرير في تفسيره جـ١ ص ٣٥-٣٦ وفي تفسير القرطبي نقلاً عن أبي عمرو الداني من كتاب البيان له ذكر الحديث بتغيير في الألفاظ. انظر الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص ٣٤.

٢- قال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص ٣٤ : رواه الخطيب البغدادي عن ابن عمر.

٣- الموطأ جـ١ ص ٣٥-٣٦.

٤- انظر مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٥.

وهذا المعنى هو الذي قصده ابن عباس في قوله :

«سلوني عن سورة النساء ، فإني قرأت القرآن، وأنا صغير».(١)

فواضحٌ من قوله أنه تلقى القرآن مفسرا، وإلا فليس كل من تلقى القرآن وهو صغير، في إمكانه أن يفسره، وإنما قصده أنه سمع هذه السورة مفسرةً من رسول الله ﷺ.

وقد استمر هذا النهج في مدارس القراءات ، فكان أئمة الإقراء بها، هم في الوقت ذاته حملة التفسير. وأهم من نقلت لنا أقوالهم في ذلك من الصحابة عبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت وأبيّ بن كعب وعائشة وعبد الله بن عباس، وكان هؤلاء في الوقت ذاته أئمة القراءة والفتيا والقضاء(٢) وأهم من كثرت الرواية عنهم وروي عنهم التفسير في جميع القرآن: عبد الله بن مسعود، وأبيّ ، وابن عباس.

فأما ابن مسعود فقد رأينا صورةً عن مدرسته في القراءات بالكوفة، ورأينا أسماء من التف عليه من الأتباع الذين قال عنهم سعيد بن جبير : كانوا سرج هذه القرية (٣) يعني الكوفة، وقد روى مسروق بن الأجدع صورةً عن امتزاج القراءة بالتفسير في هذه المدرسة ، فقال:

«كان عبد الله يقرأ علينا السورة ، ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار».(٤)

وماذاك إلا لحرصه على تبليغهم ما عنده في القرآن من العلم، وهو القائل: «والذي لا إله غيره، مانزلت آيةٌ في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت؟ وأين نزلت؟ ولو أعلمُ مكان أحدٍ أعلمَ بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته».(٥)

١- أخرجه الحاكم في المستدرك جـ٢ ص ٣٠١ بسنده عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس.
٢- انظر الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي للشيخ محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي جـ١ ص ١٢٢-١٢٥.
٣- طبقات ابن سعد جـ٦ ص ١٠.
٤- جامع البيان للطبري جـ١ ص ٣٦.
٥- نفس المصدر والجزء والصفحة . ورواه الإمام مسلم في صحيحه جـ١٦ ص ١٧ بسنده عن مسروق عنه. وفيه ( أعلمُ حيث نزلت وما من آيةٍ إلا أنا أعلمُ فيما أنزلت..).

ومما زاد في أهمية الرواية عن ابن مسعود في هذا المجال، أن قراءته كان كثيرٌ من العلماء يعتبرونها نوعاً من التفسير، وقد قدمنا قول مجاهد بن جبر[1]:

«كنا لاندري ما الزخرف؟ حتى رأيتها في قراءة ابن مسعود (أو يكون لك بيت من ذهب) وروى الإمام الترمذي بسنده عن الأعمش عن مجاهد أنه قال:

«لو كنت قرأتُ قراءة ابن مسعود ، لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت».[2]

ولمكان قراءته في الكوفة كانت مدرستها الفقهية «الحنفية» هي الوحيدة من بين مدارس الفقه التي تحتج بالقراءة الشاذة في الأحكام كما سيأتي.

وأما أُبيّ بن كعب فقد ذكرنا مكانته في هذا الشأن في مدرسته المدنية في القراءات ، وقد كانت الرحلة إليه من الآفاق لأخذ القراءة والتفسير، وقد روى تفسيره للقرآن كله تلميذهُ أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي[3] كما أخذ عنه القراءة ، وكان أبو العالية يقول:

«كنا نسمع الرواية بالبصرة عن أصحاب رسول الله ﷺ، فلم نرض حتى ركبنا إلى المدينة فسمعناها من أفواههم».[4]

---

١- أبو الحجاج مجاهد بن جبر المخزومي مولاهم المكي صاحب التفسير المشهور والذي طبع اخيرا في مجلدين، ولد سنة ٢١ ولزم ابن عباس مدة وقرأ عليه القرآن وكتب عنه التفسير وروى عن سعد وعائشة وابي هريرة ، وأصبح بعد ابن عباس شيخ المكيين في علوم القراءة والتفسير ، وكان يقرأ القرآن على خمسة احرف. توفي سنة ١٠٤ على المشهور ، ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ٤٦٦ – تذكرة الحفاظ جـ ١ ص ٩٢. طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٩- غاية النهاية جـ ٢ ص ٤١-٤٢ ترجمة ٢٦٥٩- ومرآة الجنان جـ١/ ٢١٤ وطبقات المفسرين للداودي جـ ٢ ص ٣٠٥-٣٠٦.

٢- جامع الترمذي بشرح ابن العربي جـ١١ ص ٦٨.

٣- قال السيوطي في الإتقان جـ ٤ ص ٢٠٩-٢١٠: « وأما أبي بن كعب فعنه نسخة كبيرة يرويها أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عنه، وهذا إسناد صحيح ، وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم منها كثيراً، وكذا الحاكم في مستدركه ، واحمد في مسنده».

٤- طبقات ابن سعد جـ٧ ص ١١٢.

وقد أُثِرت عن أُبيّ قراءاتٌ خاصةٌ مبنيةٌ على تأويلاتٍ كان يقرأ بها، ولذلك كان مصحفه من بين المصاحف التي أُحرقت زمن عثمان.[1] وقد رأينا كيف كان عمر يراجعه في طائفةٍ من الآي كان يقرأ بها، وهي مما نسخ في التلاوة من القرآن.[2]

وقد أخذ التفسير عن أُبيّ جماعةٌ منهم ابن عباس الذي انتهى إليه العلم بالتفسير، وسار به شوطاً بعيداً، وكان بداية النهضة الكبرى التي استمرت طيلة القرنين التاليين من بعد، وقد جدد مدرسة أُبيّ في المدينة في التفسير زيد بن أسلم[3] الذي تخرج في حلقته العلمية جماعةٌ من علماء المائة الثانية.

وأما ابن عباس فقد كانت مدرسته التفسيرية في مكة تمثل القمة التي انتهى إليها التفسير، وهي أولى المدارس التي بدأ فيها تدوين هذا العلم، وقد كان ابن عباس قد جمع في صدره علوم كبار الصحابة كعمر وأُبيّ وزيد وابن مسعود، وكان نبوغه المبكر قد لفت إليه الأنظار، حتى إن عمر كان يقدمه على مشيخة قريش ، وكان يحبه ويدنيه، ويشاوره ويستفتيه ، وروي عن ابن مسعود: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس لو أدرك أسناننا ما عاشره منا رجل».[4]

وقد قدمنا قراءته على أُبيّ وزيد بن ثابت ، وكان يقول: «قراءتي قراءة زيد، وأنا آخذ بضعة عشر حرفاً من قراءة ابن مسعود.»[5]

وقد جلس للإقراء في مكة زماناً بعد انتقال الحكم إلى الأمويين، وكثر الإقبال

١- ذكره الحجوي في الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي جـ١ ص ١٢٧.

٢- انظر الفصل الثاني من الباب الثاني.

٣- زيد بن أسلم العدوي الإمام أبو عبد الله العمري المدني الفقيه مولى عبد الله بن عمر روى عنه وعن أنس وجابر وسلمة بن الأكوع ، وعن عطاء بن يسار وعلي بن الحسين وجماعة، قال أبو حازم الأعرج: لقد رأيتنا في مجلس زيد بن أسلم أربعين فقيهاً ، مات سنة ١٣٦. انظر طبقات الداودي جـ١ ص ١٧٦ ترجمة ١٧٥.

٤- الاستيعاب ترجمة ابن عباس جـ٢ ص ٣٤٢-٣٤٩.

٥- المصاحف لابن أبي داود ص ٥٥.

عليه، حتى نفس عليه مقامه في مكة عبد الله بن الزبير بعد أن دعا لنفسه، فأخرجه منها، فسكن الطائف، فكان الناس يتزاحمون حول بيته بها حتى يضيق بهم الطريق[1] وكان قد عمي في آخر عمره ، فجلس للناس وتفرغ للإقراء إلى أن توفي بالطائف سنة ٦٨.

أهم الذين أخذوا عنه القراءة والتفسير : مجاهد بن جبر وقد روي أنه عرض عليه القرآن ٣٠ مرة [2]، وعرضه عليه بالتفسير ثلاث مرات [3]. وتفسيره من رواية مجاهد رواه عن مجاهد حميد بن قيس.[4]

ومن أهمهم عكرمة مولاه [5] وسعيد بن جبير، وقد نسب إليه أول كتاب ظهر في التفسير[6]. وإن كان قد اشتهر أن ابن جريج [7]هو أول من صنف فيه.[8]

وفي الإتقان للسيوطي بيان هام لأصح الطرق عنه في التفسير وأوسطها وأوهاها.[9]

---

١- انظر خبراً طريفاً في مقدار تزاحم الناس عليه في حلية الأولياء لأبي نعيم جـ١ ص ٣٢٠-٣٢١.

٢- انظر مرآة الجنان لليافعي جـ١ ص ٢١٤. وطبقات المفسرين للداودي جـ٢ ص ٣٠٦ ترجمة ٦١٧.

٣- جامع البيان لابن جرير جـ١ ص ٤٠.

٤- انظر طبقات المفسرين للداودي في ترجمة ابن عباس جـ١ ص ٢٣٢-٢٣٣ ترجمة ٢٢٤.

٥- عكرمة بن عبد الله البربري مولى ابن عباس روى عنه وعن عائشة وأبي هريرة وجماعة من الصحابة، طلب العلم أربعين سنة، وكان ابن عباس يضع الكبل في رجله على تعليم القرآن والسنن. توفي سنة ١٠٤. ترجمته في طبقات ابن سعد جـ٥ ص ٢٨٧- طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٠- طبقات المفسرين للداودي جـ١ ص ٣٨٠ ترجمة٣٣١- غاية النهاية جـ١ ص ٥١٥ -مرآة الجنان جـ١ ص ٢٢٥-٢٢٦.

٦- ذكر الدكتور عبد الله محمود شحاتة في كتابه علوم التفسير المنشور في سلسلة « المكتبة الثقافية» ص ٣٢ أن أول كتاب ظهر في التفسير لسعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٥.

٧- عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومي فقيه الحرم المكي قال الذهبي في تذكرة الحفاظ جـ١ ص ١٧١: «هو أول من ألف الكتب في الحجاز». وفي التحرير والتنوير جـ١ ص ٩ أنه أول من صنف التفسير. توفي سنة ١٤٨. انظر ترجمته في طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧١- غاية النهاية جـ١ ص ٤٤٩- طبقات المفسرين للداودي جـ١ ص ٣٥٢-٣٥٣ ترجمة ٣٠٦- وفيات الأعيان ١٥١/٣ رقم ٧٥.

٨- انظر ماقدمنا في ترجمته . وقد ذكر الداودي في ترجمة مالك بن أنس من طبقاته جـ٢ ص ٢٩٩ أن مالكاً أول من صنف تفسير القرآن بالإسناد على طريقة الموطأ وتبعه الائمة ، فقلّ حافظ إلا وله تفسير مسند، قال: وله التفسير المسند ، فيحتمل أن يكون من تأليفه ، ويحتمل أن يكون علّق عنه».

٩- انظر الإتقان جـ ٤ ص ٢٠٧-٢٠٩.

وذكر العلامة ابن حزم [1] في كتاب الإحكام « أن أبا بكر محمد بن موسى بن يعقوب بن أمير المؤمنين المأمون العباسي، جمع فتيا عبد الله بن عباس في عشرين كتابا». [2]

وليس غرضي هنا أن أتتبع جهود كل مدرسة في ميدان التفسير بالمأثور ، ولا الأطوار التي مر منها حتى استوى عوده في التآليف الكبرى التي عرفها القرن الثالث، والتي بلغت أوج النضج عند ابن جرير الطبري وإنما أردت أن أعطي صورةً عن التفسير بالمأثور وأهم أقطابه الذين كان لهم الفضل الكبير والأثر البعيد في رسم اتجاهه ، وسأخلص من ذلك إلى ما استفاده هذا النوع من التفسير من تعدد القراءات.

لقد استفاد التفسير من ارتباطه بالقراءات نشأةً وتطوراً، استفادةً مثلى وسعت من ثروته المعنوية، ولكي يقدر المرء مقدار هذه الاستفادة ، يكفي أن يتصفح تفسيراً من التفاسير التي تعنى باختلاف القراءات كتفسير الطبري أو أبي حيان، ليرى ذلك الثراء الذي وفّره هذا الاختلاف لمعاني القرآن ، ومابني عليه من وجوه ومذاهب في التأويل والتخريج لدلالات القرآن ومقاصده ومعانيه.

كانت رعاية قراء الصحابة للمعاني التي تتنزل عليها القراءات ، هي التي تتحكم في نوع القراءة التي يختارون في التلاوة ، وقد رأينا في أسباب الخلاف ملامح من قراءتهم بالمعاني، وهو ما أطلق عليه عند طائفة من المفسرين الأندلسيين (قراءة على التفسير).

---

١- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الفارسي الأصل القرطبي الظاهري المذهب صاحب المؤلفات النفيسة في فنون كثيرة، منها في الفرق « الفصل في الملل والأهواء والنحل» وفي الفقه «المحلى» ، وهو من أجمع الكتب للفقه والآثار ومناقشة المذاهب، ومنها «الإحكام في أصول الأحكام» ومنها « طوق الحمامة» في الأدب الوجداني. توفي سنة ٤٥٦ . ترجم له في الصلة لأبن بشكوال جـ٢ ص ٣٩٥ ترجمة ٨٩١- شذرات الذهب جـ٣ ص ٢٩٩- وفيات الأعيان جـ٣ ص ٣٢٥ ترجمة ٤٤٨.

٢- الإحكام في أصول الأحكام جـ٢ ص ٦٦٦.

قال أبو بكر بن العربي بعد أن ذكر قراءة عمر وابن مسعود وابن شهاب (فامضوا إلى ذكر الله) قال: «هو كله تفسيرٌ منهم لا قراءة قرآنٍ منزل، وجائزٌ قراءة القرآن بالتفسير في معرض التفسير.»[1]

وقال في قوله تعالى في قصة سليمان: (إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي..)[2] يعني: الخيل، و سماها خيراً، لأنها من جملة المال الذي هو خير بتسمية الشارع له بذلك، ولذلك قرأها ابن مسعود: (إني أحببت حب الخيل)، بالتصريح بالتفسير».[3]

وقال في مكان آخر عند قوله تعالى: ﴿ان شجرة الزقوم طعام الاثيم﴾ [4] بعد أن ذكر إقراء ابن مسعود للرجل الذي لم يحسن قراءة ( الأثيم ) فكان يقول (طعام اليتيم) فقال له ابن مسعود : طعام الفاجر».[5] قال:

وقال ابن شعبان:[6]

«لم يختلف قول مالك: أنه لا يصلى بقراءة ابن مسعود، فإنه من صلى بها أعاد صلاته، لأنه كان يقرأ بالتفسير.»[7]

وقال أبو عبد الله القرطبي في قوله تعالى: ﴿وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين﴾.[8]

---

١- أحكام القرآن لابن العربي القسم الرابع ص ١٧٩٢-١٧٩٣.
٢- سورة ص الآية ٣٢.
٣- أحكام القرآن القسم الرابع ص ١٦٣٦.
٤- سورة الدخان الآية ٤٣-٤٤.
٥- نقله ابن وهب في جامعه مما أخبره به مالك. انظر البرهان للزركشي جـ ١ ص ٢٢٢.
٦- أبو إسحاق محمد بن القاسم بن شعبان ، قال السيوطي: كان رأس فقهاء المالكية بمصر، وله تصانيف وأقوال في مذهب مالك ، مات عام ٣٥٥. انظر حسن المحاضرة جـ١ ص ١٢٦ وانظر طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٥٥.
٧- أحكام القرآن القسم الرابع ص ١٦٧٩.
٨- سورة البقرة الآية ١٨٤.

وقرئ (يطّوّقونه) وليست من القرآن، خلافاً لمن أثبتها قرآنا، وإنما هي «قراءةٌ على التفسير» [1] وقال أبو حيان في قوله تعالى: ﴿ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم﴾ [2]: قرأ ابن مسعود وابن عباس: (ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج) [3] قال: « والأولى جعل هذا تفسيرا، لأنه مخالف لسواد المصحف». [4]

وقد ورد عن بعض الصحابة بعض النقول الواضحة في هذا المعنى ، مما يسمى في علم المصطلح عند أهل الحديث بـ (الإدراج) [5] ، مثاله ما ذكره ابن كثير في تفسيره من رواية الحافظ عبد الرزاق [6] عن معمر [7] عن قتادة قال: في مصحف أُبيّ:

«فتحرير رقبة مؤمنة – لا يجزئ فيها صبي» وهذا في كفارة قتل الخطأ. [8] [9]

فواضح أن قوله: «لا يجزئُ فيها صبي» إنما هو إدراج على سبيل البيان، وقد ينقله الرواة على أنه قراءةٌ له.

ومثل هذا ما أخرجه ابن حجر في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية

---

١- الجامع لأحكام القرآن جـ٢ ص ٢٦٦-٢٦٧.

٢- سورة البقرة الآية ١٩٨.

٣- في مختصر القراءات الشاذة من كتاب البديع لابن خالويه ص ١٢: قرأ ( في مواسم الحج) ابن عباس وعكرمة وعمرو بن عبيد.

٤- البحر المحيط جـ٢ ص ٩٤.

٥- الإدراج في الحديث : أن تزاد لفظةٌ في متن الحديث من كلام الراوي ، فيحسبها من يسمعها مرفوعةً في الحديث فيرويها كذلك . « الباعث الحثيث لابن كثير ص ٧٣ النوع العشرون.

٦- تقدمت ترجمته.

٧- معمر بن راشد مولى الأزد من أهل البصرة وانتقل إلى اليمن، ومن أشهر الآخذين عنه عبد الرزاق بن همام الصنعاني ، توفي سنة ١٥٣ . انظر طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ٥٤٦ . وفي فهرست ابن النديم ص ١٤٤ أنه من أهل الكوفة، وذكر له تأليفاً في «المغازي».

٨- أعني في قوله تعالى في سورة النساء الآية ٩٢ (ومن قتل مؤمنا خطئا فتحرير رقبة مؤمنة..).

٩- انظر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٥٥.

عن محمد بن سعد بن مالك [1] قال: «كان أبو الدرداء إذا قرأ هذه الآية (ولمن خاف مقام ربه جنتان) [2] قال «وإن زنى و إن سرق»، قال «هكذا أقرأنيها رسول الله ﷺ». [3]

فلا يخفى أن هذا تفسير، إذ لايستقيم في القراءة مع ما بُنيت عليه سورة الرحمن من الفواصل القائمة على الألف والنون في أواخر الآي.

فمثل هذه النقول تؤكد لنا على القيمة البيانية البالغة التي أثْرت بها هذه القراءات التفسيرية في معاني القراءات المتواترة ، ولذلك اهتم المفسرون برواياتها، لأنها كما قال ابن عطية «ليست بقرآن ولا يعمل بها على أنها منه، وأحسن محاملها أن تكون بيان تأويل مذهب من نسبت إليه». [4]

وقد استفاد التفسير بالمأثور استفادة قيمة من التوجيهات المعنوية التي كان كثير من الصحابة يقرأون بها ويرجحون على أساسها بين وجوه القراءات ، وهذه أمثلة من ذلك:

أ. ما قالوه في قراءة قوله تعالى ﴿إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم: هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء﴾. [5]

قال ابن جرير: « قرأ ذلك جماعة من الصحابة والتابعين ( هل تستطيع) بالتاء ( ربك) بالنصب، على معنى: هل تستطيع أن تسأل ربك ؟ أو هل تستطيع أن تدعو ربك؟ وقالوا: لم يكن الحواريون شاكّين أن الله تعالى ذكره قادر أن ينزل عليهم ذلك، وإنما قالوا لعيسى : هل تستطيع أنت ذلك؟ ثم ذكر بسنده

---

١- محمد بن سعد بن أبي وقاص قال ابن سعد في الطبقات جـ ٥ ص ١٦٧: سمع من عثمان ، و كان ثقة له أحاديث ليست بالكثيرة ، وكان قد خرج مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وشهد دير الجماجم ثم أتى به الحجاج بن يوسف فقتله»».

٢- سورة الرحمن الآية ٤٦.

٣- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية جـ٣ ص ٣٨٢.

٤- المحرر الوجيز جـ١ ص ٣٢.

٥- سورة المائدة الآية ١١٢.

عن عائشة قالت : «كان الحواريون لا يشكّون أن الله قادر أن ينزل عليهم مائدة ولكن قالوا لعيسى : ( هل تستطيع ربك )، وذكر بسنده عن ابن جبير أنه قرأها بالتاء، ومع هذا فقد اختار قراءة ( هل يستطيع) بالياء وقال : هي أولى القراءتين عندنا بالصواب.[١]

فواضحٌ أن مقتضى الظاهر من القراءة المتواترة بالياء هو موهم لشك الحواريين ، ولذلك عدلوا عن القراءة بالياء إلى غيرها. قال ابن عطية في تفسيره لهذه الآية:

قرأ جمهور الناس (هل يستطيع ربك) بالياء ورفع (ربك)، وهي قراءة السبعة حاشا الكسائي [٢]وهذا ليس لأنهم شكّوا في قدرة الله على هذا الأمر، لكنه بمعنى : هل يفعل تعالى هذا؟ وهل تقع منه إجابة إليه؟ ثم قال:

«أما إن في اللفظة بشاعة [٣]بسببها قال عيسى : ( اتقوا الله إن كنتم مؤمنين )، وبسببها مال فريق من الصحابة وغيرهم إلى غير هذه القراءة ، فقرأ علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وابن عباس وسعيد بن جبير: (هل تستطيع ربك) بالتاء ونصب الباء من (ربك) وقال بعد أن ذكر قول عائشة السابق:

«نزهتهم عائشة عن بشاعة اللفظ، وإلا فليس يلزمهم منه جهلٌ بالله تعالى على ما قد تبين آنفا».[٤]

ب. ما قالوه في قوله تعالى : ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا..﴾[٥]

---

١- جامع البيان للطبري جـ٧ ص ١٢٩.

٢- انظر توجيه القراءتين في الحجة لابن خالويه ص ١٣٥ وإتحاف فضلاء البشر ص ٢٤٣.

٣- يعني في لفظ ( هل يستطيع ربك).

٤- المحرر الوجيز جـ ٥ ص ٢٣٤.

٥- سورة يوسف الآية قبل الأخيرة منها.

أخرج الإمام البخاري وغيره بسنده عن عروة [١] عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾ قال : أكذبوا أم كذبوا؟ قالت عائشة: (كُذِّبوا) [٢]، قلت: «فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم ، فما هو بالظن؟ قالت: أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك، فقلت (وظنوا أنهم قد كُذِبوا) [٣] قالت : معاذ الله، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ، قلت : فما هذه الآية ؟ قالت:

«هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر النصر، (حتى إذا استيأس الرسل) ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك».[٤]

فهذا التفسير جار على القراءة المشهورة (وظنوا أنهم قد كُذِّبوا) بضم الكاف وتشديد الذال مع كسرها ، والضمير في (ظنوا) عائدٌ في تفسير عائشة على (الرسل).

وفي هذا اللفظ قراءتان أخريان (كُذِبوا) بضم الكاف وتخفيف الذال على أن الضمير للرسل، وقد روى هذه القراءة ابن قتيبه بسنده عن حجاج [٥] عن ابن جريج عن ابن عباس وقال في تأويلها:

«كانوا بشرا» قال ابن قتيبة: «يذهب إلى أنهم ضعفوا، فظنوا أنهم قد

---

١- عروة بن الزبير بن العوام الأسدي من فقهاء المدينة السبعة أبناء الصحابة ، ولد سنة ٢٦ ومات سنة ٩٤. انظر ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ١٧٨-١٨٢- طبقات الفقهاء للشيرازي ص٥٨-٥٩ غاية النهاية جـ١ ص ٥١١ وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٥٥ ترجمة ٤١٥.

٢- بضم الكاف وتشديد الذال وكسرها.

٣- بضم الكاف وكسر الذال مخففة.

٤- صحيح البخاري بشرح ابن حجر جـ ٩ ص ٣٣٩-٣٤١.

٥- حجاج بن محمد المصيصي الأعور ترمذي الأصل ، روى التفسير عن ابن جريج المكي ، وروى عنه قتيبة بن سعيد ويحيى بن معين ومحمد بن مقاتل وغيرهم ، توفي ببغداد سنة ٢٠٦. انظر ترجمته في غاية النهاية جـ ١ ص ٢٠٣- طبقات المفسرين للداودي جـ١ ص ١٢٨ ترجمة ١٢٥.

أُخلفوا». [١]

ووردت الرواية بصورةٍ أخرى في هذه القراءة عند ابن كثير بالسند عن ابن أبي مليكة[٢] أن ابن عباس قرأها (كُذِبوا) مخففة مضمومة الكاف ، وقال: «كانوا بشرا، ثم تلا (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب) . [٣]

وأما القراءة الثالثة فهي : (كَذَبوا ) بفتح الكاف والذال وتخفيفها ، وهي مرويةٌ عن حجاج عن ابن جريج عن مجاهد ، ذكرها ابن قتيبة وشرحها بقوله:

«يريد : حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم ، فظن قومهم أن الرسل قد كذبوا فيما بلغوا عن الله عز وجل. [٤]» فالضمير عى هذه القراءة في قوله (وظنوا) عائدٌ على القوم لا على الرسل.

وهذه الرواية بقراءة ( كذبوا ) بالفتح والتخفيف واردة عن ابن عباس أيضاً كما ذكرها ابن كثير. [٥]

وهي قراءة سعيد بن جبير كما أخرج الطبري في تفسيره بسنده قال:

« سأل فتى من قريش سعيد بن جبير قال : يا أبا عبد الله ، كيف هذا الحرف؟ فإني إذا أتيت عليه، تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة : ﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا﴾، قال نعم: «حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن

---

١- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٣١٨.

٢ عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة المكي من أجلّ أصحاب ابن عباس كان والياً للقضاء على الطائف لابن الزبير ، ومات سنة ١١٩ . ترجمته في طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٦٩-٧٠ ومرآة الجنان جـ١ ص ٢٥٠- غاية النهاية جـ١ ص ٤٣٠.

٣- تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٦١.

٤- تأويل مشكل القرآن ص ٣١٧-٣١٨.

٥- تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٦٢.

يصدقوهم، و ظن المرسل إليهم أن الرسل قد كَذَبوا» [1] فقال الضحاك بن مزاحم[2]: ما رأيت كاليوم رجلاً يدعى إلى علم فيتلكّأ، لو رحلت إلى اليمن في هذه كان قليلا». [3]

وروى ابن جرير من وجهٍ آخر أن مسلم بن يسار[4] سأل ابن جبير عنها، فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعيد فاعتنقه، وقال: فرج الله عنك كما فرجت عنا». [5]

**قال ابن قتيبة تعليقاً على هذه الروايات المختلفة في هذا الحرف:**

«هذه مذاهب مختلفة، والألفاظ تحتملها كلها، ولا نعلم ما أراد الله عز وجل، غير أن أحسنها في الظاهر، وأولاها بأنبياء الله صلوات الله عليهم: ما قالت أم المؤمنين عائشة». [6]

وهذا الوجه هو الذي عليه قراءتنا : ﴿وظنوا أنهم قد كُذِّبوا﴾ بضم الكاف وكسر الذال مع التشديد، وقرأ بضمها مع الكسر والتخفيف عاصم وحمزة والكسائي والأعمش و أبوجعفر المدني». [7]

واختار ابن جرير القراءة الأولى وارتضى تأويل عائشة لها ، وذكر قراءة

---

١- بفتح الكاف وتخفيف الذال وفتحها.

٢- الضحاك بن مزاحم البلخي ، كان صاحب كُتّاب ، يعلم الصبيان ، وذكر أنه كان في كتّابه ٣٠٠٠ صبي، فكان يطوف عليهم على حمار، روى التفسير عن سعيد بن جبير وروايته عن ابن عباس منقطعة قال ابن سعد : لم يلق ابن عباس وإنما لقي سعيد بن جبير بالري، فأخذ عنه التفسير . مات سنة ١٠٥ أو بعدها ، ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٣٠١وطبقات المفسرين للداودي جـ ١ ص ٢١٦ ترجمة ٢١١- ومرآة الجنان لليافعي جـ١ ص ٢١٣ وغاية النهاية جـ١ ص ٦٥.

٣- جامع البيان جـ ١٣ ص ٤٧-٤٩.

٤- مسلم بن يسار أبو عثمان مولى الأنصار قال ابن سعد : روى عنه يحيى بن سعيد الأنصاري وغيره من أهل البلد ، وروى عنه أهل مكة أيضاً . انظر طبقات ابن سعد جـ ٥ ص ٣٠٣.

٥- جامع البيان جـ ١٣ ص ٤٩.

٦- تأويل مشكل القرآن ص ٢١٨

٧- انظر إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للدمياطي ص ٢٢١-٢٢٢.

مجاهد ( كذبوا ) بالفتح والتخفيف ثم قال:

«وهذه القراءة لا أستجيز القراءة بها، لإجماع الحجة من قراء الأمصار على خلافها، ولو جاءت القراءة بذلك لاحتمل وجهاً من التأويل، وهو أحسن مما تأوله مجاهد».[1]

فهكذا كانوا يختلفون في القراءة بحسب المعنى الذي تتنزل عليه في التأويل، وكانت لهم في ذلك أنظار وتأويلات، على ضوء المقتضيات المعنوية، ومايتطلبه المقام من توجيه. ولذلك كانوا يردون القارئ إلى الوجه الذي يختارونه، ولو كانت قراءته بالوجه الآخر صحيحة في النقل والمعنى، ومثال ذلك ما ذكره الإمام أبو عمرو الداني في المحكم بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن اناثا..﴾[2] عن ابن عباس أنه قرأ (عباد الرحمن)[3] قال سعيد: فقلت لابن عباس: إن في مصحفي (عند الرحمن)، فقال: امحها واكتبها (عباد الرحمن)».

قال الداني: ألا ترى ابن عباس رحمه الله قد أمر سعيد بن جبير بمحو إحدى القراءتين، وإثبات الثانية مع علمه بصحة القراءتين في ذلك، وأنهما منزّلتان من عند الله تعالى، وأن رسول الله ﷺ قرأ بهما جميعاً، وأقرأ بهما أصحابه، غير أن التي أمره بإثباتها منهما كانت اختياره، إما لكثرة القارئين بها من الصحابة، وإما لشيءٍ صح عنده من النبي ﷺ، أو أمرٍ شاهده من علية الصحابة».[4]

لقد كانوا يختارون ولا ريب في ضوء المقتضيات الشرعية والمعنوية، ولعل ابن

---

١- جامع البيان جـ ١٣ ص ٤٨-٤٩.

٢- سورة الزخرف الآية ١٩.

٣- في النشر جـ ٢ ص ٣٦٨: قرأ ( عند الرحمن) المدنيان ( نافع وابوجعفر) وابن كثير وابن عامر ويعقوب وقرأ باقي العشرة ( عباد) بالباء.

٤- المحكم في نقط المصاحف للداني ص ٢١.

عباس تحاشى القراءة الأولى ههنا لما فيها من معنى المكان والجهة ، و إن كان في القرآن الكريم ما يشهد لها في هذا المعنى[1] ورأى وصف العبودية أليق بالمقام بالنسبة للملائكة ، على وفق قوله تعالى : ﴿بل عباد مكرمون﴾[2]

ومن هذا القبيل اعتراض القاضي شريح [3]على قراءة الضم في قوله تعالى ﴿بل عجبت ويسخرون﴾[4] فقال: ان الله لا يعجب من شيء، وإنما يعجب من لا يعلم. : فقال إبراهيم النخعي: إن شريحاً كان يعجبه علمه، وعبد الله – بن مسعود- أعلم ، وكان يقرأ بالضم».[5]

ومن هذا القبيل عدولهم عن القراءة المشهورة التي تحتمل معنى لا يرونه مراداً منها، ومن أمثلته ما قرأ به أُبيّ في قوله تعالى: ﴿ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا﴾. [6]

فهذه القراءة المتواترة وهي المرسومة في المصحف محتملة لعودة الضمير (هو) إلى إبراهيم، فكان أُبيّ يقرؤها (الله سماكم المسلمين) دفعا لهذا الاحتمال.[7]

ومن ذلك ما وقع من الخلاف في المراد بقوله تعالى ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾[8]

---

١- من ذلك قوله تعالى في سورة فصلت الآية ٣٨: (فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار).

٢- سورة الأنبياء الآية ٢٦

٣- شريح بن الحارث الكندي من كبار التابعين أدرك الجاهلية ، وكان قاضياً لعمر وعثمان وعلي على الكوفة، ولم يزل كذلك حتى توفي سنة ٨٧ وكان من أعلم الناس بأصول القضاء . انظر الاستيعاب جـ٢ ص١٤٦-١٤٧ طبقات ابن سعد جـ٦ ص ١٣١ – وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٦١ ترجمة ٢٩٠.

٤- سورة الصافات أو اليقطين الآية ١٢.

٥- انظر الكشاف للزمخشري جـ ٣ ص ٣٣٧.

٦- سورة الحج الآية الأخيرة منها.

٧- انظر قراءته في مختصر شواذ القراءات من كتاب البديع لابن خالويه ص ٩٧.

٨- سورة الرعد آخر آية منها.

قال الحافظ ابن كثير : « قيل: نزلت في عبد الله بن سلام [1] قاله مجاهد، وهذا القول غريب ، لأن هذه الآية مكية ، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبي ﷺ المدينة قال : والأظهر عندي ما قاله العوفي [2] عن ابن عباس قال: هم اليهود والنصارى.»

«وقال قتادة : منهم ابن سلام وسلمان وتميم الداري». [3]
وقال مجاهد في رواية عنه : هو الله تعالى.»

قال ابن كثير: وكان سعيد بن جبير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام، ويقول: «هي مكية، وكان يقرؤها: (ومن عنده علم الكتاب)، ويقول: من عند الله،»

«وكذا قرأها مجاهد والحسن البصري.» [4]

فلما كانت قراءة الجمهور محتملةً لعودة الضمير إلى بعض المذكورين أولا ، وكان الشائع القول بأنها تعني ابن سلام ، عدل ابن جبير ومجاهد والحسن عن تلك القراءة التي فيها لفظ ( مَن) اسم موصول، إلى التي يصبح فيها حرف جر ، فيكون المعنى منسجماً مع ماقبلها : ( قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب )».

أي: ومن عند الله علم الكتاب.

---

١- عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي الأنصاري من ذرية يوسف عليه السلام ، كان أحد الأحبار ، بشّره عليه السلام بالجنة، توفي سنة ٤٣. الاستيعاب ٢٧٨/٢.

٢- عطية بن سعد العوفي الجدلي القيسي الكوفي، روى عن ابن عباس وابن عمر و أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ، خرج مع ابن الأشعث على الحجاج فلما انهزم جيشه هرب إلى فارس وتوفي سنة ١١١. انظر طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٣٠٤- تهذيب التهذيب لابن حجر جـ٧ ص ٢٢٤.

٣- ترجمة سلمان في الاستيعاب جـ٢ ص ٥٣-٥٩ وطبقات ابن سعد جـ ٦ ص ١٦-١٧. وانظر ترجمة تميم بهامش ص ٣٩ من هذا البحث.

٤- تفسير ابن كثير جـ٤ ص ١٠٥.

وهذا المعنى يحققه ما رواه ابن خالويه في القراءات الشاذة قال : ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾[1] قراءة النبي ﷺ وعلي رضي الله عنه و أُبيّ.»[2]

وقد كانوا كثيراً ما يتوقفون عند بعض الآيات التي تقتضي في بعض ما قرئت به معنى ليس في القراءة الأخرى، فيسألون من عنده فيها أو في قراءتها ما يطمئنون إليه في وجه التأويل فيها.

أخرج الإمام أحمد والحاكم في المستدرك بالسند عن عُبيد بن عمير[3] قال:

« قلت لعائشة : يا أم المؤمنين ، كيف كان رسول الله ﷺ يقرأ هذا الحرف؟ : (والذين يؤتون ما آتوا) [4] قالت:

«أيهما أحب اليك؟ قلت: أحدهما أحب إلي من حمر النعم، قالت : أيهما ؟ قلت : (الذين يأتون ما أتوا) [5] قالت: هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها».[6] فلا شك في أن عائشة إنما أخبرته بما يشهد لاختياره ويسدده من جهة النقل، وإلا فقد روي عنها أيضاً فيما أخرجه الترمذي ما يشهد للقراءة التي هي قراءة الجمهور:

روى الترمذي بسنده عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿والذين يؤتون ما آتـوا وقلوبهم وجلة﴾ قالت: قلت: الذين يشربون الخمر ويسرقون؟

---

١- يعني بكسر الميم والدال، وقد شكلها بذلك محقق الكتاب. وذكر ابن خالويه قراءةً أخرى عن محمد بن السميفع ( ومن عنده علم الكتاب) بضم عين ( عُلِم) فعلاً مبنياً للمفعول، ( الكتاب) نائب الفاعل.

٢- انظر مختصر شواذ القراءات من كتاب البديع لابن خالويه ص ٦٧، وذكر عن الحسن أنه قرأ ( أمّ الكتاب) .

٣- تقدمت ترجمته.

٤- سورة الفلاح أو ( المؤمنون) الآية ٦٠.

٥- قال في الكشاف جـ ٣ ص ٣٥: هي قراءة رسول الله ﷺ وعائشة أي : يفعلون مافعلوا.

٦- مسند أحمد جـ ٦ ص ٩٥ المستدرك جـ ٢ ص ٢٢٥ وانظر أحكام القرآن لابن العربي جـ ١٣٠٥/٣.

«قال: لا يا بنت الصديق، أو يا بنت أبي بكر، ولكنهم: الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات».[1]

وهكذا استفاد التفسير بالمأثور من اختلاف القراءات استفادةً مثلى في توسيع معاني القرآن وتنويع دلالات الآي ومقاصدها وما يتبع ذلك من توجيهٍ وفهمٍ واستنباط.

وفي الفصل الثاني نعرض لاتجاهٍ آخر في التفسير كان لاختلاف القراءات أثرٌ واسعٌ عميقٌ في نمو مباحثه، ذلك هو التفسير اللغوي الذي شكل مع التفسير بالمأثور اهم تيارين في مسار «علم التفسير».

---

١- جامع الترمذي جـ ١٢ ص ٣٩-٤٠.

## أهم التفاسير المروية بالأسانيد
## إلى بداية عصر التدوين بعد المائتين

**التفاسير ورواتها :**

- تفسير أبي بن كعب رضي الله عنه ( ت حول سنة ٣٠ ).
  أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي.[١]
- تفسير عبد الله بن عباس ( ت سنة ٦٨ )
  مجاهد بن جبر- علي بن أبي طلحة[٢]
- تفسير أبي العالية الرياحي(ت سنة ٩٣ )
  الربيع بن أنس البكري[٣]
- تفسير الحسن البصري ( ت سنة ١١٠ )
  شبل بن عباد المكي المقرئ[٤]
- تفسير مجاهد بن جبر (ت سنة ١٠٤ )
  جماعة منهم قتادة السدوسي.[٥]
- تفسير قتادة بن دعامة السدوسي (ت سنة ١١٧ )
  شيبان بن عبد الرحمن التميمي[٦]
- تفسير الضحاك بن مزاحم البلخي ( ت سنة ١٠٥ )
  عبيد بن سليمان [٧]

---

١- انظر الإتقان للسيوطي جـ ٤ ص ٢٠٩-٢١٠.

٢- الإتقان جـ٤ ص ٢٠٧.- طبقات المفسرين للداودي جـ ١ ص ٢٣٢-٢٣٣.

٣- طبقات الداودي جـ١ ص ١٧٢-١٧٣.

٤- نفس المصدر جـ ٢ ص ٣٠٦ تفسيره مطبوع.

٥- نفس المصدر جـ ١٢ ص ١٤٧.

٦- نفس المصدر جـ ٢ ص ٤٣-٤٤.

٧- نفس المصدر جـ١ ص ٢٢٦.

- تفسير إسماعيل بن أبي تميمة السدي( ت سنة ١١٧ )
اسباط بن نصر [١]
- تفسير محمد الباقر بن علي زين العابدين ( ت سنة ١١٧ )
زياد أبو الجارود الزيدي الشيعي[٢]
- تفسير زيد بن أسلم العدوي المدني ( ت سنة ١٣٦ ).
ولده عبد الرحمن بن زيد[٣]
- تفسير عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (ت سنة ١٤٨ ).
حجاج بن محمد المصيصي[٤]
- تفسير سفيان بن سعيد الثوري(ت سنة ١٦١ )
موسى بن مسعود أبو حذيفة النهدي[٥]
- تفسير محمد بن مروان السدي الصغير.
هشام بن عبيد الله ومحمد بن عبيد المحاربي[٦]
- تفسير هشيم بن بشير الواسطي (ت سنة ١٨٣ )
أبو هشام زياد بن أيوب البغدادي[٧]
- تفسير عطاء بن أبي مسلم الخراساني (ت سنة ١٨٥ ).
يونس بن راشد الحراني[٨]

---

١- الإتقان للسيوطي جـ ٤ ص ٢٠٨.
٢- طبقات الداودي جـ ٢ ص ١٩٨-١٩٩.
٣- نفس المصدر جـ ١ ص ١٧٦-١٧٧.
٤- نفس المصدر جـ ٢ ص ٢٥٢-٢٥٣ وانظر الإتقان جـ ٤ ص ٢٠٨.
٥- نفس المصدر جـ ١ ص ١٩٠ وذكر الدكتور عبد الله محمود شحاته في كتابه ( علوم التفسير) ص ٣٦ أنه طبع حديثا بالهند.
٦- طبقات الداودي ٢/٢٥٤.
٧- طبقات الداودي ٢/٢٥٢
٨- طبقات الداودي ٢/٢٧٩

- تفسير وكيع بن الجراح القاضي الكوفي ( ت سنة ١٩٧ ) .
محمد بن إسماعيل الحساني[١]
- تفسير روح بن عبادة القيسي ( ت حول سنة ٢٠٠ ) .
أبو الأزهر صالح بن درهم الباهلي[٢]
- تفسير عبد الرزاق بن همام الصنعاني ( ت سنة ٢١١ ) .
محمد بن حماد الطهراني[٣]
- تفسير محمد بن سعيد الفريابي(ت ٢١٢ )
عبدالله بن محمد بن أبي مريم[٤]
- تفسير سنيد بن داود المصيصي(ت سنة ٢٢٦ )
محمد بن إسماعيل الصائغ[٥]

---

١- طبقات الداودي ٢/٢٥٧
٢- طبقات الداودي جـ١/١٧٢
٣- طبقات الداودي جـ٢/٢٩٦ وذكر الدكتور شحاته أنه مخطوط بدار الكتب المصرية ومنه نسخة بمكتبة استانبول في تركيا . ( علوم التفسير) ص ٣٦
٤- طبقات الداودي جـ٢ ص ٢٩٢
٥- طبقات الداودي جـ ١ ص ٢٠٩.

# الفصل الثاني

## الاتجاه اللغوي في التفسير وموقف علمائه من القراءات

يتمثل هذا اللون من التفسير في مجموعة من الدراسات التحليلية التي تناولت القرآن الكريم بالبحث والنظر، سواء في بنيته اللغوية ، أو في تراكيبه وأساليبه، أو معانيه و دلالات ألفاظه، أو في أحوال إعرابه، أو في توجيه وجوه قراءاته، كل ذلك في ضوء التراث اللغوي المأثور عن العرب العرباء. وقد انبثق هذا الاهتمام اللغوي من صميم مدارس القراءات، وكان مستهدِفاً بالدرجة الأولى صيانة القرآن الكريم من تطرق اللحن والتحريف إلى لغته ومعانيه ، وبالدرجة الثانية، الكشف عن مستويات الأداء الرفيعة في أسلوب القرآن ، وما لمفرداته من دلالاتٍ معنوية ، تتنوع باختلاف وجوه الإعراب والقراءة.

وقد أشرنا قبل إلى جهود رجال المدرسة البصرية في رسم الخطوط الأولى في هذا المضمار[1]، ومع هذا فإن التفسير اللغوي إنما نما وترعرع في مكة، وخصوصاً في مدرسة ابن عباس ، الذي كان أول من توسع في التفسير القائم على التحليل للمفردات القرآنية والاحتجاج لمعانيها من أشعار العرب، ومما يصور لنا منهجه في ذلك ما رواه الأئمة مما يعرف بـ «مسائل ابن الأزرق»[2]

---

١- انظر ما قدمنا في الباب الثاني.

٢- يبدو أنّ هذه المسائل إذا صح أن أغلبها هو مما أجاب فيه ابن عباس ، فإنها في نظري لم تسلم من تزيد الرواة، والدليل على ذلك اختلاف الروايات فيها في وجوه كثيرة، من ذلك مثلاً:

ورد عند المبرد في الكامل أن نافعاً لما أضجر ابن عباس بمسائله ، جاء عمر بن أبي ربيعة الشاعر فأنشده رائيته المشهورة: أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر .

وقد ورد فيها هذا البيت : رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى ، وأما بالعشي فيخصر.

ولكن السيوطي لا يشير تماماً إلى هذه الواقعة ، بل على العكس من ذلك يورد هذا البيت مما احتج به ابن عباس في تفسيره لقوله تعالى في سورة طه : ( وانك لا تظما فيها ولا تضحى) فيظهر منه اختلاف ما في الكامل للمبرد عن ما في الإتقان سواء في الآيات المسؤول عنها أو الشواهد لها.

وهي مجموعة من الأسئلة التي ألقاها عليه زعيم الخوارج نافع بن الأزرق [١]، وقد ذكر منها السيوطي في الإتقان مائةً وتسعين مسألةً وذكر أنه حذف منها بضعة عشر سؤالا [٢]، ولم يدلنا على سبب حذفه لما حذف منها، وذكر أبو العباس المبرد [٣] في كامله منها سبع مسائل ، التقى مع السيوطي في ثلاث منها ، وزاد عليه بأربع.[٤]

وقد رأيت الطبري ذكر في تفسيره في سورة مريم مسألةً لم يوردها المبرد ولا السيوطي.[٥]

كان أسلوب ابن عباس في هذا اللون من التفسير اللغوي المقارن ، بداية الاتجاه إلى اللغة التي نزل بها القرآن، والنظر فيها في ضوء التراث الأدبي والشعري منه خاصة ، وكان يقول فيما أثر عنه:

«الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفة ذلك منه.»[٦]

وقد كان في أسلوبه في هذه الدراسة يقظا، بحيث كان يستقرئ الاستعمال اللغوي للكلمة عند العرب ويقارن ذلك بالاستعمال القرآني لها، وربما خفي عليه بعض ذلك حتى يسمع قولةَ عربي فصيح، فينتبه إلى المعنى القرآني للكلمة، قال السيوطي:

---

١- انظر أخباره في الكامل للمبرد ابتداء من جـ ٢ ص ١٦٣ إلى ٢١٥.

٢- انظر الإتقان جـ ٢ ص ٥٥ إلى ص ٨٨ وقد حذف منها ما ذكر مع أنه وعد في ص ٥٥ أنه سيسوقها بتمامها.

٣- ستأتي ترجمته.

٤- الأربع هي الأسئلة عن قوله ( والليل وما وسق) وقوله ( والتفت الساق بالساق) وقوله ( آلمّ ذلك الكتاب) وهدهد سليمان . انظر الكامل جـ ٢ ص ١٦٣-١٦٩.

٥- ذكر بسنده عن عمرو – بن دينار- قال: أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع بن الأزرق فقال ابن عباس: الورود: الدخول ، وقال نافع: لا ، فقرأ ابن عباس: ( انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون) ، أورودٌ هو أم لا؟ انظر بقية ذلك في تفسيره جـ ١٦ ص ١٠٨-١٠٩.

٦- انظر الإتقان جـ ٤ ص ٥٥.

أخرج البيهقي [1] من طريق مجاهد عن ابن عباس قال:

«كنت لا أدري ما فاطر السموات ؟ حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما : أنا فطرتها، يقول : أنا ابتدأتها».[2]

ومن الملاحظ أنه في تفسيره اللغوي لمفردات القرآن لم يكن يعنى باختلاف القراءة فيها ، وإنما كان يفسرها حسب قراءته لها ، ومن أمثلة ذلك تفسيره في إحدى مسائل ابن الأزرق لقوله تعالى (أثاثا ورئيا) [3] فقد قال : الأثاث: المتاع، والريّ: من الشراب».[4]

فواضحٌ أن هذا التفسير لكلمة (رئيا) جارٍ على قراءتها ( ريّا) بغير الهمز، ولذلك فسرها بالارتواء من الشراب، ولم يلتفت إلى قراءة الهمز ، ومعناها: «رؤية المنظر والحسن» [5] أو «حسن الصور» [6] كما روي تفسيرها عن مالك.

وقال في قوله تعالى ﴿ولاهم عنها ينزفون﴾ [7] : « لايسكرون» [8]، وفي مكان آخر فسرها بقوله: « لا يقيئون كما يقئ صاحب خمز الدنيا» [9] ، وهو تفسير بلازم السكر في التفسير الأول، والتفسيران معاً جاريان على قراءة (ينزفون) بضم

---

١- الإمام أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر البيهقي النيسابوري صاحب السنن الكبري توفي سنة ٤٥٨. ترجمته في طبقات الشافعية لابن السبكي جـ ٤ ص٨-١٦ ترجمة ٢٥٠ – شذرات الذهب جـ ٢ ص ٣٠٤.

٢- انظر الإتقان جـ ٤ ص ٤ وانظر أمثلة أخرى هنالك.

٣- سورة مريم الآية ٧٤ ( وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا ).

٤- انظر الإتقان جـ ٢ ص ٥٨.

٥- انظر الحجة لابن خالويه ص ٢٣٨.

٦- ورد عن ابن عباس تفسيرٌ آخر لها بقراءة الهمز ذكره ابن كثير في تفسيره جـ ٤ ص ٤٧١ قال : الرئي: المنظر كما قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد ، وقال مالك : « أكثر أموالا ، وأحسن صورا».

٧- سورة اليقطين الآية ٤٧ والواقعة الآية ١٩ ( لا يصدعون عنها ولا ينزفون ).

٨- الإتقان جـ ٢ ص ٨٠ واحتج بقول ابن رواحة : ثم لا ينزفون عنها ولكن – يذهب الهم عنهم والغليل.

٩- الإتقان جـ ٢ ص ٥٣.

الياء وفتح الزاي ، ولم يتعرض للقراءة الأخرى بضم الياء وكسر الزاي.[1]

وورد عنه في القائمة التي ذكرها السيوطي من رواية الضحاك تفسير (هيت لك)[2] بمعنى : تهيأت لك ، قال: « وكان يقرؤها بالهمز».[3]

كانت هذه الانطلاقة البعيدة المدى في التفسير اللغوي، وقد كان لابن عباس فيها سلفٌ من الصحابة ولكن أثر ذلك كان محدودا ، وروى ابن جرير الطبري في تفسيره أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾[4] بنصب الراء ، وقرأ بعض من عنده من أصحاب رسول الله ﷺ (ضيقا حرجا) – بكسر الراء- ، فقال عمر: ابغوني رجلاً من كنانة ، واجعلوه راعيا، وليكن مدلجياً [5]، قال : فأتوه به ، فقال عمر: يا فتى، ما الحرجة فيكم؟ قال: الحرجة فينا: الشجرة تكون بين الأشجار، لا تصل إليها راعيةٌ ولا وحشيةٌ ولا شيء. قال عمر:

«كذلك قلب المنافق ، لا يصل إليه شيء من الخير».[6]

---

١- قال ابن خالويه في الحجة ص ٣٠٢: ( ولا هم عنها ينزفون) يقرأ مهنا وفي الواقعة بكسر الزاي وفتحها فالحجة لمن قرأه بالكسر : أنه أراد: لا ينفد شرابهم. والحجة لمن فتح : أنه أراد : لاتزول عقولهم إذا شربوها بالسكر، وفرّق عاصمٌ بينهما ، فقرأ التي في الصافات بالفتح، والتي في الواقعة بالكسر، فقيل: إنه جمع بين اللغتين ، ليعلم بجوازهما ، وفرق بعضهم بين ذلك ، فقال: إنما فتح هنا لقوله : ( لا فيها غول) وهو كل ما اغتال الانسانَ فأهلكه وذهب بعقله . وكسر في ( الواقعة) لأن الله تعالى وصف الجنة وفاكهتها وجعل شرابها من معين ، والمعين لا ينفد ، فكان ذهاب العقل في ( الصافات) أشبه، ونفاد الشراب في ( الواقعة) أشكل.

وقد فرق بين ( ينزفون) بالفتح والكسر أبوبكر مجمد بن عزيز السجستاني انظر كتابه « نزهة القلوب في غريب القرآن» مطبوع بهامش المصحف الكريم من رواية حفص ، سورة الصافات ص ٣٧٥.

٢- في قوله تعالى في سورة يوسف الآية ٢٣ ( وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ) وفيها قراءات بفتح الهاء والتاء، وفتح الهاء وضم التاء ، وكسر الهاء وفتح التاء.

٣- يعني ( هئت) بكسر الهاء مع الهمز انظر الإتقان جـ ٢ ص ٥١.

٤- سورة الأنعام الآية ٢٥.

٥- أي : من بني مدلج.

٦- جامع البيان للطبري جـ ٨ ص ٢٨.

ومع هذا فإن الاتجاه إلى اللغة إنما تنامى بعد منتصف المائة الأولى ، وخصوصاً عند ابن عباس ، وقد أورد من ذلك السيوطي في الإتقان كشفاً طويلاً مما روى الأئمة عنه في هذا المجال.[1]

وكان رضي الله عنه قد أوتي في التأويل فتحاً كبيراً ، كان فقهاء الصحابة يعترفون له به، وهذا عبد الله بن عمر على مكانته في هذا الشأن يقول لرجل سأله عن قوله تعالى: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾[2] ، فقال له عبد الله بن عمر: اذهب إلى ذلك الشيخ فسله ، ثم تعال فأخبرني ، فذهب إلى ابن عباس ، فسأله ، فقال: كانت السموات رتقاء لاتمطر، وكانت الأرض رتقاء لا تنبت، ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات، فرجع الرجل فأخبر ابن عمر، فقال: لقد أوتي ابن عباس علماً صدقا، هكذا ، لقد كنت أقول: لاتعجبني جرأة ابن عباس على تفسير القرآن ، فالآن علمت أنه قد أوتي علما».[3]

وقد عمل ابن عباس على بث ماعنده من العلم في ذلك ، حتى إن الرواية عنه تملأ بطون التفاسير ، وقد روى الجاحظ [4] في البيان والتبيين : أن الحسن قال:

«كان ابن عباس أول من عرّف [5] بالبصرة: صعد المنبر ، فقرأ البقرة و آل عمران، ففسرهما حرفاً حرفاً.»[6]

---

١- انظر الإتقان جـ ٢ ص ٥ إلى ص ٨٨.

٢- سورة الأنبياء الآية ٣٠.

٣- الإصابة جـ ٢ ص ٣٢٤.

٤- أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني البصري الجاحظ المعتزلي، ولد سنة ١٥٠ وتوفي سنة ١٥٥ عاصر عشرة من خلفاء العباسيين ، وكانت له صلة بالفتح بن خاقان وأحمد بن أبي دؤاد ، من كتبه في التفسير كتاب نظم القرآن وكتاب المسائل في القرآن ، وروى عنه أبو بكر بن أبي داود انظر طبقات المفسرين للداودي جـ ١ ص ١٢-١٦ ترجمة ٣٩٤- وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٤٧٠ ترجمة ٥٠٦.

٥- فسرها الأستاذ عبد السلام محمد هارون محقق كتاب البيان والتبيين بهامش ص ٣٣١ منه ، فقال:التعريف هنا بمعنى: التعليم.

٦- البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ ص ٣٣١.

فهذا يفيد أنه كان ترجمان القرآن حقيقةً كما سماه رسول الله ﷺ بذلك.[١]

وقد سلك هذا المسلك من بعده طائفةٌ من علماء اللغة، ولاسيما في البصرة التي عرفت منذ النصف الأول من القرن الأول بداية الحركة اللغوية التي بلغت أوج نضجها في أشخاص رجال المائة الثانية ، من أمثال أبي عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر الثقفي ثم الخليل بن أحمد [٢] ويونس بن حبيب [٣] وجماعة.

ولقد ارتبطت عند أئمة اللغة من هؤلاء القراءة بالتفسير، وبرزت اختياراتهم لحروفٍ من القراءة كان عمادهم في اختيارها رعاية مذاهب العربية واعتبار الوجوه الفصحى ، ثم تنزيل القراءات عليها، وهذا إمام القراء الملتزمين بقراءة الجماعة بالبصرة ، والذي كان حريصاً على الالتزام بجانب الرواية ، لم يَفُتْه أن تكون قراءته مع ذلك معرضاً للوجوه المختارة في العربية ، حتى قيل إنها أفصح القراءات.[٤]

حدث عنه عبد الملك الأصمعي [٥] قال:

---

١- الإتقان جـ ٤ ص ٢٠٥.

٢- الخليل بن أحمد الفراهيدي ستأتي ترجمته.

٣- يونس بن حبيب الضبي ستأتي ترجمته.

٤- انظر الإتقان للسيوطي جـ١ ص ٢٢٥ نقلاً عني مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني.
ومن اختياراته المبنية على المنزع اللغوي قراءته بفتح الشين والراء في قوله تعالى ( هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا ) فقال الرشد بالضم : الصلاح ، وبالفتح : العلم وموسى طلب العلم. النشر ٢/٢١٢.

٥- عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع البصري اللغوي الباهلي، أحد أئمة اللغة والأدب والغريب والملح والأخبار، روى عن أبي عمرو وقرأ عليه وعلى نافع بن أبي نعيم ، وكان يتقي أن يفسر القرآن ولكن يذكرون له كتاباً في « غريب القرآن» وله مؤلفاتٌ كثيرةٌ في اللغة ذكرها ابن النديم، توفي حول ١١٥.
انظر الفهرست ص ٨٨ – ٨٩ – طبقات المفسرين للداودي جـ ١ ص ٣٥٤- ٢٥٥ ترجمة ٢٠٨ مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص ٨٠-١٠٥ بغية الوعاة جـ٢ ص ١١٢ غاية النهاية جـ ١ ص ٤٧٠.

«قال لي أبو عمرو : لو تهيأ لي أن أفرغ ما في صدري من العلم في صدرك، لفعلت، لقد حفظت في علم القرآن أشياء، لو كتبت ماقدر الأعمش [1] على حملها، ولو لا أن ليس لي أن أقرأ إلا بما قرئ به، لقرأت كذا وكذا، وذكر حروفا». [2]

كان أبو عمرو مع هذا كله متأثراً بمذهبه اللغوي، وما أخذ منذ أواخر المائة الاولى يبسط سلطانه على القراء، وأعني به استعمال « القياس» النحوي واللغوي، وقد نقلت عنه قراءات في بعض حروف القراءة مشفوعة باحتجاجه لها بما يقتضيه القياس اللغوي، مثال ذلك ما ذكره ابن خالويه في الحجة عند قوله تعالى : ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا﴾ [3] قال:

«إجماع القراء على جمع السلامة [4] ، إلا أبا عمرو ، فإنه قرأه ( خطاياهم ) على جمع التكسير، وقال: إن قوماً كفروا ألف سنة [5] ، لم يكن لهم إلا خطيات [6]، بل خطايا». [7]

كان علماء البصرة قد اتجهوا بالدراسة اللغوية إلى القرآن قراءةً وتفسيرا، وكان منهم مفسرون بلغوا الغاية في الاستفادة من التراث اللغوي ، من أهمهم الحسن البصري، ثم قتادة السدوسي و أبو علي الأسواري [8] ، وقد بلغ الحسن

---

١- سليمان بن مهران المقرئ والمحدث المشهور تقدمت ترجمته.

٢- معرفة القراء الكبار للذهبي جـ ١ ص ٣٥.

٣- سورة نوح الآية ٢٥.

٤- يعني ( خطيئاتهم ) قال ابن خالويه في الحجة ص ٣٥٢: احتج أصحابها بأن الألف والتاء قد تأتي على الجمع القليل والكثير، ودليله قوله تعالى( ما نفدت كلمات الله ) ولا يقال هذا جمع قليل.

٥- يشير إلى قوله تعالى في سورة العنكبوت الآية ١٤ ( ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون).

٦- يعني جمع قلة ، ولذلك صغرها.

٧- الحجة لابن خالويه ص ٣٥٢.

٨- اسمه عمرو بن فائد كان منقطعاً إلى أمير البصرة محمد بن سليمان ، أخذ عن عمرو بن عبيد، وله معه مناظرات ذكر الجاحظ في البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٦٨-٢٦٩ أنه قص في مسجد البصرة ٣٦ سنة ولم يختم القرآن.

من ذلك الشأو البعيد، وقد أثر عنه أنه قال متحدثاً عن جدوى الرسوخ في لغة العرب بالنسبة لمن يتصدى لشرح كتاب الله:

«أهلكتهم العجمة ، يقرأ أحدهم الآية ، فيعيا بوجوهها ، حتى يفتري على الله فيها».[1]

وهو بذلك يريد أن كثيراً من الأخطاء في الفهم والتخريج إنما تكون صادرة عن ضعف الرصيد اللغوي، وعدم الفقه في اللغة والحذق في أساليب البيان، وقد أخرج الطبري في تفسيره « أن رجلاً جاء إلى الحسن فقال: إنه طلق امرأته ثلاثا، فقال : إنك عصيت ربك، وبانت منك امرأتك، فقال الرجل: قضى الله ذلك علي، قال الحسن — وكان فصيحا- : ما قضى الله ، أي : ما أمر الله، وقرأ هذه الآية : ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾[2]، فقال الناس: تكلم الحسن في القدر».[3]

فهكذا وجه الحسن لفظ قضى إلى هذا المعنى اللغوي، واحتج بالآية لتقريره ، وهو يريد بذلك أن يرد على الرجل الذي استعمل ( قضى ) بمعنى : قدّر وكتب.

ونجد للحسن في تفسيره لكثير من الآيات وقراءته لها تخريجاتٍ وتوجيهات ذات صبغةٍ لغويةٍ واضحة ، يقرأ قوله تعالى ﴿يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى﴾ يقرؤها (ورياشا ) ، قال الطبري: «محتمل أن يكون أراد به جمع الريش كما يجمع «الذئب» «ذئابا» و «البئر» «بئارا». ويحتمل ان يكون أراد به مصدراً من قول القائل : راشه الله رياشا.. والرياش في كلام العرب: الأثاث وماظهر من الثياب والمتاع مما يلبس أو يُحشى من فراشٍ أو دثار».[4]

---

١- المحرر الوجيز جـ ١ ص ١٥ وقال في الإتقان جـ٢ ص ٢٦٠: أخرجه أبو عبيد.
٢- سورة الإسراء الآية ٢٣.
٣- جامع البيان للطبري جـ ١٥ ص ٦٢.
٤- نفس المصدر جـ٨ ص ١٤٧-١٤٨.

وكان يقرأ قوله تعالى ﴿سرابيلهم من قطران﴾[1] ( قطر – آن) بفتح القاف وتسكين الطاء وتنوين الراء وتصير(آن) من نعته [2] وتوجيه معنى ( القطر) إلى أنه النحاس و (آن) انتهى حرّه في الشدة كقوله تعالى ( من حميم آن) [3]، وكان قتادة يقرؤها كذلك».[4]

ويقرأ (ونفخ في الصور) بضم الصاد وفتح الواو [5] على أنها جمع صورة.

ويقرأ في الفاتحة (إياك نعبد) بالتاء والبناء للمفعول.[6]

وكان من أبرز الآخذين عنه قتادة السدوسي، وهو أحد الأربعة الذين ذكر الجاحظ أنهم بثوا العلم في الدنيا [7]، وكان من أفصح الناس و أعلمهم بالتفسير «وأحد الأئمة في حروف القرآن».[8]

ولعله كان أول من نهج للغويين منهج توجيه القراءات ، وتخريج معانيها على اللغة ، وقد رأينا نموذجاً من ذلك فيما نقله الطبري عنه في قوله تعالى ﴿لقالوا إنما سكرت أبصارنا﴾.[9]

فقد ذكر أن من قرأ(سكّرت) مشددة ، فإنما يعني : سدّت، ومن قرأ (سكرت) مخففة، فإنه يعني: سحرت.»[10]

---

١- سورة الخليل الآية ٥٠.

٢- هكذا ضبطها الطبري بفتح القاف من ( قطر) وفي القرآن ( وأسلنا له عين القطر ) بالكسر.

٣- سورة الرحمن الآية ٤٤.

٤- انظر جامع البيان جـ ١٣ ص ٢٥٧.

٥- مختصر شواذ القراءات من كتاب البديع لابن خالويه ص ٩٨.

٦- نفس المصدر ص ١ قال ابن حزم في الأحكام جـ ٢ ص ٦٧٠: جمع بعضهم فتياه في سبعة أسفار ضخمة.

٧- البيان والتبيين للجاحظ جـ ١ ص ٢٤٢ قال: وهم قتادة والزهري والأعمش والكلبي.

٨- عبارة ابن الجزري في غاية النهاية جـ ٢ ص ٢٥ ترجمة ٢٦١١.

٩- الآية ١٥ من سورة الحجر.

١٠- جامع البيان جـ ١٤ ص ١٢.

قال السيوطي: «وهذا الجمع من قتادة نفيس».

وقد فتح هذا التوجيه للمؤلفين في المعاني [1] وتوجيه القراءات هذه الطريقة في التفسير اللغوي، فتجد في هذه الكتب هذا التعبير شائعا: أن من قرأ (كذا) أراد (كذا) ومن قرأ (كذا) أراد (كذا) وتجد نماذج كثيرةً من ذلك في (مجاز القرآن) لأبي عبيدة [2] و (تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة [3] (ونزهة القلوب في غريب القرآن) للسجستاني [4]. و (معاني القرآن) للفراء.

لقد كان الاهتمام باللغة في أواخر المائة الاولى و أوائل الثانية في المدرسة اللغوية البصرية على الخصوص تمهيداً لحركةٍ واسعةٍ في هذا الشأن بلغت أوج قوتها بخلوص الأمر للعباسيين ، وانتقال الخلافة إلى العراق أوائل العقد الرابع من المائة الثانية ، إذ دخلت مدرستا البصرة والكوفة اللغويتان في سباق حاد في كافة المجالات الثقافية والعلوم الإسلامية واللسانية ، وإن كانت المدرسة البصرية قد تقدمت الكوفية في ذلك بأشواط ، وخصوصاً في سبقها إلى تأسيس قواعد النحو وابتكار مبادئ كثيرٍ من الفنون.

وقد تبلورت هذه الحركة في اتجاهين رئيسيين:

أ. الاهتمام بالرواية والرحيل في طلب اللغة والغريب، والتدوين عن البدو وأهل الوبر.[5]

---

١- قال السيوطي في الإتقان جـ ٢ ص ٣: « قال ابن الصلاح :« وحيث رأيت في كتب التفسير ( قال أهل المعاني) فالمراد به مصنفو الكتب في معاني القرآن كالزجاج والفراء والأخفش وابن الأنباري».

٢- انظر جـ ٢ ص ٥ ،ص ٦٠ ص ٦٢ ص ١٨٧ ص ٢٠٥.

٣- انظر ص ٩٢، ص ١٣٩ ص ٢٤٥-٢٤٦ص ٣٣٣ – ٣٣٦.

٤- محمد بن عزيز أبو بكر السجستاني العزيزي أخذ عن ابن الأنباري مات سنة ٣٣٠ انظر طبقات المفسرين للداودي جـ ٢ ص ١٩٣ ترجمة ٥٣٤.

٥- أهل الوبر: اصطلاح قديم كان يطلق على أهل البادية تمييزاً لهم عن « أهل المدر«سكان الحواضر.

ب. الاهتمام باستنباط القواعد ووضع أسسها وتشكيل « المعايير» النحوية والصرفية.

ففيما يخص جانب الرواية قام زمرةٌ من اللغويين يضربون أكباد الإبل إلى البادية العربية ، يستفسرون عن مفردات اللغة ، ويسمعون من الأعراب ويدونون، فأكثروا من رواية الأشعار والأراجيز والأمثال، ودقق علماؤهم في الرواية ، وتحروا في التدوين الصحيحَ الفصيحَ، وميزوا المنحول والمدخول، ودونوا الفروق بين اللهجات في الخصائص الإعرابية، لما لذلك من المزايا في توجيه بعض القراءات التي قرأ بها القراء.

وتحقيق بعض ما رسم في المصحف بلغة قومٍ أو قبائل معينة.(١)

وفيما يخص جانب التقعيد والتصنيف قام جماعةٌ آخرون ينظرون في أساليب القرآن الكريم، ويتخذونها منطلقاً إلى البحث في « المعايير» والأسس التي تحكم التخاطب، وتكوّن «الجملة النحوية» ، فأخذوا يجرون على اللغة مسحاً عاماً، ليميزوا بين اللغات القرآنية وغيرها ، ويقيسون ويستنبطون ، ويدونون السمات المشتركة التي تكوّن ما سموه « القياس» ، والسمات التي لا تخضع لقاعدةٍ مطردة فسموها « سماعية» أو « لغة » أو شاذة.(٢)

وكان هذا الاهتمام سابقاً في التاريخ على الاهتمام بالغريب، بسبب توافر الدواعي الحافزة على الإسراع بوضع الأصول التي تحكم التخاطب وتدوينها،

---

١- من ذلك توجيههم لرسم قوله تعالى ( قالوا ان هذان لساحران) بأنها جاريةٌ على لغة بني الحارث بن كعب ، يقولون :« مررت برجلان» و « قبضت منه درهمان» و « جلست بين يداه» تأويل مشكل القرآن ص ٣٦-٣٧ وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة جـ ٢ ص ٢٢- ٢٣ فقد خرجها على معنى «نعم» .

٢- في مرآة الجنان لليافعي جـ ١ ص ٣٢٦ : حكي عن أبي محمد النوفلي قال: سمعت أبيّ يقول لأبي عمرو: أخبرني عما وضعت مما سميته عربية : أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ فقال: لا ، فقلت : فكيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب ، وهو حجة؟ فقال: أعمل على الأكثر، وأسمي ما خالفني «لغات».

ولم تتم المائة الأولى حتى كانت هذه المباحث قد استكملت أو كادت عناصر الجمع والاستقراء للأساليب، وبدأت حلقات اللغويين في المساجد والدور تعقد للنظر في هذا الرصيد اللغوي في ضوء القواعد الجديدة.

ومن أبرز من كان لهم الباع الطويل في تدوين القواعد في هذه المرحلة بعد أبي الأسود وتلميذيه نصر بن عاصم ويحيي بن يعمر[1]: عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي [2] ثم أبو عمرو بن العلاء، ثم عيسى بن عمر الثقفي، وكلهم كانوا أئمة في القراءة.

وقد ذكر عن عيسى بن عمر أنه «كان أفصح الناس، وكان صاحب تقعير في كلامه، واستعمال للغريب فيه وفي قراءته». [3] ويكفي في جلالة قدره أنه أستاذ الخليل بن أحمد[4] وأول من ألف كتاباً في النحو،[5] وهو أيضاً استاذ سيبويه، وقد قيل: «إن سيبويه [6] أخذ عنه الكتاب الذي سماه «الجامع» وبسطه، وحشى عليه من كلام الخليل وغيره، ولما كمل نسب إليه، وهو «كتابه» المشهور».[7]

كانت هذه المباحث قد بلغت أوجها عند الخليل وعيسى الثقفي، ثم تبلورت بشكل أكثر كثافة وتركيزاً في كتاب سيبويه في النحو والشروح الضافية التي نشأت

---

١- تقدمت ترجمتاهما.

٢- تقدمت ترجمته.

٣- انظر مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص ٤٣.

٤- الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي البصري إمام اللغة والنحو بعد أبي عمرو، له الأولية في وضع «علم العروض» ووضع أول معجم لغوي وهو كتاب «العين» وعليه اعتماد سيبويه في تأليف أول كتاب ناضج في النحو. توفي سنة ١٧٠ عن ٧٤ سنة. انظر الفهرست لابن النديم ص ٦٩-٧١ مراتب النحويين ص ٥٤-٧٢ وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٤٤ ترجمة ٢٢٠.

٥- و في كتابيه أنشد الخليل بن أحمد قوله: بطل النحو الذي جمّعتم — غير ما ألف عيسى بن عمر
ذاك «اكمالٌ» وهذا «جامعٌ» — وهما للناس شمس وقمر.
انظر مراتب النحويين ص ٤٦-٤٧.

٦ عمرو بن قنبر ستأتي ترجمته.

٧ انظر مرآة الجنان لليافعي جـ ١ ص ٣٠٧.

حوله، والاستدراكات التي استدركها عليه أمثال يونس بن حبيب [1] والأخفش الأوسط [2] الذي أخذ عنه، «وكان أول من خالف عليه من البصريين».[3]

وفي هذه الأثناء كان أقطاب المدرسة الكوفية في طور استكمال العدة لمنازلة البصريين.

وهذا إمامهم أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي سابع القراء السبعة، يقول الخطيب البغدادي عنه:

«لقي الخليل وجلس في حلقته، فقال للخليل: من أين أخذت علمك هذا؟ فقال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، فخرج، ورجع وقد أنفد خمس عشرة قنينةً حبرا، في الكتابة عن العرب، سوى ما حفظ، فلم يكن له هم غير البصرة والخليل، فوجد الخليل قد مات، وقد جلس في موضعه يونس النحوي [4]، فمرت بينهم مسائل أقر له يونس فيها وصدّره موضعه».[5]

لقد دخلت الدراسات النحوية والمباحث اللغوية مع الكسائي في طورٍ جديد، إذ أخذ يقارع أقطاب مدرسة البصرة مقارعة الأنداد، وهو و إن ذكر أنه قرأ

---

١- يونس بن حبيب الضبي البصري من أصحاب أبي عمرو بن العلاء، سمع من العرب وروى عن سيبويه فأكثر عنه، وله قياسٌ في النحو ومذاهب يتفرد بها، سمع منه الكسائي والفراء وكانت له حلقة بالبصرة ينتابها أهل العلم وطلاب الأدب وفصحاء البادية من الأعراب ولد سنة ٩٠ ومات سنة ١٨٢ انظر مراتب النحويين ص ٤٤-٤٥ الفهرست لابن النديم ص ٦٩ طبقات المفسرين للداودي جـ ٢ ص ٣٨٥ رقم ٧٠٣.

٢- الأخفش الأوسط أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي البلخي ثم البصري كان أسن من سيبويه ولكنه أخذ عنه النحو والعربية ونقل أبو الطيب اللغوي عن الكسائي قوله: «لم يكن في البصريين أعلم من الأخفش، نبههم على عوار «الكتاب» وتركهم يعني كتاب سيبويه، توفي سنة ٢٢١ انظر مراتب النحويين ص ١١١-١١٢ والفهرست ص ٨٣-٨٤ وطبقات المفسرين للداودي جـ ١ ص ١٨٥ ترجمة ١٨٥ وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٨٠ ترجمة ٢٦٤.

٣- انظر مراتب النحويين ص ١١٢

٤- يونس بن حبيب صاحب الترجمة أعلاه.

٥- انظر تاريخ بغداد جـ ١١ ص ٤٠٤ ترجمة ٦٢٩٠.

كتاب سيبويه [١] على الأخفش سراً [٢] فإنه كان في الوقت ذاته يتهيأ لنقض مذهب البصريين عامةً في القياس، اعتماداً على رصيده الجديد من الرواية عن العرب، وبالتالي كان يتهيأ لوضع مذهب الكوفيين القائم على ما يلي:

أ- الاستشهاد بلهجات عرب الأرياف.

ب- القياس على القليل النادر.

ج- الاستشهاد بالشعر الجاهلي والإسلامي.

د- الاستشهاد بالقراءات.

هـ- الاستشهاد بالقرآن الكريم.[٣]

وأهم ما ينبغي أن ننبه عليه هنا الاختلاف بين موقف البصريين والكوفيين من القراءات القرآنية.

فقدماء نحاة البصرة وإن كانوا قد استنبطوا كثيراً من قواعدهم من القرآن الكريم ، فإنهم مع ذلك قد تركوا القراءات القرآنية بمعزلٍ عن الاستشهاد بها أو الاستشهاد لها، حتى إن سيبويه في كتابه الرائد لم يتعرض للقراءات إلا في مواضع يسيرة.[٤] لا ليبني عليها القاعدة ولكن لمجرد الاستشهاد كما أنه لم يجترئ في كتابه على رد شيءٍ من القراءات».[٥]

---

١- أبو بشر عمرو بن قنبر المشهور بسيبويه من أصل فارسي أخذ النحو عن الخليل وألف الكتاب الذي سماه الناس قرآن النحو كما قال أبو الطيب اللغوي توفي شاباً سنة ١٧٧ انظر الفهرست ص ٨٢-٨٣ . مراتب النحويين ص ١٠٦ غاية النهاية جـ ١ ص ٦٠٢ وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٤٦٣ ترجمة ٥٠٤.

٢- طبقات المفسرين للداودي جـ ١ ص ١٨٦.

٣- القرآن الكريم و أثره في الدراسات النحوية ص ١٢٢.

٤- من ذلك في الجزء الثاني من الكتاب ص ٨٣ تعرضه لقراءة ابن مسعود برفع( شيخ) في قوله تعالى (وهذا بعلي شيخا) وفي جـ ٢ ص ١١٨ في « باب ما ينتصب لأنه ليس من اسم ما قبله» . تعرض للآية ١٠ من سورة «فصلت » ( في أربعة أيام سواء للسائلين )، وذكر أن ناساً قرأوا ( في أربعة أيام سواء) بجر ( سواء) و أن الخليل قال :« إن من قرأ بالجر ، فقد جعله بمنزلة مستويات».

٥- المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف ص ١٥٧ .

أما النحويون الكوفيون فعلى العكس من ذلك قد فتحوا صدورهم للقراءات، وتوسعوا في الاستشهاد بمختلف اللهجات العربية، و«استشهدوا على اللغة بالقراءات ، واستنبطوا كثيراً من قواعدهم منها».[1]

وهم وإن تأثروا في ذلك ببعض من شرحوا كتاب سيبويه وخصوصاً الأخفش «الذي كان أول من فتح للكوفيين مجال الاحتجاج بالقراءات ، والاحتجاج لها بأشعار العرب»[2]، فإن الكسائي ثم تلميذه الفراء من بعده ، قد سارا في ذلك شوطاً بعيدا ، حتى استنتج بعض الدارسين المحدثين « أن الكسائي توسع في القياس ومد النحو ، ليشمل الشاذ النادر من اللغات، مما لم يكن الخليل وسيبويه يحفلان به، وأن الذي دفعه إلى هذا الموقف: أنه كان من القراء للذكر الحكيم، وكانت تجري في قراءته حروف تشذ على قواعد النحو البصري، فخشي أن يظن بهذه الحروف أنها غير جائزة ، ولأنها لا تجري على العربية السليمة، وربما خشي اندثارها ، وهي جميعاً مروية عن رسول الله ﷺ، غير أن منها ما هو متواتر، وهو القراءات السبع ، ومنها ما هو غير متواتر ، وهو ما وراءها من قراءات.»[3]

ومهما يكن فإننا منذ العقود الأربعة الأخيرة من القرن الثاني قد أصبحنا أمام اتجاهين يمثلان موقفين متمايزين من القراءات : اتجاه المدرسة البصرية، وقد استبعد القراءات أولا عند وضع القواعد، من مجال عمله ، فلم يتعرض لها بنفي ولا إثبات».[4]

واتجاه المدرسة الكوفية الذي فتح المجال للقراءات ، وبنى عليها طائفة من القواعد النحوية.

---

١- القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية للدكتور عبد العال سالم مكرم ص ١٢٣.

٢- المدارس النحوية ص ٦.

٣- نفس المصدر ص ١٧٦.

٤- القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ص ٩٧.

وفي الفصل التالي بحول الله سوف نرى كيف أدى التنافس بين المدرستين، والتباين بينهما أسلوباً ومنهجاً إلى خصومات حادة في قضايا من اللغة والنحو تمس القراءات ، وسوف نرى أن اختلاف المنهجين قد فتح الباب، وجر إلى كثير من المواقف المتطرفة عند البصريين على الخصوص إزاء طائفة من القراءات المتواترة ، بمحاكمتها بقواعد البصريين المحدثة، والتي دونت واستنبطت في غيبة أمثال تلك القراءات.

# الفصل الثالث

## أثر الخلاف بين النحويين في الموازنة بين القراءات عند المفسرين

اتخذت الدراسة اللغوية للقرآن الكريم ثلاثة محاورٍ متمايزة:

أ- دراسات اهتمت بغريب القرآن.(١)

ب- دراسات اهتمت بـ «إعراب القرآن» وتوجيه القراءات.

جـ- دراسات اهتمت بـ « معاني القرآن».(٢)

أما الدراسات من النوع الأول فقد كانت لغوية خالصة، وقد ذكر ابن النديم قائمةً بأسماء المؤلفين فيها في الفهرست.(٣)

وأما الدراسات من النوعين الأخيرين فهي التي كانت معترك الخصومة بين أهل اللغة والنحو في قضايا من اللغة والنحو تمس توجيه القراءات وتأويل معانيها، ثم جاءت كتب التفسير لتتلقف أحكام هؤلاء اللغويين والنحويين، وتحاول الموازنة بين القراءات في ضوئها كما سيمر بنا عند ابن جرير ثم عند الزمخشري.

وقد كان توجيه القراءات من حيث الوجوه الإعرابية التي تتنزل عليها أهم مادار من خصومات بين مدرستي النحو: البصرية والكوفية في أخريات المائة الثانية ثم من بعد ذلك في القرون التالية.

---

١- قال الأستاذ محمود محمد الطناحي في تقديمه لكتاب الغريبين لأبي ذر الهروي ص ٩: الغريب من الكلام يقال على وجهين: أحدهما: بعيد المعنى غامضه لا يتناوله الفهم إلا عن بعد ومعاناة فكر. وثانيهما: كلام من بعدت بهم الديار من شواذ قبائل العرب، فإذا وفدت إلينا الكلمة من لغاتهم استغربناها.»

٢- ستأتي قائمةٌ بأهم المؤلفات في معاني القرآن.

٣- الفهرست ص ٥٨-٥٩ حوالي ١٣ كتابا.

والحق أن ملامح من النزاع المبكر حول بعض وجوه القراءة قد بدأت في القرن الأول، لا سيما بعد أن أخذ اللحن يستشري في الألسنة ، حتى كان ذلك مما أدى إلى إعادة النظر في الطريقة التي رسمت بها المصاحف خاليةً من النقط والشكل ، وفي ذلك يقول الإمام أبو عمرو الداني:

اعلم -أيديك الله بتوفيقه - أن الذي دعا السلف -رضي الله عنهم- إلى نقط المصاحف بعد أن كانت خاليةً من ذلك، وعاريةً منه وقت رسمها، وحين توجيهها إلى الأمصار ، للمعنى الذي بيّناه والوجه الذي شرحناه[١] : ما شاهدوه من أهل زمانهم مع قربهم من زمن الفصاحة ومشاهدة أهلها، من فساد ألسنتهم واختلاف ألفاظهم ، وتغير طباعهم، ودخول اللحن على كثيرٍ من خواص الناس وعوامهم [٢] وماخافوه مع مرور الزمن من تزايد ذلك وتضاعفه فيمن يأتي بعد، ممن هو لاشك في العلم والفصاحة والفهم والدراية دون من شاهدوه . ممن عرض له الفساد، ودخل عليه اللحن، لكي يرجع إلى نقطها ، ويصار إلى شكلها عند دخول الشكوك وعدم المعرفة، ويتحقق بذلك إعراب الكلم ، وتدرك به كيفية الألفاظ.[٣]

ولا شك أن ضبط المصاحف جرى على أيدي علماء اللغة ، فقد ذكر أبو عمرو الداني في المحكم أسماء طائفةٍ ممن اشتركوا في تطويره ، إلى أن بلغ إلى الخليل بن أحمد الذي «كان أول من صنف النقط [٤] ورسمه في كتاب وذكر علله ، ثم صنف ذلك بعده جماعةٌ من النحويين والمقرئين..»[٥]

---

١- يعني ليتأتى جمع أكثر من قراءة في رسم المصحف كما تقدم.

٢- انظر نماذج من لحن الخواص في القراءة في البيان والتبيين للجاحظ جـ ٢ ص ٢١٨-٢١٩.

٣- المحكم في نقط المصاحف ١٨-١٩.

٤- يراد بالنقط : علامات الشكل، وقد سموه بالنقط لأنهم رمزوا للحركات بالنقط قبل وضع الخليل للحركات الحالية التي اقتبسها من حروف المد ، فجعل الفتحة ألفاً صغيرة والضمة واواً صغيرة والكسرة ياء.

٥- المحكم ص ٩.

وفي أثناء ذلك كانت القراءات بمختلف اللغات واللهجات قد طبقت الآفاق، ولذلك لم يكن هذا العمل وحده ليحد من خروج بعض القراء في قراءاتهم على الوجوه الخاضعة للقياس.

ومن هنا بدأ الصراع بين القراء والنحويين، بل بين القراء أنفسهم أحياناً فيما كان يتطرف به بعضهم من الأخذ ببعض الاستعمالات النادرة في قراءته، من مثل ما يذكر عن عيسى بن عمر الثقفي، «فقد كان عمله النحوي ينسيه كما أنسى غيره من علماء القراءة والنحو دورهم كقراء، وجعلهم يأخذون بنوع من المنهجية كالذي أثر عن الثقفي، من أنه كان ينزع إلى النصب إذا اختلفت العرب[1]، بحجة أن النصب أخف من غيره على ألسنة العرب، و إليه يميلون».[2]

بدأ علماء النحو من القراء يدخلون فيما بينهم في مناظراتٍ طويلةٍ عنيفةٍ حول بعض الاستعمالات التي دخلت في القراءة، فهذا أبو عمرو بن العلاء شيخ الصناعة يسمع قراءة عبد الله بن أبي إسحاق وعيسى بن عمر، بنصب (أطهر) في قوله تعالى: ﴿قال هؤلاء بناتي هن أطهر لكم﴾ [3] فينكر النصب، ويقول لعيسى: «كيف تقول: هؤلاء بنيٍّ، هم ماذا؟؟ فقال عيسى: عشرين رجلا، فأنكر أبو عمرو».[4]

وسمع أبو عمرو قراءة الضم في قوله تعالى: ﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيّهم أشد على الرحمن عتيا﴾[5] فأنكر قراءة (أيّهم) مضمومة، وقال: خرجت من الخندق – خندق البصرة – حتى صرت إلى مكة، لم أسمع أحداً يقول: «اضرب أيّهم أفضل» أي: كلهم ينصبون».[6]

---

١- يعني إذا تردد إعراب الكلمة بين الحركات الثلاث أو بين حركتين، فلذلك يقرأ (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) بنصب الزانية والزاني، ويقرأ (وامرأته حمالة الحطب) بالنصب.

٢- انظر المنطلقات التأسيسية والفنية إلى النحو العربي للدكتور عفيف دمشقية ص ٥٧.

٣- سورة هود الآية ٧٨ على اعتبار منهما ان (هن) ضمير فصل، و(أطهر) منصوب على الحال.

٤- انظر القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية للدكتور سالم عبد العال مكرم ص ٧٥.

٥- سورة مريم الآية ٦٩.

٦- انظر أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي للدكتور عفيف دمشقية ص ٤٨.

ولكن قراءة الضم متواترة وبها قرأ نافع بن أبي نعيم وقراء كثيرون ، فلذلك جاء يونس بن حبيب وصوبها وزاد فعلّل للقراءة بها من الوجهة الصناعية، بأنها مبتدأ وخبره (أشد) و أن الفعل قبلها بمنزلة الأفعال التي تلغى ولا تعمل».(١)

ولما اشتد ساعد المدرسة الكوفية اتخذ الخصام حول القضايا اللغوية التي أخذ بها القراء طابع الصرامة، ثم لم يلبث الخصام أن تحول إلى مناوأة حادة بين النحويين والقراء من المدرستين ولا سيما بعد أن أديل لنحويي الكوفة وقرائها من البصريين ، باتصالهم بالخلفاء العباسيين وتوليهم مهمة تأديب أولياء العهد (٢) ، فكان أن تدخلت السياسة في ترجيح جانبهم في بعض المواقف، ترجيحاً أثار مشاعر العداء بين خصومهم ، فحاولوا مزاحمتهم (٣)، و ألّفوا في الرد عليهم وإنكار فضائلهم ، قراء ونحويين ، وبلغ الأمر مداه بعد هزيمة رأس المدرسة البصرية وزعيمها سيبويه ، بين يدي الكسائي في المسألة الزنبورية المشهورة التي ذكر أنها كانت سبب خروج سيبويه من بلاد العراق.(٤)

---

١- نفس المصدر ص ٤٩.

٢- كان الكسائي يتولى للرشيد تأديب الأمين ابنه ، ثم كان الفراء يؤدب أبناء المأمون . كما ذكر الخطيب في ترجمة الفراء جـ ١٤ ص ١٤٩-١٥٠ ترجمة ٧٤٦٤.

٣- من صور ذلك ما ذكره الخطيب في تاريخ مدينة بغداد جـ ١٤ ص ١٤٦-١٤٨ في ترجمة اليزيدي يحيى ابن المبارك البصري ترجمة ٧٤٦٥ قال : كان الكسائي في أيام الرشيد مؤدبا للأمين ببغداد ، وكان اليزيدي من البصريين تلميذ أبي عمرو يؤدب عبد الله المأمون ، فأما الأمين فإن أباه أمر الكسائي أن يأخذ عليه بحرف حمزة ، وأما المأمون ، فإن أباه لما اختار له اليزيدي تركه يتعلم منه حرف أبي عمرو، وكان الكسائي واليزيدي يقرئانهما في مسجد واحد».

٤- صورة المسألة الزنبورية باختصار «أن سيبويه لما قدم على البرامكة ، عزم يحيى بن خالد على الجمع بينه وبين الكسائي، فجمع بينهما ، و ألقى عليه جماعة منهم الكسائي أسئلة في مسائل الخلاف بين المدرستين أجابهم فيها على مذهبه ، فخطّأوه ، ومنها قول العرب: «كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي» ، وقالوا أيضاً: « فإذا هو اياها»» فأنكر سيبويه الوجه الأخير، وسوّغه الكسائي، واحتكما إلى أعراب بالباب ، فوافقوا الكسائي، فخرج سيبويه من فوره إلى بلاد فارس ، ولم يعد إلى البصرة حتى مات سنة ١٧٧. انظر المسألة الزنبورية محللة في مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري جـ١ ص ٨٨-٩٠. ومعها قصيدة ميمية نظم فيها القصة الأديب اللغوي الإمام حازم القرطاجني صاحب المقصورة المشهورة.

وقام علماء البصرة من تلاميذ الخليل وسيبويه يهاجمون الكوفيين ويعيبون مذهبهم النحوي، ويطعنون في الوجوه التي يختارونها في قراءاتهم، وينكرون عليهم احتجاجهم بما لا يوثق به من اللغات والأشعار، وبمن لا يوثق بعربيتهم من سكان الأرياف.[1]

فهذا الأصمعي يحكي أن الكسائي أخذ اللغة عن أعراب الحطمة، ممن نزلوا بـ «قطربلّ» فلما ناظر سيبويه، استشهد بلغتهم عليه، فقال أبو محمد اليزيدي:

كنا نقيس النحو فيما مضى ... على لسان العرب الأول
فجاء أقوام يقيسونه ... على لغى أشياخ قُطْرُبُّلِ
فكلهم يعمل في ما نقض ما ... به نصاب الحق لا يأتلي
إن الكسائي وأصحابه ... يرقون في النحو إلى أسفل[2]

ونقرأ في مراتب النحويين لأبي حاتم السجستاني[3] مثل هذه الأحكام القاسية، فنقف على مقدار جناية النعرة المذهبية على أقدار العلماء، يقول أبو حاتم:

«فإذا فسرت حروف القرآن المختلف فيها، أو حكيت عن العرب شيئاً، فإنما

---

١- انظر أصول المدرسة الكوفية فيما قدمنا.

٢- انظره في طبقات المفسرين للداودي جـ١ ص ٤٠١ في ترجمة الكسائي رقم ٣٤٩.

٣- أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني نحوي البصرة ومقرئها وإمام مسجدها في زمانه، كان إماماً في علوم القرآن وعلوم اللغة، قرأ كتاب سيبويه على الأخفش وروى عن أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد توفي سنة ٢٤٨ وقيل ٢٥٤ ترجمته في الفهرست ص ٩٢- ومراتب النحويين جـ ١٣٠- ومعرفة القراء الكبار جـ ١ ص ١٧٩ طبقة ٦- غاية النهاية جـ ١ ص ٣٢٠- وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٣٠ترجمة ٢٨٢

أحكيه عن الثقات منهم مثل أبي زيد[1] والأصمعي و أبي عبيدة[2] ويونس وثقات من الأعراب الفصحاء وحملة العلم، ولا ألتفت إلى رواية الكسائي والأحمر [3] والأموي[4] والفراء ونحوهم، وأعوذ بالله من شرهم.[5]

ولا يخفى ما في هذا الكلام من التحامل ، وقال ابن درستويه[6]:

«كان الكسائي يسمع الشاذ الذي لا يجوز إلا في ضرورة، فيجعله أصلا، ويقيس عليه فأفسد النحو بذلك، ولقد تتبع الكوفيون كسائيهم فوسّعوا النحو، حتى قيل: لو توسعتم في اللغة ما لحنّتم أحدا».[7]

ويقول أبو حاتم مرةً أخرى في الكسائي:

---

١- أبو زيد الأنصاري سعيد بن أوس من صلبية الخزرج ، كان عالماً بالنحو إماماً في اللغة والغريب راوياً للحديث من الثقات الأثبات ، وله كتبٌ كثيرة في اللغة ذكرها ابن النديم في الفهرست توفي سنة ٢١٥. انظر الفهرست ص ٨٧- مراتب النحويين ص ٧٣-٧٦ وفي طبقات الداودي جـ ١ ص ١٧٩-١٨٠ ترجمة ١٧٩ أن أسمه أوس بن ثابت بن بشير. وذكر له تأليفاً في قراءة أبي عمرو.

٢- أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي مولاهم البصري، أول من صنف في غريب الحديث أخذ عن أبي عمرو والخليل ويونس وجماعة، وأخذ عنه أبو عبيد القاسم بن سلام وأبو حاتم والمازني ، أقدمه الرشيد من البصرة إلى بغداد وقرأ عليه ، وكان خارجيا، قال الجاحظ في البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٤٧: ولم يكن في الأرض خارجيٌ ولا جماعيٌ أعلم بجميع العلم منه، « من كتبه التي وصلتنا: « مجاز القرآن وهو تفسير لغوي مطبوع في مجلدين متوسطين . توفي سنة ١١٠ انظر ترجمته في مراتب النحويين ص ٧٧-٧٩ وبغية الوعاة جـ ٢ ص ٢٩٤- طبقات المفسرين للداودي جـ٢ ص ٢٢٦-٢٢٨ ترجمة ٦٢٨.

٣- أبو الحسن على بن المبارك الأحمر صاحب الكسائي ومؤدب الأمين بن الرشيد توفي سنة ١٩٤ . انظر ترجمته في تاريخ بغداد جـ ١٢ ص ١٠٤- مراتب النحويين ص ١٤٢ بغية الوعاه ١/ ١٥٨.

٤- أبو محمد عبد الله بن سعيد الأموي، أخذ اللغة والنحو عن الرؤاسي والكسائي وأبي زياد الكلابي. انظر مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص ١٤٤ الوعاة جـ٢/٤٣ ترجمة ١٣٨٤.

٥- مراتب النحويين ص ١٤٣.

٦ عبد الله بن جعفر بن محمد بن درستوريه قال ابن النديم: لقي المبرد وثعلباً وأخذ عنهما، وكان فاضلاً مفنناً في علوم كثيرة من علوم البصريين ، ويتعصب لهم عصبيةً شديدة ، توفي سنة نيف وثلاثين وثلاث مائة. انظر الفهرست ص ٩٩-١٠١ وانظر طبقات المفسرين للداودي جـ ١ ص ٢٢٣-٢٢٤ ترجمة ٢١٨ وقد ذكر له كتباً منها « تفسير السبع» ، و« الرد على الفراء في المعاني» وذكر وفاته سنة ٣٤٧.

٧ انظر الفكر السامي في تاريخ الفكر الاسلامي لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي جـ ٢ ص ١٠٧.

«لم يكن لجميع الكوفيين عالمٌ بالقرآن ولا كلام العرب، ولولا أن الكسائي دنا من الخلفاء فرفعوا قدره لم يكن شيئاً [1]، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل، إلا حكايات عن الأعراب مطروحة ، لأنه كان يلقنهم ما يريد ، وهو على ذلك أعلم الكوفيين بالعربية والقرآن، وهو قدوتهم وإليهم يرجعون».[2]

هذه آراء البصريين في الكوفيين وإمامهم في القراءة والنحو، ولا يخفى أن القضية كلها إنما هي قضية اختلاف المنهجين بين المدرستين ، يضاف إلى ذلك عامل التعصب للفريق.

فإذا رجعنا إلى الجانب الكوفي نجد ابن الأنباري [3] يقول: لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائي والفراء، لكان بهما الافتخار على جميع الناس، إذ انتهت العلوم إليهما ، وكان يقال: النحو = الفراء، والفراء = أمير المؤمنين في النحو».[4]

ومع هذا فقد كان أهل الكوفة أقل تعصباً لبلدهم من البصريين، إذ يذكر أبو الطيب اللغوي «أن أهل الكوفة كلهم يأخذون عن البصريين، ولكن أهل البصرة يمتنعون عن الأخذ عنهم ، لأنهم لايرون الذين يحكون عنهم حجة، ويذكرون أن في الشعر الذي يروونه ما قد شرحناه فيما مضى.»[5]

وهذا الإمام أبو عبد الله الشافعي الذي ليس بصرياً ولا كوفياً يقول : من أراد النحو فهو عيالٌ على الكسائي».[6]

---

١- ذكر ابن العربي في العواصم من القواصم جـ ٢ ص ١٩٩ أن إبن مجاهد لما جمع قراءات السبعة ذكر فيهم يعقوب الحضرمي ، فأسقط بالسلطان ، وذكر الكسائي، وألزمت المملكة ذلك للناس فجرى القول فيه كذلك .

٢- مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ص ١٢٠-١٢١ .

٣- تقدمت ترجمته.

٤- تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١٥٢ ترجمة يحيى بن زياد الفراء رقم ٧٤٦٤.

٥- مراتب النحويين ص ١٤٣ .

٦- إبراز المعاني من حرز الأماني للحافظ أبي شامة ص ٦.

ومعنى كل هذا أن اختلاف المنهجين في قضية اللغات المحتج بها، وما اعتبره نحاة البصرة شاذا، واعتبره الكوفيون مقيسا ، ثم موقف الطرفين من الاحتجاج بالقراءات القرآنية، كل هذا إلى جانب التعصب للمذهب والفريق كان وراء كل ماثار بين رجال المدرستين من الخصومة ، وما اشتجر من أحكام التجريح والنقد، والغريب أن لايقتصر التعصب على الأحياء الذين يتنافسون على النفوذ ، بل يتناول بعض من عاشوا في حقبة متقدمة على الحقبة التي نشب فيها الصراع بين المدرستين، وها هو أبو حاتم يهاجم نحاة الكوفة وقراءها في شخص حمزة بن حبيب المتوفى سنة ١٥٦ فيقول:

«وإنما أهل الكوفة يكابرون فيه ويباهتون ،فقد صيّره الجهال من الناس شيئاً عظيماً بالمكابرة والبهت وقول ذوي اللحى العظام منهم : كانت الجن تقرأ على حمزة ، قال: والجن لم تقرأ على ابن مسعود والذين بعده، فكيف خصت حمزة بالقراءة عليه؟ وكيف يكون رئيسا ، وهو لا يعرف الساكن من المتحرك ولا مواضع الوقف والاستئناف، ولا مواضع الوقف والوصل والهمز؟ وإنما يحسن مثل هذا أهل البصرة لأنهم علماء بالعربية، قراء رؤساء.»(١)

وحسبك بمثل هذا التحامل على حمزة ، وعلى الكوفيين في شخصه ، وسنرى أن الحملة على حمزة ليست مقصورةً على أبي حاتم ، ولكنها عند ابن قتيبة أيضاً، وهي عنده متوجهة إلى قراءته عموما. يقول في كتابه تأويل مشكل القرآن:

«وقد كان الناس يقرأون بلغاتهم كما أخبرتك ، ثم خلف قومٌ من بعد قوم من أبناء العجم وأهل الأمصار، ليس لهم طبع اللغة ، ولا علم التكلم ، فهفوا في كثير من الحروف وزلوا ، وقرأوا بالشاذ و أخلوا .

---

١- انظر مراتب النحويين ص ٥٢-٥٣.

«منهم رجل [1] ستر الله عليه عند العوام بالصلاح، وقربه من القلوب بالدين ، لم أر فيمن تتبعت وجوه قراءته أكثر تخليطا، ولا أشد اضطراباً منه، لأنه يستعمل في الحرف ما يدعه في نظيره ، ثم يؤصل أصلا ويخالف إلى غيره لغير علة، ويختار في كثير من الحروف ما لا مخرج له إلا على طلب الحيلة الضعيفة. هذا إلى نبذه في قراءته مذاهب العرب و أهل الحجاز بإفراطه في المد والهمز والإشباع، وإفحاشه في الإضجاع [2] والإدغام، وحمله المتعلمين على المركب الصعب..» [3]

نقرأ هذا في حق حمزة وقراءته المتواترة، فنحس بمبلغ جناية العصبية على أهلها، فإذا عدنا إلى المآخذ التي أخذها عليه، لم نجد فيها ما يثبت للنقد، إنه يتهمه بعدم الجري على أصول ثابتة في قراءته، «لأنه يستعمل في الحرف ما يدعه في نظيره،» «وأنه ينبذ في قراءته مذاهب العرب وأهل الحجاز»، وينسى ابن قتيبة ومن شايعه، أن الأمر عند حمزة لم يكن أمر منهج، إذ لم يكن يهمه أن يؤصل الأصول، ويخضع قراءته لمنهجية ثابتة لا يخرج عنها، ولكن الأمر عنده أمر رواية عن الشيوخ ، فهو يقرأ كما علم، ويؤدي كل حرف بالكيفية التي سمعها من الشيوخ ، وقد قال فيه أهل الخبرة به غير ما قاله ابن قتيبه وأمثاله، قال أبو حنيفة لحمزة:

«شيئان غلبتنا عليهما . لسنا ننازعك فيهما: القرآن والفرائض» [4]. وقال

---

١- قال الإمام ابن مطرف الكناني في كتابه «القرطين» الذي جمع فيه كتابي ابن قتيبة : « غريب القرآن، وتأويل مشكل القرآن» قال في ص ١٥-١٦ من الجزء الثاني حين وصل إلى كلام ابن قتيبة في حمزة قال : وباقي هذا الباب لم أكتبه ، لما فيه من الطعن على حمزة رحمه الله .»

٢- الإضجاع : مرتبة من مراتب الإمالة ، وهو الميل بالفتحة نحو الكسرة، وبالألف نحو الياء كثيراً ، وهو المحض ويقال له الإضجاع والبطح. انظر الإتقان للسيوطي جـ ١ ص ٢٥٦.

٣- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٤١.

٤- انظر معرفة القراء الكبار للذهبي جـ ١ ص ٩٤ ترجمة حمزة الطبقة ٤.

سفيان الثوري [1]: غلب حمزة الناس على القرآن والفرائض. [2] وكان يقول : «ما قرأت حرفاً من كتاب الله إلا بأثر». [3]

وكان شيخه سليمان بن مهران الأعمش إذا رآه قد أقبل قال: « هذا حبر القرآن». [4]

وقال الذهبي في ترجمته : «كان إماماً حجةً قيماً بكتاب الله تعالى، حافظاً للحديث، بصيراً بالفرائض والعربية، عابداً خاشعاً قانتاً لله، ثخين الورع، عديم النظير». [5]

وقد استمر ابن قتيبة في حملته على القراء من غير حمزة يحاسبهم بمقاييس أهل اللغة والنحو، فيقول: «وما أقل من سلم من هذه الطبقة في حرفه من الغلط والوهم، فقد قرأ بعض المتقدمين : (ما تلوته عليكم ولا أدرأتكم به) [6]، فهمز [7]، وإنما هو من دريت بكذا وكذا، وقرأ (وما تنزلت به الشياطون) [8] توهم أنها جمع بالواو والنون.

---

١- سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي ولد سنة ٩٧ كان إماماً في الفقه والحديث والتفسير والقراءة ثقةً مأموناً كثير الحديث ، توفي وهو مختف سنة ١٦١ وله تفسير رواه عنه أبو حذيفة النهدي وذكر الدكتور عبد الله محمود شحاتة في « علوم التفسير» ص ٣٦ أن تفسير سفيان طبع أخيراً بالهند. ترجمة سفيان في طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٤-٨٥. طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٣٧١ طبقات المفسرين للداودي جـ ١ ص ١٨٧-١٩٠ ترجمة ١٨٦. غاية النهاية جـ ١ ص ٣٠٨.

٢- معرفة القراء جـ ١ ص ٩٥.

٣- نفس المصدر حـ١ ص٩٢-٩٥.

٥- نفس المصدر حـ١ ص٩٢-٩٥.

٦- نفس المصدر حـ١ ص٩٢-٩٥.

٦- سورة يونس الآية ١٦.

٧- هي قراءة الحسن البصري ، وهي قراءةٌ صحيحةٌ قال أبو حيان في البحر المحيط جـ ٥ ص ١٣٣: قرأ بها ابن عباس وابن سيرين والحسن و أبو رجاء العطاردي.»

٨- سورة الشعراء الآية ٢١٠ وهي قراءة الحسن البصري، وقال الفراء : غلط الشيخ ، ظن أنها النون التي على هجائين ، انظر الكشاف للزمخشري جـ٣ ص ١٣١ ،وسيأتي رد النضر بن شميل على من خطأ الحسن فيها.

«وقرأ آخر: (فلا تشمت بي الأعداء)[1] بفتح التاء وكسر الميم ونصب (الأعداء)، وإنما هو من أشمت الله العدو فهو يشمته ، ولا يقال: «شمت الله العدو».

«وقرأ يحيى بن وثاب[2] (وإن تلوا أو تعرضوا)[3] من الولاية ، ولا وجه للولاية ههنا.[4]

وإنما هي (تلووا) من ليك الشهادة وميلك إلى أحد الخصمين عن الآخر، قال الله عز وجل: ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾[5]، واتبعه على هذه القراءة الأعمش وحمزة.»[6]

«وقرأ الأعمش (وما أنتم بمصرخي)[7] بكسر الياء، كأنه ظن أن الباء تخفض الحرف كله، واتبعه على ذلك حمزة.»[8]

---

١- سورة الأعراف الآية ١٥٠ (قال ابن أم ان القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ، فلا تشمت بي الاعداء). وهي قراءة ابن محيصن انظر البحر المحيط جـ ٤ ص ٣٩٦.

٢- يحيى بن وثاب الأسدي الكوفي تقدمت ترجمته.

٣- سورة النساء الآية ١٣٥.

٤- سبقه إلى انتقاد هذه القراءة الفراء في معاني القرآن جـ ١ ص ٢٩١ ولكنه حاول توجيهها فقال « (تلوا) و(تلووا) قد قرئتا جميعاً ، ونرى الذين قالوا تلوا أرادوا تلؤوا، فيهمزون الواو لانضمامها ثم يتركون الهمز، فيتحول إعراب الهمز إلى اللام ، فتسقط الهمزة ، إلا أن يكون المعنى فيها: تلوا ذلك يريد: تتلوه، أو تعرضوا عنه : أو تتركوه ، فهو وجه».

٥- سورة آل عمران الآية ٧٨.

٦- لا شك أنها عندنا قراءة صحيحة ، لانها قراءة متواترة ، قرأ بها من السبعة عبد الله بن عامر وحمزة، وقرأ بها يحيى بن وثاب والأعمش ، قال الدمياطي في الإتحاف ص ٢٢١ بعد ذكر من قرأ بها من القراء: ( ولا عبرة بطعن الطاعن فيها ، مع تواترها وصحة معناها)، وقد وجهها ابن خالويه في الحجة ص ١٢٧ فقال: « والحجة لمن قرأ ( تلوا) بواو واحدة: أنه جعله من الولاية ، يريد .« وان تلوا ذلك أو تتركوه».

٧- سورة الخليل الآية ٢٢.

٨- ضرب هنا على وتر يحيى بن زياد الفراء، فقد نقل عنه أبو حيان في البحر المحيط جـ ٥ ص ٤١٩ مثل هذا الكلام، ونقل عن الأخفش قوله: ما سمعت هذا من أحد من العرب ولا من النحويين، ونقل أيضاً عن الزجاج أنه قال : هذه القراءة عند جميع النحويين رديئة مرذولة ، ولا وجه لها إلا وجهٌ ضعيف». وقال الدمياطي البناء في الإتحاف ص ٢٢٦-٢٢٧: « اختلف في ( بمصرخي) فحمزة بكسر الياء ، وافقه الأعمش لغة بني يربوع، و أجازها قطرب والفراء وإمام النحو والقراءة واللغة أبو عمرو بن العلاء ، وهي متواترةٌ صحيحة ، والطاعن فيها غالط قاصر، ونفي النافي لسماعها لا يدل على عدمها ، فمن سمعها مقدمٌ عليه، إذ هو مُثبِت ، وقرأ بها أيضاً يحيى بن وثاب وحمران بن أعين وجماعةٌ من التابعين».

«وقرأ حمزة (ومكر السيىء، ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله)[1]، فجزم الحرف الأول، والجزم لا يدخل الأسماء ، و أعرب الآخر، وهو مثله.»[2]

«وقرأ نافع (فبم تبشرون) [3] بكسر النون مخففة ، ولو أريد بها الوجه الذي ذهب إليه الكاتب لكانت فبم تبشرونني ، بنونين ، لأنها في موضع رفع».[4]

ثم ذكر مثالاً آخر خطّأ فيه حمزة، ثم واصل كلامه قائلا: «وهذا يكثر، ولم يكن القصد في هذا الكتاب له، وستراه كله في كتابنا المؤلف في «القراءات»[5] إن شاء الله تعالى.»[6]

هكذا كانت المدرسة اللغوية البصرية تحاسب القراء بقواعدها و أقيستها التي دونت في غيبة القراءات كما قدمنا، وقد كانت ملاحظاته كما رأينا موجهةً إلى قراء أهل الكوفة بوجهٍ عام ، والملاحظ أنه يلتقي بالفراء في كثير من الانتقادات التي وجهها إلى القراء في كتابه « معاني القرآن» إلا أن الفراء كان كثيراً ما يحاول الاحتجاج للقراءة التي يحكيها، ويحاول توجيهها كما سيأتي، وهذا الاتجاه النقدي قد اختص به جماعةٌ من المؤلفين في معاني القرآن ، ولاسيما

---

١- سورة فاطر الآية ٤٣.

٢- يعني قرأ ( السيىء ) الأولى بخلاف الثانية ، وهذا ماعابه على حمزة في أنه لا يجري على أصلٍ ثابت ، وقد وجهت قراءة حمزة بهذا على أن فيها إجراء للوصل مجرى الوقف ، وانه جزم الاسم فراراً من توالي الحركات ، والجزم لتوالي الحركات شائعٌ عند القراء مثل أبي عمر في إسكانه لبارئكم ( ومايشعركم) وما شاكلها ، قال أبو حيان في تفسيره جـ ٧ ص ٣١٩ : « قرأ حمزة والأعمش بالإسكان ، ثم ذكر توجيه ذلك، وقال: وزعم الزجاج أن هذه القراءة لحن ، وزعم محمد بن يزيد المبرد أن هذا لايجوز في كلام ولا شعر ، لأن حركات الإعراب دخلت للفرق بين المعاني» وانظر من الأقوال في انتقاد هذه القراءة وتوجيهها في إعراب القرآن المنسوب للزجاج جـ ٢ ص ٨٤٢ والكشاف ٣١٢/٢.

٣- سورة الحجر الآية ٥٤

٤- انظر تخطئة أبي حاتم أيضاً لنافعٍ فيها في البحر المحيط جـ٥ ص ٤٥٨ وانظر في توجيهها الحجة لابن خالويه ص ٢٠٦-٢٠٧

٥- ذكره الداني في المنبهة م.خ.ع. ص ١٩ قال : وفي الفروع لأبي محمد – القتبي مختصر مجرد».

٦- تأويل مشكل القرآن ص ٤٣-٤٥

الفراء والزجاج[1] والنحاس[2]. وهم أكثر علماء اللغة تأثيراً في هذا المجال على المفسرين ، الذين كثيراً ما يأخذون أحكامهم تلك ويتبنونها في مهاجمة بعض القراءات كما فعل الطبري والزمخشري والشوكاني من المتأخرين.

وهذا قائمةٌ بأهم المفسرين اللغويين الذين ذكرت لهم تأليف في «معاني القرآن» بحسب الوفيات.

واصل بن عطاء الغزّال البصري المتوفى سنة ١٣١[3].

أبان بن تغلب الربعي الكوفي المتوفى سنة ١٤١[4].

محمد بن الحسن بن أبي سارة الرؤاسي المتوفى سنة ١٧٠[5]

يونس بن حبيب الضبي البصري المتوفى سنة ١٨٢[6]

علي بن حمزة الكسائي الأسدي مولاهم الكوفي المتوفى سنة ١٨٩[7]

أبو فيد مؤرج بن عمرو السدوسي البصري المتوفى سنة ١٩٥[8]

محمد بن المستنير الملقب بقطرب البصري المتوفى سنة ٢٠٦[9]

يحيى بن زياد الفراء التميمي الكوفي المتوفى سنة ٢٠٧[10]

---

١- أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج النحوي أقدم أصحاب المبرد ، من كبار نحويي البصرة وعلماء اللغة توفي سنة ٣١١. ترجمته في تاريخ بغداد جـ ٦ ص ٩٣ ترجمة ٣١٢٧- الفهرست لابن النديم ص ٩٦-٩٧ طبقات المفسرين للداودي جـ ١ ص ٧ بغية الوعاة جـ١/٤١١ ترجمة ٨٢٥.

٢- أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد بن اسماعيل المرادي المصري النحوي ، أخذ عن الأخفش الصغير علي بن سليمان وأخذ الحديث عن الإمام النسائي ، ومن أشهر كتبه « الناسخ والمنسوخ» وهو مطبوع توفي سنة ٣٢٨ انظر ترجمته في حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٢٨.

٣- ذكره الداودي في طبقات ترجمته في حسن المحاضرة جـ٢ص٢٥٦-٢٤٧.

٤- ذكره ابن النديم في الفهرست ص٢٢٢.

٥- الفهرست ص ٥٧-٥٨ هدية العارفين جـ ٢/٨ كشف الظنون جـ ٢ ص ١٧٣٠.

٦- الفهرست ص ٥٧-٥٨.

٧- تاريخ بغداد جـ ١١ ص ٤٠٢-٤٠٤ ترجمة ٦٢٩٠ الفهرست ص ٥٧ كشف الظنون جـ ٢ / ١٧٣٠.

٨- الفهرست ص ٥٧-٥٨

٩- الفهرست ٥٧-٥٨ كشف الظنون ٢/ ١٧٣٠.

١٠- مطبوع في جزئين ومحقق.

معمر بن المثنى أبو عبيدة التيمي البصري المتوفى سنة ١١٠[١] .

سعيد بن مسعدة أبو الحسن الأخفش الاوسط المتوفى سنة ٢٢١ [٢].

أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي الخراساني الانصاري المتوفى سنة ٢٢٤ [٣].

أبو عمر حفص بن عمر بن عبد العزيز الدوري البغدادي المتوفى سنة ٢٤٦ [٤].

القاضي اسماعيل بن إسحاق المالكي البغدادي المتوفى سنة ٢٨٢ [٥].

أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري البغدادي المتوفى سنة ٢٧٦ [٦].

أبو العباس المبرد محمد بن يزيد الأزدي البغدادي المتوفى سنة ٢٨٦ [٧].

أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد الشيباني إمام الكوفيين المشهور بثعلب المتوفى سنة ٢٩١ [٨].

ابن كيسان محمد بن أحمد بن إبراهيم النحوي صاحب المبرد وثعلب المتوفى سنة ٢٩٩ [٩].

سلمة بن عاصم البغدادي صاحب الفراء المتوفى بعد سنة ٢٧٠ [١٠].

أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج البغدادي المتوفى سنة ٣١١ [١١].

أبو بكر بن الخياط محمد بن أحمد النحوي المتوفى سنة ٣٢٠ [١٢] .

أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار المشهور بابن الأنباري الكوفي

---

١- الفهرست ص ٥٧ بغية الوعاة جـ ٢ ص ٢٩٤ طبقات المفسرين للداودي جـ ٢ ص ٣٢٦-٣٢٨.

٢- الفهرست ص ٥٧ كشف الظنون جـ ٢/ ١٧٣٠ طبقات الداودي جـ ١ ص ١٨٦ ترجمة ١٨٥.

٣- تاريخ بنداد جـ ١٢ ص ٤٠٥ الديباج المذهب ص ٩٥ طبقات الداودي جـ ١ ص ١٠٦-١٠٧.

٤- طبقات الداودي جـ ١ ص ١٦٢-١٦٣ ترجمة ١٥٩.

٥- تاريخ بغداد جـ ٦ ص ٢٨٤ ترجمة ٣٣١٨ الديباج المذهب ص ٩٣-٩٥ طبقات الداودي ١/ ١٠٧.

٦- طبقات الداودي ١ /٢٤٥.

٧- تاريخ بغداد جـ ٣ / ٣٨٠.

٨- كشف الظنون ٢ / ١٧٣٠

٩- نفس المصدر ٢/ ١٧٣٠

١٠- طبقات الداودي ١/ ١٩٥.

١١- فهرست ابن خير الإشبيلي ص ٥٤.

١٢- كشف الظنون جـ ٢/ ١٧٣٠

المذهب المتوفى سنة ٣٢٨.(١)

أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد بن اسماعيل المرادي المصري المتوفى سنة ٣٢٨ (٢)

ابن درستويه عبد الله بن جعفر النحوي صاحب المبرد المتوفى سنة ٣٤٧ (٣)

أبو الحسن الرماني على بن عيسى النحوي المعتزلي الشيعي المتوفى سنة ٣٨٤.(٤)

أبو بكر محمد بن عبد الله بن أشته الأصبهاني المتوفى سنة ٣٦٠.(٥)

مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني ثم الأندلسي المتوفى سنة ٤٣٧.(٦)

أبو داود سليمان بن نجاح المقرئ صاحب أبي عمرو الداني المتوفى سنة ٤٩٦ (٧)

هذه أهم المؤلفات المعنونة بـ « معاني القرآن» والتي تحفل بالنقول عنها كتب التفسير وتوجيه القراءات ، ولم أشر إلى بعض من ذكر لهم ابن النديم فيها تأليفاً مقتصراً على المشهور ، كما لم أتعرض للكتب التي تتناول من ذلك بعض ما تتناوله كتب المعاني ، ككتب التفسير والإعراب والقراءات وغريب القرآن وكتب الإعجاز والبيان.

وسوف نرى كيف أثرت الرواية عن المؤلفين في المعاني في الموازنة بين القراءات عند المفسرين في ضوء ما رآه زعماء هذه المدرسة أو تلك من آراء واعتبارات، وسيكون منطلقنا من « معاني القرآن» للفراء لنرى كيف كانت بعض القضايا التي أثارها في كتابه في المعاني ذات أثرٍ بعيدٍ في كثيرٍ من الأحكام النقدية التي وجهت إلى طائفةٍ من القراءات:

---

١- طبقات الداودي ٢/٥٦٢

٢- فهرست ابن خير ص ٥٤

٣- الفهرست ص ٥٦-٥٧.

٤- طبقات الداودي جـ ١/ ٤٢١

٥- نفس المصدر جـ ٢ / ١٥٧

٦- في فهرست ابن خير ص ٤١ أن لمكي كتاب الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأنواع علومه سبعين جزءا . وهو من مروياته عن شيوخه.

٧- طبقات الداودي جـ ١ ص ٢٠٧ ترجمة ١٩٩.

**نموذج أول:** قراءة حمزة ( ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألاّ يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ).[1]

قال الفراء في معاني القرآن:

«وفي قراءة عبد الله ( إلا أن تخافوا ) ،فقرأها حمزة على هذا المعنى ( إلا أن يخافا ) بضم الياء، ولا يعجبني ذلك ، وقرأها بعض أهل المدينة كما قرأها حمزة».[2]

وقال الإمام القرطبي بعد أن ذكر قراءة الجمهور ( إلا أن يخافا ) بفتح الياء، ووجه معناها قال: « وقرأ حمزة ( إلا أن يخافا ) بضم الياء على ما لم يسم فاعله ، والفاعل محذوف ، وهو الولاة والحكام واختاره أبو عبيد [3] قال: لقوله عز وجل : ( فإن خفتم.. ) قال: فجعل الخوف لغير الزوجين ، و لو أراد الزوجين لقال: فإن خافا، وفي هذا حجة لمن جعل الخلع للسلطان».

ثم ذكر من قال من الفقهاء : إن الخلع إلى السلطان ، واعتراض النحاس على ذلك قال:

« وقد أنكر – النحاس – اختيار أبي عبيد ورده، وقال: « ما علمت في اختياره شيئاً ابعد من هذا الحرف لأنه لا يوجبه الإعراب ولا اللفظ ولا المعنى ثم اطال في شرح ذلك.[4]

**نموذج ثان:** قراءة حمزة وجماعة ( واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام)[5] بجر (الأرحام) قال الفراء في معانيه بعد أن ذكر بسنده أنها

---

١- سورة البقرة الآية ٢٢٩.
٢- معاني القرآن جـ١ ص ١٤٥-١٤٦. قال : « وهي في قراءة أُبيّ: ( إلا أن يظنا ألا يقيما حدود الله )».
٣- القاسم بن سلام تقدمت ترجمته.
٤- انظر تفسير القرطبي جـ ٣ ص ١٣٨ نقلاً عن معاني القرآن لأبي جعفر النحاس.
٥- سورة النساء الآية الأولى.

قراءة إبراهيم[1]:

«هو كقولهم: بالله والرحم، وفيه قبح، لأن العرب لا ترد مخفوضاً على مخفوض وقد كني [2] عنه، وإنما يجوز هذا في الشعر لضيقه».[3]

وههنا يلتقي الفراء بالمدرسة البصرية في منعها عطف الظاهر المجرور على ضمير مجرور، وليس هذا بالمذهب الذي ذهب إليه الكوفيون المتأخرون.

فمن المدرسة البصرية يقول الزجاج في كتابه «معاني القرآن» :

«القراءة الجيدة: نصب (الأرحام)، و المعنى: واتقوا الأرحام أن تقطعوها».

«فأما الجر فخطأ في العربية ، لا يجوز ، إلا في اضطرار شاعر، وخطأ أيضاً في أمر الدين عظيم ، لأن النبي ﷺ قال: لاتحلفوا بآبائكم».[4]

ومن الغريب الاعتراض على قراءة متواترة بمثل هذه التعلات ، والغريب أيضاً أن تنطلي على إمام في التفسير كابن عطية فيقول على نمط الزجاج:

ويرد عندي هذه القراءة من المعنى وجهان:

أحدهما: أن ذكر الأرحام فيما يتساءل به، لا معنى له في الحض على تقوى الله، ولا فائدة فيه أكبر من الإخبار بأن الأرحام يتساءل بها، وهذا تفرق في

---

١- إبراهيم بن يزيد بن الأسود النخعي شيخ الفقه في الكوفة وأستاذ أبي حنيفة قال الشعبي: ماخلف بعده مثله ، والعجب له حين يفضل ابن جبير على نفسه ، وسأخبركم عن ذلك : إنه نشأ في بيت فقه فأخذ فقههم ، ثم جالسنا فأخذ صفو حديثنا إلى فقه أهل بيته، فمن كان مثله؟ » توفي سنة ٩٦ انظر ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٦ ص ٢٧٠ وطبقات الفقهاء للشيرازي ص ٨٢ ومرآة الجنان جـ ١/ ١٩٨.

٢- يعني بـ «لاتعطف مخفوضاً على مخفوض» أي لاتعطف اسماً ظاهراً مجروراً على اسم مجرور ذكر ضميره.

٣- معاني القرآن جـ ١ ص ٢٥٢-٢٥٣.

٤- النص نقله الدكتور عبد العال سالم مكرم في كتابه « القرآن الكريم و أثره في الدراسات النحوية » ص ١٤٨. نقلاً عن معاني القرآن للزجاج وذكر في التعليق أنه مخطوط منه نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١١١ تفسير.

معنى الكلام وغض من فصاحته، وإنما الفصاحة أن يكون لذكر الأرحام فائدةً مستقلة».

والوجه الثاني: أن في ذكرها على ذلك تقريراً للتساؤل بها والقسم بحرمتها، والحديث الصحيح يرد ذلك، في قوله عليه السلام: من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت».

قال: وقالت: طائفة: إنما خفض (والارحام) من جهة القسم من الله على ما اختص به لا إله إلا هو من القسم بمخلوقاته، ويكون المقسم فيما بعد من قوله: (ان الله كان عليكم رقيبا)، وهذا كلامٌ يأباه نظم الكلام وسرده، وإن كان المعنى يخرجه».[1]

وهكذا وقع ابن عطية على غير عادته في إسار القياس النحوي والمقتضى المعنوي وآراء الزجاج السابقة ولذلك استغرب منه أبو حيان هذا الموقف فقال:

«وأما قول ابن عطية: ويرد عندي هذه القراءة من المعنى وجهان.. فجسارة قبيحة منه لاتليق بحاله، ولا بطهارة لسانه، إذ عمد إلى قراءة متواترة عن رسول الله ﷺ، قرأ بها سلف الأمة واتصلت بأكابر القراء من الصحابة الذين تلقوا القرآن عن رسول الله ﷺ بغير واسطة: عثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت، وأقرأ الصحابة: أبي بن كعب، عمد إلى ردها بشيء خطر له في ذهنه، وجسارته هذه لا تليق إلا بالمعتزلة كالزمخشري، فانه كثيراً ما يطعن في نقل القراء وقراءاتهم».

ثم قال أبو حيان منتصراً لهذه القراءة:

«ولسنا متعبدين بقول نحاة البصرة ولا غيرهم، فكم حكم ثبت بنقل الكوفيين

---

١- المحرر الوجيز لابن عطية جـ ٤ ص ١٠

من كلام العرب، لم ينقله البصريون، وكم حكم ثبت بنقل البصريين، لم ينقله الكوفيون، وإنما يعرف هذا من له استبحارٌ في علم العربية، لا أصحاب الكنانيش المشتغلون بضروبٍ من العلوم، الآخذون عن الصحف دون الشيوخ».[1]

إن المسألة لا تعدو إذن أن تكون مسألةَ خلافٍ مذهبي بين المدرستين النحويتين، ولذلك نجد الإمام ابن خالويه يسبق إلى الانتصار لجواز العطف في مثل هذا فيقول:

«فأما الكوفيون فأجازوا الخفض، واحتجوا للقارئ بأنه أضمر الخافض، واستدلوا بأن العجاج[2] كان إذا قيل له: كيف تجدك؟ يقول: خير عافاك الله، يريد بخير. قال: « وإذا كان البصريون لم يسمعوا الخفض في مثل هذا، ولا عرفوا إضمار الخافض فقد عرفه غيرهم.[3]

وذكر أبو البركات الأنباري في الإنصاف «أن الكسائي وجمهور الكوفيين ذهبوا إلى إجازة العطف مطلقا واحتجوا على ذلك بأشعارٍ كثيرة، كما احتجوا بقوله تعالى: (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) بخفض ( والأرحام) عطفاً على الضمير في (به)، وأبى ذلك البصريون اختيارا».[4]

فانظر إلى اختلاف منهجي المدرستين: مدرسة ترد القراءة بالقاعدة النحوية، وأخرى تثبت القاعدة وتحتج لثبوتها بالقراءة، وهذا منشأ الخلاف في جوهره في النظر إلى مثل هذه القراءات.

---

١- البحر المحيط لأبي حيان جـ ٢ ص ١٥٩.

٢- العجاج عبد الله بن رؤبة بن لبيد السعدي التميمي الراجز المشهور، ولد في الجاهلية وقال الشعر فيها وأسلم وعاش إلى أيام الوليد بن عبد الملك ففلج وأقعد، وهو أول من رفع بالرجز وشبهه بالقصيد، انظر الأعلام للزركلي جـ ٤ ص ٢١٨.

٣- الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص ١١٩.

٤- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين المسألة رقم ٥٠ والبيان له ١/ ٢٤٠.

**نموذج ثالث:** قراءة ابن عامر بالفصل بين المتضايفين في قوله تعالى: ﴿وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم..﴾[1]

قرأ ابن عامر بضم الزاي وكسر الياء من (زين) ورفع لام (قتل) ونصب دال (أولادهم) وخفض همزة (شركائهم) بإضافة قتل إليه ، وهو فاعل في المعنى، وقد فصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول وهو (أولادهم).»[2]

لم يرتضِ الفراء في معانيه هذه القراءة ، إذ لم يشر إليها إطلاقا، واقترح أن تقرأ بطريقتين غيرها فقال: « وفي بعض مصاحف أهل الشام ( شركائهم) بالياء، فإن تكن مثبتة عن الأولين ، فينبغي أن يقرأ ( زين) بالبناء للمفعول، وتكون الشركاء هم الأولاد، لأنهم منهم في النسب والميراث ، فإن كان أهل الشام يقرأون زين بالفتح ، فلست أعرف جهتها، ثم قال:

«وإن شئت جعلت ( زين) إذا فتحته فعلاً لإبليس ، ثم تخفض الشركاء باتباع الأولاد.

وليس قول من قال: فزججتها متمكنا – زج – القلوص – أبي مزادة [3] بشيء، وهذا إنما كان يقوله نحويوا الحجاز، ولم تجد مثله في العربية».[4]

لقد فتح الفراء بهذا التخريج المجال أمام كثيرٍ ممن تصدوا لهذه القراءة المتواترة بعده، فذهبوا في ردها كل مذهب، ناظرين إليها بأعين النحاة ، لا بمنظار القراء الرواة، فهذا الطبري يقول في قراءة ابن عامر: « وقرأ ذلك بعض قراء الشام (وكذلك زين) بضم الزاي ( لكثير من المشركين قتل) بالرفع (أولادهم) بالنصب(شركائهم) بالخفض ، بمعنى: وكذلك زين لكثيرٍ من المشركين قتل أولادهم شركائهم ، ففرقوا بين الخافض والمخفوض بما عمل فيه

---

١- سورة الأنعام الآية ١٣٧.

٢- النشر في القراءات العشر جـ ٢ ص ٢٦٣ وقد أفاض في توجيهها.

٣- القلوص: الناقة الشابة. وأبو مزادة: كنية رجل.

٤- معاني القرآن جـ ١ ص ٣٥٧-٣٥٨.

من الاسم ، وذلك في كلام العرب قبيح غير فصيح». ثم أعاد ما قاله الفراء دون أن يذكره فقال:

«وقد روي عن بعض أهل الحجاز بيتٌ من الشعر يؤيد قراءة من قرأ بما ذكرت من قراءة أهل الشام رأيت رواة الشعر وأهل العلم بالعربية من أهل العراق ينكرونه، وذلك قول قائلهم:

فزججته متمكناً زجَّ – القلوص – أبي مزادة[1]

ثم قال : وإنما قلت لا أستجيز القراءة بغيرها لإجماع الحجة من القراء عليها، وأن تأويل أهل التأويل بذلك ورد ، ففي ذلك أوضح البيان على فساد ماخالفها من القراءة ، ثم قال مرددا كلمات الفراء دون عزو:

«ولو لا أن تأويل أهل التأويل بذلك ورد ، ثم قرأ قارئ (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم) بضم الزاي من ( زين) ورفع القتل وخفض الأولاد والشركاء ، على أن الشركاء مخفوضون بالرد على الأولاد ، بأن الأولاد شركاء آبائهم في النسب والميراث [2] ، كان جائزا ، ولو قرأه كذلك قارئ غير أنه رفع الشركاء وخفض الأولاد ، كما يقال « ضُرب عبد الله أخوك» فيظهر الفاعل بعد أن جرى الخبر بما لم يسم فاعله كان ذلك صحيحاً في العربية جائزا».[3]

وهكذا تمحل الفراء وابن جرير لدفع قراءةٍ متواترة ، ثم حاول كل منهما اقتراح صيغتين للقراءة مع توجيهها ، ولو بوجهٍ متعسفٍ كما فعل ابن جرير في الوجه الأخير.

---

١- ورد البيت برواية فيها: فزججتها بمزجة بدل قوله متمكنا ، انظر البيت وشرحه في شرح شواهد الكشاف المسمى « تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات » لمحب الدين أفندي وهو منشور بذيل المجلد الأخير من تفسير الكشاف والبيت المذكور في ص ٣٧٢ بذيل الجزء الرابع.

٢- هذه عبارة الفراء المتقدمة.

٣- جامع البيان جـ ٨ ص ٤٣-٤٤ .

وظلت هذه الأحكام المنطلقة من القياس النحوي تتناقل، فيقول أبو جعفر النحاس:

«إن هذه القراءة لا تجوز في كلام ولا شعر ، وهو – أي : الفصل بين المضاف والمضاف إليه- بالمفعول به – بعيد ، فإجازته في القرآن أبعد».(1)

وقال أبو غانم النحوي:(2)

«إن قراءة ابن عامر هذه لا تجوز في العربية وهي زلة عالم ، و إذا زل العالم لم يجز اتباعه ، ورد قوله إلى الإجماع».(3)

وجاء الزمخشري في القرن السادس فقال:

«وأما قراءة ابن عامر ( قتل أولادهم شركائهم) برفع القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء ، والفصل بينهما بغير الظرف، فشيء لو كان في مكان الضرورات ، وهو الشعر ، لكان سمجاً مردوداً، كما سمج ورد « زج القلوص أبي مزادة » فكيف به في الكلام المنثور؟ فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته؟ ثم قال:

«والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف (شركائهم) مكتوباً بالياء، ولو قرئ بجر الأولاد والشركاء، لكون الأولاد شركاءهم في أموالهم، لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب».(4)

وأخيراً جاء القاضي محمد بن علي الشوكاني في القرن الثالث عشر فانحاز في

---

١- انظر فتح القدير للشوكاني جـ ٢ ص ١٥٧- ١٥٨

٢- أبو غانم المظفر بن أحمد بن حمدان المصري مقرئ نحوي من أصحاب أحمد بن هلال وسمع الحروف من موسى بن أحمد عن ابن مجاهد . ألّف في اختلاف السبعة مات سنة ٣٣٣هـ ترجمته في معرفة القراء جـ ٢ ص ٢٣٠ حسن المحاضرة ٢٠٨/١

٣- فتح القدير ١٥٧/٢-١٥٨.

٤- الكشاف جـ ٢ ص ٥٤.

تفسيره لآراء النحاة البصريين ، وقال يرد قراءة ابن عامر ويطعن في تواترها:

«وأقول: دعوى التواتر باطلة ، فمن قرأ بما يخالف الوجه النحوي فقراءته رد عليه».[1]

وقد تحولت عند أبي البركات الأنباري الاحتمالات التي تحتملها كتابة (شركائهم) بالياء والتي ذكرها الفراء والطبري ، فحكى عن ابن عامر أنه قرأ بها، فذكر في كتاب البيان له قراءته الأولى وقال:

«ومثل هذا لا يكون في الاختيار بإجماع، وروي أيضاً عن ابن عامر أنه قرأ (أولادهم) بجر الأولاد والشركاء ، على أن يجعل الشركاء بدلاً من الأولاد، لأن الأولاد يشاركون أباهم في الأموال والأولاد والنسب والدين. وقراءة ابن عامر هذه أشبه من قراءته الأولى[2] ، وإن كانت لا تنفك من بعد.[3]

وقد ذكر في كتابه الإنصاف حجج الكوفيين وشواهدهم الكثيرة على جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه ، ولكنه في مناقشته يبدو ميالاً إلى مذهب البصريين ، ولذلك يقول : « وأما قراءة ابن عامر فالبصريون يذهبون إلى وَهْي هذه القراءة ، ووهم القارئ بها، إذ لو كانت صحيحةً لكان ذلك من أفصح الكلام، وفي وقوع الإجماع على خلافه دليل على وَهْي القراءة، ثم ردد أيضاً ما ردده غيره من أن الذي حمله على قراءتها كذلك أنه رأى (شركائهم) مكتوبةً بالياء.[4]

ولا يخفى ما في كل هذه الأحكام من تهويلاتٍ وجراءةٍ على رد قراءةٍ متواترةٍ عن رجلٍ كابن عامر من أرومة عربيةٍ أصيلة، وهو إنما قرأ مع ذلك بما تلقاه عن الشيوخ ، ومايشهد له المرسوم في المصحف الإمام الشامي.

١- فتح القدير للشوكاني جـ٢ ص١٥٨.
٢- لم أر أحداً نسب مثل هذه القراءة لابن عامر ، في كتب القراءات ولا التفاسير.
٣- البيان في غريب إعراب القرآن جـ ١ ص ٣٤٣.
٤- الإنصاف في مسائل الخلاف جـ ١ ص ٢٤٩-٢٥٢.

وقد نبه الإمام ناصر الدين ابن المنير[1] في تعقبه لصاحب الكشاف على خطورة محاكمة مثل هذه القراءات إلى مقاييس النحاة فقال معقبًا، ومفنداً لما ذهب إليه الزمخشري فيما أسلفنا:

«وأنا أبرأ إلى الله و أُبرّئ حملة كتابه وحفاظ كلامه، مما رماهم به ، فإنه تخيل أن القراء أئمة الوجوه السبعة ، اختار كل منهم حرفاً قرأ به اجتهادا، لا نقلاً وسماعا ، فلذلك غلّط ابن عامر في قراءته هذه . ثم قال:

«فهذا كله ظن الزمخشري أن ابن عامر قرأ قراءته هذه رأياً منه، وكان الصواب خلافه، والفصيح سواه، ولم يعلم الزمخشري أن هذه القراءة بنصب الأولاد، والفصل بين المضاف والمضاف إليه، بها يعلم ضرورة أن النبي ﷺ قرأها على جبريل، كما أنزلها عليه كذلك ، ثم تلاها النبي ﷺ على عدد التواتر من الأئمة ، ولم يزل عدد التواتر يتناقلونها ، ويقرأون بها خلفاً عن سلف إلى أن انتهت إلى ابن عامر ، فقرأها أيضاً كما سمعها ، فهذا معتقد أهل الحق في جميع الوجوه السبعة، أنها متواترةً جملةً وتفصيلاً عن أفصح من نطق بالضاد، فإذا علمت العقيدة الصحيحة فلا مبالاة بعدها بقول الزمخشري ولا بقول أمثاله ممن لحّن ابن عامر ، وظن أن القراءة بالرأي ، غير موقوفة على النقل . والحامل على ذلك هو التغالي في اعتقاد اطراد الأقيسة النحوية ، فظنها قطعيةً، حتى يُرَدَّ ما يخالفها.[2]

---

١- ناصر الدين أحمد بن محمد بن منصور الجذامي المالكي قاضي الإسكندرية ولد سنة ٦٢٠ وتوفي سنة ٦٨٣. من مؤلفاته القيمة كتاب « الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال . ترجمته في حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢٧ بغية الوعاة جـ ١ ص ٢٨٤ شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٨١.

٢- الانتصاف من الكشاف بأسفل صفحات الكشاف جـ ٢ ص ٥٣.

وقد أفاض أبو حيان في الاحتجاج لقراءة ابن عامر هذه، وذكر «أن بعض النحويين أجاز الفصل بين المضاف والمضاف إليه [1] لوجودها في هذه القراءة المتواترة، المنسوبة إلى العربي الصريح المحض ابن عامر، الذي أخذ القرآن عن عثمان بن عفان، قبل أن يظهر اللحن في لسان العرب، ولوجودها أيضاً في لسان العرب في عدة أبيات». [2]

وقال الإمام القمي النيسابوري[3] في تفسيره عند إيراد قراءة ابن عامر هذه:

«والحق عندي في هذا المقام، أن القرآن حجةٌ على غيره، وليس غيره حجةً عليه، والقراءات السبع كلها متواترة، فكيف يمكن تخطئة بعضها، فإذا ورد في القرآن المعجز مثل هذا الترتيب، لزم القول بصحته وفصاحته.»[4]

ومثل ذلك عند ابن الجزري في النشر بمزيد من التفصيل والشواهد من القراءات والأشعار والحديث.[5]

**نموذج رابع:** قراءة قوله تعالى ﴿واذ واعدنا موسى﴾[6] وماشابهها بألف.

قال الإمام القرطبي في تفسيره: «قرأ أبو عمرو (وعدنا) بغير ألف، واختاره أبو عبيد ورجحه، وأنكر (واعدنا) قال: لأن المواعدة إنما تكون من البشر، فأما الله عز وجل فإنما هو المنفرد بالوعد والوعيد، على هذا وجدنا

---

١- ممن أجاز ذلك الإمام جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الجياني الأندلسي فقال في الكافية الشافية متحدثاً عن جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه:

وحجتي قراءة ابن عامر – فكم لها من عاضد وناصر

٢- البحر المحيط جـ ٤ ص ٢٢٩-٢٣٠

٣- نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري صاحب تفسير غرائب القرآن ، انظر بغية الوعاة للسيوطي جـ ١ ص ٥٢٥ ترجمة رقم ١٠٨٨.

٤- غرائب القرآن ورغائب الفرقان جـ ٢ ص ١٠٩.

٥- النشر في القراءات العشر جـ ٢ ص ٢٦٣- ٢٦٥.

٦- سورة البقرة الآية ٥١ وفي سورة الأعراف الآية ١٤٢ وفي سورة طه ( وواعدناكم جانب الطور ) الآية ٨٠.

القرآن كقوله: ﴿وعدكم وعد الحق﴾[1] وقوله : ﴿واذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾.[2]

قال مكي[3]: «وأيضاً فإن ظاهر اللفظ فيه وعدٌ من الله تعالى لموسى، وليس فيه وعدٌ من موسى فوجب حمله على الواحد، لظاهر النص: أن الفعل مضاف إلى الله تعالى وحده، وهي قراءة الحسن و أبي رجاء[4] وأبي جعفر وشيبة[5] وعيسى بن عمر[6]، وبه قرأ قتادة وابن إسحاق.[7]

قال أبو حاتم: قراءة العامة عندنا (وعدنا) بغير ألف، لأن المواعدة إنما تكون بين المخلوقين والمتكافئين كل واحدٍ منهما يعد صاحبه».[8]

ثم نقل القرطبي بعد هذا رد النحاس وتخطئته لأبي عبيد ومن فهم المواعدة كما فهمها فقال:

«والاختيار (واعدنا) بالألف، لأنه بمعنى (وعدنا) في أحد معنييه، ولأنه لابد لموسى من وعد أو قبولٍ يقوم مقام الوعد، قال النحاس:

«وقراءة (واعدنا) بالألف أجود وأحسن، وهي قراءة مجاهد والأعرج[9] وابن كثير ونافع والأعمش ، وحمزة والكسائي».

«وليس قوله عز وجل ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات﴾[10]

---

١- سورة الخليل الآية ٢٢.
٢- سورة الانفال الآية ٧.
٣- مكي بن أبي طالب القيرواني انظر ترجمته فيما تقدم.
٤- أبو رجاء عمران بن ملحان العطاردي تقدمت ترجمته.
٥- شيبة بن نصاح المدني انظر ترجمته فيما تقدم.
٦- عيسى بن عمر الهمداني انظر ترجمته فيما تقدم.
٧- محمد بن إسحاق صاحب السيرة انظر ترجمته فيما تقدم.
٨- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١ ص ٣٣٦
٩- هو عبد الرحمن بن هرمز المدني أحد شيوخ نافع. تقدمت ترجمته.
١٠- سورة النور الآية ٥٥.

من هذا في شيء، لأن (واعدنا موسى) إنما هو من باب الموافاة ، وليس هذا من الوعد والوعيد في شيء، وإنما هو من قولك: «موعدك يوم الجمعة» و « موعدك موضع كذا»، والفصيح في هذا أن يقال: «واعدته».(١) (٢)

وهكذا أراد اللغويون والنحاة أن تكون أحكامهم قاضيةً على القراءة ، وأن يكون الخضوع لمقاييسهم معياراً للقبول والرد فيما يقرأ به من الوجوه، وجاء معظم المفسرين فتلقوا أحكامهم هذه مسلمة ، وتعاملوا حتى مع القراءات المتواترة على أساسها، ولذلك وجدنا كثيراً من الأحكام المتطرفة تصدر منهم نحو القراء و القراءات، وأكثر المفسرين الذين تحمسوا لهذه القواعد و تمسكوا بها مستميتين في الموازنة بين القراءات الإمام ابن جرير الطبري والعلامة جار الله الزمخشري.

وفي الفصل التالي بحول الله سنقف مع كل منهما وقفات عند طائفة من الآيات، لنتبين كيف جنى عليهما المذهب اللغوي، والانطلاق في التعامل مع القراءات من منطلق خاطئ في أساسه، إذ يحاسب القراءات بمعايير وضعت في غيبتها ، وهي معايير لم يسلمها النحويون فيما بينهم بعضهم لبعض فضلاً عن أن تغدو هي المحتكم إليها فيما يعرض من الخلاف.

---

١- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١ ص ٣٣٦.

٢- نقل الإمام الزركشي عن صاحب التحرير- يعني : محمد بن سليمان المعروف بابن النقيب الأندلسي- قال وقد ذكر التوجيه في قراءة( وعدنا ) و ( واعدنا): « لاوجه للترجيح بين بعض القراءات السبع وبعض في مشهور كتب الأئمة من المفسرين والقراء والنحويين ، وليس ذلك راجعاً إلى الطريق ، حتى يأتي هذا القول ، بل مرجعه ما يتعلق بكثرة الاستعمال في اللغة والقرآن، أو ظهور المعنى بالنسبة إلى ذلك المقام ، وحاصله أن القارئ يختار رواية هذه القراءة على رواية غيرها، أو نحو ذلك وقد تجرأ بعضهم على قراءة الجمهور ( فنادته الملائكة) فقال: أكره التانيث ، لما فيه من موافقة دعوى الجاهلية، في زعمها أن الملائكة إناث، وكذلك كره بعضهم قراءة من قرأ بغير تاء، لأن الملائكة جمع.» وهذا كله ليس بجيد ، والقراءتان متواترتان ، فلا ينبغي أن ترد إحداهما البته.» البرهان ١ص ٣٤٠-٣٤١.

# الفصل الرابع:

## الموازنة بين القراءات في ضوء التراث اللغوي عند الطبري والزمخشري في التفسير

وصل إلى يدي بعد كتابتي لمسودة هذا الفصل كتيبٌ لطيفُ الحجم، ولكنه في موضوعه مفيد، هو: كتاب «دفاع عن القراءات المتواترة في مواجهة الطبري المفسر» لمؤلفه الدكتور لبيب السعيد[1]، وقد قرأت هذا الكتيب فسرني أني التقيت معه في الفكرة العامة، كما تواردنا معاً على بعض المآخذ التي تؤخذ على الطبري في موقفه في تفسيره « جامع البيان» من القراءات، وأعجبني فيه أنه هو أيضاً اعتبر الطبري ضحية التراث اللغوي الذي بهر العيون بسحره، وفرض سلطانه على إمام في العلوم النقلية، مثل ابن جرير أراد أن يكون في تفسيره مثال العالم النقلي الأمين، الملتزم بما أثر عن السلف، لا يتعداه قيد أنملة.

وقد أبدى الدكتور لبيب استغرابه من موقفه من هؤلاء القراء «وقد عاش الأئمة أصحاب القراءات السبع المجمع على تواترها، وكذا الأئمة الثلاثة المكملون للعشر، والمعتبرة قراءاتهم في صف السبع، والموصوف منكر تواترها بالجهل، عاشوا جميعاً قبل الطبري، بعضهم بعشرات السنين، وبعضهم بعشرات أقل، فكانت قراءاتهم جميعاً شائعةً مستفيضةً أيام كان الطبري يشتغل في القراءات... وهذا مما يشعر أن هذه القراءات إنما هي مما كان الطبري قد أقر مبكراً تواتره، ولهذا نعجب أشد العجب حين نراه يخرق أحياناً كثيرةً الإجماع المنعقد على أن هذه القراءات في المرتبة سواء، فيقدم بعضها إلى الأولوية بالصواب، ويؤخر بعضها الآخر عن الأولوية، أو يحرمها بالكلية صفة الصواب».

---

١- أرشدني إلى صدوره السيد المشرف على هذا البحث الدكتور الراجي التهامي شكر الله له.

قال: «وسوف نرى حين نسأل الطبري لماذا دفع بعض القراءات المتواترة إلى قدام، ورد بعضها الآخر إلى وراء؟ أنه يفعل ذلك كثيراً بدعوى الانتصار للغة ولقواعد النحو، حين لاتذعن لها القراءة».

وقد لاحظ الدكتور لبيب تهافت المنهج عنده بصفة عامة «إذ من جهةٍ يناقش في إطنابٍ ومعاناةٍ القراءات المتواترة يقيناً وقطعاً عن النبي ﷺ، ثم هو يورد الإسرائيليات والأخبار الزيوف وغير المعقولة بغير حساب، ويسكت عن نقضها، فضلاً عن نقدها».(١)

قال: «ولكن الطبري يتبع غير هذه السبيل حين يتكلم عن القراءات القرآنية المتواترة عن النبي ﷺ، مع علم الطبري أن هذه القراءات نقلٌ محض، وأنه لامجال فيها أبداً لإبداء رأيٍ أو اجتهاد، بأي وجهٍ من الوجوه.»(٢)

إن سر التناقض في منهجه هو تباين موقفه من تفسير الآي، مع موقفه حين يتناول قراءةً من القراءات التي تخالف اختياره ومايراه الأولى عنده بالصواب.

ففيما يخص موقفه من تفسير الآي نجده يحرص أشد الحرص على ألا يدلي برأي، فإذا فعل نجده يكر على ماقاله بالنقض، لأن تأويل أهل التأويل مضى بخلافه.(٣)

---

١- ذكر الدكتور لبيب السعيد أمثلةً مما أورده الطبري في تفسيره مسلماً وخصوصاً ما ذكره في سورة الأحزاب في قصة زينب أم المؤمنين وفراق زيد بن حارثة لها وزواج النبي ﷺ بها، وكذلك ماقاله في سورة الصافات من كون الذبيح هو إسحاق قولاً واحداً، وماذكره في سورة النجم في شأن فرية «الغرانيق» المشهورة.

٢- انظر دفاع عن القراءات ص ١٥-١٩.

٣- في قوله تعالى( ولاتجهر بصلاتك ولاتخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) سورة الإسراء الآية ١١٠. يقول في جامع البيان جـ ١٥ ص ١٨٨: «قال بعد أن ذكر روايات في تفسيرها: ولولا أن أقوال أهل التأويل مضت بما ذكرت عنهم من التأويل، وأنّا لا نستجيز خلافهم فيما جاء عنهم، لكان وجهاً يحتمله التأويل أن يقال... ثم ذكر تأويله الشخصي وقال: «لكان وجهاً غير بعيدٍ من الصحة، ولكنا لانرى ذلك صحيحاً، لاجماع الحجة من أهل التأويل على خلافه».

ولقد أراد أن يعمم موقفه هذا من عدم الخروج عن ما هو شائعٌ في التأويل، على القراءات أيضاً ، فإذا به يعتبر كل قراءة خالفت قراءةِ العامة شاذة، أو فاسدة «لأنها مخالفةٌ لما عليه الحجة مجمعة». وبالتالي هان عليه أن ينتقدها دون استشعارٍ لأدنى حرجٍ أو تأثم ، مهما تكن درجتها أو درجة القارئين بها من الصحة والوثاقة والرسوخ.

ومن الطريف أنه يستعمل وصف «الشذوذ» أحياناً ويطلقه على بعض القراءات المتواترة ، لمجرد أن القارئ خالف قياساً لغوياً، أو خالف ما عليه أكثرية القراء.[1]

ولذلك تجد هذا التعبير كثيراً في تفسيره «وغير جائزٍ عندنا خلاف الحجة فيما جاءت به من القراءة مجمعة عليه.[2] أو يقول: «وذلك قراءة لا أرى القراءة بها، وإن كان لها وجهٌ مفهوم، لخلافها قراءة الحجة التي لا يجوز خلافها».[3]

ويقول في أول تفسيره: «إن ما شذ من القراءات عما جاءت به الأمة نقلاً مستفيضا، فرأي للحق مخالف، وعن سبيل الله وسبيل رسوله ﷺ متجانف، وإن كان له لو كانت القراءة جائزة به في الصواب مخرج».[4]

---

١- في سورة الإسراء الآية ٣١ ( ان قتلهم كان خطئا كبيراً) قراءة الجمهور (خطئا) بكسر الخاء وسكون الطاء، وهي القراءة التي أقرها الطبري، وحكم بشذوذ ما عداها وهي قراءة ( خطئا ) بفتح الخاء والطاء وهي قراءة ابن عامر كما في سراج القارئ ص ٢٤٩-٢٥٠ وقراءة ( خطاء ) بكسر الخاء وفتح الطاء والمد وهي قراءة ابن كثير كما في سراج القارئ نفس الصفحة . انظر جامع البيان جـ١٥ ص ٨٠.

٢- وذكر في جـ ١٣ ص ٢٤٦ فساد قراءة الكسائي وغيره بضم اللام الثانية في قوله تعالى ( وان كان مكرهم لتزول منه الجبال) أعني اللام الثانية من ( لتزول) ، وقراءة الجمهور ( لتزول) بكسر الأولى وفتح الثانية.

٣- انظر مثلاً جـ ١٥ ص ١٧٣-١٧٨-جـ ٨ ص ٨٩-١٤١.

٤- جـ ١٦ ص ١٦٠ .

إن موقفه قد يبدو لأول وهلة سليماً، لأنه أراد أن يلتزم في القراءة بما هو مجمعٌ عليه، دون ما قرأ به الواحد أو الاثنان ونحو ذلك، ولكنك سرعان ما تجده يتخطى مقياسه هذا ليخوض بالرأي الشخصي في شأن طائفة من القراءات بالغة أوج التواتر في النقل، لا لشيء سوى أن المقتضى اللغوي في الظاهر لا يساعد عليها، أو لأن القياس اللغوي والنحوي لا يقرها.(١)

ولذلك سنقف معه في تفسيره وقفات عند طائفة من القراءات التي جمح فيها به القلم تحت وطأة ما قدمنا، حتى نتبين بوضوح كيف كان في أحكامه تلك أسيراً لتأثير الثقافة اللغوية ومنبهراً بها، و أنه إزاء القراءات بصفة عامة كان بعيداً كل البعد عن مبدإ التحرج الذي تمسك بأهدابه في مجال التفسير.

**نموذج أول:**

إن أول كبوة يكبو فيها به القلم ، ماذكره في سورة الفاتحة في قراءات (ملك يوم الدين)، لقد أبدى عن جرأة متناهية في الموازنة بين قراءتين بالغتين معاً أوفى ما يمكن أن يبلغه التواتر ، لوجود القراءة بهما في أكثر سور القرآن دوراناً على ألسنة المسلمين في أقطار الأرض.

وقد ذكر في (ملك) ثلاث قراءات (ملك) و(مالك) بكسر الكاف فيهما، و(مالك) بالنصب، ثم أخذ يوازن بين الأوليين ويذكر الفرق بينهما من جهة المعنى والاشتقاق من الملك أو الملك بضم الميم أو كسرها، ثم قال:

«وأولى التأويلين بالآية، وأصح القراءتين في التلاوة عندي، التأويل الأول، وهي قراءة من قرأ (ملك) بمعنى الملك، لأن في الإقرار له بالانفراد بالملك إيجاباً لانفراده بالملك، وفضيلة زيادة الملك على المالك، إذ كان معلوماً أن لا ملك إلا وهو مالك، وقد يكون المالك من غير ملك. وبعد فإن الله جل ذكره قد

---

١- انظر حكمه على قراءة ابن عامر بالفساد فيما قدمنا.

أخبر عباده في الآية التي قبل قوله (ملك يوم الدين) أنه مالك جميع العالمين وسيدهم ومصلحهم ، والناظر إليهم ، والرحيم بهم في الدنيا والآخرة ، بقوله (الحمدلله رب العالمين الرحمن الرحيم).

« فإذا كان – جل ذكره- قد أنبأهم بملكه إياهم كذلك بقوله (رب العالمين) فأولى الصفات من صفاته – جل ذكره- أن يتبع ذلك، ما لم يحوه قوله (رب العالمين الرحمن الرحيم) مع قرب ما بين الآيتين من المواصلة والمجاورة، إذ كانت حكمته الحكمة التي لا تشبهها حكمة. » وكان في إعادة وصفه – جل ذكره- بأنه (مالك يوم الدين)، إعادة ما قد مضى من وصفه به في قوله : (رب العالمين) مع تقارب الآيتين، وتجاور الصفتين ، وكان في إعادة ذلك تكرار ألفاظ مختلفةٍ بمعانٍ متفقة لا تفيد سامعَ ما كرر منه فائدةً به إليها حاجة، والذي لم يحوه من صفاته – جل ذكره – ما قبل قوله ( مالك يوم الدين) : المعنى الذي في قوله : ( ملك يوم الدين) ، وهو وصفه بأنه الملك.»

قال: « فبين إذن أن أولى القراءتين بالصواب ، وأحق التأويلين بالكتاب، قراءة من قرأ ( ملك يوم الدين)، بمعنى : إخلاص الملك له يوم الدين، دون قراءة من قرأ ( مالك يوم الدين) بمعنى: أنه يملك الحكم بينهم وفصل القضاء، متفرداً به دون سائر خلقه».[1]

هذه أولى كبواته في تفسيره في الموازنة بين القراءات ، ولكي ندرك ما في الإقدام على مثلها ، يكفي أن ينظر المرء منا في كتب القراءات ليرى سعة الجمهور الذي يقرأ بكل منهما، ويعتبر بانتشار القراء بهما في المشرق والمغرب إلى اليوم، وأعني قراءة ( ملك يوم الدين) و ( مالك يوم الدين).

١- جامع البيان جـ ١ ص ٦٥- ٦٦

فأما كتب السنة فقد نصّت على أنهما قراءتان صحيحتان مسموعتان من لفظ النبي ﷺ ، بل إن بعضها تذكر أن القراءة التي ذهب ابن جرير إلى توهين وجهها هي الأكثر شيوعاً من قراءة النبي ﷺ والخلفاء من بعده ، وفي حديث أنس بن مالك الذي أخرجه عدد من الأئمة أن قراءة (مالك) كانت قراءة النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان.[١]

وقال أبو داود: سمعت أحمد – بن حنبل – يقول:

القراءة القديمة ( مالك يوم الدين)[٢]

وقال العلامة الشوكاني مقارناً بين روايات الحديث: «إن الحديث الذي فيه (مالك يوم الدين) هو أرجح من الذي فيه ( ملك ) بالقصر».[٣]

وأما كتب القراءات فتذكر قراء كثيرين قرأوا (مالك) بالألف ، قال أبو حيان:

«قرأ (مالك) بوزن فاعل بالخفض : عاصم والكسائي وخلف في اختياره[٤] ويعقوب[٥] ، وهي قراءة العشرة[٦] إلا طلحة والزبير، وقراءة كثير من الصحابة

١- انظر جامع الترمذي جـ ١١ ص ٥١ وسنن أبي داود جـ ٢ ص ٣٦١ والمصاحف لابن أبي داود ص ٩٣-٩٤.
٢- سنن أبي داود جـ ٢ ص ٣٦١.
٣- فتح القدير للشوكاني جـ ١ ص ١٢.
٤- يعني في قراءته الخاصة دون روايته عن حمزة لأنه أحد راويي قراءته كما قدمنا.
٥- يعقوب بن إسحاق الحضرمي قارئ أهل البصرة في عصره و أحد الثلاثة الزائدين على السبعة قرأ القرآن على أبي المنذر سلام بن سليم وعلى أبي الأشهب العطاردي ومهدي بن ميمون وسمع من حمزة وجماعة قال أبو حاتم : هو أعلم من رأيت بالحروف والاختلاف في القرآن وعلله ومذاهبه ومذاهب النحو، وكان أبو حاتم من تلامذته. توفي سنة ٢٠٥، انظر معرفة القراء الكبار جـ ١ ص ١٢٠-١٣١ طبقة ٥ غاية النهاية جـ ٢ ص ٣٨٦ ترجمة ٣٨٩١ بغية الوعاة جـ ٢ ص ٣٤٨ ترجمة ٢١٥٨.
٦- يعني العشرة من الصحابة المبشرين بالجنة وهم: الخلفاء الأربعة وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص و أبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، انظر حديث تبشيرهم بالجنة من رواية ابن عوف في المستدرك للحاكم جـ ٣ ص ٤٤٠ والسيرة الحلبية ٢ /٤٤٨.

منهم أُبيّ وابن مسعود ومعاذ وابن عباس والتابعين، منهم قتادة والأعمش».

وقرأ (ملك) على وزن « فعل» بالخفض باقي السبعة[1] وزيد وأبو الدرداء وابن عمر والمسور[2] وكثيرٌ من الصحابة و «التابعين».

ثم ذكر فيها إحدى عشرة قراءة أخرى، وقال: «فهذه ثلاث عشرة قراءة بعضها راجع إلى الملك، وبعضها راجع إلى الملك».[3]

فإذا قارّنا هذا الحشد من القراءات المروية فيها، والتي لم يشذ منها كما ذكر أبو حيان إلا قراءة من قرأ (ملاك) بالتشديد، أدركنا مقدار الحرج الذي يريد الطبري أن يضع فيه القراء والقراءات ، حتى تتفق وما يراه الحجة من أهل التأويل، أو حتى توافق القياس النحوي أو المقتضى المعنوي.

فإذا رجعنا إلى الأساس الذي بنى عليه في الموازنة بين (ملك) و(مالك) وجدنا أن الأخذ برأيه في أن القراءة بالألف يكون فيها تكرارٌ لا فائدة منه، من شأنه أن يمس النظم القرآني ذاته في كثيرٍ من الآيات ، ومن هنا تتجلى خطورة قوله: «إن قراءة (مالك يوم الدين) تقتضي تكرار المعنى نفسه الذي في قوله (رب العالمين) تكراراً لا يفيد سامع ما كرر منه فائدة به إليها حاجة».

وكأنه بعبارةٍ أخرى يقول: إن القراءة بهذا اللفظ حشوٌ ولغو ، لأنها لاتضيف إلى المعنى جديداً ولا تزيد السامعَ فائدةً به إليها حاجة . وهو بذلك كله إنما ينظر إلى مقتضى الظاهر من اللفظ دون أن يلتفت إلى الجمهرة الواسعة التي تقرأ بهذه القراءة المتواترة أوفى ما يكون التواتر.

---

١- وهم نافع وابن كثير وابن عامر وحمزة و أبو عمرو بن العلاء.

٢- المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة القرشي ، أمه عاتكة أخت عبد الرحمن بن عوف، أسلم صغيراً وكان يأتي إلى النبي ﷺ مع أبيه، قتل في الحصار مع ابن الزبير بمكة سنة ٦٤. انظر المستدرك على الصحيحين جـ ٣ ص ٥٢٣ مراة الجنان لليافعي جـ ١ ص ١٤٠

٣ البحر المحيط لأبي حيان جـ١ ص ٢٠.

إن الطبري في نظري انطلق في هذا الحكم من التراث اللغوي المتداول إلى جانب رعايته لمقتضى الظاهر من الكلام فقد كان ما قرره في الموزانة بين القراءتين مأخوذاً بالحرف عن بعض اللغويين من أصحاب المعاني، قال الإمام أبو محمد بن عطية:

«حكى أبو بكر بن السراج[1] عن بعض من اختار القراءة بـ (ملك) أن الله قد وصف نفسه بأنه مالك كل شيء بقوله : (رب العالمين) ، فلا فائدة في قراءة من قرأ (مالك) لأنها تكرير».[2]

فإذا لم يكن ابن السراج - وهو معاصر له تماماً – يعنيه بقوله هذا، فإن الطبري لم يزد على ترديد أقوال المتقدمين ، على أن أبا علي الفارسي[3] تصدى لزعم اقتضاء تلك القراءة للتكرار فقال: لا حجة في هذا لأن في التنزيل أشياء على هذه الصورة: تقدم العام، ثم ذكر الخاص، كقوله تعالى: (هو الله الخالق البارئ المصور)[4]، فالخالق يعم، وذكر المصور لما فيه من التنبيه على الصنعة ووجوه الحكمة، كما قال تعالى: (الرحمن الرحيم) فذكر الرحمن الذي هو عام، وذكر الرحيم بعده لتخصيص المؤمنين به، في قوله تعالى: (وكان بالمؤمنين رحيما).[5] [6]

**نموذج ثان:**

في أول تفسيره في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ولهم عذاب أليم بما كانوا

١- أبو بكر محمد بن السري النحوي البغدادي المشهور بابن السراج قال الخطيب: «كان أحد المعروفين بالأدب و علم العربية، صحب المبرد وأخذ عنه العلم ، روى عنه أبو القاسم الزجاجي وأبو سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرماني، وكان ثقة مات سنة ٣١٦ انظر تاريخ بغداد جـ٥ ص ٣١٩-٣٢٠

٢- نقله ابن عطية في المحرر الوجيز جـ١ ص ٧٠-٧١.

٣- تقدمت ترجمته.

٤- سورة الحشر الآية الأخيرة منها.

٥- سورة الأحزاب الآية ٤٣.

٦- نقله ابن عطية في المحرر الوجيز جـ ١ ص ٧٠-٧١ والقرطبي في تفسيره جـ١ ص ١٢٢

يكذبون﴾[1] في هذه الآية سيطر عليه مرة أخرى النظر في المقتضى المعنوي الظاهر فقال في قوله (يكذبون):

اختلفت القراءة في ذلك، فقرأه بعضهم (بما كانوا يكذبون) مخففة الذال مفتوحة الياء، وهي قراءة معظم أهل الكوفة[2]، وقرأه آخرون (يكذّبون) بضم الياء وتشديد الذال، وهي قراءة معظم أهل المدينة والبصرة والحجاز، وكأن الذين قرأوا بتشديد الذال وضم الياء رأوا أن الله جل ثناؤه إنما أوجب للمنافقين العذاب الأليم بتكذيبهم نبيهم محمداً ﷺ وبما جاء به، وأن الكذب لولا التكذيب لا يوجب لأحدٍ اليسير من العذاب، فكيف بالأليم منه؟[3]

قال: وليس الأمر في ذلك عندي كالذي قالوا، ثم أخذ يستعرض ما تقدم من أول السورة لينظر علام يتوجه الوعيد: أعَلى الكذب أم التكذيب؟؟ ثم قال:

«ولو كان الصحيح من القراءة على ما قرأه القارئون في سورة البقرة (ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون) – يعني بالتشديد – لكانت القراءة في السورة الأخرى (والله يشهد إن المنافقين)[4] لمكذبون ليكون الوعيد لهم الذي هو عقب ذلك على التكذيب لا على الكذب، وفي إجماع المسلمين على أن الصواب من القراءة في قوله (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) بمعنى الكذب، وأن إيعاد الله تبارك وتعالى فيه العذاب الأليم على ذلك من كذبهم ،أوضح الدلالة على أن الصحيح من القراءة في سورة البقرة (بما كانوا يكذبون) بمعنى : الكذب، وأن الوعيد من الله تعالى ذكره للمنافقين فيها على الكذب حق ، لا على التكذيب الذي لم يجر له ذكر، نظير الذي في سورة المنافقين سواء».[5]

---

١- سورة البقرة الآية ١٠.
٢- ومنهم عاصم وحمزة والكسائي كما سيأتي.
٣- لا أدري وجه ما ذكره، وكيف لا يكون الكذب مستوجباً لما ذكر؟
٤- سورة المنافقين الآية الأولى منها، وستاتي التلاوة الصحيحة فيها.
٥- جامع البيان جـ١ ص ١٢٤.

هكذا أبدأ وأعاد مقارناً بين سورتي البقرة والمنافقين، كل هذا ليضعف منزع القراءة بالتشديد مع أنهما متواترتان معا، قرأ بالتخفيف عاصم وحمزة والكسائي وخلف في اختياره والحسن والأعمش، وقرأ بالتشديد نافع وابن كثير وابن عامر و أبو عمرو بن العلاء وأبو جعفر المدني ويعقوب الحضرمي وابن محيصن واليزيدي.[1]

على أن الزمخشري وجّه القراءتين على معنى واحد فقال:

«وقرئ (يكذبون) من كذبه الذي هو نقيض صدقه [2] أو كذّب الذي هو مبالغة كذب، كما بولغ في صدق فقيل صدّق، ونظيرهما بان الشيء وبيّن، وقلص الثوب وقلّص، أو بمعنى الكثرة كقولهم : موّتت البهائم وبرّكت الإبل».[3]

**نموذج ثالث:**

يستند الطبري إلى مقتضى القياس اللغوي في توهين منزع القراءة المتواترة في قوله تعالى: ﴿ كل ذلك كان سيئه عن ربك مكروها ﴾.[4]

فقد صوّب وجه المتواترة الأخرى(كان سيئه) بالهاء وقال يوهن قراءة (سيئة) بالتاء.

«من قرأ هذه القراءة فإنه ينبغي أن يكون من نيته أن يكون المكروه مقدماً على السيئة، وأن يكون معنى الكلام عنده: كل ذلك كان مكروهاً سيئة» لأنه إن جعل قوله مكروهاً من نعت السيئة، لزمه أن تكون القراءة (كل ذلك كان سيئة

---

١- انظر إتحاف فضلاء البشر للدمياطي ص ١٥٨.
٢- يعني بتخفيف الفعلين.
٣- الكشاف جـ١ ص ١٧٨-١٧٩.
٤- سورة الإسراء الآية ٣٨.

عند ربك مكروهة) وذلك خلاف ما في مصاحف المسلمين».[1]

ونحن إذا تركنا قضية تواتر القراءتين معاً جانباً وناقشنا الطبري في القاعدة التي على أساسها أخّر هذه القراءة عن وجه الصواب، رأينا أنه بنى على أن كلمة (مكروها) لابد أن يعتبرها من قرأ (سيئة) بالتاء متقدمة عليها حتى لاتختل المطابقة بين النعت والمنعوت، والواقع في نظري أن الطبري قد أخطأ في الصناعة الإعرابية، وحمّل القراء بهذه القراءة ما لم يضعوه قط في الحسبان، وذلك أن كلمة (مكروها) سواء كانت متقدمةً على لفظ سيئة أو متأخرة لا تعدو في الصناعة النحوية أن تكون خبراً ثانياً لكان على ما هو شائع من تعدد خبرها في القرآن.[2]

## نموذج رابع

ومن تحكم القياس اللغوي في ابن جرير ونسيانه لما سبق أن ذكرنا من اتباعه لما جاءت به الحجة مجمعة عليه احتجاجه لقراءة (أسرى) بالسكون وإعطاؤها الأولوية في قوله تعالى: (وإن يأتوكم أسارى تفادوهم) [3]فقال:

«وأولى بالصواب في ذلك قراءة من قرأ (وإن ياتوكم أسرى) لأن «فعالى» في جمع «فعيل» غير مستفيض في كلام العرب.»[4]

هكذا مال إلى ما اعتبره هو القياس، وترك أخذه بما أجمعت عليه الحجة، ففضل قراءة أسرى مع أنه لم يقرأ بها إلا حمزة وحده من العشرة.[5]

---

١- جامع البيان جـ ١٥ ص ٨٩ .
٢- نحو (وكان الله غفوراً رحيما).
٣- سورة البقرة الآية ٨٥.
٤- جامع البيان جـ ١ ص ٤٠٠.
٥- انظر البحر المحيط جـ١ / ٢٩١.

وأما ما ذهب إليه من أن فعالى في جمع فعيل قليل ،فقد أخطأ فيه أيضاً، لأن أسارى ليست جمعاً لأسير وإنما هي جمعٌ لأسرى أي: أنها جمع الجمع.[1]

## نموذج خامس:

ومن محاكمته للمتواتر بالقياس اللغوي ما قاله في رد قراءة (بالغدوة) في قوله تعالى: ﴿بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾.[2]

قال: «القراء على قراءة ذلك (بالغداة والعشي)، وقد ذكر عن عبد الله بن عامر وأبي عبد الرحمن السلمي[3] أنهما كانا يقرآنه (بالغدوة والعشي)[4] وذلك قراءة عند أهل العلم مكروهة، لأن غدوة معرفة، ولا ألف و لا لام فيها، وإنما يعرف باللام ما لم يكن معرفة، فأما المعارف فلا تعرف بهما».

«وبعد فإن غدوة لا تضاف إلى شيء، وامتناعها من الإضافة دليلٌ واضحٌ على امتناع الألف واللام من الدخول عليها، لأن ما دخلته الألف واللام من الأسماء صحت فيه الإضافة ، وإنما تقول العرب: «أتيتك غداة الجمعة، ولا تقول: غدوة الجمعة».

والقراءة في ذلك عندنا ما عليه القراء في الأمصار، لا نستجيز غيرها، لإجماعها على ذلك، وللعلة التي بيّنا من جهة العربية.[5]

ولا يخفى أن محاكمة قراءة متواترة بمثل هذا المنطق إنما هي أثرٌ من هيمنة النظرة التقديسية السائدة لأقيسة النحويين، وإلا فمجرد توارد ابن عامر

---

١- انظر الحجة لابن خالويه ص ٨٤- وكتاب الغريبين لأبي ذر الهروي جـ١ ص ٤٧.

٢- سورة الأنعام الآية ٥٢ والكهف الآية ٢٨.

٣- عبد الله بن حبيب تقدمت ترجمته.

٤- يعني بفتح الواو وضم الغين.

٥- جامع البيان جـ ١٥ ص ٢٣٤.

الدمشقي الشامي وأبي عبد الرحمن السلمي الكوفي على مثل هذه القراءة وكلاهما عربي صميم، وهي مع ذلك مرسومةٌ في المصحف بالواو، كل هذا كان ينبغي- بقطع النظر عن التواتر- أن يشفع لهذه اللغة، ولو عند مفسر أثري كابن جرير، ولذلك يقول الشيخ البنا الدمياطي في الإتحاف:

«ولا يلتفت إلى من طعن في هذه القراءة بعد تواترها، من حيث كونها أعني غدوة علماً وضع للتعريف فلا تدخل عليها «أل» كسائر الأعلام».

«وجوابه أن تنكير «غدوة» لغة ثابتة، حكاها الخليل وسيبويه، تقول: «أتيتك غدوة بالتنوين» على أن ابن عامر لايعرف اللحن، والحسن يقرأ بها، وهو ممن يستشهد بكلامه فضلاً عن قراءته».[1]

**نموذج سادس:**

تغليطه لجمهور القراء في قراءة (يقنط) بفتح النون في قوله تعالى: ﴿قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾[2]

قال الطبري: اختلف القراء في قراءة قوله (من يقنط) فقرأ ذلك عامة قراء الكوفة والمدينة (ومن يقنط) بفتح النون إلا الأعمش والكسائي فإنهما كسرا النون من (يقنط).

«فأما الذين فتحوا النون منه ممن ذكرناهم، فإنهم قرأوا (من بعد ما قنطوا)[3] بفتح القاف والنون، وأما الأعمش فكان يقرأ ذلك (من بعد ما قنطوا) بكسر النون، وكان الكسائي يقرأ بفتح النون ،وكان أبو عمرو يقرأ الحرفين جميعاً على النحو الذي ذكرنا من قراءة الكسائي».

---

١- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ص٢٤٨.

٢- سورة الحجر الآية ٥٦

٣- سورة الشورى الآية ٢٨.

قال: «وأولى القراءات في ذلك بالصواب قراءة من قرأ ذلك (من بعد ما قنطوا) بفتح النون و(من يقنط) بكسر النون، لإجماع الحجة من القراء على فتحها في قنط، لأن فَعَلَ إذا كانت عين الفعل منها مفتوحة ولم تكن من الحروف الستة التي هي حروف الحلق[1] فإنها تكون في «يفعل» مكسورة أو مضمومة، فأما الفتح فلا يعرف في كلام العرب.»[2]

فهكذا أراد الطبري أن يجعل القياس النحوي معياراً للصواب والخطأ في الموازنة بين قراءات في أعلى مراتب التواتر، وليس فيها في الواقع أدنى مخالفة للقياس من التي حاول إلزامهم إياها:

وإنما قرأ القراء بإجماع بفتح النون في قوله (من بعد ما قنطوا) وقرأ بعضهم (ومن يقنط) بالكسر، وهو مقتضى قياس مضارع القراءة الأولى، بينما قرأ آخرون (ومن يقنط) بالفتح بقطع النظر عن قراءتهم في (قنطوا) وإنما هو مأخوذٌ من «قنط» بالكسر، والمضارع منها بالفتح صحيحٌ فصيح، ولكن الطبري يريد إلزام القراء بنوعٍ من المنهجية، فيفرض على من قرأ (قنطوا) في سورة الشورى بالفتح، أن يقرأ تبعاً لذلك (يقنط) بالكسر في سورة الحجر، وهذا تحكمٌ في القراءة، وتحكيم لأقيسة النحويين في متواتر القراءات.

والغريب في أمره إزاء القراءات أنه في كل مواقفه لم ينتصر قط للقراءة، ولكنه أحياناً يصرح بعبارات تشعر بأنه يعطي المقام الأول لها، يقول مثلاً عند إيراده لقراءة حمزة والأعمش التي سبقت الإشارة إليها بجزم (السيء): «والصواب من ذلك في القراءة عندنا ما عليه قراء الأمصار: من تحريك الهمزة فيه إلى الخفض، وغير جائز في القرآن أن يقرأ بكل ما جاز في العربية، لأن القراءة إنما هي ما قرأت به الأئمة الماضية، وجاء به السلف على النحو

---

١- الحروف الستة هي على الترتيب المخرجي: الهمزة والهاء والحاء و الخاء والعين والغين.

٢- جامع البيان جـ ١٤ ص ٤٠-٤١.

الذي أخذوا عمن قبلهم».[1]

فحبذا لو استطاع الطبري الالتزام بهذا المبدأ، وهو كون القراءة إنما هي ما قرأت به الأئمة الماضية، وإلا فلو أخذ به لما اجترأ أن يتصدى لكثيرٍ من المتواتر المقطوع بصحته بالموازنة والمفاضلة والترجيح.

وسأكتفي بهذه النماذج فلعل فيها وحدها ما يغني عن تتبع بقية الوقفات المماثلة، وهي سيل متواصل من أول تفسيره إلى آخره، وأشير إلى أن الطبري في تفسيره كان معنياً بأن يقرر فيه اختياره الذي يقرأ به، كما فعل غيره من القراء أصحاب الاختيارات، وإلى هذا يشير الداني في المنبهة حين يقول:

والطبري صاحب التفسير – له اختيار ليس بالشهير

وهو في « جامعه»[2] مذكور – وعند كل صحبه مشهور [3]

وهكذا نرى أن الطبري في تفسيره يمثل بؤرة الالتقاء بين التيارين التفسيريين: الأثري واللغوي ، وقد كان في التفسير الأثري مجرد ناقلٍ منسقٍ للآثار والأقوال، ولكنه في التفسير اللغوي حاول إبراز شخصيته واضحةً قوية ، وإن جاء ذلك على حساب القراءات والقراء.

ولنا وقفةٌ أخرى مع مفسرٍ آخر وقف من القراءات موقفاً مماثلا: هو العلامة جار الله الزمخشري في تفسيره الكشاف، وسوف نرى أنه امتدادٌ لهذا الاتجاه في إعطاء الصدارة لأحكام النحويين وجعلها هي المعيار للخطأ والصواب.

---

١- جامع البيان جـ ٢٢ ص ١٤٦ انظر ما تقدم في ص ١٦٢.

٢- يعني جامع البيان وهو اسم تفسيره .

٣- المنبهة لأبي عمرو الداني م . خ. ع. ص ٢٠-٢١.

## موقف الزمخشري[1] في تفسيره من القراءات:

تفسير الزمخشري تفسيرٌ يغلب عليه الطابع اللغوي أكثر من أي تفسير آخر، ويتجلى فيه عمق الثقافة البيانية القائمة على الرسوخ في صناعة «المعاني» والتي بلغت أوج نضجها عند علماء البلاغة والبيان، الذين تصدوا لإبراز قضايا الإعجاز القرآني.

وقد أسهم الزمخشري في الدراسات اللغوية بإنتاجٍ رفيع المستوى ، يدل على مقدار رسوخ قدمه في لغة القرآن.

ولكنه جنت عليه المذهبية الاعتزالية جنايةً لا تقدر ، فمن ثَمّ غلبت عليه في تفسيره «الكشاف عن معاني التنزيل» النزعة العقلية الكلامية، وجنى عليه الاتجاه النظري ، فأصبح الاعتماد على الآثار عنده في درجةٍ دنيا ، حتى في تأويل بعض الآي التي لاتدرك مراميها إلا بالنقل، ومن ثم لانجده يعنى بتحقيق الروايات وتنقيح الأخبار، فكان يسوق الأحاديث والآثار مرسلةً بلا أسانيد.[2]

ولإعراضه عن الاهتمام بالأسانيد كانت الروايات تبدو عنده في درجةٍ ومستوى واحد، حتى ما كان منها قراءات منقولة نقل التواتر الذي لا سبيل إلى الطعن فيه «لأنه ظن أن القراءات لا تستند إلى التوقيف، وإنما هي اختيارية تدور مع اختيار الفصحاء واجتهاد البلغاء».[3]

---

١- هو العلامة محمود بن عمر بن محمد بن أحمد أبو القاسم الخوارزمي المعتزلي النحوي اللغوي الملقب بجار الله، ولد سنة ٤٦٧ بخوارزم، درس ببلده ثم قدم بنداد وجال في البلدان وجاور زماناً بمكة والمدينة، دعاه « ابن وهاس» أمير مكة إلى تأليف تفسيره « الكشاف» وكان قد بدأ يملي بعض مباحثه فيه في خوارزم ، فتجرد لذلك وهو بمكة فأتمه كما ذكر في مقدمته في مقدار خلافة أبي بكر : حوالي سنتين ونصف، وزاوج فيه بين علوم البلاغة والتفسير، وشحنه بمبادئ الاعتزال ونظرياته توفي سنة ٥٣٨ انظر بغية الواعاة جـ ٢ / ٢٧٩-٢٨٠ طبقات الداودي ٢/ ٢١٤-٢١٦ ترجمة ٦٢٥.

٢- خرج أحاديث الكشاف الحافظ جمال الدين عبد الله بن يوسف الزيلعي انظر حسن المحاضرة ١/١٥١.

٣- البرهان للزركشي جـ١ / ٣٢١-٣٢٢.

وإلى جانب جناية المذهبية الاعتزالية عليه، جنت عليه في تفسيره أيضاً مذهبيته اللغوية، فكان شديد التحيز إلى المذهب البصري، وكثيراً ما يردّ القراءة المتواترة، أو يطعن في ضبط الناقلين لها لمجرد أنها تخالف قياس البصريين.

وقد عمل الزمخشري بما قرره الطبري قبله في قوله : « وغير جائز في القرآن أن يقرأ بكل ما جاز في العربية». فقال في كشافه القديم[1] فيما نقل الزركشي في البرهان:

«القرآن لا يعمل فيه إلا على ما هو فاشٍ دائرٌ على ألسنة فصحاء العرب دون الشاذ النادر الذي لا يعثر عليه إلا في موضع أو موضعين.»[2]

ومن هنا سار في تفسيره ينظر إلى القراءات في ضوء هذا المعيار، فيصدر الأحكام على القراء وبعض القراءات التي لاتساير القياس البصري ، ويتطرف في ذلك أحياناً تطرفاً لا يستساغ ، وهذه نماذج من مواقفه تلك:

**نموذج أول:**

في قوله تعالى: ﴿سواء عليهم ءانذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾.[3]

ذكر اختلاف القراء في (ءانذرتهم) بتحقيق الهمزتين ، أو بتخفيف الثانية بين بين ، أو بتوسيط ألف بين الهمزتين محققتين ... ثم قال:

«فإن قلت : ماتقول فيمن يقلب الثانية ألفا؟ قلت: هو لاحنٌ خارجٌ عن كلام العرب خروجين: أحدهما : الإقدام على جمع الساكنين على غير حدّه، وحدّه: أن يكون الأول حرف لين ، والثاني حرفا مدغماً، نحو قوله: (الضالين)..

---

١- لم أر أحداً ذكر له كشافاً قديماً غير الزركشي انظر البرهان ١/٣٠٤-١/٣٤٧.

٢- البرهان ١/٣٠٤.

٣- سورة البقرة الآية ٦.

والثاني: أخطأ طريق التخفيف، لأن طريق تخفيف الهمزة المتحركة المفتوح ما قبلها، أن تخرج بين بين، فأما القلب ألفا فهو تخفيف الهمزة الساكنة المفتوح ما قبلها، كهمزة « رأس».[1]

هكذا رد الزمخشري قراءة أهل المدينة بقياس البصريين ،قال أبو حيان معقباً عليه: « وما قاله هو طريق البصريين ، وقد أجاز الكوفيون الجمع بين الساكنين على غير الحد الذي أجازه البصريون، وقراءة ورش [2]صحيحة النقل، لاتدفع باختيار المذاهب ، ولكن عادة هذا الرجل إساءة الأدب على أهل الأداء ونقلة القرآن».[3]

نموذج ثان:

ما قاله في قراءة أبي عمرو بن العلاء بالإدغام في ( فيغفر لمن يشاء ) في قوله تعالى ( وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ) .[4]

قال الزمخشري : فإن قلت: كيف يقرأ الجازم ؟ قلت: يظهر الراء.. ومدغم الراء في اللام لاحنٌ مخطئٌ خطئاً فاحشا ، وراويه عن أبي عمرو مخطئٌ، مرتين: لأنه يلحن ، وينسب إلى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجهلٍ عظيم ، والسبب في نحو هذه الروايات قلة ضبط الرواة ، والسبب في قلة الضبط ، قلة الدراية، ولا يضبط نحو هذا إلا أهل النحو».[5]

---

١- الكشاف جـ ١ ص ١٥٤-١٥٥.

٢- أبو سعيد عثمان بن سعيد أحد روايي قراءة نافع التي نقرأ بها في المغرب.

٣- البحر المحيط جـ١ ص ٤٧-٤٨.

٤- سورة البقرة الآية ٢٨٤.

٥- الكشاف جـ ١ ص ٤٠٧.

هكذا يقطع بخطإ الرواة وينسبهم إلى قلة الضبط، وهو في الواقع لم يزد على أن ردّد قول أبي إسحاق الزجاج، فقد نقل عنه الزركشي قوله عن هذا الإدغام:

«إنه خطأً فاحش، ولاتدغم الراء في اللام إذا قلت: « مر لي بكذا » لأن الراء حرفٌ مكرر، ولا يدغم الزائد في الناقص للإخلال به ، فأما اللام فيجوز إدغامه في الراء ، ولو أدغمت اللام في الراء لزم التكرير في الراء وهذا إجماع النحويين».

قال الزركشي : هذا تحامل، وقد انعقد الإجماع على صحة قراءة هؤلاء الأئمة، وأنها سنةٌ متبعةٌ، ولا مجال للاجتهاد فيها».(1)

وأما الإجماع المدَّعَى فقد فنّده أبو حيان، فقال عن الإدغام في (فيغفر لكم):

«أجاز ذلك الكسائي والفراء، وحكياه سماعا، ووافقهما على سماعه روايةً وإجازةً أبو جعفر الرؤاسي وهو إمام من أئمة اللغة والعربية من الكوفيين، وقد وافقهم أبو عمرو على الإدغام روايةً وإجازة ، كما ذكرناه ، وتبعه يعقوب الحضرمي، ثم قال:

«فإن لسان العرب ليس محصوراً فيما نقله البصريون فقط ، والقراءات لاتجيء على ماعلمه البصريون ونقلوه، بل القراء من الكوفيين يكادون يكونون مثل قراء البصرة، وقد اتفق على نقل إدغام الراء في اللام كبير البصريين ورأسهم: أبو عمرو بن العلاء ويعقوب الحضرمي وكبراء أهل الكوفة: الرؤاسي والكسائي والفراء وأجازوه ورووه عن العرب، فوجب قبوله ، والرجوع فيه إلى علمهم ونقلهم ، إذ مَن علم حجةٌ على من لم يعلم، وأما قول الزمخشري «إن

---

١- البرهان للزركشي جـ١ ص ٣٢٢.

راوي ذلك عن أبي عمرو مخطئٌ مرتين، فقد تبيّن أن ذلك صواب، والذي روى ذلك عنه الرواة ، ومنهم أبو محمد اليزيدي [١]وهو إمامٌ في النحو إمامٌ في القراءات إمامٌ في اللغات». [٢]

**نموذج ثالث:**

تخريجه لوجه التنوين للفظ (سلاسلا) في قوله تعالى: ﴿إِنا اعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا﴾ [٣] قال:

«وقرئ (سلاسل) غير منون، و(سلاسلا) بالتنوين ، وفيه وجهان:

أحدهما : أن تكون هذه النون بدلاً من حرف الإطلاق ، ويجري الوصل مجرى الوقف.

والثاني: أن يكون صاحب القراءة ممن ضري برواية الشعر ، ومرن لسانه على صرف غير المنصرف». [٤]

هذه نظرة الزمخشري إلى رواة القراءات ، ولذا قال الإمام ابن المنير[٥] منددا بهذا الموقف من القراءات عند الزمخشري:

«هذا من الطراز الأول، لأن معتقده أن القراءة المستفيضة غير موقوفة على النقل المتواتر عن النبي ﷺ في تفاصيلها، و أنها موكولةٌ إلى اجتهاد القراء واختياراتهم بمقتضى نظرهم كما مر له، وطمّ على ذلك هنا فجعل تنوين (سلاسل) من قبيل الغلط الذي يسبق إليه اللسان في غير موضعه، لتمرنه عليه في موضعه».

---

١- تقدمت ترجمته.

٢- البحر المحيط جـ ٢ ص ٣٦٢-٣٦٣.

٣- سورة الانسان الآية ٤.

٤- الكشاف جـ ٤ ص ١٩٥.

٥- تقدمت ترجمته.

«والحق أن جميع الوجوه المستفيضة، منقولةٌ تواتراً عنه ﷺ، وتنوين هذا على لغة من يصرف في نثر الكلام جميع مالا ينصرف، إلا أفعل، والقراءات مشتملةٌ على اللغات المختلفة».[1]

ونكتفي بهذا القدر من النماذج للتدليل على مقدار هيمنة النظرة التقديسية لأقيسة البصريين، عند طائفةٍ من المفسرين، وعلى رأسهم الطبري ثم الزمخشري ، وننطلق من ذلك إلى تقويمٍ عامٍ للموقف.

لقد لاحظ بعض الدارسين المحدثين تهافت المنهج النقدي في التفسير اللغوي للقراءات ، إذ تبيّن أن هذا المنهج قد استبعد القراءات أول الأمر من مجال نشاطه، ثم ما كاد يستوي عوده حتى عاد يحاسبها بقواعد لم يكن لها هي في الأساس إسهامٌ في استنباطها، ولا هي مسؤولةٌ عن قصورها عن استيعاب الفصيح مما تكلمت به العرب، سواء مما يجري كثيراً في الاستعمال، أو مما هو من قبيل الترخص في التعبير والتوسع في الكلام ، يقول الدكتور سالم عبد العال مكرم في كتابه « القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية»:

«ومن الأخطاء البصرية التي لاتغتفر، إبعادهم القراءات عن مجال الدراسات النحوية ، وبهذا الإبعاد حرموا النحو من مصدر كبير كان من الممكن أن تبنى في ضوئه القواعد وتحرر الأصول، نعم إنهم أخذوا ببعض القراءات ، ولكنها ليست وحدها في الميدان ، فمعها من الأدلة ما يسندها ويعزز الأخذ بها.»[2]

وحلل الموقف تحليلاً أوفى الدكتور عفيف دمشقية في كتابه: «المنطلقات التأسيسية والفنية إلى النحو العربي» فقال:

---

١- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لناصر الدين الإمام ابن المنير بأسفل الكشاف انظر جـ ٤ /١٩٥

٢- القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ص ١٠٠

«لما كان الهدف من النحو بناء قواعد كلية ، تنتظم كلٌّ منها عدة ظواهر لغوية متقاربة، وتسمح بقياس غيرها من الظواهر المشابهة عليها، فإنه لم يكن في وسع أولئك النحاة في بادئ الأمر أن يجروا مسحاً للقراءات المختلفة ، ويضعوا للكلمة الواحدة تُقرأ بوجوهٍ إعرابية مختلفة قواعدَ متعددة ، لأن ذلك كان يؤدي بهم إلى متاهات ما بعدها متاهات». قال:

«ولقد كنا نتمنى أن يظلوا أوفياء لمثل هذا المنطق العلمي، لكن ما يؤسف له حقاً، هو أنهم لا هم استطاعوا ذلك ، نظراً للإرث المرهق الذي ورثوه في مجال القراءات،ومعظمها معترفٌ به ومتواتر ، ولأن المشتغلين الأوائل بالعربية والنحو كانوا من حملة القرآن وقارئيه ومقرئيه ، ولا هم استطاعوا تجاهل ذلك الإرث واعتباره كأنه لم يكن، فكانت النتيجة : أنهم اضطروا إلى تجنب الخوض في القراءات ، ثم وضعوا مقاييسهم ، واطمأنوا إليها، وجاء من بعدهم يحاول إخضاع القراءات لها».[1]

لقد كان المنهج اللغوي في تناول القراءات فاسداً في منطلقه ، لأنه أولاً قد استبعد القراءات التي هي الرصيد الضخم الذي يعتبر ديواناً لما تكلمت به العرب من لغاتٍ و أساليب، ثم ازداد تهافت المنهج حين أراد النحويون استعمال قواعدهم التي لم يتوافر لها الاستقراء الكامل للغة،لاعتماد علماء اللغة على قبائل معينة دون غيرها ،أرادوا استعمالها في الموازنة بين القراءات ، وهي في منطلقها حاويةٌ للأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، والتي تتضمن معظم ما تفننت فيه العرب من أساليب، وما توسعت فيه من ترخصات لغوية ولهجية، احتفظت بها القراءات في مظاهر الإعراب وكيفيات الأداء ، ولاسيما أن القواعد لم تدون حتى كانت هذه القراءات قد سارت بها الركبان وعجت بها أرجاء المشرق والمغرب، وتناقلها القراء وغيرهم خلفاً عن سلف وجيلاً عن جيل.

---

١- المنطلقات التأسيسية والفنية إلى النحو العربي ص ٥٤-٥٥.

ومن هنا نشب الصراع بين القراء أهل الرواية والأداء، والنحويين أهل الأقيسة والقواعد ، على الرغم من اشتراك كثيرٍ من أئمة القراءات في نقل اللغة ووضع قواعدها ، ولكنهم عند القراءة إنما يقرأون بما سبيله الرواية والنقل، لا بما سبيله القياس والاجتهاد كما قدمنا ، وفي ذلك يقول حافظ القراءات أبو عمرو الداني حين عرض لإنكار بعض النحويين لوجه الإسكان في قراءة أبي عمرو (إلى بارئكم ) [1] بإسكان الهمزة:

«والإسكان أصح في النقل، وأكثر في الأداء، وهو الذي أختارهُ وآخذُ به، ثم ذكر نصوص رواته وقال:

« وأئمة القراء لاتعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة ، والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر، والأصح في النقل، والروايةُ إذا ثبتت عنهم لم يردّها قياس عربية، ولا فشوّ لغة، لأن القراءة سنةٌ متبعةٌ يلزم قبولها». [2]

هذا وجه المفارقة بين الطرفين: منهج من يرى أن لا يحمل القرآن إلا على ما هو فاشٍ كما قال الزمخشري، ومنهج من يرى بحقٍ أن القضية قضية نقل، وليست قضية فشوّ ولا كثرة استعمالٍ وموافقةٍ للقياس كما ذكر الداني.

وقد انتبه طائفةٌ من علماء السلف من اللغويين أنفسهم إلى ما في الموقف من قراءات القراء من اختلالٍ في المنهج ، فهذا النضر بن شميل [3] يقول تعليقاً على تخطئة بعض اللغويين للحسن البصري في قراءته (وماتنزلت به الشياطين) بالواو [4]:

---

١- في سورة البقرة الآية ٥٤. في تفسير القرطبي جـ١ ص ٢٤٣ : قرأ أبو عمرو بارئكم بسكون الهمزة ويشمركم وينصركم ويأمركم، واختلف النحاة في هذا، فمنهم من يسكن الضمة والكسرة في الوصل وقال أبو العباس المبرد : لا يجوز التسكين مع توالي الحركات في حرف الإعراب ، وقراءة أبي عمرو لحن.

٢- انظر النشر لابن الجزري جـ ٢ ص ١٠-١١ وكذا منجد المقرئين له ص ٦٥ وانظر إبراز المعاني ٢٣٠.

٣- الإمام اللغوي النضر بن شميل بن خرشة أبو الحسن المازني البصري اللغوي الاخباري أخذ اللغة عن الخليل وفصحاء الأعراب وسمع الحروف عن هارون الأعور عن أبي عمرو وتوفي سنة ٢٠٤ وله مؤلفات كثيرةٌ ذكرها ابن النديم في الفهرست ص ٨٣ وانظر غاية النهاية جـ ٢ ص ٣٤١ ترجمة ٣٧٤٣.

٤- أي الشياطون.

« إن جاز أن يحتج بقول العجاج[1] ورؤبة [2]، فهلاّ جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه- يريد محمد بن السميفع[3]- مع أنا نعلم أنهما لم يقرآ به إلا وقد سمعا فيه».[4]

ومن هذا المنطلق ذهب الكوفيون إلى الاحتجاج بما صح في القراءة، لأن صحته فيها دليلٌ على وروده عن العرب، وهذا ما أخذ به الذين ألفوا في الاحتجاج للقراءات السبع وغيرها[5]، فإنهم توسعوا في الاستشهاد من بعض القراءات لبعض[6] واستشهدوا بكل ما سمع عن العرب فيما يوافق قراءةً من القراءات، وقد انتهج هذا النهج نحويو الأندلس كابن مالك وأبي حيان، وتفسير هذا الأخير معرض عام من هذا القبيل ، وقد قدمنا من اقواله وتخريجاته ما يشهد لذلك، ولا سيما قوله:

«إننا لسنا متعبدين بقول نحاة البصرة ولاغيرهم، فكم حكم ثبت بنقل الكوفيين من كلام العرب،لم ينقله البصريون، وكم حكم ثبت بنقل البصريين لم ينقله الكوفيون».

---

١- تقدمت ترجمته.
٢- هو ابن العجاج.
٣- تقدمت ترجمته.
٤- انظر الكشاف جـ ٢ /١٣١.
٥- من ذلك الحجة لأبي علي الفارسي ولابن خالويه والكشف لمكي والهداية للمهدوي في السبع، والمحتسب لابن جني والتعريف للداني في الشواذ.
٦- ومثال ذلك الاستشهاد لقراءة عاصم ( وكذلك ننجي المؤمنين) في الأنبياء بحذف إحدى النونين وهي الثانية وتشديد الجيم ونصب المؤمنين ، قال ابن قتيبة : كان أبو عبيدة يختار في هذا الحرف مذهب عاصم كراهية أن يخالف الكتاب – يعني الرسم- ويستشهد عليه حرفاً في الجاثية كان يقرأ به أبو جعفر المدني ، وهو قوله : ( ليجزى قوما بما كانوا يكسبون) أي ليجزى الجزاء قوما.» تأويل مشكل القرآن ٧ ص ٤٠ وانظر الاستشهاد لقراءة ابن عامر بالفصل بين المتضايفين بما يشهد لها من القراءات المماثلة في النشر لابن الجزري جـ ٢ ص ٢٦٤-٢٦٥.

ولكن التعصب للفريق كان وراء الكثير من التنكر لما صح من كلام العرب وقراءات القراء، ولم ينتبه إلى هذه الحقيقة كثيرٌ من المفسرين الذين أخذوا أحكام النحاة على القراءات قضايا مسلمات، وإنما انتبه إليها المتأخرون بعد ركود العصبيات واختفاء النعرات، فعادوا إلى رد الاعتبار لطائفةٍ من القراءات طالما اعتبرها اللغويون والآخذون عنهم خارجةً عن الفصيح، بل من قبيل اللحن والخطإ المطروح ، قال السيوطي في الاقتراح:

«أما القرآن فكل ما ورد أنه قرئ به، جاز الاحتجاج به في العربية، سواء كان متواتراً أم احاداً أم شاذاً؟، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية، إذا لم تخالف قياساً معروفا، بل ولو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه، وإن لم يجر القياس عليه، كا يحتج بالمجمع على وروده ومخالفته للقياس في ذلك الوارد بعينه، ولا يقاس عليه».(١)

فلو أن هذا المبدأ كان قديماً في التطبيق، لما وجدنا في كتب التفسير كثيراً من الحملات على القراء، واتهامهم بقلة الضبط أو رميهم بالخطأ واللحن، ولقد سار المتأخرون في رد الاعتبار للقراءات شوطاً بعيدا، فاتهموا مناهج النحاة، بدلاً من اتهام القراءات، وهذا العلامة المرحوم محمد الطاهر ابن عاشور التونسي يقول في تفسيره التحرير والتنوير:

«وأما ما خالف الوجوه الفصيحة في العربية، ففيه نظرٌ قوي، لأنا لا ثقة لنا بانحصار فصيح كلام العرب فيما صار إلى نحاة البصرة والكوفة ،وبهذا نبطل كثيراً مما زيفه الزمخشري من قراءات متواترة، بعلة أنها جرت على وجوهٍ ضعيفةٍ في العربية، لا سيما ما كان منها في قراءةٍ مشهورةٍ كقراءة ابن عامر».(٢)

---

١- الاقتراح في أصول النحو ص ١٤.

٢- التحرير والتنوير جـ١ ص٦١.

ومن هذا المنطلق تعتبر أحكام النحويين على القراء والقراءات من قبيل قلب الأوضاع وجعل الأصل خاضعا للفرع، والمتبوع ذيلاً للتابع، وذلك ما وقع فيه تبعاً لهم طائفةٌ من كبار المفسرين.

وفي برهان الزركشي طائفةٌ من النقول عن علماء القراءات كلها تحذير عن الانسياق وراء أحكام النحاة في تفضيل بعض ما تواتر في القراءة على بعض، حتى قالوا إنه لا ينبغي الإقدام على تفضيل إعراب على إعراب في ما تواتر من القراءات.

ونشير في ختام هذا الفصل عن التراث اللغوي وآثاره إلى أن طائفةً من القراء والمفسرين قد حاولوا أن يستجروا القراءات إلى ما يعتقدونه من مذاهب ونحل، فقرأوا أو فسروا القراءة على وجوهٍ تؤيد ما ذهبوا إليه من ذلك، وهذا الزمخشري الذي رأينا موقفه من بعض القراءات قلّما كان يجد فرصةً في تفسيره لتوجيه قراءةٍ على مذهبه إلاّ بادر باغتنامها، كما فعل عند قوله تعالى (منهم من كلم الله)[1] فقد أورد فيها قراءةً بنصب اسم الجلالة، ثم أخذ يفسر الآية بحسب رأي المعتزلة في ذلك، ولذلك يقول أبو حيان متعجباً منه: «وهذا الزمخشري لغلوه في محبة مذهبه يكاد أن يدخله في كل ما يتكلم به، و إن لم يكن مكانه.[2]

ويشهد لما ذكره أبو حيان ما فعله في سورة آل عمران عند قوله تعالى: (شهد الله أنه لا اله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا اله إلا هو العزيز الحكيم)[3] فقد فسرها تفسيراً اعتزالياً محضاً، وربطها بالآية بعدها (إن الدين عند الله الإسلام..) فاستخرج منها مبادئ المعتزلة وقال:

---

١- سورة البقرة الآية ٢٥٢. وقراءة الجمهور فيها برفع الجلالة، وفيها قراءتان شاذتان احداهما بنصب الجلالة والاخرى ( كالم الله ).

٢- انظر البحر المحيط جـ ٢ ص ٢٧٣.

٣- سورة آل عمران الآيتان ١٨-١٩.

فإن قلت: فما فائدة هذا التوكيد؟ قلت:

«فائدته أن قوله (لا إله إلا هو) توحيد ، وقوله ( قائما بالقسط) تعديل، فإذا أردفه بقوله: (إن الدين عند الله الإسلام) فقد أذن أن الإسلام هو: العدل والتوحيد[1]، وهو الدين عند الله ، وماعداه فليس عنده شيءٌ من الدين، وفيه أن من ذهب الى تشبيهٍ ، أو مايؤدي إليه كإجازة الرؤية [2] أو ذهب إلى الجبر[3] الذي هو محض الجور، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام.»

ثم ذكر قراءات في (شهد الله أنه) بفتح الهمزة وكسرها، وفي (ان الدين) كذلك، ثم قال معقباً عليها ومقرراً لنظرية الاعتزال: «وهذا أيضاً شاهدٌ على أن دين الإسلام هو: العدل والتوحيد، فترى القراءات كلها متعاضدةً على ذلك».[4]

ولا يخفى ما في كلامه من دسٍ في التأويل، ومحاولة الاستنصار للنظرية والمذهب بالقراءات، وقد سبقه إلى تخريج هذه الآية على هذا المعنى واستخراج مبادئ الاعتزال منها أبو علي الفارسي فيما نقل عنه أبو حيان في البحر المحيط.[5]

لقد استغلت القراءات من جهة الإمكانيات التي يسمح بها الرسم، فقرأ أهل البدع والأهواء على وفق ما يعتقدونه من المذاهب الفاسدة ، قال ابن الجزري في هذا الصدد في منجد المقرئين:

---

١- هما أهم المبادئ الاعتزالية الخمسة ويليهما: المنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وانفاذ الوعد والوعيد ،انظر البحث القيم الذي كتبه أحمد أمين وما نقله عن الخياط أحد زعمائهم في كتاب ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٢١-٣٦.

٢- يعني رؤية الله، وهم يمنعونها اعتماداً على أن الرؤية تقتضي المكان والجهة والحد و غير ذلك.

٣- يعتقدون أن كل من لايعتقد أن العبد يخلق أفعاله يقول بالجبر، وهذا تمويهٌ وتشغيبٌ طويل.

٤- الكشاف جـ ١ ص ٤١٨-٤١٩.

٥- البحر المحيط جـ ٢ص ٤٠٨

«ثم كثر الاختلاف فيما يحتمله الرسم، وقرأ أهل البدع والأهواء بما لا يحل لأحدٍ من المسلمين تلاوته، فوضعوه من عند أنفسهم، وفاقاً لبدعتهم، كمن قال من المعتزلة: (وكلم الله موسى تكليما)[1] بنصب الهاء[2]، ثم قال بعد كلام:

وإنما كانوا يقرأون على تلك الوجوه إما نصراً لباطلهم، وإما فراراً مما يلزمهم على وجه القراءة المشهورة من معانٍ لا يقرونها.

وقد ذكر الحافظ ابن كثيرٍ في سيرته عن بعض المعتزلة أنه قرأ على شيخ من أهل السنة: (وكلم الله موسى تكليما) بنصب الجلالة، فقال له الشيخ: ويحك، وكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه﴾.[3] [4]

قال ابن قتيبة في كتاب الاختلاف والرد على الجهمية [5] والمشبهة [6]:

«وحاول بعضهم إبدال حروفه بغيرها، فقرأ (عذابي أصيب به من أشاء)[7] بالسين غير المعجمة والنصب[8]، وقرأ جميع ما في القرآن من (المخلصين)[9] بكسر اللام، وإن كان قرأ بذلك بعض القراء، يريد أن يجعل الإخلاص لهم، ولا

---

١- سورة النساء الآية ١٦٤ وقراءة الجمهور برفع الجلالة.

٢- منجد المقرئين: ص٢٢.

٣- سورة الأعراف الآية ١٤٣ وقد كان لهم في تفسير لفظ ( كلم) تحريفٌ بشعٌ حكاه الزمخشري فقال في كشافه جـ ١ ص ٥٨٢ في قوله ( وكلم الله موسى تكليما ) : ومن بدع التفاسير أنه من الكلم، وأن معناه: وجرح الله موسى بأظفار المحن ومخالب الفتن». وهذا تحريف للكلم عن مواضعه.

٤- سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٥٧٨.

٥- أتباع جهم بن صفوان صاحب مذهب الجبر ونفي الارادة عن العبد انظر ضحى الإسلام جـ ٥٥/٣. خرج جهم على بني أمية مع الحارث بن سريج فقتل . انظر أيضاً ضحى الإسلام ٨١/٣.

٦- الذين يذكرون لله تعالى أعضاء كأعضاء الخلق.

٧- سورة الأعراف ١٥٦ وفي إتحاف فضلاء البشر ص ٢٧٤ أنها قراءة الحسن قال: قال الداني: لا تصح عن الحسن » وفي مختصر القراءات الشاذة لابن خالويه ص ٤٦ أنها قراءة الحسن وعمرو بن عبيد».

٨- يعني الفعل الماضي ( أساء).

٩- منها قوله تعالى في الصافات ( إلا عباد الله المخلصين) الآية ١٦٠ وفي يوسف الآية ٢٤ ( انه من عبادنا المخلصين).

يكون لله في ذلك صنع، فكيف يصنع بقوله: (إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار)»[١]

وقرأ (ولايحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم ، إنما نملي لهم ليزدادوا إثما).[٢] بكسرِ إنما الأولى وفتح الثانية، يريد: ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم ليزدادوا إثما، أنما نملي لهم خير لأنفسهم»، فحرّف المعنى عن جهته، ونقله عن سننه وجعل الإملاء من الكفار من الله إنما هو لخيرٍ يريده بهم».

وقد حمل بعضهم نفسه على أن قرأ «ليزدادوا إيماناً» وألحقها في بعض المصاحف [٣] طمعاً في أن تبقى على الدهر، ويجلعها الناس وجها.»[٤]

وإنما جرّهم إلى هذه التحريفات كما ذكرت أن القراءة العامة تفسد عليهم نِحَلَهم ، وقد قال الإمام القرطبي في هذه الآية بعد أن حكى تحريفهم لقراءتها:

«والآية نصٌ في بطلان مذهب القدرية، لأنه أخبر أنه يطيل أعمارهم، ليزدادوا الكفر بعمل المعاصي».[٥]

---

١- سورة ص الآية ٤٦

٢- سورة آل عمران الآية ١٧٨.

٣- ذكر الإمام القرطبي في تفسيره جـ ٢٨٨/٤ عن أبي حاتم قال: « سمعت الأخفش يذكر كسر « ان» يحتج به لأهل القدر، لأنه كان منهم، ويجعل الآية على التقديم والتأخير « ولايحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم ليزدادوا إثما إنما نملي لهم خيرا لأنفسهم . » قال: ورأيت في مصحف المسجد الجامع - بالبصرة- قد زادوا فيه حرفاً فصار «إنما نملي لهم ليزدادوا إيمانا» فنظر إليه يعقوب القارئ ، فتبين اللحن فحكه.» ويعني يعقوب الحضرمي أحد القراء العشرة.

٤- الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة لابن قتيبة ص ١٩ .

٥- الجامع لأحكام القرآن جـ٤ ص ٢٨٨. ومذهب القدرية وجوب هداية الله إلى الطاعة.

ومن ذلك ما ذكره ابن العربي في أحكام القرآن في قوله تعالى ﴿فإذا فرغت فانصب﴾[1]، وقرأها بعض الجهال «فانصب» بتشديد الباء، بمعنى: إذا فرغت من الغزو فعُد إلى بلدك، وهذا باطلٌ أيضاً لمخالفته الإجماع، لكن معناه صحيح، ثم قال:

«ومن أخذ معنى صحيحاً فركّب عليه من قبل نفسه قراءةً وحديثا، فيكون كاذباً على الله كاذباً على رسوله».[2]

وهناك قراءاتٌ في هذا المعنى مرويةٌ في الشواذ، يدلُّ المتبادر من معانيها على خلاف ما هو مراد، وهي التي أشار الزركشي إلى بعضها في قوله:

«وقد يستبشع ظاهر الشاذ بادئ الرأي، فيدفعه التأويل، كقراءة (قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض، وهو يطعم ولا يطعم)[3]، على بناء الفعل الأول للمفعول دون الثاني، وتأويل الضمير في (وهو) راجعٌ إلى الولي[4]، وكذلك قوله (هو الله الخالق البارئ المصور)[5] بفتح الواو والراء، على أنه اسم مفعول، وتأويله: أنه مفعول لاسم الفاعل الذي هو البارئ، فإنه يعمل عمل الفعل، كأنه قال: الذي برأ المصور، وكقراءة (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[6] وتأويله

---

١- سورة الشرح الآية قبل الأخيرة، والقراءة فيها فتح الصاد وتخفيف الباء.

٢- أحكام القرآن: القسم الرابع ص ١٩٣٧-١٩٣٨. والكشاف: ١٦٧/٤ - ١٦٨.

٣- سورة الأنعام الآية ١٤.

٤- القراءة المذكورة بضم الياء في الأول والثاني مع كسر العين في الثاني وفتحها في الأول والضمير عائد على الولي. انظر إملاء ما من به الرحمن للمكبري جـ١ ص ١٢٧. وفي الآية قراءةٌ مرويةٌ عن الحسن والمطوّعي وهي (يطعم) بضم الياء وكسر العين (ولا يطعم) بفتح الياء والعين، والضمير عائدٌ على الله، ومعناها: يطعم غيره ولا يأكل الطعام. انظر هذه القراءة في إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للدمياطي ص ٢٤٥.

٥- سورة الحشر آخر آية منها.

٦- سورة فاطر الآية ٢٨ وقراءة الجمهور بنصب الجلالة ورفع العلماء، والقراءة المقصودة هنا بعكس ذلك أي: رفع الله ونصب العلماء، وهي منسوبة إلى عمر بن عبد العزيز وأبي حنيفة كما في الكشاف جـ٣ ص ٣٠٨.

أن الخشية هنا بمعنى : الإجلال والتعظيم ، لا الخوف».[1]

فلا شك أن قراءة الآية الأولى (وهو يطعم ولا يطعم) توهم عودة الضمير إلى اسم الجلالة كما هو الأمر في قراءة الجمهور بضم الياءين وكسر العين الأولى وفتح الثانية، وكذلك الأمر في قراءة المصور بفتح الواو، إذ توهم إطلاقه على الله تعالى، إذا لم ينتبه المفسر إلى ماذهب إليه القارئ بها على الوجه الذي ذكره الزركشي، ولاشك أن اللفظ بذلك يخرج (المصور) في الآية عن الأسماء الحسنى، وقد ذكرها الزمخشري قراءةً للصحابي الجليل حاطب بن أبي بلتعة[2]، وفسرها بأنه: الذي يبرأ المصور أي: يميزه بتفاوت الهيئات».[3]

ولهذا الظاهر الذي يوهم فيها خلاف ما هو مقصود، ذكرها الجاحظ في قسم اللحن فيما ذكره من لحن القراء في البيان والتبيين، وذكر أن «سابقاً الأعمى كان يقرأ (الخالق البارئ المصوَّر) فكان ابن جابان إذا لقيه يقول: يا سابق، ما فعل الحرف الذي تشرك بالله فيه؟»[4]

ومن يتأمل في كتب الشواذ يجد الكثير من مثل هذا، إذ كان طائفةٌ من القراء منذ المائة الأولى قد أخذوا يقرأون القرآن ببعض الوجوه التي يحتملها الرسم على أساسٍ لغويٍ محض لا يرعون فيه إلا صحة المعنى دون مراعاة صحة النقل، وقد ذكر السيوطي في المزهر أن حماد بن الزبرقان[5] كان يقرأ بعض الحروف في المصحف اجتهادا، لأنه إنما أخذ القرآن عن المصحف،

١- البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ ١ ص ٢٤١.

٢- حاطب بن أبي بلتعة اللخمي الصحابي حليف للأنصار، في المستدرك جـ ٣ ص ٣٠٠-٣٠١ كان أحد الرماة المذكورين ، شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم بدراً والحديبية توفي سنة ٣٠.

٣- الكشاف جـ ٤ ص ٨٧-٨٨

٤- البيان والتبيين جـ٢ ص ٢١٩

٥- حماد بن الزبرقان: أحد الحمادين الثلاثة بالكوفة، قال أبو الفراج الأصفهاني في الأغاني جـ ١٣ ص ١٣٧: « كان بالكوفة ثلاثة نفر ( يقال لهم « الحمادون» : حماد عجرد وحماد الراوية وحماد بن الزبرقان... وكانوا كأنهم نفسٌ واحدة يرمون بالزندقة جميعاً».

وذكر أنه قرأ (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدها إياه)[1] بالباء الموحدة، وإنما هي (إياه) بالتحتية[2]، وقرأ (بل الذين كفروا في عزة وشقاق)[3] بغين معجمة وراء مهملة، وإنما هي (في عزة) بعين مهملة وزاي[4]، وقرأ (لكل امرى منهم يومئذ شان يعنيه)[5] بعين مهملة، وإنما هي (يغنيه) بغين معجمة».[6]

وقد كان هذا المذهب فيما نقل الزركشي عن القاضي الباقلاني[7] في كتابه «الانتصار» مذهب قوم من المتكلمين قالوا: إنه يسوغ إعمال الرأي والاجتهاد في إثبات قراءةٍ وأوجهٍ وأحرفٍ إذا كانت تلك الأوجه صواباً في اللغة العربية، وإن لم يثبت أن النبي ﷺ قرأها قال: وأبى ذلك أهل الحق وأنكروه، وخطأوا من قال بذلك وصار إليه».[8]

وقد اشتهر في القراءة على هذا المذهب المقرئ الكبير أبو بكر بن مقسم البغدادي[9] قال الخطيب البغدادي عنه:

---

١- سورة التوبة الآية ١١٤.
٢- والقراءة بالباء منسوبة أيضاً إلى الحسن البصري كما في التحرير والتنوير جـ ١ ص ٩٢.
٣- ومعنى الغرة: الغرور كما في سورة الملك (ان الكافرون إلا في غرور).
٤- سورة ص الآية ٢.
٥- سورة عبس الآية ٣٧ وقراءة الجمهور بالنين ، وأما بالعين المهملة فذكرها ابن خالويه في مختصر القراءات الشاذة من كتاب البديع ص ١٦٩ ونسبها إلى ابن محيصن والزهري قال: وقد رويت عن الحسن بن علي رضي الله عنهما».
٦- المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي جـ ٢ ص ٣٦٨-٣٦٩. وقد نسب ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٥٥ هذه القراءة بهذه الأحرف إلى حماد الرواية لا إلى ابن الزبرقان ، ولم يذكر المثال الأخير.
٧- تقدمت ترجمته.
٨- البرهان للزركشي جـ ٢ ص ١٢٦.
٩- أبو بكر محمد بن الحسن بن يعقوب بن الحسن المشهور بابن مقسم العطار البغدادي قال الخطيب كان من احفظ الناس لنحو الكوفيين وأعرفهم بالقراءات ، وله في التفسير ومعاني القرآن كتاب جليل سماه « كتاب الأنوار» وله أيضاً في القراءات وعلوم النحو تصانيف عدة «توفي سنة ٣٥٤ انظر تاريخ بغداد للخطيب جـ ٢ ص ٢٠٦-٢٠٨ ترجمة ٦٣٨- الفهرست لابن النديم ص ٥٥-٥٦ معرفة الكبار جـ١ ص ٢٤٦-٢٤٩ غاية النهاية جـ ٢ص ١٢٤ ترجمة ٢٩٤٥.

«ومما طعن عليه به أنه عمد إلى حروف من القرآن، فخالف فيها الإجماع، وقرأها وأقرأها على وجوهٍ ذكر أنها تجوز في اللغة العربية، وشاع ذلك عنه عند أهل العلم، فأنكروه عليه وارتفع ذلك إلى السلطان ، فأحضره واستتابه بحضرة القراء والفقهاء ، فأذعن بالتوبة ، وكتب محضر توبته ، وأثبت جماعةً ممن حضر ذلك المجلس خطهم فيه بالشهادة عليه، وقيل: إنه لم ينزع عن تلك الحروف، وكان يقرئ بها إلى حين وفاته». قال:

«وقد ذكر حاله أبو طاهر بن أبي هاشم[1] صاحب أبي بكر بن مجاهد في كتابه الذي سماه البيان... قال:

«و قد نبغ نابغٌ في عصرنا هذا ، فزعم أن كل من صح عنده وجهٌ في العربية لحرفٍ من القرآن ، فوافق خط المصحف، فقراءته جائزة في الصلاة وغيرها، فابتدع بقيلة ذلك بدعة ضل بها عن سواء السبيل، وأورط نفسه في مزلةٍ عظيمة عظمت بها جنايته على الإسلام وأهله، وحاول إلحاق كتاب الله من الباطل ما لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه»، ثم ذكر استتابته على يد أبي بكر بن مجاهد، وإظهاره الإقلاع عن بدعته، قال: «ثم عاد في وقتنا هذا إلى ما كان ابتدعه، واستغوى من أصاغر المسلمين ممن هو في الغفلة والغباوة دونه، ظناً منه أن ذلك يكون للناس دينا، وأن يجعلوه فيما ابتدعه إماما، ولن يعدو ماضل به مجلسه، لأن الله قد أعلمنا أنه حافظ كتابه من لفظ الزائغين، وشبهات الملحدين، بقوله: (إِنّا نحن نزلنا الذكر، وإِنّا له لحافظون).[2]

---

١- أبو طاهر عبد الواحد بن عمر بن محمد بن أبي هاشم البغدادي المقرئ أحد الأعلام قرأ القرآن على أبي بكر بن مجاهد وجماعة . وقال الذهبي : لم يكن بعد ابن مجاهد مثل أبي طاهر في علمه وفهمه مع صدق لهجته واستقامة طريقته، مات سنة ٣٤٠ وذكر ابن النديم في الفهرست ص ٥٥-٥٦ كتبا في القراءات . وانظر تاريخ بغداد جـ١١ /٧ وبغية الوعاة ٢/٢١١

٢- تاريخ بغداد ٢/٢٠٦ – ٢٠٨ بتصرف.

هذه صور من مواقف القراء والمفسرين إزاء طائفة من القراءات في ضوء التراث اللغوي، أردت من عرض نماذجها الكثيرة وتباين النظرات إليها إبراز الأثر العميق الذي كان لها في تنمية مباحث التفسير وربطه بعلوم اللغة والنحو والبيان، إلى جانب الرواية والنقل، على تفاوت بين المفسرين في رجحان هذا الجانب أو ذاك، وقد رأينا كيف طغى عند طائفة من المفسرين أثر التراث اللغوي حتى جعلوه معياراً للترجيح والتصحيح ، وبيّنا مناحي الضعف في هذا المنهج وما به من قصور.

ونريد في الباب التالي بحول الله أن ننظر في أثر اختلاف القراءات في استنباط الأحكام الفقهية، وهو مجال واسع تعددت فيه النظريات واختلفت مناهج الفقهاء وسوف نرى بعون الله تعالى نماذج كافية من ذلك تشهد بما للاختلاف المذكور في بيان مستندات أهل هذا العلم في تقرير ما تدل عليه القراءات عند اختلافها وتنوعها من اختلاف في المحامل والأحكام .

# الباب السادس

# أثر اختلاف القراءات في الاستنباط الفقهي

ويشتمل على مايلي:

- **الفصل الأول:**
  حجية القراءات ومناهج الأئمة
  في الاستدلال بها على الأحكام الشرعية.

- **الفصل الثاني:**
  أثر اختلاف القراء في اختلاف الفقهاء
  في مهمات من مسائل الأحكام.

# الفصل الأول

## حجية القراءات ومناهج الأئمة في الاستدلال بها على الأحكام الشرعية

تحدثنا في الفصل الثالث من الباب الرابع بإفاضة عن القيمة البيانية التي لتعدد القراءات في مجال التفسير والبيان عن مقاصد القرآن، و أبنّا هنالك عن المزايا التي يوفرها اختلاف القراءات ، من تنويع المعاني وتوسيع الدلالات مع اتحاد الألفاظ، وأشرنا إلى أن هذا داخلٌ في إعجاز القرآن ، و أن مجيء القرآن في ألفاظه على ما يحتمل الوجوه العديدة في القراءة لامانع من أن يكون مرادا لله تعالى، ليقرأ القراء بوجوه ، فتكثر من جراء ذلك المعاني، فيكون وجود الوجهين فأكثر في مختلف القراءات، مجزئا عن آيتين فاكثر.[1]

**قال الحافظ ابن الجزري:**

«وكل ما صح عن النبي ﷺ من ذلك فقد وجب قبوله، ولم يسع أحداً من الأمة رده، ولزم الإيمان به ، و أن كله منزلٌ من عند الله. إذ كل قراءةٍ منها مع الأخرى، بمنزلة الآية مع الآية يجب الايمان بها كلها، واتباع ما تضمنته من المعنى علماً وعملا».[2]

ومن هنا وجب اعتبار القراءات الثابته عنه عليه السلام حجةً في الأحكام، لا سيما ما ثبت منها بالتواتر والاستفاضة ، وفي ذلك يقول الشيخ الدمياطي البنا في الإتحاف:

---

١- انظر المقدمة القيمة لتفسير « التحرير والتنوير» للعلامة محمد الطاهر بن عاشور جـ ١ /٥٥.

٢-انظر النشر في القراءات العشر جـ ١ ص ٥١.

« ولم تزل العلماء تستنبط من كل حرف يقرأ به قارئ معنى لا يوجد في قراءة الآخر، والقراءة حجة الفقهاء في الاستنباط ، ومحجتهم في الاهتداء».[1]

ولما كان اختلاف القراء فيما صح من القراءات اختلاف تنوعٍ لا اختلاف تضاد وتدافع ، وكان مفارقاً لاختلاف الفقهاء في أن كل قراءةٍ فيه هي بالنسبة إلى الأخرى حقٌ وصواب ، بخلاف الأمر في اختلاف الفقهاء المبني على الاجتهاد في فهم الأدلة والاستنباط منها كما أسلفنا[2] ، فإن جمهور الفقهاء قد أطبقوا على الاحتجاج بكل ما ثبت من القراءات متواتراً أو غير متواتر إلا ماثبت نسخه، واعتبروا القرآن بمختلف قراءاته الأصل الأول من الأصول التي تستقى منها الأحكام.[3]

## مذهب الجمهور:

يتمثل مذهب الجمهور في المنهج العام في التفسير واستنباط الأحكام ، القائم على قبول كل ما ثبت من القراءات على أن كل قراءةٍ هي في حد ذاتها خبرٌ شرعي، دون إغفالٍ لموجب كل قراءةٍ وما تقتضيه من حكمٍ موافقٍ أو مخالفٍ لغيرها، وهو موقف ينطلق من اعتبار دلالات النصوص الشرعية جميعاً، سواء منها الظاهرة والخفية ، إذ يقفون إزاء القراءات موقفهم إزاء الآيات التي لها دلالاتٌ ظاهرةٌ مرادة ، ومعها دلالات خفيةٌ تشاركها في جواز إرادتها معها، فهم يجرون تلك الأحكام الظاهرة الأصلية في الآية على المعاني الفرعية التي قد ترجع إليها عند التدبر ، ومثال ذلك في التفسير لفظ « الجهاد» في قوله تعالى:

---

١- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للشيخ أحمد بن محمد بن أحمد البنا الدمياطي ص ٣.

٢- انظر ماقدمنا في التمهيد للفصل الأول.

٣- قال العلامة محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي في كتابه « الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي جـ ١ ص ١٥» مادة الفقه الإسلامية أربعة: الأول: القرآن العظيم الذي احتوى عليه المصحف الكريم، أعني القراءات السبع التي هي متواترة بلا خلاف، وقيل : العشر كلها متواترة . ثم قال: « وأما ما وراء العشرة كقراءة مصحف أبيّ أو ابن مسعود فهي الآن محكوم بشذوذها، لكن حكمها حكم السنة، فيبحث عما ثبت منها بطريق صحيح أو حسن فيحتج به في الفقه كغيره على الأصح».

(ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه)[1] إذ يحتمل أن يفسر الجهاد على معنيين: جهاد النفس في إقامة شرائع الإسلام، ومقاتلة الأعداء، فلا مانع عند الجمهور من حمل الآية على المنيين معا.

وقد جعلوا من ذلك الآية إذا قرئت بوجهين فأكثر، فجوّزوا فيها حمل اللفظ على جميع ما ورد في القراءة، و إقرار جملة المعاني التي يقتضيها تعدد القراءة فيها، مع محاولة العمل بها جميعاً في الحكم الشرعي إذا أمكن، فإذا لم يتأت العمل بها جمع بينها على وجهٍ يتأتى فيه دخول بعضها في بعض دون الاقتصار على وجهٍ واحد فيها، لأنه يؤدي إلى إسقاط وجه القراءة أو أوجه القراءة الأخرى، قال الإمام الزركشي في البرهان:

«وقد جعلوا تعارض القراءتين في آيةٍ واحدة، كتعارض الآيتين كقوله (وأرجلكم)[2] بالنصب والجر، قالوا: يجمع بينهما بحمل إحداهما على مسح الخف، والثانية على غسل الرجل إذا لم يجد متعلقاً سواهما».[3]

**وقال في مكان آخر من البرهان:**

« قد يكون اللفظ مشتركا بين حقيقتين أو حقيقةٍ ومجاز، ويصح حمله عليهما جميعاً، كقوله تعالى: ( ولا يضار كاتب ولا شهيد)[4] قيل المراد: ( يضارر) وقيل: (يضارر)[5] أي الكاتب والشهيد لا يضارر فيكتم الشهادة والخط، وهذا أظهر، و يحتمل أن من دعا الكاتب والشهيد لا يضارره فيطلبه في وقت فيه ضرر».[6]

---

١- سورة العنكبوت الآية ٦.

٢- يعني في الآية رقم ٦ من سورة المائدة ( يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق و امسحوا برؤوسكم ،و أرجلكم إلى الكعبين..) وسيأتي بحث المسألة..

٣- البرهان في علوم القرآن جـ ٢ ص ٥٢.

٤- سورة البقرة الآية ٢٨٢.

٥- يعني بكسر الراء الأولى قبل الإدغام على البناء للفاعل أو فتحها على البناء للمفعول.

٦- البرهان جـ ٢ ص ٢٠٧

**وقال السيوطي في الإكليل:**

« فيه النهي عن مضارتهما، بأن يجبرا على الكتابة والشهادة ولهما عذر، وإن كان المرفوع فاعلاً ففيه النهي عن مضارتهما صاحب الحق بالامتناع أو تحريف الحق، ويؤيده قراءة عمر ( ولا يضارر) بكسر الراء ، أخرجه سعيد بن منصور»[1] وعبد الرزاق.

**قال السيوطي:**

«فقوله سبحانه ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ محتمل للمعنيين كما رأينا، فيجب حمله عليهما معاً، لأن تعدد القراءتين أو القراءات بمنزلة تعدد الآيتين أو الآيات في مذهب عامة الفقهاء».[2]

**وقال العلامة الشوكاني:**

«قد تقرر أن القراءتين بمنزلة الآيتين ، فكما أنه يجب الجمع بين الآيتين المشتملة إحداهما على زيادة، بالعمل بتلك الزيادة، كذلك يجب الجمع بين القراءتين».[3]

وقد استشكل الزركشي اقتضاء اللفظ لمعنيين مختلفين كلاهما مراد، فقال تعقيباً على المثال السابق: ( ولايضار كاتب ولا شهيد ):

«فعلى هذا يجوز أن يقال: أراد الله بهذا اللفظ كلا المعنيين على القولين، أما إذا قلنا بجواز استعمال المشترك في معنييه فظاهر، وأما إذا قلنا بالمنع فبأن

---

١- سعيد بن منصور بن شعبة أبو عثمان الخراساني نشأ ببلخ وطاف البلاد وسكن مكة ومات بها سنة ٢٢٧. روى عن مالك وحماد بن زيد وجماعة ، انظر ترجمته عند ابن حجر في تهذيب التهذيب ٤/ ٨٩-٩٠.

٢- الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص ٨٩.

٣- فتح القدير للعلامة محمد بن علي الشوكاني جـ ١ص ٢٠١.

يكون اللفظ قد خوطب به مرتين: مرة أريد هذا ومرة هذا، وقد جاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه:

«لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة» رواه أحمد، أي: اللفظ الواحد يحتمل معاني متعددة، ولا يقتصر به على ذلك المعنى، بل يعلم أنه يصلح لهذا ولهذا».[1]

على أن القراءتين قد تختلفان في دلالتهما على الحكم الواحد، فتكون إحدى القراءتين دالة عليه من طريق النص، والأخرى بطريق التنبيه أو الإشارة أو غير ذلك، ولذلك تخفى دلالاتها على الحكم إلا على الراسخين في العلم، قال القاضي أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن:

حضرت في بيت المقدس طهره الله[2] بمدرسة أبي عقبة الحنفي والقاضي الزنجاني يلقي علينا الدرس في يوم جمعة ، فبينا نحن كذلك إذ دخل علينا رجلٌ بهيّ المنظر، على ظهره أطمار ، فسلم سلام العلماء، وتصدر صدر المجلس بمدارع الرعاء، فقال القاضي الزنجاني: من السيد؟ فقال: رجلٌ سلبه الشطار أمس ، وكان مقصدي هذا الحرم المقدس ، و أنا رجلٌ من أهل صاغان من طلبة العلم ، فقال القاضي مبادراً: سلوه ، على العادة في إكرام العلماء بمبادرة سؤالهم، ووقعت القرعة على مسألة : الكافر إذا التجأ إلى الحرم»؟ هل يقتل أم لا؟ فأفتى بأنه لايقتل ، فسئل عن الدليل؟ فقال: قوله تعالى: ( ولاتقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ) .[3]

---

١- البرهان للزركشي جـ ٢ ص ٢٠٨.

٢- كان يومئذ بيد الصليبين في أواخر القرن الخامس إبّان رحلة ابن العربي إلى أن استنقذه المسلمون تحت إمرة صلاح الدين الأيوبي في الربع الأخير من القرن السادس، وها هو اليوم مرة أخرى واقع تحت أيدي الصهيونية اليهودية، وما أشبه الليلة بالبارحة عياذا بالله ، نسأل الله أن يوفق المسلمين لإنقاذه.

٣- سورة البقرة الآية ١٩١

قرئ ( ولا تقتلوهم ) ( ولا تقاتلوهم )[1]

«فإن قرئ (ولا تقتلوهم) فالمسألة نصّ ، و إن قرئ (ولا تقاتلوهم) فهو تنبيه، لأنه إذا نهي عن القتال الذي هو سبب القتل كان دليلاً بيّناً ظاهراً على النهي عن القتل.»

فاعترض عليه القاضي منتصراً للشافعي ومالك و إن لم ير مذهبهما على العادة، فقال:

«هذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالى: (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)[2] فقال له الصاغاني: هذا لا يليق بمنصب القاضي وعلمه، فإن هذه الآية التي اعترضت بها عامة في الأماكن، والتي احتججت بها خاصة، ولا يجوز أن يقال: إن العام ينسخ الخاص، فبهت القاضي الزنجاني، وهذا من بديع الكلام».[3]

وقد تدل القراءتان على حكمين مختلفين ، فمذهب الجمهور العمل بموجبهما إذا أمكن الجمع بينهما كما سيأتي في قوله تعالى( ولا تقربوهن حتى يطهرن )[4]، وإذا لم يمكن الجمع حملت كل قراءة على مايناسبها كما سيأتي في آية الطهارة وقراءة( وأرجلكم) بالنصب والجر.

فمذهب الجمهور العمل بموجب القراءتين ، حتى وإن اقتضت كل واحدة منهما حكماً مغايراً لما اقتضته الأخرى، ولا يعدون الآية المختلف في قراءتها من قبيل المتشابه، على غرار ما يفعلون إذا تعارضت الأحكام المستفادة من الآي،

---

١- قال الفراء في معاني القرآن جـ١ ص ١١٦، ( ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم ) الآية فهذا وجه قرأت به العامة، وقرأ أصحاب عبدالله ( ولاتقتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقتلوكم فيه فإن قتلوكم فاقتلوهم ) فالمعنى ههنا: إن بدأوكم بالقتل فاقتلوهم، والعرب قد تقول : قُتل بنو فلان إذا قُتل واحدٌ منهم، فعلى هذا قراءة أصحاب عبد الله ، وكلّ حسن».

٢- سورة التوبة الآية ٥.

٣- أحكام القرآن القسم الأول ص ١٠٥.

٤- سورة البقرة الآية ٢٢٢

قال العلامة القرطبي نقلاً عن ابن خويز منداد[1] من أئمة المالكية: «للمتشابه وجوه ، والذي يتعلق به الحكم ما اختلف فيه العلماء أي الآيتين نسخت الأخرى؟ كقول علي وابن عباس في الحامل المتوفى عنها زوجها: تعتد أقصى الأجلين[2] فكان عمر وزيد بن ثابت وابن مسعود وغيرهم يقولون: وضع الحمل، ويقولون: سورة النساء القصرى[3] نسخت ( أربعة أشهر وعشرا )[4] وكان علي وابن عباس يقولان : لم تنسخ».

«وكتعارض الآيتين أيهما أولى أن تقدم إذا لم يعرف النسخ ولم توجد شرائطه[5].

كقوله تعالى: (وأحل لكم ما وراء ذلكم)[6] يقتضي الجمع بين الأقارب من ملك اليمين، وقوله تعالى (و أن تجمعوا بين الأختين) [7] يمنع ذلك.

---

١- أبو بكر أو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله المشهور بابن خويز منداد من كبار أئمة المالكية له كتاب في « أحكام القرآن» انظر ترجمته في المدارك للقاضي عياض جـ ٤ ص ٦٠٦- وطبقات المفسرين للداودي جـ ٢ ص ٦٨ ترجمة ٤٣٦.

٢- المراد بأقصى الأجلين أبعدهما وهما أجل الحمل. لقوله تعالى( و أولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ) سورة الطلاق آية ٤ والأجل الثاني هو المذكور في سورة البقرة الآية ٢٣٤ في قوله تعالى (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا) .

٣- المراد بها سورة الطلاق.

٤- يعني نسختها بالنسبة للحامل المتوفى عنها لا عن المتوفى عنها مطلقا.

٥-شرائط النسخ كما ذكر الآمدي في الإحكام في أصول الأحكام جـ ٣/ ١٦٤.: أن يكون الحكم شرعياً، متراخياً عن الخطاب المنسوخ حكمه ، و أن لا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيدا بوقت معين ، ومن الشروط المختلف فيها ( ١ ) أن يكون الخطاب بعد التمكن من امتثال الحكم (٢) أن يكون الخطاب المنسوخ مما لا يدخله الاستثناء والتخصيص.(٣) أن يكون نسخ القرآن والسنة بالسنة .(٤) أن يكون الناسخ والمنسوخ نصين قاطعين.(٥) أن يكون الناسخ مقابلاً للمنسوخ مقابلة الأمر للنهي والمضيق للموسع .(٦) أن يكون النسخ ببدل.

٦- سورة النساء الآية ٢٤.

٧- النساء الآية ٢٣.

«ومنه أيضاً تعارض الأخبار عن النبي ﷺ، وتعارض الأقيسة، فذلك المتشابه».

« وليس من المتشابه أن تقرأ الآية بقراءتين ، ويكون الاسم محتملاً أو مجملا ، لأن الواجب منه قدر ما يتناوله الاسم أو جميعه ، والقراءتان كالآيتين يجب العمل بموجبهما جميعاً، كما قرئ( وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم) بالفتح والكسر».[١]

وقد خالف في هذا من كبار الحنفية أبو الحسن الكرخي [٢]وتلميذه أبو بكر الجصاص[٣]، فقال الكرخي:

«سبيل القراءتين غير سبيل الآيتين، وذلك لأن حكم القراءتين لا يلزم معاً في حالٍ واحدة، بل بقيام إحداهما مقام الأخرى، ولو جعلناهما كالآيتين لوجب الجمع بينهما في القراءة، وفي المصحف والتعليم، لأن القراءة الأخرى بعض القرآن، ولايجوز إسقاط شيءٍ منه، ولكان من اقتصر على إحدى القراءتين مقتصراً على بعض القرآن لا على كله، ويلزم من ذلك أن المصاحف لم يثبت فيها جميع القرآن، وهذا خلاف ما عليه جميع المسلمين، فثبت بذلك أن القراءتين ليستا كالآيتين في الحكم، بل يقرآن على أن تقوم إحداهما مقام الأخرى، لا على أن يجمع بين أحكامهما ، كما لا يجمع بين قراءتيهما وإثباتهما في المصحف معاً».[٤]

---

١- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ٤ص ١١-١٢.

٢- أبو الحسن عبيد الله بن الحسين الكرخي، قال أبو إسحاق الشيرازي : كان مولده سنة ٢٦٠ وإليه انتهت رئاسة العلم في أصحاب أبي حنيفة ، وكان ورعاً، وهو شيخ أبي بكر الجصاص الأصولي الحنفي المشهور، توفي سنة ٣٤٠ انظر طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٤٢ فهرست ابن النديم ص ٣٠٧.

٣- أبو بكر أحمد بن علي الرازي الحنفي المشهور بالجصاص من كتبه « أحكام القرآن» مطبوع في مجلدين ثلاثة أجزاء وكتاب الأصول المشهور بأصول الجصاص جزآن مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٦١ أصول، وله كتبٌ أخرى ذكرها ابن النديم في الفهرست توفي سنة ٣٧٠ ومولده سنة ٣٠٥ انظر الفهرست ص ٣٠٧ طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي ص ١٤٤ وطبقات المفسرين للداودي جـ١ ص ٥٥.

٤- نقله الجصاص في أحكام القرآن جـ ٢ ص ٢٧٣.

فهكذا خالف أبو الحسين الكرخي ما عليه الجمهور في اعتبار سبيل القراءتين كسبيل الآيتين يعمل بهما معا، وجاء تلميذه الجصاص الحنفي فسلك في ذلك موقفاً منبثقاً من موقف الكرخي شيخه، وعمَّمَه على جميع الآيات التي تختلف فيها القراءات وتختلف الأحكام المستنبطة منها تبعا لها، فقد رأى أن القراءتين في الآية هما بمنزلة آيتين إحداهما محكمة والأخرى متشابهة ، فالمحكمة عنده هي: « التي لاتحتمل إلا معنى واحدا، والمتشابهة: ماكان لفظها محتملاً للمعاني، فيجب كما يقول حمل المتشابه على المحكم الذي لا احتمال فيه ولا اشتراك في لفظه».[1]

وقد سار الجصاص في تطبيق هذا الموقف شوطاً بعيداً في كتابه أحكام القرآن، فقال في قوله تعالى: ( أو لامستم النساء )[2]:

« قرئت على وجهين : ( أو لامستم ) ( أو لمستم ) [3] فمن قرأ ( أو لامستم ) فظاهره الجماع لا غير ، لأن المفاعلة لاتكون إلا من اثنين ، إلا في أشياء نادرة كقولهم قاتله الله، وجازاه وعافاه الله ونحو ذلك، وهي أحرفٌ معدودةٌ لا يقاس عليها أغيارها، والأصل في المفاعلة أنها بين اثنين، كقولهم: ضاربه وقاتله وسالمه وصالحه ونحو ذلك، و إذا كان ذلك حقيقة اللفظ ، فالواجب حمله على الجماع الذي يكون منهما جميعاً، ويدل على ذلك أنك لاتقول: لامست الرجل ولامست الثوب إذا لمسته ومسسته بيدك، لانفرادك بالفعل، فدل على أن قوله (أو لامستم) بمعنى أو جامعتم النساء، فتكون حقيقته الجماع، و إذا صح ذلك وكانت قراءة من قرأ ( أو لمستم) تحتمل اللمس باليد، وتحتمل الجماع [4] وجب

---

١- أحكام القرآن للجصاص جـ ٢ ص ٤.

٢- في سورة المائدة الآية ٦ وفي النساء الآية ٤٣.

٣- قرأ الجمهور ( أو لامستم ) وقرأ حمزة والكسائي وخلف (أو لمستم) انظر النشر جـ ٢ ص ٢٥٠. وإتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ص ٢٢٦ وقد ذكر موافقة الأعمش للثلاثة.

٤- قال الحافظ ابن كثير: اللمس يطلق في الشرع على الجس باليد، واستدل لذلك بقوله تعالى ( ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم) أي: جسوه، وبقول النبي ﷺ لماعز حين أقر بالزنى : لعلك قبلت أو لمست؟ وفي الحديث، واليد زناها اللمس، ومنه ماثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ نهى عن بيع الملامسة ، وهو يرجع إلى الجس باليد على كلا التفسيرين قالوا: ويطلق في اللغة على الجس باليد كما يطلق على الجماع، تفسير ابن كثير جـ ٢٩٨/٢.

أن يكون ذلك محمولاً على ما لا يحتمل إلا معنى واحداً، لأن ما لايحتمل إلا معنى واحداً فهو المحكم، وما يحتمل معنيين فهو المتشابه، وقد أمرنا الله تعالى بحمل المتشابه على المحكم ورده إليه بقوله: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾[1] فلما جعل المحكم أمّاً للمتشابه فقد أمرنا بحمله عليه، وذم متبع المتشابه باقتصاره على حكمه بنفسه دون رده إلى غيره بقوله: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه..﴾[2]

فثبت بذلك أن قوله (أو لمستم) لما كان محتملاً لمعنيين كان متشابها، وقوله (أو لامستم) لما كان مقصوراً في فهم اللسان على معنى واحد كان محكما، فوجب أن يكون المعنى المتشابه مبنياً عليه».[3]

قال: «فإن قيل : لما قرئت الآية على الوجهين اللذين ذكرت ، وكان أحد الوجهين لا يحتمل إلا معنى واحدا، وهو قراءة من قرأ( أو لامستم) والوجه الآخر يحتمل اللمس باليد ويحتمل الجماع، وجب ان نجعل القراءتين كالآيتين لو وردت إحداهما كنايةً عن الجماع، فنستعملها فيه، والأخرى صريحة في اللمس باليد خاصة، فنستعملها فيه دون الجماع، ويكون كل واحد من اللفظين مستعملاً على مقتضاه من كنايةٍ أو تصريح ، إذ لا يكون لفظٌ واحدٌ حقيقةً مجازا، ولا كنايةً صريحاً في حال واحدة، ونكون مع ذلك قد استعملنا حكم القراءتين على فائدتين ، دون الاقتصار بهما على فائدة واحدة ». قيل له: لا يجوز ذلك، لأن السلف من الصدر الأول المختلفين في مراد الآية قد عرفوا القراءتين جميعا، لأن القراءتين لا تكونان لا توقيفاً من الرسول للصحابه عليهما، وإذا كانوا قد عرفوا القراءتين ثم لم يعتبروا هذا الاعتبار ، ولم يحتجَّ بهما موجبو الوضوء من اللمس، علمنا بذلك بطلان هذا القول، وعلى أنهم مع ذلك لم يحملوهما على

---

١- سورة آل عمران الآية ٧.

٢- الآية نفسها.

٣- أحكام القرآن للجصاص جـ ٢ ص ٣٧٢.

المعنيين ، بل اتفقوا على أن المراد أحدهما، وحمله كل واحد من المختلفين على معنى غير ما تأوله عليه صاحبه من جماعٍ أو لمسٍ بيد دون الجماع، فثبت بذلك أن القراءتين على أي وجهٍ حصلتا لم تقتضيا بمجموعهما، ولا بانفراد كلِ واحدةٍ منهما الأمرين جميعاً، ولم يجعلوهما بمنزلة الآيتين إذا وردتا ، فيجب استعمال كل واحدةٍ منهما على حيالها، وحملها على مقتضاها وموجبها».[1]

وهذا مثالٌ آخر يجمع بين رأي الجصاص وشيخه في حمل إحدى القراءتين على الأخرى، قال الجصاص في قوله تعالى( لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان):[2]

« قد قرئ قوله تعالى( بما عقدتم) على ثلاثة أوجه: ( عقَّدتم) بالتشديد قرأ به جماعةٌ ( عقدتم) مخففا ، ( وعاقدتم) .[3]

قوله تعالى ( عقّدتم) بالتشديد كان أبو الحسن[4] يقول:

« لايحتمل إلا عقد قول، و(عقدتم) بالتخفيف يحتمل عقد القلب وهو العزيمة والقصد إلى القول ،ويحتمل عقد اليمين قولا، ومتى احتملت إحدى القراءتين القول واعتقاد القلب، ولم تحتمل الأخرى إلا عقد اليمين قولا، وجب

---

١- نفس المصدر والصفحة.

٢- سورة المائدة الآية ٨٩.

٣- قال الطبري في تفسيره جـ ٧ ص ١٣: قرأته عامة قراء الحجاز (بما عقّدتم) بتشديد القاف بمعنى وكّدتم الأيمان ورددتموها، وقراء الكوفيين (بما عقدتم) بتخفيف القاف بمعنى أوجبتموها على أنفسكم وعزمت عليها قلوبكم، وأولى القراءتين بالصواب في ذلك قراءة من قرأ بتخفيف القاف، ثم قال: « وقد أجمع الجميع لا خلاف بينهم أن اليمين التي تجب بالحنث فيها الكفارة تلزم بالحنث في حلف مرة واحدة وإن لم يكررها الحالف مرات ، وكان معلوماً بذلك أن الله مواخذ الحالف العاقد قلبه على حلفه وإن لم يكرره ويردده، وإذا كان ذلك كذلك لم يكن لتشديد القاف من (عقدتم) وجه مفهوم» فانظر كيف حاول الطبري على عادته في مثلها كما تقدم توهين وجه هذه القراءة المتواترة وانظر كيف جاء الجصاص ، فجعل تلك التي أوهنها الطبري هي القراءة المحكمة ، و ماسواها متشابه يجب رده إليها؟

٤- يعني شيخه أبا الحسن الكرخي.

حمل مايحتمل وجهين على ما لا يحتمل إلا وجهاً واحدا، فيحصل المعنى من القراءتين عقد اليمين قولا، ويكون حكم إيجاب الكفارة مقصوراً على هذا الضرب من الأيمان، وهو أن تكون معقودة ، ولاتجب في اليمين على الماضي، لأنها غير معقودة، وإنما هو خبرٌ عن ماض ، والخبر عن الماضي ليس بعقد، سواء كان صدقاً أو كذبا».

«فإن قال قائلٌ : إذا كان قوله تعالى ( عقدتم) بالتخفيف يحتمل اعتقاد القلب، ويحتمل عقد اليمين، فهلا حملته علي المعنيين إذ ليسا متنافيين ، وكذلك قوله (عقّدتم) بالتشديد محمولٌ على عقد اليمين، فلا ينفي ذلك استعمال اللفظ في القصد إلى اليمين فيكون عموماً في سائر الأيمان؟

قيل له: لو سلم لك ما ادعيت من الاحتمال لما جاز استعماله فيما ذكرت، ولكانت دلالة الإجماع مانعةً من حمله على ما وصفت ، وذلك أنه لاخلاف أن القصد إلى اليمين لا يتعلق به وجوب الكفارة، وأن حكم إيجابها متعلقٌ باللفظ دون القصد في الأيمان التي يتعلق بها وجوب الكفارة ، فبطل بذلك تأويل من تأول اللفظ على قصد القلب في حكم الكفارة، وثبت أن المراد بالقراءتين جميعاً في إيجاب الكفارة، هو اليمين المعقودة على المستقبل».[1]

وهكذا خالف الجصاص وشيخه أبو الحسن الكرخي جمهور العلماء في وجوب العمل بالقراءتين وإجرائهما في العمل مجرى الآيتين، فكانا يعدان إحدى القراءتين أو القراءات من قبيل المتشابه الذي ينبغي أن يُردّ في بيان معناه إلى المحكم، ولم يعاملا القراءتين إذا اختلفتا معاملتهما للآيتين، قال الجصاص في قوله تعالى: (وآتوا اليتامى أموالهم)[2] «متى وردت آيتان إحداهما خاصة مضمنة بقرينة، فيما تقتضيه من إيجاب الحكم، والأخرى عامة غير مضمنة

١- أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص جـ ٢ ص ٤٥٥.

٢- سورة النساء الآية ٢.

بقرينة، وأمكننا استعمالهما على فائدتهما لم يجز لنا الاقتصار بهما على فائدة إحداهما، و إسقاط فائدة الأخرى.(١)

فعند الجصاص وشيخه كما رأينا لا يجوز الاقتصار بالآيتين على فائدة إحداهما وإسقاط فائدة الأخرى، بينما الأمر عندهما في القراءتين خلاف ذلك، لأن سبيلهما عندهما غير سبيل الآيتين المحكمتين ، وإنما سبيلهما سبيل الآيتين اللتين إحداهما محكمة والأُخرى متشابهة، «» فيجب حمل اللفظ المحتمل للمعاني على المحكم الذي لا احتمال فيه ولا اشتراك في لفظه»».(٢)

وقد ضعف ابن رشد الحفيد في بداية المجتهد منزع المالكية والشافعية في حملهم اللفظ على معنيين مع كون كل منهما مراداً فقال في قوله تعالى (أو لامستم النساء) بعد أن ذكر اختلاف القولين في حقيقة اللمس المراد من الآية أهو الجس باليد و العضو أم الجماع؟ قال:

«وأما من فهم من الآية اللمسين معاً فضعيف، فإن العرب إذا خاطبت بالاسم المشترك إنما تقصد به معنى واحداً من المعاني التي يدل عليها الاسم، لا جميع المعاني التي يدل عليها، وهذا بيِّن بنفسه في كلامهم».(٣)

وقال في قوله تعالى: ( ولاتقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله )»(٤)

«يجب على من فهم من لفظ الطهر في قوله تعالى (حتى يطهرن) معنى واحداً من هذه المعاني الثلاثة (٥) أن يفهم ذلك المعنى بعينه من قوله تعالى (فإذا تطهرن)، لأنه مما ليس يمكن، أو ما يعسر أن يجمع في الآية بين معنيين

١- أحكام القرآن جـ ٢ ص ٤٩.
٢- أحكام القرآن جـ ٢ ص ٤.
٣- بداية المجتهد ونهاية المقتصد لأبي الوليد أحمد بن محمد بن رشد (الحفيد) جـ١ ص ٢٧-٢٨.
٤-سورة البقرة الآية ٢٢٢
٥- يعني بالمعاني الثلاثة : النقاء من الدم، والغسل بمعنى ازالة أثر الدم، والاغتسال الشرعي وسيأتي بيان ذلك.

من هذه المعاني مختلفين، حتى يفهم من لفظة( يطهرن) النقاء ، ويفهم من لفظة (تطهرن) الغسل بالماء على ماجرت به عادة المالكيين في الاحتجاج لمالك، فإنه ليس من عادة العرب أن يقولوا: لا تعط فلاناً درهماً حتى يدخل الدار، فإذا دخل المسجد فأعطه درهماً، لأن الجملة الثانية هي مؤكدةٌ لمفهوم الجملة الأولى، ومن تأول (ولاتقربوهن حتى يطهرن) على أنه النقاء، وقوله ( فإذا تطهرن) على أنه الغسل بالماء، فهو بمنزلة من قال: لاتعط فلاناً درهماً حتى يدخل الدار، فإذا دخل المسجد فأعطه درهما، وذلك غير مفهوم في كلام العرب، إلا أن يكون هناك محذوف ، ويكون التقدير (ولا تقربوهن حتى يطهرن ويتطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) وفي تقدير هذا الحذف بعدٌ ما ، ولا دليل عليه».[1]

وقد تأملت كلام ابن رشد هذا فإذا بي أجده لم يفهم منزع المالكية في إعمال القراءتين معاً في قوله (حتى يطهرن) بالتخفيف والتشديد [2] وظن أنهم فهموا من قوله (حتى يطهرن) بالتخفيف النقاء من الدم، وفهموا اشتراط الغسل من قوله (فإذا تطهرن ) فألزمهم الاختلال الذي ذكره في المعنى، أو تقدير محذوف في الكلام كما قدره.

والواقع أن المالكية لا يتأولون الآية كما تأولها، إذ يعتبرون القراءتين بتخفيف الطاء وتشديدها في قوله ( حتى يطهرن) فيجعلون قراءة التخفيف دالةً على اشتراط النقاء، وقراءة التشديد دالةٌ على اشتراط الغسل، ولا مانع عندهم من إرادة المعنيين فيها، وهم بالتالي لا يحتاجون إلى تقدير محذوف في اللفظ كما توهم ابن رشد، ويكون المعنى عندهم كما عبر عنه الإمام القرطبي في تفسيره حين قال:

---

١- بداية المجتهد جـ١ ص ٤٢.

٢- قرأ جمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر بن عياش والمفضل الضبي عنه ( يطهرن) بتشديد الطاء والهاء وكذا هي في مصحف أبّي وعبد الله ، انظر البحر المحيط لأبي حيان جـ٢ ص ١٦٨.

«ودليلنا ان الله سبحانه علق الحكم فيها على شرطين: أحدهما انقطاع الدم، وهوقوله (حتى يطهرن) والثاني الاغتسال بالماء، وهوقوله (حتى يتطهرن) أي: يفعلن الغسل بالماء».[1]

وهذا صريح في اعتبار المالكية لاختلاف القراءتين معاً.

هذه آراء بعض الفقهاء وعلماء الأصول في الاحتجاج بالآي التي تختلف فيها القراءات، ويجدر بنا أن ننبه إلى أن ما عرضناه إنما وقع فيه الاختلاف في القراءة بين المتواترتين.

**موقف علماء المذاهب الفقهية من القراءات الشاذة:**

وأما ما كان من اختلافٍ بين المتواتر وما روي بطريق الآحاد مما يعبر عنه أحياناً بالشاذ، فقد تباينت فيه آراء الفقهاء ، وتباينت مواقفهم في اعتبار القراءة الشاذة خبراً شرعياً أو عدم اعتبار ذلك.

ولم يكن الخلاف فحسب بالنسبة لأخذ الأحكام الشرعية منها والاحتجاج بها عليها، وإنما تطرق أيضاً إلى قبولها وجواز روايتها، وسوف نرى أن كثيراً من فقهاء الصدر الأول ليست لهم مواقف واضحةٌ في هذا المجال، حتى إن طائفةً منهم قالوا بموجب بعض هذه القراءات الشاذة، وإن لم يجعلوا الحكم مأخوذاً منها، بل استندوا فيه إلى أدلةٍ أخرى، مكتفين بالاستئناس له بالقراءة الشاذة، دون أن يجعلوها مصدر الحكم الشرعي.

ونستطيع أن نضرب المثل للموقف غير الواضح من الشواذ بموقف الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، إذ أنه من جهة يرى جواز القراءة ببعض الحروف المروية عن الصحابة مع مخالفتها للمرسوم في الإمام، ولكنه فيما يبدو من

---

١- الجامع لأحكام القرآن جـ ٢ ص ٨٩.

كلامه لا يرى وجوب العمل بمقتضى تلك الحروف، ويستفاد ذلك مما نقله ابن وهب عنه في كتاب الترغيب من جامعه قال:

«قلت لمالك: أفترى أن يقرأ بمثل ما قرأ عمر بن الخطاب ( فامضوا إلى ذكر الله)؟[1]

قال مالك : ذلك جائز ، قال رسول الله ﷺ: أنزل القرآن على سبعة أحرف، فاقرأوا منه ما تيسر [2]مثل: يعلمون تعلمون، قال مالك: لا أرى في اختلافهم في مثل هذا بأسا، ولقد كان الناس ولهم مصاحف ، والستة الذين أوصى لهم عمر[3] كانت لهم مصاحف».[4]

وقال: أخبرني مالك قال: أقرأ عبد الله بن مسعود رجلاً (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم)[5] فجعل الرجل يقول : طعام اليتيم ، فقال له ابن مسعود: طعام الفاجر، فقلت لمالك: أترى أن يقرأ بذلك؟

قال: نعم أرى أن ذلك واسع.[6]

قال أبو عمر بن عبد البر معلقاً على قول مالك هذا:

«معناه عندي أن يقرأ به في غير الصلاة، وإنما لم يجز القراءة به في الصلاة لأن ما عدا مصحف عثمان لا يقطع عليه، وإنما يجري مجرى خبر الواحد، لكنه

---

١- يعني أن يقرأ ذلك في موضع ( فاسعوا ) المرسومة في المصحف في قوله تعالى في سورة الجمعة الآية ٩ ( يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع). وانظر قراءة عمر وابن مسعود ( فامضوا إلى ذكر الله ) فيما تقدم.

٢- انظر أحاديث أنزل القرآن على سبعة أحرف في الفصل الثاني من الباب الأول.

٣- يعني بالخلافة لينتخبوا منهم واحدا، وهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف وسعد ابن أبي وقاص.

٤- نقله أبو محمد بن حزم في كتابه الإحكام في أصول الأحكام ٥٢٨/١ والزركشي في البرهان ٢٢٢/١.

٥- سورة الدخان الآيتان ٤٢-٤٤.

٦- انظر أحكام القرآن لابن العربي القسم الرابع ص ١٦٧٩-١٦٨٠ والبرهان للزركشي ٢٢٢/١

لايقدم أحدٌ على القطع في رده».[1]

فعلى تفسير ابن عبد البر يكون موقف مالك مما ذكر جارياً على قبوله لما صحت به الرواية من قراءات، وإن لم يَجُز التعبُّدُ به لعدم القطع على قرآنيته ولذلك نقل ابن عبد البر وغيره عنه أنه « قال فيمن قرأ بصلاةٍ بقراءة ابن مسعود وغيره من الصحابة مما يخالف المصحف لم يصلِّ وراءه».[2]

وقال القاضي ابن العربي في الأحكام:

«وروى البصريون عنه أنه لا يقرأ في الصلاة بما يروى عن ابن مسعود، وقال ابن شعبان[3]: « لم يختلف قول مالك أنه لا يصلى بقراءة ابن مسعود، فإنه من صلى بها أعاد صلاته، لأنه كان يقرأ بالتفسير».

قال ابن العربي: وقد بينا القول في حال ابن مسعود في سورة آل عمران[4] ولوصحت قراءته لكانت القراءة بها سنة، ولكن الناس أضافوا إليه مالم يصح عنه[5]، فلذلك قال مالك: لا يقرأ بما يذكر عن ابن مسعود».[6]

وقد فرق العلماء بين قبول القراءة الشاذة باعتبارها خبراً شرعيا، وعدم قبول قرآنيتها لعدم تواترها في النقل، وكان بعضهم يتردد بين القول بحرمة القراءه بها وبين الكراهة، فقد حكى صاحب الإقناع[7] نوعاً من التردد في ذلك فقال:

«وإن قرأ بقراءةٍ تخرج عن مصحف عثمان لم تصح صلاته ويحرم، لعدم

١- نقله الزركشي في البرهان جـ١/٢٢٢ وهو بمعناه في التمهيد جـ٤ ص ٢٧٨-٢٧٩.
٢- نقله ابن العربي في أحكام القرآن القسم الرابع ص ١٦٧٩-١٦٨٠، وفي المدونة: « ومن صلى خلف من يقرأ بما يذكر من قراءة ابن مسعود رضي الله عنه فليخرج وليتركه، فإن صلى خلفه اعاد ابدا.
٣- تقدمت ترجمته.
٤- يعني في أحكام القرآن له.
٥- ولذلك ذكر ابن النديم في الفهرست ص ٤٦ أنه رأى عدة مصاحف ذكر نساخها أنها مصحف ابن مسعود ليس فيها مصحفان متفقان.
٦-أحكام القرآن لابن العربي القسم الرابع ص ١٦٧٩-١٦٨٠
٧- هو أبو النجا شرف الدين موسى الحجاوي المقدسي المتوفى سنة ٩٦٨.

تواتره، وعنه [1] يكره وتصح بما وافق المصحف، وإن لم يكن من العشرة نصا.[2]

وحكى ابن عبد البر الإجماع على المنع من القراءة بما يخالف المصحف الإمام فقال في التمهيد:

«أجمع العلماء على أن ما في مصحف عثمان بن عفان – وهو الذي بأيدي المسلمين اليوم حيث كانوا في أقطار الأرض- هو القرآن المحفوظ الذي لا يجوز لأحدٍ تجاوزه ، ولايحل الصلاة لمسلمٍ إلا بما فيه ، وأن كل ماروي من القراءات في الآثار عن النبي ﷺ أو عن عمر بن الخطاب أو عن أُبيّ أو عائشة أو ابن مسعود أو ابن عباس أو غيرهم من الصحابة مما يخالف مصحف عثمان المذكور ، لايقطع بشئ من ذلك على الله عز وجل ، ولكن ذلك في الأحكام يجري في العمل مجرى خبر الواحد».[3]

فإذا نظرنا في تطبيق هذا القول في استنباط الأحكام، وجدنا الحنفية يعملون بالشواذ ، لأنها كانت واسعة الانتشار عندهم بالعراق كما قدمنا[4] ، وظل بعض القراء لا يرون جُناحاً في روايتها واستنباط الأحكام منها، فهؤلاء فقهاء العراق يشترطون التتابع في صوم كفارة اليمين أخذاً بقراءة أُبيّ بن كعب وابن مسعود ، قال أبو بكر الجصاص في أحكامه:

«روى مجاهد عن عبد الله بن مسعود، وأبو العالية [5] عن أُبيّ (فصيام ثلاثة أيام متتابعات)[6] ، وقال إبراهيم النخعي[7]: في قراءتنا: (فصيام ثلاثة أيام متتابعات).

---

١- أي عن أحمد بن حنبل.

٢- الاقناع في فقه أحمد بن حنبل جـ١ ص ١١٩

٣- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد للحافظ ابن عبد البر جـ ٤ ص ٢٧٨-٢٧٩.

٤- انظر أول الفصل الثاني من الباب الثالث.

٥- رفيع بن مهران الرياحي تقدمت ترجمته.

٦- انظر قراءة أُبّي بذلك أيضاً في المصاحف لابن أبي داود في موضوع كفارة اليمين في قوله تعالى في سورة المائدة الآية ٨٩ ( فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم...)

٧- الفقيه العراقي شيخ أبي حنيفة تقدمت ترجمته.

وقال ابن عباس ومجاهد وإبراهيم وقتادة[1] وطاوس[2]: هن متتابعات لايجزئ فيها التفريق قال الجصاص: «فثبت التتابع بقول هؤلاء، ولم تثبت التلاوة، لجواز كون التلاوة منسوخة، والحكم ثابتاً وهو قول أصحابنا».[3]

ويفهم من كلام الحافظ ابن كثير[4] أن الشافعي قد عمل في أحد قوليه بموجب هذه القراءة، فقد جاء في تفسيره لهذه الآية : « اختلف العلماء هل يجب فيها التتابع، أو يستحب ولا يجب، ويجزئ التفريق؟ قولان:

«أحدهما: لايجب ، وهو منصوص الشافعي في كتاب الأيمان ، وهو قول مالك، لإطلاق قوله ( فصيام ثلاثة أيام) ، وهو صادق على المجموعة والمفرقة، كما في قضاء رمضان لقوله ( فعدة من أيام أُخر).[5]

قال: «ونص الشافعي في موضع آخر في «الأم» على وجوب التتابع ، كما هو قول الحنفية والحنابلة، لأنه قد روي عن أُبَي بن كعب وغيره أنهم كانوا يقرأونها (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) ، ثم قال: «وهذه إذا لم يثبت كونها قرآنا متواترا، فلا أقل أن يكون خبراً واحدا، أو تفسيراً من الصحابة، وهو في حكم المرفوع.»[6]

ويفهم من كلام القاضي ابن العربي في هذه المسألة أن مالكاً والشافعي لم يكونا يجعلان أي اعتبار لما خالف المرسوم في المصحف، فقال القاضي في قوله

---

١- الشيباني المفسر المشهور تقدمت ترجمته.

٢- طاوس بن كيسان اليمني قال أبو إسحاق الشيرازي : كان فقيهاً جليلاً من أعلم الناس بالحلال والحرام، مات بمكة حاجاً سنة ١٠٦ . انظر طبقات الفقهاء للشيرازي ص ٧٣ وتهذيب الأسماء واللغات للنووي جـ١ ص ٢٥١.

٣- أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص جـ ٢ ص ٤٦١.

٤- عماد الدين ابن كثير صاحب التفسير تقدمت ترجمته.

٥- سورة البقرة الآية ١٨٤-١٨٥.

٦- تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٦٣٣- ٦٣٤.

تعالى (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام): قرأها ابن مسعود وأُبّي بن كعب: (متتابعات)، وقال مالك والشافعي: يجزئ التفريق، وهو الصحيح، لأن التتابع صفةٌ لاتجب إلا بنصٍ أو قياسٍ على منصوص، وقد عدما في مسألتنا».[1]

فابن العربي يرى أنهما لم يعتبرا قراءة ابن مسعود وأُبّي نصاً في المسألة، مع ثبوتها في النقل، وحتى على اعتبار نفي القرآنية عنها لانتفاء تواترها، تبقى لها قوة أخبار الآحاد التي يحتج بها في الأحكام، إلا إذا تأكد بأنها منسوخة، ولم يصرح ابن العربي بشيء من ذلك.

وقد سلك الطبري في تفسيره إزاء هذه القراءة سبيلاً مماثلاً لما سلكه مالك والشافعي في قول ابن العربي فقال بعد أن عرض اختلاف الفقهاء فيها واختلاف الآثار:

«والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى أوجب على من لزمته كفارة يمين إذا لم يجد إلى تكفيرها بالإطعام أو الكسوة أو العتق سبيلا، أن يكفرها بصيام ثلاثة أيام، ولم يشرط في ذلك متابعة، فكيفما صامهن المكفر مفرقةً أو متتابعةً أجزأه، لأن الله تعالى إنما أوجب عليه صيام ثلاثة أيام، فكيفما أتى بصومهن أجزأ، فأما مايروى عن أُبيّ وابن مسعود في قراءتهما (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) فذلك خلاف ما في مصاحفنا، وغير جائز لنا أن نشهد بشيء ليس في مصاحفنا أنه من كتاب الله».[2]

وهكذا لم يعمل ابن جرير الطبري بهذه الزيادة، لأنها لم تثبت قرآنيتها عنده لمخالفتها لما في المصحف، إلا أنه لم يدلنا على المانع من اعتبارها خبراً شرعياً كأخبار الآحاد، فلعل مذهبه أنه حيث لم يثبت كونها قرآناً لم تبق فيها حجة، لأن من نقلها نقلها على أنها منه، فلم يثبت ذلك، وهو مثار الخلاف الذي حكاه

---

١- أحكام القرآن لابن العربي: القسم الثاني ص ٦٤٩.

٢- جامع البيان للطبري جـ٧ ص ٣١.

القرطبي في تفسيره حين قال:

«وأما شواذ القراءات عن المصاحف المتواترة فليست بقرآن، ولا يعمل بها على أنها منه، وأحسن محاملها أن تكون بيان تأويل مذهب من نسبت إليه، كقراءة ابن مسعود (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) فأما لو صرح الراوي بسماعها من رسول الله ﷺ، فاختلف العلماء في ذلك على قولين : النفي والإثبات، ووجه النفي أن الراوي لم يروه في معرض الخبر، بل في معرض القرآن، ولم يثبت فلا يثبت».

والوجه الثاني: أنه وإن لم يثبت كونه قرآنا، فقد ثبت كونه سنة، وذلك يوجب العمل كسائر أخبار الآحاد».[1]

وهذا الوجه الأخير هو الذي عليه أكثر العلماء، قال العلامة ابن السبكي[2] في جمع الجوامع:

«أما إجراؤه مجرى الآحاد فهو الصحيح».[3]

وقال السيوطي في الإتقان: «قد احتج الأصحاب [4]على قطع يمين السارق بقراءة ابن مسعود[5]،وعليه أبو حنيفة أيضاً،واحتج على وجوب التتابع في صوم كفارة اليمين بقراءة (متتابعات)، ولم يحتج بها أصحابنا لثبوت نسخها».[6]

١- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ١ ص ٤١.

٢- عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي المشهور بابن السبكي تاج الدين الشافعي، قرأ على والده تقي الدين وسمع من المزي والذهبي وجماعة توفي بالشام سنة ٧٧١. انظر البدر الطالع للشوكاني جـ١ ص ٤١٠-٤١١ حسن المحاضرة للسيوطي جـ١ ص ١٣٢.

٣- جمع الجوامع لابن السبكي انظر مجموع مهمات المتون ص ١٣١.

٤- يعني فقهاء الشافعية.

٥- يعني بقراءته لقوله تعالى ( والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما..) الآية ٣٨ من سورة المائدة ، وقرأ ابن مسعود ( فاقطعوا أيمانهما ) انظر معاني القرآن ليحي بن زياد الفراء جـ١ ص ٣٠٦.

٦- الإتقان للسيوطي جـ١ ص ٢٢٨.

وقال العلّامة الشوكاني: «قد عمل الأئمة بقراءة الآحاد في مسائل كثيرة، منها قراءة ابن مسعود (فصيام ثلاثة أيام متتابعات)، وقراءة أُبيّ (وله أخ أو أخت من أم)[1]، ووقع الإجماع على ذلك، ولا مستند له غيرها».[2]

وقال أيضاً معلقاً على حديث عائشة رضي الله عنها «كان فيما أنزل من القرآن: عشر رضعاتٍ معلومات يحرمن فنسخن بخمس فتوفي رسول الله ﷺ، وهو فيما يقرأ من القرآن».[3]

قال الشوكاني منتصراً لمذهبه في اشتراط الخمس في الحرمة بالرضعات:

«المعتبر حفظ الحكم، ولو سلم انتفاء قرآنيته على جميع التقادير لكان سنة، لكون الصحابي راوياً له عنه ﷺ لوصفه له بالقرآنية، وهو يستلزم صدوره عن لسانه، وذلك كافٍ في الحجية، لما تقرر في الأصول من أن المروي آحاداً إذا انتفى عنه وصف القرآنية، لم ينتف وجوب العمل به كما سلف».[4]

وهذا القول على وجاهته لم يأخذه العلماء المعتبرون على إطلاقه، لأنهم وإن كانوا يحتجون بأخبار الآحاد، فإنهم يتوقفون عند ما نقل من ذلك قرآنا فلم يثبت، وكأنما يتعارض عندهم التواتر مع الآحاد، فيقدمون التواتر المتيقن المقطوع به على ماليس كذلك، ولذلك اشترطوا في كل ما هو قرآن أن يكون متواتراً ولم يتحقق ذلك إلا للمرسوم في المصحف الإمام، وقد مثل الإمام الزركشي بآية الرضعات التي في حديث عائشة لما وقع نسخ لفظه وحكمه كذلك، وقال: لا تجوز قراءته ولا العمل به قال:

---

١- سورة النساء الآية ١٢ وقد وردت هذه القراءة أيضاً منسوبةً لسعد بن أبي وقاص فيما تقدم من قول أبي عبيد «ان المقصود من القراءة الشاذة تفسير القراءة المشهورة..».

٢- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار للشوكاني جـ٥ ص ٢٣٠-٢٣١.

٣- رواه مسلم و أبو داود والنسائي انظر التمهيد لابن عبد البر جـ٤ ص ٢٧٤ ونيل الأوطار ٢٩٩/٥.

٤- نيل الأوطار: جـ٥ ص٣٢١.

وحكى القاضي أبو بكر[1] في الانتصار عن قوم إنكار هذا القسم، لأن الأخبار فيه أخبار آحاد، ولا يجوز القطع على إنزال قرآنٍ ونسخه بأخبار آحاد لاحجة فيها».[2]

وهذا مذهب طائفة من المتكلمين اشترطوا التواتر في كل ما هو قرآن، حتى اشترطوه في حروف القراءة، وقد ناقش الحافظ ابن الجزري مسألة تواتر حروف القراءة بإفاضة، فقال بعد أن ذكر أصول القراءة المقبولة عند الجمهور، وهي صحة السند وموافقة العربية ورسم المصحف:

«وقد شرط بعض المتأخرين التواتر في هذا الركن، ولم يكتف فيه بصحة السند، وزعم أن القرآن لايثبت إلا بالتواتر، وأن ما جاء مجئ الآحاد لا يثبت به قرآن، وهذا مما لايخفى ما فيه، فإن التواتر إذا ثبت لا يحتاج فيه إلى الركنين الأخيرين من الرسم وغيره، إذ ماثبت من أحرف الخلاف متواتراً عن النبي ﷺ وجب قبوله، وقطع بكونه قرآنا، سواء وافق الرسم أو خالفه، وإذا اشترطنا التواتر في كل حرفٍ من حروف الخلاف انتفى كثيرٌ من أحرف الخلاف الثابت عن هؤلاء الأئمة السبعة وغيرهم، ولقد كنت أجنح إلى هذا القول، ثم ظهر لي فساده، وموافقة أئمة السلف والخلف».[3]

وقد استدل لما انتهى إليه بطائفةٍ من أقوال أئمة القراءات والأصول، وفي نظري أن الصواب في ما قاله، إذ لو كانت كل حروف القراءات محتاجةً إلى التواتر ما قبلت من أحدٍ من رواتها إلا إذا كان معه عدد التواتر وهذا لم يقل به أحد، بل اشترطوا فقط عدالة الراوي وصحة السند بما يروي، ولم يلزموه أن يكون ما رواه من حروف القراءة متواترا، وهذا كما لايخفى لا دخل له في

---

١- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المالكي، تقدمت ترجمته.

٢- البرهان للزركشي جـ ٢ص ٣٩-٤٠.

٣- النشر جـ ١ ص ١٣ وانظر مناقشة العلامة على النوري له في غيث النفع في القراءات السبع المنشور بهامش سراج القارئ على الشاطبية ص ٥-٦.

تواتر النص المقروء، إذ الاختلاف في بعض جزئياته وكيفيه أدائه لاينافي تواتر أصله، وإنما يشترط التواتر في إثبات قرآن لا في إثبات قراءة «والقرآن – كما يقول ابن العربي المعافري- لا يثبت بنقل الواحد وإن كان عدلا، وإنما يثبت بالتواتر الذي يقع به العلم، وينقطع معه العذر، وتقوم به الحجة على الخلق».(١)

وإنما وقع الخلاف بين الأئمة في القراءة بالشواذ لأنها لم تثبت عن طريق التواتر، فمن العلماء من قال بقبولها والعمل بها وهم الحنفية(٢)، ومنهم من جعلها مرجحةً لبعض الأحكام المستمدة من أدلةٍ أخرى كما يبدو من استئناس المالكية والشافعية ببعضها فيما قدمنا،

وأما الذين ردوها جملةً بسبب عدم تواترها فهم جماعةٌ من المتكلمين وغيرهم ومنهم أبو بكر الباقلاني وابن جرير الطبري ، فأما الأخير فقد رأينا موقفه من كل قراءةٍ ليس عليها إجماع الحجة(٣) وقدمنا قوله: «وغير جائزٍ لنا أن نشهد بشيء ليس في مصاحفنا أنه من كتاب الله».

وأما الباقلاني فقد نقل عنه الزركشي قوله: « ولا يجوز ان يضاف إلى عبد الله أو إلى أبي أو زيد أو عثمان أو علي أو واحدٍ من ولده أو عترته جحدُ آيةٍ أو حرفٍ من كتاب الله وتغييره، أو قراءته على خلاف الوجه المرسوم في مصحف الجماعة بأخبار الآحاد، وإن ذلك لا يحل ولا يسمع ، بل لا تصح إضافته إلى أدنى المؤمنين في عصرنا، فضلاً عن إضافته إلى رجلٍ من الصحابة...)»(٤)

١- أحكام القرآن لابن العربي القسم ٤ ص ١٩٣٠.
٢- انظر مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني جـ١ ص٢١٧-٢١٨.
٣- انظر الفصل الرابع من الباب الخامس مما قدمناه.
٤- نقله الزركشي في البرهان جـ٢ ص ١٢٨.

ولا شك أن في كلام القاضي غلواً كبيراً في رد أخبار الآحاد حتى في نقل قراءات الصحابة التي قرأ بها بعضهم قبل الإجماع على المرسوم في المصحف، واستمرت الرواية بها عنهم كما روي عنهم غيرها من السنن والآثار، ولو أن القاضي اقتصر على الشرط الأول من كلامه لأصاب شاكلة الصواب ، إذ مقام هؤلاء الرجال من الصحابه والسلف الصالح فوق أن يقرفوا بمثل ذلك ، إلا أن نسبة قراءةٍ مخالفةٍ للمصحف إليهم إنما سبيلها الرواية الثابته عنهم ثبوت غير ذلك من الآثار المنسوبة إليهم ، ولا أرى نكيراً في نسبة قراءةٍ إلى صحابي أداها إلينا كما تلقاها، واحتفظت بها النقول في كتب القراءات والفقه والتفسير والحديث، لما لها من المزايا التي تحدثنا عنها آنفا، ولعل عذر القاضي أنه كان يعيش في عصر كثر فيه المراء في حروف القراءة واحتدم فيه الصراع بين القراء والفقهاء ، وظهر فيه من حاول إحياء بعض الروايات الشاذة والقراءة بها في المحاريب[1] ، ومن قال إن من صح عنده وجهٌ في العربية يوافق خط المصحف جاز له أن يقرأ به،[2] فكان من باب سد الذرائع العمل على إيصاد السبل أمام أمثال تلك القراءات.

وفي الجناح الغربي من البلاد الإسلامية نجد الحافظ أبا محمد بن حزم الظاهري يقف موقفاً مماثلاً لموقف الباقلاني من قراءات الصحابة المخالفة للمرسوم في المصحف ، و لكنه لا يسلك سبيله ، و إنما يقسم القراءات المروية عنهم في ذلك إلى ثلاثة أنواع: مكذوبة على من نسبت إاليه[3] ،و موقوفة على الصحابي و إن صحت بها الرواية، مادام لم يصرح

١- انظر ماقدمنا عن أبي الحسن بن شنبوذ وقراءته بالشواذ .

٢- انظر مانقلناه من صنيع ابن مقسم في ذلك.

٣- مثالها ما ذكره في المحلى جـ ٨ ص ٧٦ في مسألة التتابع في كفارة اليمين قال: قال أبو حنيفة « لا تجزئ إلا متتابعة ، و احتجوا بقياسها على كفارة الظهار، وقالوا في قراءة ابن مسعود ( متتابعات ) ثم ذكر الرد عليهم في قياس إحدى الكفارتين على الأخرى وقال : « وأما قراءة ابن مسعود فهي من شرق الأرض إلى غربها أشهر من الشمس من طريق عاصم وحمزة والكسائي ليس فيها ما ذكروا ، ثم لا يستحيون أن يزيدوا في القرآن الكذب المفترى ، نصرا لأقوالهم الفاسدة».

فيها بالسماع من لفظه عليه السلام ، ومنسوخةً إذا كان قد صرح فيها بالسماع، وفي كل الثلاثة لاتبقى فيها حجة.[1]

وفي الفصل التالي بحول الله سوف نرى كيف أدى اختلاف القراء في قراءة آيات الأحكام إلى اختلاف الفقهاء في فهم الأحكام المستنبطة منها ، كما سوف نرى كيف سلك كل فريق في منهجه في الاستدلال استناداً إلى تلك القراءات وكيف تباينت وجهات النظر وتنوعت في التعامل معها في استخراج مناطات الأحكام والاستدلال عليها انطلاقاً من مراعاة الاختلاف تبعاً لمناهج النظر في قواعد الأدلة وأصول الأحكام.

١- ذكر ابن حزم في كتابه « الإحكام في أصول الأحكام» جـ٤ ص ٥٢٧ قوله : « فإن ذكروا الرواية الثابتة بقراءاتٍ منكرة صحت عن طائفةٍ من الصحابة رضي الله عنهم ، ثم ذكر أمثلةً منها وقال: كل ذلك موقوفٌ على من روي عنه وليس شيء منه عن النبي ﷺ البتة، ونحن لاننكر الخطأ على من دون رسول الله ﷺ فقد هتفنا به هتفا ، ولاحجة فيما روي عن أحد دونه عليه السلام». ثم ذكر قراءة ( والنهار إذا تجلى والذكر والانثى) قال: وأما الخبر الذي رويناه من طريق النخعي والشعبي كلاهما عن علقمة و ابن مسعود و أبي الدرداء كلاهما عن رسول الله ﷺ أنه أقرأهما ( والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى والذكر والانثى) قال أبو محمد : وهذا خبرٌ صحيحٌ مسندٌ إلى النبي ﷺ قال أبومحمد : إلا أنها قراءةً منسوخة، لأن قراءة عاصم المشهورة المأثورة عن زر بن حبيش عن ابن مسعود عن النبي ﷺ ، وقراءة ابن عامر مسندةً إلى أبي الدرداء فيهما ( وماخلق الذكر)».

# الفصل الثاني

## أثر اختلاف القراء في اختلاف الفقهاء في مهمات من مسائل الأحكام

ذهب العلامة التونسي محمد الطاهر بن عاشور في مقدمته القيمة لتفسيره المسمى «بالتحرير والتنوير» إلى القول :« بأن القراء لم يكونوا في قراءاتهم يقرأون حسب نزعاتهم الفقهية ، وأن مذاهب القراء ليست بمعدودة من أدلة الفقه، وإنما قراءاتهم سنة متبعة في قراءة القرآن، دون استناد إلى اعتبار أحكام رواية القرآن من تواتر ودونه، ولا إلى وجوبٍ واستحبابٍ وتخيير ، فالقارئ يقرأ كما روى عن معلميه، ولا ينظر في حكم ما يقرؤه من لزوم كونه كما قرأ أو عدم اللزوم ، فالقراء تجري أعمالهم في صلاتهم على نزعاتهم في الفقه من اجتهاد وتقليد ، ويوضح غلط من ظن أن خلاف الفقهاء في إثبات البسملة وعدمه مبنيٌّ على خلاف القراء ، كما يوضح تسامح صاحب الكشاف[1] في عده مذاهب القراء في نسق مذاهب الفقهاء .»[2]

ثم قال ابن عاشور : «وإنما اختلف المجتهدون لأجل الأدلة التي تقدم بيانها[3]، فأما الموافقة بينهم وبين قراء بلدانهم غالباً في هذه المسألة ،[4] فبسبب شيوع القول بين أهل ذلك العصر ، ولو من قبل ظهور المجتهد، مثل سبق نافع بن أبي نعيم إلى عدم ذكر البسملة قبل أن يقول مالك بعدم جزئيتها [5]، لأن مالكاً تلقى أدلة نفي الجزئية عن علماء المدينة ، وعنهم أو

---

١- يعني جار الله الزمخشري .

٢- التحرير والتنوير جـ١ ص ١٤٦

٣- يعني اختلافهم في كون البسملة آية من سورة الفاتحة .

٤- يعني مسألة البسملة في الصلاة.

٥- يعني بعدم كون البسملة جزءاً من الفاتحة و آيةً منها.

عن شيوخهم تلقى نافع بن أبي نعيم .»[١]

هذا رأي ابن عاشور في كون القراء لا يقرأون حسب نزعاتهم الفقهية ، ولكن يقرأون بحسب ما تلقوه بالرواية عن الشيوخ ، وهو قولٌ صائبٌ وسديد ، إلا أنه في نظري لا ينبغي أن يعمم على كل القراء ، ولا ينبغي أن يؤخذ على إطلاقه بالنسبة إلى قراءات الأئمة الكبار من القراء الفقهاء كالقراء السبعة وأئمة المذاهب الثلاثة الذين جمعوا بين الإمامة في القراءة والفقه ، وهم مالك والشافعي وأبو حنيفة .

فأما القراء السبعة فقد رأينا فيما أسلفنا[٢] أن هذه القراءات التي نقلت عنهم بالتواتر والاستفاضة ليست هي كل ماروَوه من الروايات في حروف القرآن، وإنما هي أحسن ما بلغهم من هذه الروايات، واستقروا عليه في القراءة، واختاروه في التلاوة والأداء، فنقل عنهم ونسب إليهم ، وإذا كان ذلك كذلك فإن القارئ منهم لم يكن يستقر في اختياره من الأوجه التي رواها عن شيوخه إلا على ما ترجح لديه على غيره قراءةً ومذهبا، ومن هنا إذا تأملنا نجد أن استنباط الفقهاء للأحكام الفقهية من الآي التي تختلف فيها القراءة هو في كل مصر من الأمصار التي اشتهرت فيها المذاهب الفقهية، تابعٌ لنوع القراءة المشهورة فيه ، فلما كانت الكوفة مثلاً مستقر ابن مسعود و من أخذوا عنه القراءة ، و كانت قراءته بها مشهورة متداولة كان فقهاء الكوفة أكثر المذاهب الفقهية عملا بالقراءة الشاذة، وخصوصاً في المذهب الحنفي ، فإذا رجعنا إلى مذهب الشافعي وجدناه أيضاً في استنباط الأحكام من الآيات التي تتعدد فيها القراءة يجري على وفاق قراءة أهل مكة التي بها تلقى القرآن، حتى إننا نجده في بعض كتبه ينص على قراءته للآية قبل استنباط الحكم منها، ومثال ذلك قوله في قوله تعالى : ﴿فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم،

١- التحرير والتنوير جـ١ ص١٤٦.

٢- انظر فصل «القراء السبعة والأسس الموضوعية لاختياراتهم».

وأرجلكم إلى الكعبين﴾ قال:

«نحن نقرؤها (وأرجلكم) على معنى «اغسلوا وجوهكم وأيديكم وأرجلكم، وامسحوا برؤوسكم»[1] وهو يعني فيما يبدو أنه يأخذ في استنباط الحكم من الآية بالقراءة التي تواترت إليه عن شيوخه، وهي قراءة ابن كثير المكي.

وقد ذهب الحافظ ابن الجزري إلى ما يؤكد هذه الحقيقة في كتابه «منجد المقرئين» فذكر: «أن الذي حمل الإمام الشافعي على مخالفة الإمام مالك في القول بوجوب البسملة في الصلاة، وأنها آيةٌ من الفاتحة مع أن روايته عن شيخه مالك تقتضي عدم كونها من القرآن قال:

«لأن الشافعي من أهل مكة، وهم يثبتون البسملة بين السورتين، ويعدونها من أول الفاتحة آية، وهو قرأ قراءة ابن كثير على إسماعيل القسط[2] عن ابن كثير، فلم يعتمد على روايته عن مالك في عدم البسملة لأنها آحاد، واعتمد على قراءة ابن كثير لأنها متواترة. قال:

« وهذا لطيفٌ فتأمله، فإني كنت أجد في كتب أصحابنا يقولون: إن الشافعي رضي الله عنه روى حديث البسملة عن مالك، ولم يعول عليه، فدل على أنه ظهرت له علةٌ فيه، والا لما ترك العمل به.»[3]

فيستفاد من هذا أن الشافعي أخذ بموجب قراءة المكيّين الثابتة عنده بالتواتر، وقدم العمل بها على خبر الآحاد الذي ينفي كون البسملة جزءاً من الفاتحة، أي أن مذهبه في الفقه كان تابعاً لمذهبه في القراءة، على خلاف ما أطلقه ابن عاشور في عده مذاهب القراء غير ذات أثرٍ في مذاهب الفقهاء كما أخذ ذلك

---

١- أحكام القرآن للإمام الشافعي ص ٤٤.

٢- تقدمت ترجمته

٣- منجد المقرئين ومرشد الطالبين لابن الجزري ص ٦٩-٧٠.

على الزمخشري .

وقد ساق ابن عاشور قوله المتقدم في دفع كون القراء الذين قرأوا بالبسملة أو بدونها في أوائل السور، قد قرأوا بما به تبعا لنزعاتهم الفقهية ، وبالتالي ليبني على ذلك أنه لاينبغي الاستدلال بقراءاتهم لا في إثباتها ولا في نفيها، ولا أن يقال: ان اختلاف الفقهاء في جزئيتها تابعٌ لاختلاف القراء، والذي تؤكده المقارنة في هذه المسألة خلاف ما ذهب إليه ، قال الزمخشري في الكشاف:

«أجمع قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها على أن التسمية ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السور ، وإنما كتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها، كما بدئ بها في كل أمرٍ ذي بال ، وهو مذهب أبي حنيفة ومن تابعه ، ولذلك لايجهر بها عندهم في الصلاة.»

«وذهب قراء مكة والكوفة وفقهاؤها إلى أنها آيةٌ من الفاتحة ومن كل سورة، وعليه الشافعي وأصحابه ، ولذلك يجهرون بها.»[1]

ونحن وإن كنا لا يهمنا هنا أن نستدل على إثباتها ولا على نفيها،وقد أشبع المفسرون ذلك بحثا [2]، فإن الذي يهمنا هو أن نؤكد أن الاختلاف في شأنها ناشئٌ عن تواترها في بعض القراءات دون بعض ،ولذلك يقول أبو محمد بن حزم :

«إن من قرأ بها من القراء في أول السور فقد أبيح له، ومن أسقطها فقد أبيح له.»[3]

---

١- انظر الكشاف للزمخشري جـ١ ص٢٤-٢٥.

٢- حشد الفخر الرازي في تفسيره سبع عشرة حجةً لإثبات جزئيتها في الفاتحة .وانظر مفاتح الغيب جـ١ ص١٩٦-١٩٧ .وأفاض في بحثها السيوطي في الإتقان جـ١ ص٢١٧-٢٢٠. والشيخ رشيد رضا في المنار جـ١ ص ٩٠-٩٤.

٣- الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم جـ٢ ص٦٤٨.

وهو ما عبر عنه الزركشي أيضاً في قوله :«نزلت في بعض الأحرف السبعة، فمن قرأ بحرفٍ نزلت فيه عدّها ، ومن قرأ بغير ذلك لم يعدّها.»[1]

وقال السيوطي : «إن البسملة نزلت في بعض الأحرف السبعة ، ولم تنزل في بعض، فإثباتها قطعي ، ونفيها قطعي[2] وكلّ متواتر،وكلّ في السبع ، فمن قرأ بها فهي ثابتةٌ في حرفه،متواترةٌ إليه ، ثم منه إلينا ، وألطف من ذلك أن نافعاً له راويان، قرأ أحدهما عنه بها ، والآخر بدونها، [3] فدل على أن الأ مرين تواترا عنده ، بأن قرأ بالحرفين معاً كلّ بأسانيد متواترة.»»[4]

وقد بنى الحافظ ابن حجر على ذلك صحة الصلاة أو بطلانها بالنظر إلى الحرف الذي يقرأ به المصلي «ومحصلة النظر إليها باعتبار طرق القراء ، فمن تواترت عنده في حرفه آيةٌ من أول السورة لم تصح صلاة أحدٍ بروايته إلا بقراءتها، على أنها آيةٌ لم تتصل به إلا كذلك ، ومن ثم أوجبها الشافعي رحمه الله ، لكونه قرأ قراءة ابن كثير . » قال البقاعي[5]: وهذا من نفائس الأنظار التي ادخرها الله.»[6]

**قال بعض العلماء:**

وبهذا الجواب البديع يرتفع الخلاف بين أئمة الفروع ويرجع النظر إلى كل

١- البرهان للزركشي جـ١ص ٢٥٢.

٢- وبهذا يندفع الإشكال الذي أثاره القاضي الباقلاني وأجاب عنه الرازي انظر مفاتح الغيب ١/١٩٥.

٣- قرأ قالون بالبسملة ، وقرأ ورش بالوجهين إلا أن المقدم عنده السكت والوصل ، وفي ذلك يقول الشيخ أبو الحسن علي بن محمد الرباطي المشهور بابن بري في منظومته «الدرر اللوامع»

قالون بين السورتين بسملا — وورش الوجهان عنه نقلا.

وانظر«النجوم الطوالع» على الدرر اللوامع للشيخ إبراهيم المارغني ص ٢٦-٢٧.

٤- القول الأجلى بهامش النجوم الطوالع ص١٩

٥- الإمام إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي نزيل القاهرة ثم دمشق قرأ القراءات على ابن الجزري وغيره وأخذ عن الحافظ ابن حجر توفي سنة ٨٨٥. البدر الطالع جـ١/١٩-٢٢.

٦- انظر حاشية البناني على الزرقاني شارح خليل جـ١ ص ٢٧٠.

قارئ من القراء بانفراده، فمن تواترت في حرفه ، تجب على كل قارئ بذلك الحرف وتلك القراءة في الصلاة بها ، وتبطل بتركها أياً كان، و إلا فلا ، ولا ينظر إلى كونه شافعياً أو مالكياً أو غيرهما ، قاله بعضهم ، وهو حسن.»[١]

وقال العلامة سيدي علي النوري في الغيث متحدثاً عن أثر اختلاف القراء في اختلاف الفقهاء في هذه المسألة: إن الخلاف في أمر البسملة جار مجرى الخلاف في أحرف القراءات، «وكلّ قرأ بما تواتر عنده، والفقهاء تبع للقراء في هذا ، وكل علم يسأل عنه أهله.»[٢]

وقد سقت كل هذا لأؤكد على الأثر الذي كان لاختلاف القراء في اختلاف الفقهاء في مسائل الأحكام في الآيات التي تتوارد عليها القراءات . وهو ما أشار إليه الزركشي وتبعه السيوطي في قوله : « باختلاف القراءات يظهر الاختلاف في الأحكام ، ولهذا بنى الفقهاء نقض وضوء الملموس وعدمه على اختلاف القراءة في(لمستم) و(لامستم)[٣] ، وكذلك جواز وطء الحائض عند الانقطاع وعدمه إلى الغسل، على اختلافهم في قراءة (حتى يطهرن)[٤]

وسوف نرى في مهمات من مسائل الأحكام أن الفقهاء فيها تبعٌ للقراء، وأن الأحكام المستنبطة تختلف عند الفقهاء بحسب القراءة التي أخذوا بها، أو بحسب منهجهم في العمل عند اختلاف القراءة.

**نموذج أول:** قوله تعالى ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض، ولا تقربوهن حتى

---

١- نقله الشيخ محمد بناني في حاشيته على الزرقاني على مختصر خليل جـ١ ص٢٧٠ وذكره أيضاً الشيخ إبراهيم المارغني في رسالته «القول الأجلى في كون البسملة من القرآن أم لا» المنشورة بهامش كتابه «النجوم الطوالع» شرح الدرر اللوامع لابن بري.

٢- غيث النفع في القراءات السبع للنوري الصفاقسي بهامش سراج القارئ على الشاطبية ص ٢٠.

٣- في الآية ٤٣ من سورة النساء والآية ٦ من سورة المائدة .

٤- ستأتي قراءتها وانظر البرهان ١/٣٢٦ .

يطرهن، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله...﴾[1]

«اختلفت القراء في قراءة (حتى يطهرن) فقرأها بعضهم بضم الهاء وتخفيفها، وهي قراءة نافع وأبي عمرو وابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية حفص عنه.»[2]

«وقرأها بعضهم بتشديد الطاء والهاء مفتوحتين، وهي قراءة حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر[3] والمفضل[4] عنه، وأصلها (يتطهرن)، وكذا هي في مصحف أُبيٍّ و عبدالله.»[5]

قال أبو حيان: وذكروا أن في مصحف أنس «ولا تقربوا النساء في محيضهن، واعتزلوهن حتى يتطهرن،» وينبغي أن يحمل هذا على التفسير.[6]

**وقال يحيى بن زياد الفراء (٧) في معاني القرآن:**

«هي في قراءة عبدالله إن شاء الله (يتطهرن)، بالتاء، والقراء بعد يقرأون(يطهرن) و(يطّهّرن) يطهرن: ينقطع عنهن الدم ، ويتطهرن : يغتسلن بالماء، وهو أحب الوجهين إلينا (يطّهّرن).[8]

وقال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن:

«(ولا تقربوهن حتى يطهرن) أي: ينقطع عنهن الدم، يقال: طهرت

---

١- سورة البقرة الآية٢٢٢.
٢- انظر الجامع لأحكام القرآن جـ٣ ص٨٨- وإتحاف فضلاء البشر ١٨٨.
٣- أبو بكر بن عياش تقدمت ترجمته.
٤- تقدمت ترجمته.
٥- البحر المحيط لأبي حيان وانظر الجامع لأحكام القرآن ٨٨/٣ والمحرر الوجيز١٨١/٢.
٦- البحر المحيط جـ٢ص ١٦٨.
٧- تقدمت ترجمته.
٨- معاني القرآن جـ١ ص ١٤٣.

وتطهرت إذا رأت الطهر، وإن لم تغتسل بالماء، ومن قرأ (يطّهّرن) أراد :يغتسلن بالماء.»[1]

**وقال ابن جرير الطبري في تفسيره:**

أما الذين قرأوا بتخفيف الهاء وضمها فقد وجهّوا معناه إلى: «ولا تقربوا النساء في حال حيضهن حتى ينقطع عنهن الدم ويطهرن». ثم ذكر من قال بهذا من أهل التأويل وقال:

وأما الذين قرأوا بتشديد الهاء وفتحها فإنهم عنوا به:«حتى يغتسلن بالماء»، وشددوا الطاء لأنهم قالوا: معنى الكلمة حتى يتطهرن «أدغمت التاء في الطاء لتقارب مخرجيهما». قال:

وأولى القراءتين بالصواب قراءة من قرأ (حتى يطّهّرن) بتشديدها وفتحها، بمعنى: حتى يغتسلن ،لإجماع الجميع على أن حراماً على الرجل أن يقرب امرأته بعد انقطاع دم حيضها حتى تطهر، وإنما اختلفوا في التطهر الذي عناه الله تعالى ذكره ، فأحل له جماعها، فقال بعضهم: هو الاغتسال بالماء، ولا يحل لزوجها أن يقربها حتى تغسل جميع بدنها.

«وقال بعضهم : هو الوضوء للصلاة ، وقال آخرون : بل هو: غسل الفرج، فإذا غسلت فرجها فذلك تطهرها الذي يحل به لزوجها غشيانها»[2]

فهذه الأقوال كما رأينا تفرق بين القراءتين في المعنى، فتجعل قراءة التخفيف دالةً على النقاء من الدم، وقراءة التشديد دالة على الاغتسال بالماء ، وهناك من الأئمة من ذهب إلى أن القراءتين بمعنى واحد ، وقد تعقب الطبريَّ في تفريقه

---

١- تفسير غريب القرآن ص٨٤

٢- جامع البيان جـ٢ ص ٢٨٥-٢٨٦

بين القراءتين أبو محمد بن عطية فقال :

«كل واحدةٍ من القراءتين تحتمل أن يراد بها الاغتسال بالماء، وأن يراد بها انقطاع الدم وزوال أذاه، وما ذهب إليه الطبري من أن قراءة شد الطاء مضمنها الاغتسال، وقراءة التخفيف مضمنها انقطاع الدم أمرٌ غير لازم.»[1]

وقد فهم مجاهد بن جبر أيضاً من قراءة التشديد النقاء من الدم وهوما يشهد لما ذكره ابن عطية من عدم لزوم التفريق من جهة اللغة ، فقد أخرج الحافظ عبدالرزاق بسنده عن مجاهد قال :

«للنساء طهران: طهر قوله(حتى يطهرن) يقول: إذا تطهرن من الدم، قبل أن يغتسلن، وقوله (فإذا تطهرن) أي: إذا اغتسلن، ولا تحل لزوجها حتى تغتسل.»[2]

فهذا التفسير منه جار على قراءة التشديد كما يدل على ذلك قوله في الأولى «تطهرن من الدم» ولم يقل «إذا طهرن»، وفي الثانية «فإذا تطهرن» أي: «إذا اغتسلن»، فواضحٌ أنه يعطى للفظ(يتطهرن) معنيين :معنى النقاء من الدم، ومعنى الاغتسال.

ومع هذا فإن معظم من فسروا الآية على مقتضى القراءتين ذهبوا إلى الفرق بينهما في المعنى، و هو ما فسّره بوضوح الإمام ابن خالويه[3] في الحجة فقال:

«فالحجة لمن شدد أنه طابق بين اللفظين، لقوله (فإذا تطهرن)، والحجة لمن خفف أنه أراد: «حتى ينقطع الدم، لأن ذلك ليس من فعلهن، ثم قال (فإذا تطهرن) يعني بالماء، ودليله على ذلك قول العرب :طهرت المرأة من المحيض

١- المحرر الوجيز جـ ص١٨١ .
٢- المصنف الكبير للحافظ عبدالرزاق جـ١ ص ٣٢٠.
٣- تقدمت ترجمته.

فهي طاهر .»[١]

وعلى وجود الفرق بين القراءتين في المعنى بنى الإمام أبوبكر الجصاص مذهبه في رد إحدى القراءتين إلى الأخرى كما رأينا، فقال في هذه الآية :

«قوله تعالى (حتى يطهرن) إذا قرئ بالتخفيف، فإنما هو انقطاع الدم لا الاغتسال، لانها لو اغتسلت وهي حائض لم تطهر، فلا يحتمل قوله(حتى يطهرن) إلا معنى واحداً وهو انقطاع الدم الذي به يكون الخروج من الحيض.»

«واذا قرئ بالتشديد احتمل الأمرين: من انقطاع الدم ومن الغسل ،لما وصفنا آنفا[٢] فصارت قراءة التخفيف محكمة، وقراءة التشديد متشابهة، وحكم المتشابه أن يحمل على المحكم ويرد إليه ، فيحصل معنى القراءتين على وجهٍ واحد ، وظاهرهما يقتضي إباحة الوطء بانقطاع الدم الذي هو خروجٌ من الحيض، وأما قوله (فإذا تطهرن )فإنه يحتمل ما احتملته قراءةُ التشديد في قوله (حتى يطّهّرن)من المعنيين ،فيكون بمنزلة قوله ( ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن) ، ويكون كلاماً سائغاً مستقيماً ،كما تقول :لاتعطه حتى يدخل الدار، فإذا دخلها فأعطه، ويكون تأكيداً لحكم الغاية ، وإن كان حكمها بخلاف ما قبلها، وإذا كان للاحتمال فيه مساغٌ على الوجه الذي ذكرنا ، وكان واجباً حمل الغاية على حقيقتها ،فالذي يقتضيه ظاهر التلاوة إباحة وطئها بانقطاع الدم الذي تخرج به من الحيض.»[٣]

«فإن قيل :هلا كانت القراءتان كالآيتين تستعملان معاً في حال واحدة؟ قيل له:

---

١- الحجة في القراءات السبع ص ٩٦

٢- يعني في قوله في أحكام القرآن جـ١ ص ٣٤٩، وقد قرئ(حتى يطهرن) بالتشديد وهو يحتمل ما يحتمل قوله (حتى يطهرن ) بالتخفيف فيراد به انقطاع الدم ، إذ جائزٌ أن يقال :طهرت المرأة وتطهرت إذا انقطع دمها ، كما يقال تقطع الحبل وتكسر الكوز، والمعنى انقطع وانكسر ، ولا يقتضي ذلك فعلاً من الموصوف بذلك.

٣- أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص جـ١ ص ٣٥٠.

لو جعلناها كالآيتين كان ما ذكرنا أولى، من قبل أنه لو وردت آيتان إحداهما تقتضي انقطاع غاية الدم لإباحة الوطء، والأخرى تقتضي الغسل غاية لها، لكان الواجب استعمالها على حالين، على أن تكون كل واحدة منهما مقرةً على حقيقتها فيما تقتضية من حكم الغاية، ولا يمكن ذلك إلا باستعمالهما على حالين على الوجه الذي بينا ، ولو استعملناهما على ما يقول المخالف كان فيه إسقاط إحدى الغايتين لأنه يقول : إنها ولو طهرت وانقطع دمها لم يحل له أن يطأها حتى تغتسل[1]، فلو جعلنا ذلك دليلاً مبتدأً كان سائغاً مقنعا .»[2]

فواضحٌ أن الجصاص ينتصر لقراءة التخفيف، ويجعلها محكمةً تردّ إليها قراءة التشديد، لأنها عنده متشابهةٌ تحتمل معنيين ، فينبغي أن تحمل على قراءة التخفيف التي رأى أنها لا تحتمل إلا النقاء ، فيكون غشيان الزوجة مشروطاً فقط بنقائها من الدم ، ويكون معنى قراءة التخفيف وقوله (فإذا تطهرن) سواء محمولاً على النقاء من الدم ، وهذا تحايل لتوجيه مذهب أبي حنيفة وأصحابه القائل «إن الحائض إن انقطع دمها بعد مضي عشرة أيام جاز له أن يطأها قبل الغسل ، وإن كان انقطاعه قبل العشرة لم يجز حتى تغتسل أو يدخل عليها وقت صلاة.»[3]

وفي موطأ محمد بن الحسن الشيباني يشير إلى المذهب الحنفي في ذلك فيقول: «لا تُباشَر حائضٌ عندنا حتى تحل لها الصلاة، أو تجب عليها، وهو قول أبي حنيفة».[4]

---

١- هذا القول غير لازم ،لأن المخالف له يقول بالأخذ بالقراءتين معا ،ولا يسقط معنى إحداهما ، فيكون تأويل المخالف (ولا تقربوهن حتى يطهرن من الدم ويتطهرن بالاغتسال) وليس في هذا إسقاط إحدى الغايتين ، بل فيه إعمال للقراءتين إعمال الآيتين لو وردت إحداهما تشترط النقاء والأخرى تشترط معه الاغتسال الشرعي .

٢- أحكام القرآن جـ١ ص ٣٥٠ .

٣- انظر فتح القدير للشوكاني جـ١ ص ٢٠٠ .

٤- الموطأ من رواية محمد بن الحسن ص ٥٠ .

فقوله: حتى تحل لها الصلاة، يعني به حتى تطهر من الدم وتغتسل، وقوله: أو تجب عليها يعني به الطهر دون الاغتسال، وهو ما نقله الإمام القرطبي في قوله:

وقال أبو حنيفه و أبو يوسف و محمد[1]: «إن انقطع دمها بعد مضي عشرة أيام جاز له أن يطأها قبل الغسل، وإن كان انقطاعه قبل العشرة لم يجز، حتى تغتسل، أو يدخل عليها وقت صلاة.»[2]

وقد أفاض الإمام الزيلعي [3] في الاحتجاج لمذهب أبي حنيفة وبيان وجه استناده إلى قراءة التخفيف، فقال في «شرح كنز الدقائق» في فقه الحنفية عند قوله: «وتوطأ بلا غسل بتصرم لأكثره».[4]

قال الزيلعي: لقوله تعالى (حتى يطهرن) بتخفيف الطاء، جعل الطهر غايةً للحرمة، وما بعد الغاية مخالفٌ لما قبلها، ولأن الحيض لايزيد على العشرة، فيحكم بطهارتها لمضي العشرة، انقطع الدم أو لم ينقطع، ثم قال:

وقال الشافعي: لا يجوز وطؤها حتى تغتسل في الحالين [5] لقوله تعالى (ولا تقربوهن حتى يطّهّرن) بالتشديد أي: يغتسلن، ولنا [6] قوله تعالى: (فاعتزلوا النساء في المحيض) وهذا يقتضي قيام الحيض بهن، فصار المنهي عنه وطء الحائض، وهذه ليست بحائض، ولأن الاغتسال إنما صار غايةً للحرمة لحل أداء الصلاة بعده، وأنه من أحكام الطاهرات، وهذا المعنى موجودٌ فيما إذا مضى وقت الصلاة، لوجوبها في الذمة، فيثبت الحكم فيه دلالة، ولأنها لما حل لها

---

١- يعني محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة .

٢- الجامع لأحكام القرآن جـ٣ ص ٨٨.

٣- فخر الدين عثمان بن علي بن محجن البارعي الزيلعي قال السيوطي: قدم القاهرة سنة ٧٠٥ ودرس وأفتى ونشر الفقه وانتفع به الناس ومات في رمضان سنة ٧٤٣. حسن المحاضرة ١/ ٢٠٠.

٤- يعني بتصرم لأكثر الحيض وهو عند أبي حنيفة أكثره عشرة أيام وعند المالكية خمسة عشر يوماً.

٥- يعني في أقل الحيض وأكثره .

٦- معناه: والحجة لنا، وهي عبارةٌ كثر ورودها في كتب الخلاف.

الصلاة عندهم بلا اغتسال ولاتيمم عند فقد الماء والتراب النظيف فلأن يجوز الوطء أولى. قال:

«ولا حجة فيما تلا[١] لأنها قرئت بالتخفيف، وهذا يقتضي انقطاع الدم لا غير، فتكون قراءة التشديد محمولةً على ما إذا انقطع لأقل من عشرة، والتخفيف على ما إذا انقطع لعشر توفيقاً بين القراءتين».[٢]

فعلى عكس ما فعل الجصاص في توجيه المذهب الحنفي بحمل قراءة التشديد على أنها متشابهةٌ يجب ردّها إلى قراءة التخفيف، عمل الزيلعي بالقراءتين، لكنه حمل كل قراءةٍ على حالة.

وقد تعرض القاضي أبو بكر بن العربي لهذه الطريقة التي سلكوها في أعمال القراءتين على هذا النحو وقولهم « إن القراءتين كالآيتين ، فيجب أن يعمل بهما، ونحن نحمل كل واحدةٍ منهما على معنى، فتحمل المخففة على ما إذا انقطع دمها للأقل[٣]، فإنا لانجّوز وطأها حتى تغتسل، لأنه لا يؤمن عوده، ونحمل القراءة الأخرى على ما إذا انقطع دمها للأكثر، فيجوز وطؤها و إن لم تغتسل».

قال ابن العربي: وهذا أقوى ما لهم، فالجواب عن الأول[٤] أن ذلك ليس من كلام الفصحاء ولا ألسن البلغاء، فإن ذلك يقتضي التكرار في كلام الناس، فكيف في كلام العليم الحكيم.»

«وعن الثاني: أن كلَّ واحدٍ منهما محمول على معنى دون الآخر، فليزمهم إذا انقطع الدم ألا يحكم لها بحكم الحيض قبل أن تغتسل في الرجعة، وهم لا

١- يعني في قراءة التشديد وهي القراءة التي اقتصر عليها الشافعي في كتابه أحكام القرآن ص ٥٢-٥٣.
٢- انظر تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق لفخر الدين الزيلعي جـ١ ص ٥٨-٥٩.
٣- يعني لأقل الحيض.
٤- يعني بالأول جعلهم قراءة يطهرن بالتخفيف بمعنى تطهرن بالتشديد ، وقد ذكر قولهم إنها من باب الجمع بين اللغتين.

يقولون ذلك كما بيناه ، فهي إذن حائض والحائض لا يجوز وطؤها اتفاقا».

وأيضا فإن ماقالوه يقتضي الإباحة، عند انقطاع الدم للأكثر، وما قلناه يقتضي الحظر، و إذا تعارض ما يقتضي الحظر وما يقتضي الإباحة، ويغلب باعثاهما، غلب باعث الحظر، كما قال علي وعثمان في الجمع بين الأختين بملك اليمين: أحلّتهما آيةٌ وحرمتهما أخرى[1]، والتحريم أولى والله أعلم.[2]

**وقد انتقد أبو جعفر النحاس[3] أيضاً موقف الحنفية فقال:**

وقد قرأ الجماعة بالقراءتين فيهما، بمنزلة اثنتين: لاتحل له حتى تطهر وتطّهّر.

وأما قول من قال: إنها تحل له إذا غسلت فرجها من الأذى، بعد أن تخرج من الحيض فخارجٌ عن الإجماع، وعن ظاهر القرآن، قال جلّ ثناؤه:

(وان كنتم جنبا فاطهروا)[4]، وقال في موضع آخر (ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا)[5]، فجاء القرآن «يتطهروا» و«يغتسلوا» بمعنى واحد، وكذا (حتى يطهرن) أي : يتطهرن الطهور الذي يصلين به».

«وأما من قال: إذا طهرت من الحيض صلّت وإن لم تغتسل إذا دخل عليها وقت صلاة، فخارجٌ أيضاً عن الإجماع، وليس يعرف من قول أحد ، وإنما قيس على شيء من قول أبي حنيفة».[6]

---

١- تقدم ذكر الآيتين المبيحة والمحرمة.
٢- أحكام القرآن لابن العربي القسم الأول ص ١٦٩-١٧٠.
٣- تقدمت ترجمته.
٤- سورة المائدة الآية ٦.
٥- سورة النساء الآية ٤٣.
٦- الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس ص ٦١.

هذا مذهب الحنفية في هذه المسألة وبعض ما وجه إليه من انتقادات ، وأما مذهب الجمهور فهو اشتراط النقاء والغسل معا، قال القاضي عبد الوهاب المالكي[1]:

ودليلنا قوله تعالى: ﴿ولاتقربوهن حتى يطهرن، فإذا تطهرن فاتوهن﴾ ففيه دليلان:

أحدهما أنه قرئ حتى يطهرن ويطّهّرن بالتخفيف والتشديد، ومعنى التخفيف انقطاع الدم،ومعنى التشديد الاغتسال بالماء، فكان تقديره: «حتى يطهرن ويتطهرن بالاغتسال».

والثاني قوله ﴿فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾، فعلق جواز إتيانهن بأن يتطهرن، وذلك هو الاغتسال، ولأنها حائضٌ انقطع دمها، ولم يجز وطؤها من قبل الاغتسال كالتي أيامها دون العشرة، ولم يمر عليها وقت الصلاة». [2]

**وقال السيوطي**: استدل الشافعي بقراءة التشديد وبقوله (فإذا تطهرن) على توقفه على الغسل، وحمل بعضهم التطهير في الآية على غسل الفرج فقط[3]، وبعضهم على الطهر الأصغر، وهو الوضوء[4]، وقال قوم: نعمل بالقراءتين جميعاً، فنحمل قراءة التخفيف على انقطاع الدم لأكثر الحيض وقراءة التشديد

---

١- القاضي عبد الوهاب بن نصر بن أحمد بن الحسين الفقيه المالكي صاحب الإشراف على مسائل الخلاف وغيره، توفي بمصر سنة ٤٢٢. ترجمته في المدارك للقاضي عياض جـ ٤ ص ٦٩١- والديباج المذهب لابن فرحون ص ١٧٠- وشذرات الذهب لابن العماد جـ ٣ ص ٢٢٣.

٢- الإشراف على مسائل الخلاف للقاضي عبد الوهاب جـ ١ ص ٥٥

٣- وهو مذهب الأوزاعي. انظر بداية المجتهد لابن رشد جـ١ ص ٤١ والبحر المحيط جـ٢ / ١٦٨. وهو مذهب الظاهرية كما في المحلى لابن حزم جـ٢ ص ١٧١.

٤- وبه قال مجاهد وطاوس، وقال محمد بن كعب القرظي ويحيى بن بكير إذا طهرت الحائض وتيممت حيث لا ماء حلت لزوجها وان لم تغتسل. انظر المحرر الوجيز لابن عطية ٢/ ١٨٢ والقرطبي ٣ / ٨٨ وفتح القدير ١ / ٢٠٠.

على انقطاعه لدونه[1]، وهو بعيدٌ جدا. قال:

«ويمكن إعمال القراءتين على وجهٍ آخر، وهو: الإشارة بقراءة التخفيف إلى أن الغسل حال جريان الدم لايصح ولا يبيح، فوقف حمل الوطء على الانقطاع بقوله (حتى يطهرن)، وعلى الاغتسال بقوله (فإذا تطهرن)، ويؤيد هذا ما أخرجه ابن أبي حاتم وغيره من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (فاعتزلوا النساء) يقول: اعتزلوا نكاح فروجهن، ولا تقربوهن حتى يطهرن من الدم، فإذا تطهرن بالماء.»[2]

**وقال الإمام الشوكاني مستدلاً لمذهب الجمهور:**

«الأولى أن يقال: إن الله سبحانه جعل للحل غايتين كما تقتضيه القراءتان: إحداهما انقطاع الدم، والأخرى التطهر منه، والغاية الأخرى مشتملةٌ على زيادة على الغاية الأولى فيجب المصير إليها، وقد دل أن الغاية الأخرى هي المعتبرة قوله تعالى بعد ذلك (فإذا تطهرن)، فإن ذلك يفيد أن المعتبر التطهر لا مجرد انقطاع الدم. وقد تقرر أن القراءتين بمنزلة الآيتين، فكما يجب الجمع بين الآيتين المشتملة إحداهما على زيادة بالعمل بتلك الزيادة، يجب الجمع بين القراءتين.»[3].

وقال أبو حيان بعد عرض الأقوال المختلفة في هذه المسألة: وسبب الخلاف بالإضافة إلى اختلاف القراءتين، الاختلاف في التطهر المشروط: أيحمل على التطهر الشرعي أو اللغوي؟ فمن حمله على اللغوي قال: تغسل مكان الأذى بالماء، ومن حمله على الشرعي حمله على أخف النوعين وهو الوضوء مراعاة للخفة، أو على أكمل النوعين، وهو أن تغتسل كما تغتسل للجنابة، إذ به تتحقق البراءة

---

١- يقصد مذهب الحنفية.

٢- الإكليل في استنباط التنزيل جـ ١ ص ٣٦.

٣- فتح القدير ١ / ٢٠٠.

من العهدة.[1]

قال ابن رشد في البداية: وقد رجح الجمهور مذهبهم بأن صيغة التفعل إنما تنطلق على ما يكون من فعل المكلفين، لا على ما يكون من فعل غيرهم، فيكون قوله (فإذا تطهرن) أظهر في معنى الغسل بالماء منه في الطهر الذي هو انقطاع الدم، والأظهر يجب المصير إليه حتى يدل الدليل على خلافه.[2]

نموذج ثان: حول فرض الرّجلين في الوضوء أهو الغسل أو المسح؟ قال تعالى في سورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾[3]

قرئ قوله تعالى (وأرجلكم) بالنصب والخفض والرفع، فقرأ بالرفع الحسن البصري[4] وهناك رواية عن نافع به[5] وهي قراءة الأعمش أيضاً.[6]

قال ابن العربي: وقرأ أنس وعلقمة وأبو جعفر بالخفض، وقال موسى بن أنس لأنس: يا أبا حمزة، إن الحجاج خطبنا بالأهواز ونحن معه، فذكر الطهور، فقال اغسلوا حتى ذكر الرجلين وغسلهما وغسل العراقيب، فقال أنس: صدق الله وكذب الحجاج، قال الله سبحانه (فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم) قال: فكان أنس إذا مسح قدميه بلّهما، وقال: أنزل القرآن بالمسح، وجاءت السنة بالغسل.[7]

---

١- البحر المحيط ٢ / ١٦٨ وانظر البداية لابن رشد ١ /١٤١ /٤٢.

٢- بداية المجتهد ١ / ٤٢.

٣- سورة المائدة الآية ٦.

٤- قال ابن خالويه في مختصر شواذ القراءات ص ٣١ (وأرجلكم) بالرفع الحسن، على تقدير وأرجلكم مسحها إلى الكعبين كذلك ابتداء وخبر. "ونسبها للحسن أيضا ابن العربي في الأحكام جـ ٢ / ٥٧٤.

٥- ذكرها ابن العربي في الأحكام جـ ٢ ص ٥٧٤. وابن الجزري في غاية النهاية جـ٢ / ٣٦٠ وهي مرويةٌ عنه من طريق الوليد بن مسلم الدمشقي.

٦- ذكرها ابن العربي في الأحكام ولم يذكرها أبو حيان ولا الدمياطي في الإتحاف.

٧- أحكام القرآن ٢ / ٥٧٤.

قال أبو حيان: قرأ بالخفض ابن كثير وأبو عمرو بن العلاء وحمزة بن حبيب وأبو بكر بن عياش عن عاصم وقرأ من غير السبعة به أنس وعكرمة والشعبي والباقر(١) وقتادة وعلقمة والضحاك.(٢)

وذكر الدمياطي قراء النصب، وهم نافع والكسائي وابن عامر وحفص عن عاصم ويعقوب الحضرمي(٣)

وبسبب هذا الاختلاف في القراءة اختلف الفقهاء في فرض الرجلين ههنا أهو الغسل أم المسح أم الجمع بينهما أم الاختيار؟؟؟ كل هذه مذاهب.

قال العلامة الجصاص في أحكامه:

«قرأ ابن عباس والحسن وعكرمة وحمزة وابن كثير (وأرجلكم) بالخفض وتأولوها على المسح.»

«وقرأ علي وعبد الله بن مسعود وابن عباس في رواية(٤) وابراهيم(٥) والضحاك ونافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم بالنصب، وكانوا يرون غسلهما واجباً، والمحفوظ عن الحسن البصري: استيعاب الرِّجل كلها بالمسح، ولست

١- محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب تابعي جليل من فقهاء أهل البيت بالمدينة، سمع جابراً وأنساً وجماعة من الصحابة وغيرهم ، كابن المسيب وابن الحنفية ومات سنة ١١٤ وقيل ١١٨. انظر طبقات ابن سعد جـ٥ / ٣٢٠ - تهذيب الأسماء واللغات للنووي جـ١ ص ٨٦-٨٧.

٢- البحر المحيط لأبي حيان جـ٣/ ٤٣٧..

٣- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر ص ٢٣٥.

٤- الرواية الأولى عنه بالخفض ذكرها الحافظ عبدالرزاق بسنده إليه في المصنف ١ /١٨ قال: افترض الله مسحتين وغسلتين، وفي ص ٢٢ منه قال: يأبى الناس إلا الغسل ونجد في كتاب الله المسح. قال في الدر المنثور ٢ /٢٦٢:

أخرجه عبدالرزاق وابن أبي شيبة وابن ماجة. وأما الرواية الثانية عنه فقال في الدر المنثور أيضاً أخرجها سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس أنه قرأها (وأرجلكم) بالنصب وقال: رجعت إلى الغسل.

٥- يعني النخعي.

أحفظ عن غيره ممن أجاز المسح من السلف: هو على الاستيعاب أو على البعض؟؟ وقال قوم: يجوز مسح البعض، ولا خلاف بين فقهاء الأمصار في أن المراد الغسل.[١]

وهاتان القراءتان قد نزل القرآن بهما جميعاً، ونقلتهما الأمة تلقياً من رسول الله ﷺ، ولا يختلف أهل اللغة أن كل واحدة من القراءتين محتملة للمسح بعطفها على الرأس، وتحتمل أن يراد بها الغسل بعطفها على المغسول من الأعضاء، وذلك لأن قوله (وأرجلكم) بالنصب يجوز أن يكون مراده (فاغسلوا وجوهكم)[٢] ويحتمل أن يكون معطوفا على الرأس، فيراد بها المسح، وإن كانت منصوبة، فيكون معطوفاً على المعنى لا على اللفظ، لأن الممسوح به مفعول به كقول الشاعر:

معاوي إننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديدا.[٣]

وتحتمل قراءة الخفض أن تكون معطوفةً على الرأس فيراد به المسح، وتحتمل عطفه على الغسل، ويكون مخفوضاً بالمجاورة كقوله تعالى (يطوف عليهم ولدان مخلدون) ثم قال (وحور عين)[٤] فخفضهن بالمجاورة[٥]، وهن معطوفاتٌ في المعنى على الولدان، لأنهن يطفن ولا يطاف بهن، فثبت بما وصفنا احتمال كل واحدة من القراءتين للمسح والغسل، فلا يخلو حينئذ القول من أحد معان ثلاثة:

١- يريد فقهاء المذاهب الأربعة المشهورة وخالف في ذلك الطبري وداود الظاهري.
٢- يعني و أرجلكم.
٣- البيت من شواهد مغني اللبيب الشاهد رقم ٧٢٩ جـ ٢ / ٤٧٧.
٤- سورة الواقعة الآية ١٧-٢٢.
٥- يعني في قراءة الخفض.

ا- إما أن يقال بأن المراد هما جميعاً مجموعان، فيكون عليه أن يمسح ويغسل فيجمعهما.

ب- أو أن يكون أحدهما، على وجه التخيير يفعل المتوضئ أيهما شاء، ويكون ما فعله هو المفروض.

ج- أو يكون المراد أحدهما بعينه، لا على وجه التخيير.

وغير جائز أن يكونا هما جميعاً على وجه الجمع، لاتفاق الجميع على خلافه[1]، ولا جائز عندنا أن يكون المراد أحدهما على وجه التخيير إذ ليس في الآية ذكر التخيير ولا دلالة عليه، ولو جاز إثبات التخيير مع عدم لفظ التخيير في الآية، لجاز إثبات الجمع مع عدم لفظ الجمع، فبطل التخيير بما وصفنا وإذا انتفى التخيير والجمع لم يبق إلا أن يكون المراد أحدهما لا على وجه التخيير، فاحتجنا إلى طلب الدليل على المراد منهما.

فالدليل على أن المراد الغسل دون المسح اتفاق الجميع عى أنه إذا غسل فقد أدى فرضه وأتى بالمراد، وأنه غير ملوم على ترك المسح، فثبت أن المراد الغسل.

وأيضاً فإن اللفظ لما وقف الموقف الذي ذكرنا من احتماله لكل واحد من المعنيين مع اتفاق الجميع على أن المراد أحدهما، صار في حكم المجمل[2] المفتقر إلى البيان، فمهما ورد فيه من البيان عن رسول الله ﷺ من فعلٍ أو قولٍ علمنا أنه مراد الله، وقد ورد البيان عن رسول الله ﷺ بالغسل قولاً وفعلا.

وأيضا فلو كان المسح جائزاً لما أخلاه النبي ﷺ من بيانه.

---

١- هذا الاتفاق منقوضٌ بمذهب الظاهرية.

٢- المجمل عند أهل الأصول هو: مالم تتضح دلالته، أو ما له دلالة على أحد أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر بالنسبة إليه. انظر الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٢ / ١١.

وأيضاً فإن القراءتين كالآيتين في إحداهما الغسل، وفي الأخرى المسح لاحتمالهما للمعنيين، فلو وردت آيتان إحداهما توجب الغسل، والأخرى المسح، لما جاز ترك الغسل إلى المسح، لأن في الغسل زيادة فعل، وقد اقتضاه الأمر بالغسل، فكان يكون يومئذ يجب استعمالهما على أعمهما حكماً وأكثرهما فائدةً وهو الغسل، لأنه يأتي على المسح، والمسح لا ينتظم الغسل.[1]

لقد أطلتُ في إيراد هذا التحليل النفيس للجصاص، لأنه في نظري استوعب المسألة، مع قوة حججه التي ساقها بهذا الأسلوب الطريف المحكم النسج.

وقد سلك الحافظ أبو بكر بن العربي نحواً مما سلكه في ترجيح مذهب الجمهور فقال بعد عرض جملةٍ من الأقوال:

«وجملة القول في ذلك أن الله سبحانه عطف الرِّجلين على الرأس، فقد ينصب على خلاف إعراب الرأس، أو يخفض مثله، والقرآن نزل بلغة العرب، وأصحابه رؤوسهم وعلماؤهم لغةً وشرعا، وقد اختلفوا في ذلك، فدل على أن المسألة محتملةٌ لغة، محتملةٌ شرعاً. «لكن تعضد حالة النصب على حالة الخفض ب:

أ- بأن النبي ﷺ غسل وما مسح قط.

ب- وبأنه رأى أقواماً تلوح أعقابهم، فقال: ويل للأعقاب من النار[2] وويل للعراقيب من النار، فتوعد بالنار على ترك إيعاب غسل الرجلين، فدل ذلك على الوجوب بلا خلاف، وتبين أن من قال من الصحابة: إن الرجلين ممسوحتان، لم يعلم بوعيد النبي ﷺ على ترك إيعابهما:

---

١- أحكام القرآن للجصاص جـ ٢/ ٣٤٥ - ٣٤٦.

٢- حديث مشهور رواه أبو هريرة انظر المصنف الكبير لعبد الرزاق جـ ١ ص ٢١١٨.

وطريق النظر البديع: أن القراءتين محتملتان، وأن اللغة تقضي أنهما جائزان، فردهما الصحابة إلى الرأس مسحا، فلما قطع بنا حديث النبي ﷺ، ووقف في وجوهنا وعيده قلنا: جاءت السنة قاضيةً بأن النصب يوجب العطف على الوجه واليدين، ودخل بينهما مسح الرأس وإن لم تكن وظيفته كوظيفتهما، لأنه مفعولٌ قبل الرِّجلين لا بعدهما، فذكر لبيان الترتيب، لا ليشتركا في صفة التطهير. وجاء الخفض ليبين أن الرجلين يُمسحان عند الاختيار على حائل، وهما الخفان بخلاف سائر الأعضاء، فعطف بالنصب مغسولا على مغسول، وعطف بالخفض ممسوحاً على ممسوح وصح المعنى فيه.[1]

هكذا حمل ابن العربي القراءتين على ظاهرهما، لكنه جعل قراءة النصب دالةً على غسل الرِّجلين بالنسبة للحاسر الرجل، وقراءة الجر دالةً على مسحهما بالنسبة للابس الخف خاصة، وهو توجيهٌ منسوبٌ إلى الإمام الشافعي[2]

وعلى هذا التأويل يتم إعمال القراءتين معا، دون حاجةٍ إلى عدهما من قبيل الألفاظ المجملة كما رأينا عند الجصاص، ودون حاجةٍ أيضاً إلى حمل حالة الخفض بأنها مبنيةٌ على الجوار، وهو مذهب وهّنه ابن خالوية في الحجة بأنه خاصّ بحالة الاضطرار في نظم الشعر والأمثال والقرآن منزّهٌ عن الضرورة.[3]

وردّ القول بأن الخفض على الجوار أبو إسحاق الزجاج[4] وأبو البركات الأنباري في كتابه الإنصاف[5] وجعل العطف على قوله برؤوسكم على بابه، إلا

---

١- أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي جـ ٢ ص ٥٧٥.

٢- سيأتي من قول ابن كثير.

٣- انظر الحجة لابن خالويه ص١٢٩ باختصار.

٤- ذكره أبو جعفر الطوسي في التبيان جـ ٣ / ٤٥٢ وذكر على ذلك ثلاثة اعتراضات:

أ- أن الإعراب بالمجاورة لا يجوز في القرآن، وإنما يجوز ذلك في ضرورة الكلام والشعر.

ب- أن الإعراب بالمجاورة لا يكون مع العطف.

ج- أنه إنما يجوز مع ارتفاع اللبس، فأما مع حصول اللبس فلا يجوز.

٥- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين جـ ٢ ص ٣٥٨.

أنه قال: أراد بالمسح في الأرجل الغسل[1].

وجاء الحافظ ابن كثير فخرّج جميع ما روي من الأقوال عن القائلين بالمسح بأنه يعني الغسل الخفيف، وقال بعد أن عرض أحاديث وآثاراً كثيرةً في هذا المعنى:

فهذه آثارٌ غريبةٌ جداً، وهي محمولةٌ على أن المراد بالمسح هو الغسل الخفيف لما سنذكره من السنة الثابتة في وجوب غسل الرجلين، وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض إما:

- على المجاورة وتناسب الكلام، كقولهم «جحرُ ضبٍ خربٍ»[2] وقوله تعالى (عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق)[3]، وهذا ذائعٌ شائعٌ في لغة العرب سائغ.

- ومنهم من قال: هي محمولةٌ على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان، قاله أبو عبدالله الشافعي رحمه الله.

- ومنهم من قال: هي دالةٌ على مسح الرِّجلين، ولكن المراد بذلك المسح الخفيف كما وردت به السنة، وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرِّجلين فرضاً لابد منه للآية والأحاديث التي سنذكرها قال: ومن أحسن ما يستدل به على أن المسح يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقي وذكر اسناده إلى علي رضي الله عنه أنه صلى الظهر، ثم قعد في حوائج الناس في رحبة الكوفة حتى حضرت صلاة العصر، ثم أتى بكوز من ماء، فأخذ منه حفنة واحدة، فمسح بها

١- حكاه عن أبي زيد الأنصاري قال وكان من الثقات الأثبات في نقل اللغة وهو من مشايخ سيبويه.

٢ قال ابن هشام في المغني جـ ٢ ص ٦٨٣: «أنكر السيرافي وابن جني الخفض على الجوار وتأولا قولهم (خرب) بالجر على أنه صفة لـ(ضب) ثم قال السيرافي: الأصل (خرب الجحر منه) بتنوين خرب ورفع الجُحر، ثم حذف الضمير للعلم به وحوّل الإسناد إلى ضمير الضب، وخفض الجحر، كما تقول «مررت برجلٍ حسن الوجه» بالإضافة، والأصل حسن الوجه منه، ثم أتي بضمير الجحر مكانه لتقدم ذكره فاستتر.

٣- سورة الإنسان الآية ٢١.

وجهه ويديه ورأسه ورجليه، ثم قام فشرب فضلته وهو قائم، ثم قال: إن ناسا يكرهون الشرب قائما، وإن رسول الله ﷺ صنع كما صنعت، وقال هذا وضوء من لم يحدث رواه البخاري في الصحيح.[١]

قال ابن كثير مبيناً مذهب ابن جرير الطبري وأنه عبرّ عن الدلك بالمسح:

«ثم تأملت كلامه أيضاً فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين في قوله (وأرجلكم) خفضاً على المسح وهو الدلك، ونصباً على الغسل، فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه وهذه.»[٢]

وما ذكره ابن كثير بالنسبة لمذهب الطبري مرجوحٌ بالنظر إلى كثرة من نسبوا إليه القول بذلك، أي بالتخيير بين الغسل والمسح، ومنهم أبو بكر بن العربي في الأحكام[٣] وأبو جعفر الطوسي في التبيان[٤] وابن رشد في البداية[٥] وأبو حيان في البحر[٦] والسيوطي في الإكليل[٧] وهذا قول ابن جرير في تفسيره:

«اختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأه جماعةٌ من قراء الحجاز (وأرجلكم إلى الكعبين) نصباً، فتأويله إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برؤوسكم».

وإذا قرئ كذلك كان من المؤخر الذي معناه التقديم، وتكون الأرجل منصوبةً عطفاً على الأيدي، وتأول قارئو ذلك كذلك أن الله جل ثناؤه إنما أمر عباده

١- تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥١٢ - ٥١٣.
٢- نفس المصدر.
٣- أحكام القرآن القسم الثاني ص ٥٧٥ قال: واختار الطبري التخيير بين الغسل والمسح وجعل القراءتين كالروايتين في الخبر يعمل بهما إذا لم يتناقضا.
٤- التبيان جـ ٣ ص ٤٥٣. ومثل ذلك في مجمع البيان للطبرسي الشيعي جـ ٢ ص ٢٧.
٥- بداية المجتهد جـ ١ ص ١١.
٦- البحر المحيط جـ ٣ ص ٤٣٧ - ٤٣٨.
٧- الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي ص ٨٩.

بغسل الأرجل دون المسح بها . ثم أورد ذكر من قال ذلك وأخرج آثاراً وفيرةً فيه، أردفها بأقوال من تأول الآية على المسح وذكر قراءة الخفض وتأويلها وقال:

«فإذا كان في المسح المعنيان اللذان وصفنا من عموم الرِّجلين بالماء وخصوص بعضهما به، وكان صحيحاً بالأدلة الدالة التي سنذكرها بعدُ أنَّ مراد الله من مسحهما العموم، وكان لعمومهما بذلك معنى الغسل والمسح، فبيّن صواب القراءتين جميعاً: أعني النصب في الأرجل والخفض، لأن في عموم الرِّجلين بمسحهما بالماء غسلهما، وفي إمرار اليد وما قام مقام اليد عليهما مسحهما.

فوجه صواب قراءة من قرأ ذلك نصباً لما في ذلك من معنى عمومهما بإمرار الماء عليهما. ووجه صواب قراءة من قرأ خفضاً لما في ذلك من إمرار اليد عليهما أوما قام مقام اليد مسحاً بهما، غير أن ذلك وإن كان كذلك وكانت القراءتان كلتاهما حسناً وصواباً، فأعجب القراءتين إليَّ أن أقرأها قراءة من قرأ ذلك خفضا، لما وصفت من جمع المسح المعنيين اللذين وصفت، ولأنه بعد قوله (وامسحوا برؤوسكم) فالعطف على الرؤوس مع قربه منه أولى من العطف به على الأيدي، وقد حيل بينه وبينها بقوله وامسحُوا برؤوسكم...»[1]

فهذا الكلام من ابن جرير ظاهره القول بالتخيير بين الغسل والمسح، وفيه ميلٌ واضحٌ إلى المسح، لأنه في نظره يتضمن الغسل «لأن في عموم الرجلين بمسحهما بالماء غسلهما»، ولعل هذا هو ما أراده ابن كثير من قوله أنه يعني بالمسح الدلك، وأنه جمعاً بين القراءتين استعمل قراءة الخفض في الدلك وقراءة النصب في الغسل، فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه وهذه.[2]

١- جامع البيان للطبري جـ ٦ ص ١٢٦ - ١٣٤.
٢- تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٥١٣.

وهكذا اشتجرت الآراء والتخريجات في هذه المسألة، واستدل كل طرفٍ لما رآه محاولاً توهين مذهب الطرف الثاني، وكل ذلك بسبب اختلاف القراءة وثبوت الوجهين فأكثر في تلاوتها ثبوت التواتر الذي لا سبيل معه لمفاضلة ولا ترجيح، وقد رأينا مما عرضنا أن البعض قال بدلالة القراءتين على الغسل في الأرجل، وبعضهم قال بدلالتهما على المسح، وهما من جهة اللفظ محتملتان لغة، ومن جهة الثبوت محتملتان للغسل والمسح شرعاً كما تقدم من قول ابن العربي، فلم يبق إلا النظر إليهما في غير مساق العطف، لأن العربية تجيز العطف على القريب والبعيد. فحينئذ حاول البعض أن يجمع بين القراءتين في اقتضائهما للغسل بحمل المسح المذكور في بعض الآثار على الغسل الخفيف كما تقدم من قول الأنباري وابن كثير، أو الغسل مع الدلك وإمرار اليد على العضو كما فهمه من مذهب ابن جرير، كما حاول البعض أن يعمل القراءتين معاً بحمل قراءة النصب على غسل الرجلين في حالة حاسر الرجلين، وقراءة الخفض في حالة لبس الخفين كما رأينا منسوبا إلى الشافعي، وقال بمثله ابن العربي، ومال آخرون إلى أن في القراءتين إجمالاً كما رأى الجصاص فيجب أن يتحاكم في رفعه إلى قول النبي ﷺ وفعله، لأنه المبلغ عن الله تعالى فيما يقع فيه الخلاف، فقطع حديث النبي ﷺ وفعله بأن المراد الغسل، إذ الأحاديث صريحة في الأمر به ووجوب الإيعاب فيه[1] ولم يثبت أن النبي ﷺ مسح قط.

وأما نسبة القول بالمسح إلى بعض الصحابة فهو محمولٌ على أن القائلين به لم يبلغهم الوعيد المذكور في ترك الإيعاب، ويؤيد هذا أن لبعض الصحابة كابن عباس قولين نُسبا إليه، ولا يعقل أن يكون للواحد منهم قولان أو مذهبان إلا إذا رجع من واحد إلى آخر، ويشهد لهذا ما ورد في الآثار من رجوع بعض القائلين بالمسح إلى الغسل، ومثال ذلك ما أخرجه الحافظ عبدالرزاق عن معمر عن قتادة أن ابن مسعود رجع إلى غسل القدمين.[2]

١- انظر أحاديث غسل الرجلين في مصنف عبدالرزاق جـ١ /١٨ إلى ٢٥.

٢- نفس المصدر من ٢٠- ٢١ وانظر حديث رجوع عروة إلى الغسل في تفسير الطبري جـ٦ /١٢٧.

وقال السيوطي في الدر المنثور: أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس عن ابن عباس أنه قرأها (وأرجلكم) بالنصب يقول: رجعت إلى الغسل. قال:

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي أنه قرأ (وأرجلكم) قال: عاد إلى الغسل.

وأخرج عبد بن حميد عن الأعمش قال: كانوا يقرؤونها (برؤوسكم وأرجلكم) بالخفض، وكانوا يغسلون.

وأخرج سعيد بن منصور عن عبدالرحمن بن أبي ليلى قال: اجتمع أصحاب رسول الله على غسل القدمين.

وأخرج ابن جرير عن عطاء قال: لم أر أحداً يمسح على القدمين.[1]

وهكذا يبدو أنه كان من الصحابة من أخذ بظاهر قراءة الخفض فمسح قبل أن يبلغه تضافر السنن والآثار على وجوب الغسل في الرجلين، ثم عاد إلى ما استقر عليه الأمر بإجماع.

وقد أخرج الحافظ عبدالرازق بسنده إلى النبي ﷺ أنه نظر إلى رجلٍ أعمى يتوضأ، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «بطن القدم» ولا يسمعه الأعمى، وجعل الاعمى يغسل بطن القدمين، فسمي البصير.[2]

وهذا الحديث حجةٌ واضحةٌ في أن فرض الرِّجلين في الوضوء هو الغسل، إذ لو كان على الخيار لكان أهل الأعذار كهذا الأعمى أولى أن يرخص لهم في ترك الإيعاب لمكان العذر.

---

١- الدر المنثور في التفسير بالمأثور جـ ١ ص٢٦٢ وانظر تفسير الطبري ٦ / ١٢٨ والمصنف ١ / ٢٠.
٢- مصنف عبد الرزاق جـ ١ / ٢٥.

ولما كان ظاهر قراءة الخفض فيه تعارض مع الأحاديث والآثار المثبتة لفرض الغسل في الرجلين اهتدى طائفةٌ من الأئمة إلى إقرار القراءتين معاً مع جعل قراءة الخفض دالةً على المسح على الخفين، إعمالاً للقراءتين من جهة، ودفعاً لما يتوهم من التعارض بين قراءة الخفض الظاهرة في المسح، وبين الأحاديث الواردة في وجوب الغسل، وحتى لا يقال إن الأحاديث نسخت قراءة الخفض.

وزاد المالكية والشافعية فاستنبطوا من الآية دليلاً على وجوب الترتيب في أعضاء الوضوء، فذكروا أن ذكر الرأس في الآية بين الوجه واليدين والرجلين وهي أعضاء مغسولة، فيه دليلٌ على وجوب تقديم الرأس على الرجلين، وحملوا العدول عن المتابعة بين المعطوفات أي عطف الأرجل على الوجوه والأيدي مع الفصل بينهما بمسح الرؤوس، على إرادة الدلالة على وجوب مسح الرأس بعد غسل اليدين وقبل غسل الرجلين.[1]

## نموذج ثالث:

سنية العمرة أو وجوبها: أخذاً من قوله تعالى (وأتموا الحج والعمرة لله)[2]

فهم بعض الأئمة من هذه الآية في قراءة (والعمرة) بالنصب وجوب العمرة كوجوب الحج، وفهم آخرون عدم الوجوب على القراءتين،قال ابن رشد في مقدماته:

«وأما قوله تعالى (وأتموا الحج والعمرة لله) فإنما هو أمر بالإتمام لما دخل فيه، وقد قرئ (والعمرة لله) على الابتداء والخبر، فلا متعلق لأحدٍ بإيجاب العمرة في هذه الآية ، وإنما هي سنة.[3]»

---

١- أنظر أحكام القرآن لابن العربي القسم ٢ ص٥٧٥ والإكليل في استنباط التنزيل ص٨٩

٢- سورة البقرة الآية ١٩٦

٣- مقدمات ابن رشد جـ ١ ص٣٠٤

قال: والعمرة على مذهب مالك سنة، وليست بفريضة، وذهب ابن الماجشون[1] إلى أنها فريضة، والذي ذهب إليه مالك هو الصحيح[2]

وقال أبو بكر بن العربي في أحكامه:

قرأ الشعبي[3] وأبو حيوة[4] برفع التاء في العمرة، وهي تدل على عدم الوجوب، وقرأ الجماعة (والعمرة) بنصب التاء، وهي تدل على الوجوب. [5]

وقال أبو حيان في البحر المحيط:

قرأ عليّ وابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس وابن عمر والشعبي وأبو حيوة (والعمرة لله) بالرفع على الابتداء والخبر، فتخرج العمرة عن الأمر، وينفرد به الحج.[6]

فالذين قالوا بوجوب العمرة استفادوا ذلك من قراءة النصب التي هي قراءة الجماعة، لوقوعها معطوفةً على الحج الذي هو واجب بإجماع، وهما معاً واقعان في سياق الأمر، والأمر يدل على الوجوب، وهذا ما فهمه ابن العربي، وإليه ذهب ابن الماجشون، وذهب ابن رشد كما رأينا إلى تخريج قراءة النصب على عدم الوجوب، ورأى أن الأمر في الآية متوجهٌ إلى الإتمام في الحج والعمرة لا إلى إنشائهما، وذلك أن من بدأ في أفعال الحج وجب عليه الإتمام، ولو فسد حجه، أو فاته بعض أركانه كما هو معلوم من الفقه، فكذلك العمرة على هذا يؤمر من شرع فيها بإتمامها.

---

١- عبدالعزيز بن عبدالله بن أبي سلمة الماجشون أحد فقهاء المدينة من طبقة الإمام مالك بن أنس مات ببغداد سنة ١٦٠، انظر طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي ص٦٧

٢- مقدمات ابن رشد ١/ ٣٠٤

٣- تقدمت ترجمته.

٤- تقدمت ترجمته.

٥- أحكام القرآن القسم الأول ص٢٤٧

٦- البحر المحيط ج٢/٧٢

## نموذج رابع:

الطواف أو السعي بين الصفا والمروة وجوبه أو عدم وجوبه أخذاً من قوله تعالى: (إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم) [1]

قرأ الجمهور (أن يطّوّف) بفتح الياء وتشديد الطاء والواو وفتحهما.

وقرأ أنس وابن عباس وابن سيرين[2] وشهر بن حوشب (أن لا يطوف) وكذلك هي في مصحف أبي وعبد الله.[3]

قال أبو حيان في تفسيره: وخرج ذلك على زيادة لا، نحو (ما منعك ألاّ تسجد)[4]، فتتحد القراءتان معنى، ولا يلزم ذلك، لأن رفع الجناح في فعل الشيء هو رفع في تركه، إذ هو تخيير بين الفعل والترك، نحو قوله (فلا جناح عليهما أن يتراجعا)[5]. فعلى هذا تكون «لا» على بابها للنفي.

«وتكون قراءة الجمهور فيها رفع الجناح في فعل الطواف نصا، وفي هذه رفع الجناح في الترك نصا، وكلتا القراءتين تدل على التخيير بين الفعل والترك، فليس الطواف بهما واجبا، وهو مروي عن ابن عباس وأنس وابن الزبير وعطاء ومجاهد وأحمد بن حنبل فيما نقل عنه أبو طالب[6]، وأنه لا شيء على من تركه عمداً كان أم سهوا، ولا ينبغي أن يتركه». قال: «ومن ذهب إلى أنه ركن كالشافعي وأحمد ومالك في مشهور مذهبه، أو واجبٌ يجبر بالدم كالثوري وأبي حنيفة في

---

١- سورة البقرة الآية ١٥٨

٢- محمد بن سيرين البصري تقدمت ترجمته.

٣- البحر المحيط جـ١ ص٤٥٧

٤- سورة الأعراف الآية ١٢

٥- سورة البقرة الآية ٢٣٠

٦- يعني أبا طالب المكي

بعض الروايات يحتاج إلى نص جلي ينسخ هذا النص القرآني.

وقول عائشة لعروة [1] حين قال لها: أرأيت قول الله (فلا جناح عليه أن يطوف بهما)؟ فما نرى على أحدٍ شيئاً ، فقالت: يا عُرَيَّةُ كلا، لو كان كذلك لقال: -فلا جناح عليه ألاّ يطّوّف بهما- كلام لا يخرج اللفظ عما دل عليه من رفع الإثم عمن طاف بهما، ولا يدل ذلك على وجوب الطواف، لأن مدلول اللفظ إباحة الفعل، وإذا كان مباحاً كنت مخيراً بين فعله وتركه[2].

---

١- عروة بن الزبير تقدمت ترجمته وانظر حديث عروة ورد عائشة عليه وجملة الآثار والأقوال في هذه القضية في تفسير ابن كثير جـ١ ص٢٤٩-٢٥١

٢- البحر المحيط جـ١ ص ٤٥٧

# خاتمة:

وبعد فهذه نماذج تصور بجلاء أثر اختلاف القراء في اختلاف الفقهاء في الأحكام، ولم أرد من النماذج التي عرضتها استيعاب الخلاف، ولا حصر المواضع التي وقع فيها الاختلاف بسبب اختلاف القراء وتعدد القراءات، فذلك موضوعٌ واسعٌ يحتاج إلى دراسةٍ أرجو الله أن يوفقني فيما يستقبل إلى الإسهام في إنمائها وجمع مادتها خدمةً لهذا القرآن الذي سعدت بأن عشت في رحابه منذ تفتحت عيني على الدنيا، مستظهراً لآياته وقارئاً ومتدبرا، وسعدت مرة ثانية بتقديم هذا البحث المتواضع فيه، والذي علم الله أني أجهدت نفسي فيه إجهاداً لا يكافئه إلا ما أحس به من نشوةٍ واغتباط، لأني أديت بقدر المستطاع رسالتي في تنمية الدراسة القرآنية في موضوع قلَّ في بلدنا من عاد يهتم به من الباحثين. والله المستعان. وعليه التكلان.

عبدالهادي بن عبدالله حميتو.

الرباط في يوم الخميس مستهل جمادى الثانية عام ١٤٠٠هـ

الموافق للسابع عشر من شهر ابريل عام ١٩٨٠م.

# قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في البحث


١- القرآن الكريم بترقيم آياته حسب رواية ورش وقراءة نافع

٢- فضائل القرآن للحافظ ابن كثير منشور بذيل الجزء السابع من تفسيره الطبعة ٢ : ٠٠٠٠ - ١٩٧٠ دار الفكر ببيروت

٣- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق السيد أحمد صقر - دار أحياء الكتب العربية ١٣٧٣ - ١٩٥٤

٤- الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٨ - ١٩٣٩

٥- الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر بأسفل صفحات الإصابة لابن حجر الطبعة المذكورة

٦- عيون الأثر في فنون المغازي والسير لابن سيد الناس الطبعة ٣ دار الجليل - لبنان - ١٩٧٤

٧- الكشاف عن حقائق التنزيل للزمخشري طبعة مصطفى الحلبي البابي ١٣٨٧-١٩٦٨

٨- حلية الأولياء لأبي نعيم الطبعة ٢ دار الكتاب العربي ببيروت ١٣٨٧-١٩٦٧

٩- سنن أبي داود الطبعة الأولى مصطفى البابي الحلبي ١٣٧١

١٠- جامع الترمذي بشرح ابن العربي المسمى عارضة الأحوذي - مطبعة الصاوي ١٣٥٢

١١- السيرة النبوية لابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد طبع دار المعرفة ببيروت ١٣٩٥-١٩٧٦

١٢- البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة ١ دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٦-١٩٥٧

١٣- صحيح البخاري وفتح الباري لابن حجر طبعة البابي الحلبي ١٣٧٨-١٩٥٩

١٤- الخطط الكبرى للمقريزي طبعة القاهرة ١٢٧٠

١٥- الطبقات الكبرى لابن سعد طبعة دار صادر بيروت

١٦- تذكرة الحفاظ للذهبي الطبعة الرابعة دار إحياء التراث العربي بيروت

١٧- أحكام القرآن للقاضي أبي بكر بن العربي تحقيق علي محمد البجاوي الطبعة ١ دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٦-١٩٥٧

١٨- سيرة ابن هشام (تهذيب سيرة ابن إسحاق) الطبعة ٢ بتحقيق مصطفى السقا وزميليه

١٩- العبر في خبر من عبر للذهبي تحقيق صلاح الدين المنجد طبعة الكويت

٢٠- عمدة القاري على صحيح البخاري للعيني دار الطباعة المنيرية

٢١- تفسير الحافظ ابن كثير الطبعة ٢ دار الفكر ١٣٨٩-١٩٧٠

٢٢- مناهل العرفان لمحمد عبدالعظيم الزرقاني طبعة دار إحياء التراث العربي عيسى البابي وشركاه

٢٣- تاريخ بغداد للخطيب طبع مكتبة الخانجي والمكتبة العربية ببغداد والسعادة بمصر ١٩٣٠

٢٤- الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم مطبعة الإمام بمصر

٢٥- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي المطبعة الإسلامية بطهران ١٣٧٧

٢٦- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة ١ مطبعة المشهد الحسن ١٣٨٧-١٩٦٧

٢٧- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي الطبعة الأولى - دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٥١-١٩٣٣

٢٨- النشر في القراءات العشر لابن الجزري طبعة المكتبة التجارية بمصر
٢٩- المصاحف لابن أبي داود الطبعة الأولى المطبعة الرحمانية بمصر بإشراف أثر جيفري
٣٠- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي الطبعة ٧- ١٣٨١-١٩٦١
٣١- مقدمتان في التفسير نشر أثر جيفري
٣٢- المصنف الكبير للحافظ عبدالرزاق نشر المجلس العلمي بسملك بالهند وتحقيق حبيب الرحمن الأعظمي الطبعة ١- ١٣٩٠-١٩٧٠
٣٣- البيان في غريب إعراب القرآن لأبي البركات الأنباري تحقيق الدكتور طه عبدالحميد طه ومراجعة مصطفى السقا دار الكتاب العربي ١٣٨٩-١٩٦٩
٣٤- ضحى الإسلام لأحمد أمين مكتبة النهضة المصرية الطبعة السادسة ١٩٥٦
٣٥- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي طبعة الدار التونسية للنشر
٣٦- جامع بيان العلم وفضله للحافظ ابن عبدالبر طبعة دار الفكر بلبنان
٣٧- رسائل ابن تيمية مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بمصر
٣٨- إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر للشيخ الدمياطي البنا مطبعة عبدالعزيز خان ١٣٨٥
٣٩- تيسير الوصول إلى جامع الأصول لابن الديبع مطبعة البابي الحلبي ١٣٥٢
٤٠- جامع البيان عن تفسير آي القرآن لابن جرير الطبري الطبعة ٢ مطبعة البابي ١٣٧٣-١٩٥٤
٤١- مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي المطبعة البهية المصرية الطبعة ١ ١٣٣٣-١٩١٤

٤٢- التفسير القيم لابن القيم تحقيق محمد حامد الفقي مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٨-١٩٤٩

٤٣- العواصم من القواصم لابن العربي الطبعة ١ بتصحيح عبد الحميد بن باديس المطبعة الجزائرية بقسنطينة ١٣٧٨

٤٤- نيل الأوطار في شرح منتقى الأخبار لمحمد بن علي الشوكاني الطبعة ٢ مطبعة البابي الحلبي ١٣٨٠-١٩٦١

٤٥- الموطأ للإمام مالك بن أنس تصحيح محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٠

٤٦- الحاوي للفتاوى للسيوطي طبعة مكتبة القدسي

٤٧- سنن الدارمي المطبعة الحديثة بدمشق ١٣٤٩

٤٨- التبيان في تفسير القرآن لأبي جعفر الطوسي المطبعة العلمية بالنجف ١٣٧٦-١٩٥٧

٤٩- المدخل إلى كتاب البيان لأبي القاسم الموسوي الخوئي الطبعة ٢ مطبعة الآداب بالنجف

٥٠- البحر المحيط لأبي حيان الغرناطي طبعة السعادة بمصر الطبعة الأولى ١٣٢٨

٥١- صحيح الإمام مسلم بشرح النووي الطبعة الأولى المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٤٧-١٩٢٩

٥٢- السنن الكبرى للبيهقي طبعة دار صادر بيروت

٥٣- تقييد العلم للخطيب البغدادي تحقيق يوسف العش طبعة دمشق ١٩٤٩

٥٤- أبو علي الفارسي حياته ومكانته بين أئمة العربية وآثاره في القراءة والنحو للدكتور عبد الفتاح شلبي - مطبعة نهضة مصر ١٣٧٧-١٩٥٨.

٥٥- المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز لأبي محمد بن عطية تحقيق

المجلس العلمي بفاس ونشر الأوقاف المغربية ١٣٩٥- ١٩٧٥. ( الأجزاء المحققة).
٥٦- نيل المرام في تفسير آيات الأحكام لمحمد صديق حسن خان الطبعة ٢ المكتبة التجارية ١٩٦٣.
٥٧- المنتقى من أخبار المصطفى لابن تيمية الطبعة ٢ دار الفكر لبنان ١٣٩٣-١٩٥٤.
٥٨- مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية الطبعة ٣ القاهرة ١٣٩٧-١٩٧٧.
٥٩- البداية والنهاية لابن كثير طبعة القاهرة ١٩٥٨.
٦٠- مقدمة ابن خلدون طبع المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.
٦١- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للذهبي تحقيق محمد سيد جاد الحق الطبعة ١ دار الكتب الحديثة.
٦٢- حل مشكلات القرآن في غريب أسئلة التبيان لمحمد بن أبي بكر الرازي مطبوع بهامش إملاء ما من به الرحمن للعكبري المطبعة الميمنية.
٦٣- أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي للدكتور عفيف دمشقية الطبعة ١ بيروت ١٩٧٨.
٦٤- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين لأبي البركات الأنباري مطبعة الاستقامة ١٩٤٥.
٦٥- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لناصر الدين ابن المنير مطبوع بأسفل الكشاف مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٧-١٩٦٨.
٦٦- الباعث الحثيث على معرفة علوم الحديث لابن كثير تقديم أحمد محمد شاكر دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
٦٧- التقييد والإيضاح في شرح مقدمة ابن الصلاح للحافظ العراقي تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان الطبعة ١ المطبعة السلفية بالمدينة ١٣٨٩-١٩٦٩.

٦٨- متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار الهمداني تحقيق الدكتور عدنان زرزور- دار التراث القاهرة.

٦٩- أحكام القرآن للشافعي جمع أبي بكر البيهقي الطبعة ١ نشر غزة العطار ١٣٧١-١٩٥١.

٧٠- مجاز القرآن لأبي عبيدة الطبعة ١ مطبعة محمد سامي الخانجي بمصر ١٩٦٢- ١٣٨١.

٧١- منجد المقرئين و مرشد الطالبين لابن الجزري نشر مكتبة القدسي.

٧٢- التمهيد لابن عبد البر ( الأجزاء الستة الأولى) المطبعة الملكية بالرباط.

٧٣- مختصر في شواذ القراءات من كتاب البديع لابن خالويه بتحقيق برجستراسر المطبعة الرحمانية بمصر القاهرة ١٩٣٤.

٧٤- المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية لابن حجر العسقلاني تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي .

٧٥- المستدرك على الصحيحين للحاكم طبعة دار الفكر بيروت.

٧٦- طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي تحقيق الدكتور إحسان عباس دار الرائد العربي ١٩٧٠ بيروت.

٧٧- المدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف الطبعة ٢ دار المعارف بمصر.

٧٨- الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري تحقيق عبد المنعم عامر والدكتور جمال الدين الشيال الطبعة الأولى دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٩٦٠.

٧٩- المزهر في اللغة للسيوطي طبعة الحلبي.

٨٠- البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون الطبعة ٢ مطبعة لجنة التأليف والنشر بمصر.

٨١- بغية الوعاة للسيوطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة ١ مطبعة عيسى الحلبي.

٨٢- سنن ابن ماجه تحقيق الدكتور محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٢.

٨٣- الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي مطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة.
٨٤- محاسن التأويل لجمال الدين القاسمي الطبعة ١ دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٥٧.
٨٥- طبقات المفسرين للداودي تحقيق معاني محمد عمر مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية نشر مكتبة وهبة بالقاهرة.
٨٦- وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق الدكتور إحسان عباس دار الثقافة بيروت ١٩٧٠.
٨٧- كتاب القرطين لابن مطرف الكناني الطبعة ١ مطبعة الخانجي بمصر ١٣٥٥.
٨٨- المعارف لابن قتيبة تحقيق الدكتور ثروت عكاشة الطبعة ٢ دار المعارف بمصر ١٩٦٩.
٨٩- الفوائد في مشكل القرآن لعز الدين ابن عبد السلام تحقيق الدكتور سيد رضوان على الندوي المطبعة القصرية بالكويت ١٣٨٧-١٩٦٧.
٩٠- المغني لابن قدامة الطبعة ٣ دار المنار ١٣٦٧.
٩١- التبيان في آداب حملة القرآن للإمام النووي الطبعة الثانية دار الفكر ١٣٩٤-١٩٧٤.
٩٢- الكامل في اللغة والآدب للمبرد نشر مكتبة المعارف ببيروت.
٩٣- مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح الطبعة ٩ نشر دار العلم للملايين.
٩٤- النجوم الطوالع على الدرر اللوامع للمارغني طبع دار الطباعة الحديثة بالدار البيضاء.
٩٥- القول الأجلى في كون البسملة من القرآن أو لا للمؤلف المذكور منشور بهامش النجوم الطوالع.
٩٦- منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه للدكتور مصطفى الصاوي الجويني دار المعارف بمصر.

٩٧- الحجة في القراءات السبع لابن خالويه تحقيق الدكتور سالم عبد العال مكرم الطبعة ٢ نشر دار الشروق ١٣٩٧- ١٩٧٧.

٩٨- علوم التفسير للدكتور عبد الله محمود شحاتة سلسلة المكتبة الثقافية رقم العدد ٣١٦ سنة ١٩٧٥.

٩٩- مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن للدكتور محمد عبد الله دراز دار القلم الكويت ودار القرآن بها الطبعة الاولى ١٣٩١- ١٩٧١.

١٠٠- تاريخ دمشق لابن عساكر تحقيق صلاح الدين المنجد مطبعة المجمع العلمي بدمشق ١٩٥١.

١٠١- الكامل في التاريخ لابن الأثير / طبع دار الكتلب العربي: ١٣٨٧- ١٩٦٧.

١٠٢- دفاع عن القراءات المتواترة في مواجهة الطبري المفسر للدكتور لبيب السعيد دار المعارف ١٩٧٨.

١٠٣- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي طبع بإدارة المعارف بالرباط وكمل طبعه بمطبعة البلدية بفاس سنة ١٣٤٥.

١٠٤- المحكم في نقط المصاحف لأبي عمرو الداني تحقيق الدكتور عزة حسن طبعة وزارة الأوقاف السورية بدمشق ١٣٧٩-١٩٦٠.

١٠٥- المقنع في رسم مصاحف الأمصار للداني طبع باسطنبول بعناية اوتو برتزل سنة ١٩٣٢.

١٠٦- الاشتقاق لأبي بكر بن دريد تحقيق عبد السلام هارون نشر مؤسسة الخانجي ١٣٧٨-١٩٥٨.

١٠٧- دراسات في القرآن للدكتور السيد أحمد خليل طبعة دار النهضة بيروت ١٩٦٩.

١٠٨- هدية العارفين في أسماء المؤلفين لإسماعيل باشا البغدادي مكتبة المثنى ببغداد عن طبعة ١٩٥٠.

١٠٩- المدهش لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي نشر دار مروان للطبع والنشر ١٩٧٣.
١١٠- الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة تحقيق الدكتور طه محمد الزيني طبعة مؤسسة الحلبي.
١١١- العقل وفهم القرآن للحارث المحاسبي تحقيق حسن القوتلي الطبعة ١ دار الفكر ١٣٩١-١٩٧٠.
١١٢- الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة للزركشي تحقيق سعيد الأفغاني الطبعة ٢ نشر المكتب الاسلامي ١٣٩٠-١٩٧٠.
١١٣- إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن للعكبري طبعة مصورة عن المطبعة الميمنية بمصر ١٣٢١.
١١٤- القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية للدكتور سالم عبد العال مكرم طبعة دار المعارف بمصر.
١١٥- كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة منشورات مكتبة المثنى ببغداد.
١١٦- إتحاف البررة بالمتون العشرة مجموع يشتمل على الشاطبية وطيبة النشر وغيرهما مطبعة الحلبي.
١١٧- معجم البلدان لياقوت الحموي طبعة دار صادر بيروت.
١١٨- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي الطبعة ١ المكتبة التجارية بمصر.
١١٩- سراج القارئ المبتدئ على الشاطبية لابن القاصح طبع بمطبعة التوفيق بمصر ١٣٤١.
١٢٠- غيث النفع في القراءات السبع لعلي النوري الصفاقسي مطبوع بهامش سراج القارئ.
١٢١- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي المطبعة الشرقية بمصر ١٣٢٧.

١٢٢- المقاصد النامية في شرح الدالية لأبي زيد عبد الرحمن بن إدريس المنجرة في تحقيق الهمز لحمزة وهشام وهو شرح لدالية الفقيه محمد بن مبارك السجلماسي .م.خ.ع حرف د رقم ٢٤٦٥.

١٢٣- إنشاد الشريد من ضوال القصيد للشيخ ابن غازي م.خ.ع. بالرباط حرف د رقم ١٣٠٣.

١٢٤- التكملة لابن الأبار طبعة عزة العطار سنة ١٩٥٥.

١٢٥- الصلة لابن بشكوال طبعة عزة العطار ١٣٧٤-١٩٥٥.

١٢٦- فتوح البلدان للبلاذري مراجعة محمد رضوان مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩.

١٢٧- فهرسة ماروى عن شيوخه أبو بكر بن خير الإشبيلي طبع مركز الموسوعات العالمية ببيروت الطبعة ٢ سنة ١٣٨٢-١٩٦٣.

١٢٨- جمع الجوامع لابن السبكي منشور في مجموع مهمات المتون الطبعة ٤ مطبعة مصطفى البابي ١٣٦٩-١٩٤٩.

١٢٩- معجم مفردات القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق نديم موعشلي طبعة دار الكاتب العربي ١٩٧٢.

١٣٠- لسان العرب لابن منظور طبع دار لسان العرب بيروت.

١٣١- الأم للإمام الشافعي تصحيح محمد زهري دار المعرفة للطباعة والنشر الطبعة ٢ ١٣٩٣-١٩٧٣.

١٣٢- الإحكام في أصول الأحكام لسيف الدين الآمدي مطبعة المعارف بمصر ١٣٣٢-١٩١٤.

١٣٣- المنتقى في شرح موطأ مالك بن أنس لأبي الوليد الباجي الطبعة ١ السعادة بمصر ١٣٣١.

١٣٤- الإيضاح عن معاني الصحاح تأليف الوزير عون الدين أبي المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الحنبلي في الفقه الحنبلي المطبعة العلمية بحلب الطبعة ١ ١٣٤٧-١٩٢٨.

١٣٥- إعراب القرآن المنسوب للزجاج تحقيق ودراسة إبراهيم الأبياري نشر وزارة الثقافة بمصر ١٩٦٣.
١٣٦- المحلى لأن حزم مطبعة النهضة بمصر ١٣٤٧.
١٣٧- الإقناع في فقه أحمد بن حنبل تأليف قاضي دمشق شرف الدين موسى الحجامي المطبعة المصرية بالازهر.
١٣٨- حاشية الشيخ محمد بن الحسن البناني على هامش الزرقاني على مختصر خليل . طبعة قديمة.
١٣٩- الروض الأنف للسهيلي مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣٢-١٩١٤.
١٤٠- الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي الطبعة الأولى مطبعة السعادة.
١٤١- مرآة الجنان وعبرة اليقظان لأبي محمد اليافعي اليمني الطبعة ٢ مؤسسة الاعلمي لبنان ١٣٩٠-١٩٧٠.
١٤٢- بداية المجتهد ونهاية المقتصد لأبي الوليد بن رشد ( الحفيد) طبعة دار الفكر ( مصورة).
١٤٣- الفهرست لابن النديم مطبعة الاستقامة بالقاهرة.
١٤٤- سنن النسائي الطبعة الأولى المكتبة التجارية بمصر ١٢٢٨-١٩٣٠.
١٤٥- تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا الطبعة ٤ دار المنار بمصر ١٣٧٣-١٩٥٤.
١٤٦- تفسير غريب القرآن لابن قتيبة تحقيق السيد أحمد صقر دار احياء الكتب العربية ١٣٧٨-١٩٥٨.
١٤٧- مقدمات ابن رشد مطبوع بالأوفست بدار صادر ببيروت عن الطبعة الأولى بدار السعادة بمصر.
١٤٨- تبيين الحقائق في شرح كنز الدقائق لفخر الدين الزيلعي الحنفي الطبعة ٢ دار المعرفة ببيروت.
١٤٩- تهذيب التهذيب لابن حجر طبعة دار صادر ببيروت.
١٥٠- غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين القمي النيسابوري طبع سنة ١٢٨٠ غير مسمى مكان الطبع.

١٥١- فتح القدير الجامع فنى الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني الطبعة ١ مطبعة مصطفى البابي.
١٥٢- معاني القرآن للفراء تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار . طبع دار الكتب المصرية ١٩٥٥.
١٥٣- الاقتراح في أصول النحو للسيوطي طبعة حيدر أباد.
١٥٤- تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان الطبعة ٣ دار العلم للملايين ١٩٦٠.
١٥٥- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام نشر المكتبة التجارية بمصر مطبعة المدني بالقاهرة.
١٥٦- التبصير في الدين لأبي المظفر الأسفرايني تحقيق محمد زاهد الكوثري طبع مكتبة الخانجي ١٣٧٤.
١٥٧- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد بن مخلوف المطبعة السلفية ١٣٤٩.
١٥٨- مراتب النحويين لأبي الطيب عبد الواحد بن علي الحلبي اللغوي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة ٢ مطبعة نهضة مصر ١٣٩٤-١٩٧٤.
١٥٩- السيرة الحلبية لعلي بن برهان الحلبي طبعة الحلبي بمصر ١٣٤٩.
١٦٠- رسالة في اختلاف القراء والمقدم منه في الأداء للشيخ محمد بن يالوشة التونسي بهامش النجوم الطوالع على الدرر اللوامع طبع إدارة الطباعة الحديثة بالدار البيضاء.
١٦١- تاريخ الامم والملوك للطبري طبعة دار احياء التراث العربي ببيروت.
١٦٢- مسند الإمام احمد المطبعة الميمنية سنة ١٣٠٦.
١٦٣- الارجوزة المنبهة على أسماء القراء والرواة وأصول القراءات للداني م. خ . ع بالرباط رقم ٢١٨٦.
١٦٤- مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية المجلد ٥ الطبعة ١ مطابع الرياض ١٣٨١.

١٦٥- تاريخ قضاة الاندلس لأبي الحسن البناهي نشر المكتب التجاري ببيروت.
١٦٦- غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري طبع مكتبة الخانجي١٣٥٢-١٩٣٣.
١٦٧- ترتيب المدارك للقاضي عياض نشر وزارة الاوقاف المغربية مطبعة المحمدية.
١٦٨- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد نشر المكتب التجاري للطباعة وللنشر ببيروت.
١٦٩- كتاب الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة لابن قتيبة مطبعة السعادة بمصر ١٣٤٩.
١٧٠- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني الطبعة الاولى السعادة بمصر ١٣٤٨.
١٧١- طبقات الشافعية لابن السبكي تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو- الطاجي الطبعة ١ عيسى البابي الحلبي ١٣٨٨-١٩٦٨.
١٧٢- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الطبعة ٣ دار الشرق ١٩٧٢.
١٧٣- الديباج المذهب لابن فرحون الطبعة ١ الفاسية بالمطبعة الجديدة بامر المولى عبد العزيز.
١٧٤- تفسير النصوص في الفقه الاسلامي للدكتور محمد اديب صالح الطبعة ١ جامعة دمشق ١٣٨٤-١٩٦٤.
١٧٥- المنطلقات التاسيسية والفنية إلى النحو العربي للدكتور عفيف دمشقية بيروت ١٩٧٨ معهد الانماء العربي.
١٧٦- معالم الاهتداء إلى معرفة الوقف والابتداء للحصري مطبوع بمصر.
١٧٧- الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض طبع دار الكتب العربية الكبرى بمصر مطبعة البابي.
١٧٨- الفصل في الملل والاهواء والنحل لابن حزم الطبعة ٢ طبع دار المعرفة بلبنان ١٣٩٥-١٩٧٥.

١٧٩- الـوافي بالوفيات للصفدي الطبعة ٢ باعتناء هلموت ريتر ١٣٨١-١٩٦١.
١٨٠- إبراز المعاني من حرز الاماني لأبي شامة مطبعة مصطفى الحلبي بمصر ١٣٤٩.
١٨١- الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس الطبعة ١ مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٣.
١٨٢- الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام هارون القاهرة ١٩٧١.
١٨٣- الإشـراف على مسائل الخلاف للقاضي عبد الوهاب نشر مطبعة الارادة.
١٨٤- مسائل أبي الوليد بن رشد رسالة دبلوم بدار الحديث الحسنية قدمها السيد محمد الحبيب التجكاني - الرباط - المغرب.
١٨٥- موطا محمد بن الحسن الشيباني تعليق عبد الوهاب عبد اللطيف طبعة القاهرة ١٣٨٧-١٩٦٧.

فهرس الموضوعات